مصر في الأسَاطير العَربيّة

عمرو عبد العزيز منير



مصر في الأساطير العربيّة

ومصر طوال تاريخها القديم بهرت الإغريق، وتودَّد الإسكندر الأكبر إلى شعبها حين زعم أنه ابن الإله آمون، وتبنى البطالمة الديانة المصرية القديمة بكل ما تحمله من أساطير، وذابت السلالة البطلمية وتمصرت وصارت ثقافتها هي ثقافة كل المصريين. وحين جاء الإسلام، تصحبه اللغة العربية، امتزج ما جاء به الإسلام بتراث مصر العريق. ولم يتنكر العلماء والباحثون المسلمون لتراث مصر القديم -كما يفعل بعض السفهاء اليوم بزعم أنه تراث وثني- وإنما انبهروا به وتبنوه، وأظهروا إعجابهم بالحضارة المصرية القديمة ونسجوا حولها الأساطير التي أضافوها إلى رصيد مصر الثقافي، ولأن الأساطير تحمل الذاكرة الاجتماعية، وتعبِّر عن العقلية التي صاغتها فقد كان طبيعيًا أن نجد في الأساطير العربية التي حملتها كتب المؤرخين المسلمين أصداء تتعلق بأرض مصر، ونيلها وأصول شعبها، ورؤية المصريين لأنفسهم.. وما إلى ذلك.

ومن هنا تأتي أهمية الدراسة التي يقدمها الدكتور عمرو عبد العزيز منير في هذا الكتاب، وهي بالتأكيد الدراسة الأولى التي بحثت في منطقة الحدود بين التاريخ والموروث الشعبي. وفي هذه الدراسة يقارن الدكتور عمرو بين القراءة الأكاديمية العلمية للتاريخ والقراءة الشعبية للتاريخ. وفي هذه الدراسة الفريدة في بابها أظهر الدكتور عمرو موهبة وقدرة تنبئ بباحث واعد في مجال لا يزال جديدًا إلى درجة البكارة.

غلاف: عبد الرحمن الصواف



مصر في الأساطير العربية

دراسة في كتابات الرحالة والمؤرخين المسلمين

المجلس الأعلى للثقافة

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

منير ، عمرو عبد العزيز منير
مصر فى الإساطير العربية : دراسة فى كتابات الرحالة والمؤرخين المسلمين / عمرو عبد العزيز منير
القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة ، ط ١، ٢٠١٦
٤٧٦ ص؛ ٢٤ سم
١- مصر - وصف الرحلات
٢- الأساطير التاريخية.
(أ) العنوان ٩١٦,٢

رقم الإيداع ٢٠١٦/٢٧٩٧
الترقيم الدولى : 0 - 0938 - 92 - 977 - 978
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٢٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٢٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo
Tel. : 27352396 Fax : 27358084.
www.scc.gov.eg

المجلس الأعلى للثقافة

مصر
في الأساطير العربية

دراسة في كتابات الرحالة والمؤرخين المسلمين

عمرو عبد العزيز منير



2016

المحتويات

قبل أن تقرأ..
فاضل الربيعي

إن التعرّف إلى عالَم العرب القديم (أي عالمنا الثقافي الذي نرغب في دراسته) بشكل منهجي، ومنظَّم، قد لا يكون ممكنًا دون عمل دراسي دؤوب، يعيد بناء فكرتنا عن قيمة وأهمية هذا الخزان اللغوي والشعري والإخباري الهائل الذي تركه لنا القدماء. إن **الأنثروبولوجيا العربية الجديدة** التي ندعو إلى إعلان قيامها، وتأسيسها والشروع في وضع خططها الدراسية، تقوم على ثلاثة مرتكزات كبرى: **قواميس اللغة، والشعر الجاهلي، والمرويات الإخبارية**. وفي هذا الخزان العظيم، بمرتكزاته الثلاثة، معارفُ لم نتمكن بعدُ من فهمها بعمق كافٍ، وثقافة قوية لم يتسنَّ لنا بعدُ تَعَرُّف طبيعة قوتها وسحرها الخفيّ، ولا طاقتها المتفرّدة على الاستمرار بقوة زخم مدهشة. انطلاقًا من هذه الفكرة، يمكنني أن أقرأ بمتعة خاصّة مؤلَّفات د.عمرو منير، وأن أرى فيها تطويرًا منهجيًّا خلّاقًا لفكرتي عن المدرسة الأنثروبولوجية العربية الجديدة، وبشكل أخصَّ وأكثر تحديدًا، يمكنني أن أرى في مؤلَّفه هذا -وهو يقرأ بعمق وذكاء مرويات الإخباريين الكلاسيكيين عن مصر- نقلةً نوعية تقطع كليًّا مع المدرسة التقليدية، فهو يحلل بجرأة ونباهة ودون ازدراء كلَّ شاردة وواردة في نصوص الإخباريين، **وكيف يجب أن نقرأ المرويات الإخبارية القديمة، دون أن نبدي أكبر قدر ممكن من التفهم لأشكال السرد القديم؟ أي السرد الذي يمزج، بسبب قوة التقاليد الثقافية، بين الأسطوري والتاريخي؟** ما يقوم به د.عمرو منير هو في صميم هذا العمل.

تبدو إشكالية التاريخي والأسطوري في ثقافتنا العربية المعاصرة، كأنها إشكالية ثقافية خاصة بنا -نحن العرب- وحدنا دون سائر الأمم، وأننا -وحدنا- من يخلط التاريخي بالأسطوري في الروايات القديمة، ويفشل في التمييز بين بِنَى ومستويات السرد التقليدي، وهذا محض انطباع خاطئ. الأمر يتعلق من وجهة نظرنا بإخفاق مناهج

وأدوات المدرسة الأنثروبولوجية القديمة التي اعتمدناها في دراسة ثقافتنا القديمة، وفشلها في تقديم حلول عملية لهذه الإشكالية، فعندما كان **جيمس فريزر** يضع الخطوط الأولى لكتابه الأهمّ في الأنثروبولوجيا ويخطّ عنوانه المثير **"الغصن الذهبي"** في أثناء دراسته الميدانية لأحوال القبائل البُدائية وتاريخها في **غينيا الجديدة**، واجه صعوبة لا تُصَدَّق عند محاولته إقناع البُدائيين، حَسَبَ الوصف الشائع آنذاك، بأن يرْوُوا له شيئًا من تاريخهم القديم. لقد كانوا يقومون برواية **أسطورة** من أساطيرهم في كل مرة يطلب فيها منهم رواية **التاريخ**. إن افتقارهم إلى القدرة على التمييز بين **التاريخ والأسطورة**، لا يتعلق بانعدام معارفهم أو بجهلهم المطبق بالفروق بين الكلمتين، بل لأنهم صاغوا مفهومًا موحّدًا يجعل منهما شيئًا متماثلًا. كما أن المبنى اللغوي والوظيفي لكلمتَي *Historia* (أسطورة) و*History* **(تاريخ) وفي العربية أسطورة،** قد يجعل من هذا التطابق لغزًا محيّرًا غير قابل للتفكيك، فالتاريخ يتماهى باستمرار مع الأساطير في جميع المجتمعات القديمة، وهما معًا يشكّلان بنية متشابكة السطوح، يختلط فيها ما هو ديني بما هو تاريخي. والعرب القدماء في طفولتهم البعيدة -شأنهم شأن كل الجماعات البشرية الأخرى- كانوا يملكون مثل هذا المفهوم الموحّد، بحيث تبدو إحدى الكلمتين دالّة على الأخرى. لقد نظر الاستشراق إلى تاريخ العرب استنادًا إلى هذا التماثل، ولكن بوصفه دليلًا على ما يزعم أنه بُدائية العرب، وافتقارهم إلى القدرة على التمييز بين المفهومَين، وعلى أن معارفهم عن الحياة والكون والموت والميلاد، ليست أكثر من قصص ظريفة وحكايات لا تبدو عميقة بما فيه الكفاية، فقد جرى باطّراد نفي مُمنهَج لوجود أساطير عند العرب في الجاهلية، وشاعت في الدراسات التاريخية الغربية، فكرة زائفة مفادها أن العرب لا يمتلكون

ميثولوجيا خاصة بهم بالمعنى الدقيق للمفهوم، وأنهم كانوا يروون القصص والحكايات، عندما يُطلَب منهم أن يسردوا تاريخهم القديم. بيد أن العرب وكما برهنّا في مناسبات مختلفة، كانوا على العكس من ذلك، يمتلكون خزينًا هائلًا من الميثولوجيا، يتضمن تصوراتهم وأفكارهم عن العالم والحياة والموت والخصب والعادات الاجتماعية. وفي هذا الإطار، فمن النادر رؤية دراسات رصينة لأساطير العرب الخاصة **بالزواج المقدس**، سواء عند المستشرقين أو عند تلامذتهم من الدارسين العرب المعاصرين. وقد يكون أمرًا مفاجئًا لأتباع المدرسة الاستشراقية التي لا تزال مهيمنة وسائدة في الثقافة العربية، أن يشاهدوا محاولات عربية جريئة، تصدر من هنا وهناك، لاقتحام أسوار مدرستهم وتحدِّيها بتقديم منظور جديد، يُعِيد رواية تاريخ العرب بصوته الخاص لا بصوت المستشرقين. إننا نرى في **أساطير الحب الأبدي** عند العرب، والقصص الشعبي كذلك -كما نراها اليوم في الريف- نوعًا من استطراد ثقافي في تقاليد دارت في المحور ذاته، وهي تروي -فضلًا عن هذا الجانب القصصي- جانبًا منسيًّا من التصوُّرات المركزية عن نظرة العرب إلى **المرأة**، وبشكل أخصّ فكرتهم عن **عبادة إلهة الخصب** القديمة، والظروف التي بزغت فيها تقاليد **الزواج المقدس**. إن الدراسات التاريخية التي وضعها المستشرقون الغربيُّون وفيها إشارات عارضة لأساطير العرب، وكذلك بعض الدراسات التي وضعها مؤرِّخون وباحثون عرب، ساروا على خُطاهم بطاعة شبه عمياء ومفتقرة إلى أي حسّ نقدي، أدّت في بعض الحالات وبصورة منتظمة إلى تدمير رسالتها الرمزية. وفي حالات أخرى إلى تدميرها كلِّيًّا، وبحيث جرى التعامل مع التصوُّرات المركزية عن **المرأة وأنماط الزواج القديمة عند عرب الجاهلية**، كما لو أنها مجرَّد أفكار بدائية لجماعة بشرية لم تكُن تمتلك معارف حقيقية. والمثير للدهشة

أن المستشرقين الغربيين ظلوا يقلّلون من شأن العرب في طفولتهم البعيدة، حتى وهم يكتشفون أن الخزّان الثقافي القديم كان يطفح بالأساطير الشائقة. كما جرى الإلحاح على فكرة زائفة أخرى تقول إن العرب كانوا يمتلكون بدلًا من الميثولوجيا، قصصًا وحكايات طريفة مبعثرة وغير ذات معنى، ولا ترقى إلى مستوى الأساطير بالمفهوم العلمي، وأن مروياتهم الإخبارية لا تتخطى عتبة المرويات الخرافية. لقد كان الغرض من إشاعة هذه النظرات غير الْمُتبصِّرة وباستمرار، إنشاء تمايُزات زائفة بين المجتمعات الإنسانية، تقوم على فرضيّات لا قيمة علمية لها. إن إعادة بناء المروية العربية من جديد، قد يكون مفتاحًا ذهبيًّا في وعي التاريخ القديم للعرب. إن الجهاز السردي للأسطورة، أي أسطورة ومهما كانت قيمتها، يقوم برواية جزء منسيّ من ماضي ومعتقدات الجماعة البشرية التي امتلكتها أو روتها.

وهذه هي إحدى أهم الوظائف التي نهض بها السرد التاريخي (الإخباري) العربي، كما تمثّله تجارب الطبري ووهب بن منبه والأزرقي وابن الأثير وسواهم. وبهذا المعنى فإن الأسطورة لا تروي لنا جزءًا منسيًّا من معارف العرب فحسب، وإنما تقوم كذلك برواية تاريخهم المنسيّ (الشفهي) أيضًا. إنّ بِنَى السرد الإخباري التقليدية، تستحقّ أن تعامَل بطريقة لائقة، وأكثر حساسيّة وانسجامًا مع منطق السرد القديم وتقاليده، لأن رواة الأخبار لا يروون تاريخًا صافيًا يمكن استخدامه كمادة علمية، بل ويقومون برواية الأساطير كذلك. وبهذا المعنى، فإن راوي التاريخ القديم هو راوٍ للأساطير أيضًا، لأنه يشبك النص التاريخي مع بنية الأسطورة، ويقدمهما على أنهما تاريخ حقيقي. وسأعطي المثال التالي لتوضيح الفكرة: عندما يروي الطبري (تاريخ الرسل والملوك) خبر الحصار الذي فرضه سابور ذو الأكتاف على مدينة الحضر

العراقية (شمال) فإنه لا يروي شيئًا من التاريخ، مع أنه -كما ارتأى المستشرق الألماني نولدكه- اعتمد على مصادر فارسية في كتابة تاريخ الدولة الفارسية، وصراعاتها مع القبائل العربية، وإنما يروي في الآن ذاته أساطير، تختلط مع المرويات، بحيث ينتابنا شعور طاغٍ بأنه يكتب تاريخًا مؤسطرًا، غرائبيًا، تأخذ فيه البطولات البشرية بُعدًا سحريًّا. وكثيرون من القراء ممن نصادفهم في حياتنا اليومية، ينقلون لنا مثل هذه الأخبار على أنها تاريخ، فيما هم يخلطونها مع الأساطير نفسها التي رواها الطبري في تاريخه. ويمكننا أن نلاحظ عند تحليل نصوصه في سياق هذا الاهتمام بالتاريخ الفارسي، أنه يزعم دون أي دليل أن سابور بعد أربع سنوات من الحصار الشديد، خرج ذات يوم لتفقُّد أسوار المدينة المحاصَرة، شاهد مصادفةً ابنة ملك الحضر. كانت الفتاة خارقة الجمال، وكان هو نفسه شابًّا جميلًا. وهكذا وقعت في غرامه، ثم جرت بينهما مراسلات، فقالت له إنها يمكن أن تعطيه سرّ المدينة، وبحيث يتمكن من دخولها ببساطة، بشرط أن يتزوجها. وهكذا أيضًا، حدث ما لم يكُن متوقَّعًا، فقد أعطت النضيرة ابنة ملك الحضر سرّ المدينة (المملكة المحاصَرة) لعدوّ والدها، فدخلها منتصرًا. بيد أن سابور سرعان ما نكث بوعده وقرَّر قتل الفتاة عقابًا لها على الخيانة قائلًا إنها لما خانت والدها الملك بهذه البساطة، فيمكنها أن تخونه هو إذا ما تَزوَّجَها. في الواقع، لا يذكر التاريخ المكتوب أن سابور حاصر مملكة الحضر إلا لسنتين فقط لا لأربع سنوات، واستدل نولدكه لتأكيد ذلك ببيت من شعر الأعشى وصف الحصار وحدده بعامين. كما أن تاريخ فارس نفسه لا يعرف واقعة غرام الملك بفتاة عربية. والأصل في هذه الأسطورة يعود إلى العصر الهليني-الإغريقي، ولا علاقة لها بحملة سابور العسكرية. لقد خلط الطبري بين سطحين سرديَّين، الخبر التاريخي والأسطورة.

بهذا المعنى يتوجب علينا -من أجل قراءة صحيحة لتاريخ الطبري وسائر الإخباريين- أن نقوم بالخطوتين التاليتين:

أولًا: فصل البنية السردية التاريخية عن البنية الأسطورية.

ثانيًا: أن نقوم بمعالجة كل منهما بشكل منفصل عن الأخرى.

لقد كانت القبائل العربية في طفولتها، أو ما يُسَمَّى عادة في كتب الإخباريين العرب الكلاسيكيين "العرب العاربة البائدة"، أي التي كفَّت عن الوجود في المسرح التاريخي، مثلها مثل كل الجماعات القديمة، تمتلك نظامًا ثقافيًّا خاصًّا بها، هو مزيج من التقاليد الاجتماعية والدينية واللغوية (اللهجات المحلية المحكيَّة والطعام والزواج واللباس والسرد الأدبي للحكايات والأساطير والشعر). لذلك فمن المنطقي أن يسجِّل القصَّاصون ورواة الأخبار والشعراء وحتى فرسان القبائل في الجزيرة العربية، وبلهجاتهم الخاصة التي عُرِف بعضها بلسان حِمْيَرَ ولسان مُضَرَ، التاريخ الاجتماعي والثقافي في هذه الرقعة الجغرافية الفريدة، وأن يصوِّروا البطولات والمعارك والأحداث الجِسَام والمآسي بلغة هي مزيج من الأسطوري، المدهش والغرائبي-العجائبي، والتاريخي الصارم، بل وأن يسردوا قصص الحب والمواعظ الدينية والأساطير بوصفها التاريخ الحقيقي. في هذا الإطار وحده، يتعيّن علينا أن ننظر إلى أعمال جيل جديد من الباحثين الشباب في مصر، يقف د.عمرو عبد العزيز منير في طليعتهم، بوصفها قراءة نقدية تستحقّ الاهتمام.

كتاب في كلمة وكلمة في كتاب..

بقلم: علاء الديب

من النادر أن أقع على كتاب أكاديمي في التاريخ، يقدم لي كل هذا القدر من المتعة، ويحرك في النفس كل هذا القدر من الخيال والوطنية، والعشق لهذا البلد الساحر الجميل الذي ندوس بأقدامنا على تاريخه وجغرافيته ونحط من شأن ناسه ومستقبله.

الدكتور الشاب عمرو عبد العزيز منير أستاذ التاريخ بجامعة جنوب الوادي قدم لنا في هذا الكتاب ملحمة في حب مصر وكشف المستور في تلك العلاقة الخاصة الغامضة التي تربط أهل مصر بأرضها ومحبتهم المعقدة للأرض والتاريخ دون تعصب أو "شوفينية"، لكن في إدراك لهذا الرباط الغامض الذي يضع مصر في قلب المصريين ويضعها في أول التاريخ ومحوره. الدكتور عمرو بحث في الأساطير التي تشكل تاريخ مصر الفعلي والأسطوري في كتابات المؤرخين المسلمين (أكثر من 120 كتابًا من كتب التراث العربي القديم، و140 كتابا من كتب التاريخ المصري الذي كتبه معاصرون أو تُرجم إلى العربية، وعشرات من الكتب الأجنبية).

الباحث العاشق واحد من تلاميذ الأستاذ الدكتور قاسم عبده قاسم الذي يحلم بأن تكون دراسة تاريخ مصر القديم والوسيط (وهو تخصصه) والحديث: حركة – وليس مجرد بحث – كشف لمشكلات العصر من خلال فهم التركيب التاريخي والإنساني. يقول الدكتور قاسم في تقديم كتاب "مصر في الأساطير العربية "كلمات أحب أن أسجل سطورها الأولى التي تشير إلى نوعية الكتاب ووظيفته:

"مصر بلد عريق، قديم قِدَم الحضارة نفسها. مصر أولى خطوات التاريخ. محور الحكايات والأساطير. أعجوبة الدنيا وعجيبة الزمان. اسمها في كل الكتب المقدسة من التوراة إلى القرآن الكريم. تَغنَّى بها الإغريق والرومان. أحبها من سكنها. طمع فيها

الغزاة من الهكسوس حتى الإنجليز... بقيت مصر بوتقة تنصهر فيها الثقافات، وتلتقي فيها الأعراق. ظلت درة الدنيا ورمزًا لفجر الإنسان.

مصر التي يظلمها الآن نفر من بنيها الفاسدين المارقين، مدت يدها إلى الإنسانية بشعلة المعرفة، ومصباح العلم، حين كانت البشرية لا تزال تحبو في طفولتها. مصر التي طالما أطعمت الشعوب المجاورة تعجز الآن عن أن تنتج حاجتها من الطعام بسبب هذا النفر من بنيها الفاسدين، مصر الغنية دائمًا بما حباها الله من موارد وخيرات أفقرها الاستبداد والفساد".

عندما يكتب التاريخ فهو لا يدون تاريخ الحكام فاسدين أو صالحين. يقول الدكتور عمرو في مقدمته: التاريخ ليس تاريخ "القمم" ولكنه تاريخ "سفوح المجتمعات". التاريخ هو ما أنشاه الشعب لنفسه عن نفسه:

"وتراثنا العربي الذي وصل إلينا من عصور التألق الفكري في رحاب الحضارة العربية الإسلامية قد ضم كثيرًا من الموروث الشعبي بين صفحات الكتب التاريخية والأدبية فضلًا عن الموسوعات ودوائر المعارف، المتخمة بالأساطير والحكايات الشعبية والأحاجي والألغاز والمحاورات الفكاهية والسير والملاحم الشعبية والطرائف وما إلى ذلك، كلها فنون تنطوي على قيمة إنسانية ليس من الصواب الاستعلاء عليها، خصوصًا وقد دوَّنها لنا أعلام الثقافة العربية، ربما لأنهم كانوا من اتساع الأفق ورحابة الصدر بمكان، فلم يقيموا الحدود أو السدود بين ثقافة الخاصة وثقافة العامة، أو بين أدب الصفوة وأدب العامة".

"تهدف هذه الدراسة إلى محاولة إثارة الوعي أو قل "عودة الوعي" بتراثنا

الحضاري. وهي تصدر عن رؤية تلتمس في الماضي التفسير الشعبي للتاريخ أو ما يمكن أن نسميه (البعد الثالث) للدراسات التاريخية، أي التفسير النفسي والوجداني ورؤية الجماعة الإنسانية لذاتها وللكون والظواهر والأحداث من حولها".

الكتاب بحر زاخر أو نهر متدفق لم أقاوم المتعة والإثارة الفكرية والجمالية التي وضعني فيها خلال فصوله التسعة. العلاقة بين التاريخ والأسطورة. الأساطير والحكايات المرتبطة بأصل اسم مصر. المادة الفلكلورية التي تدور حول "فضائل مصر".

الفصل الخامس عن الأساطير والحكايات التي تتناول الدفائن والكنوز المصرية القديمة وفراعنة مصر "ورد اسم فرعون بصيغة المفرد في القرآن الكريم 74 مرة". الفصل السادس عن أساطير أصول المدن المصرية. السابع عن عمران مصر والحكايات الشعبية عن العجائب الموجودة على أرضها. الثامن عن النيل ومصادر المياه ورحلات الاستكشاف. أما الفصل الأخير فهو عن الموروث الشعبي المتعلق بالشخصية المصرية والاختلاف حول خصائصها وتضارب الآراء والتحليلات عند المؤرخين.

***

إلى جانب المتعة الحقة التي يقدمها الكتاب فهو يطرح بالطبع قضايا أساسية في الفكر الإسلامي والعربي والتاريخي. فهو يقدم دراسة مختصرة عن فكرة الأسطورة في الشرق والغرب.

ويشير إلى دخول الأساطير وحكايات الأقدمين من باب محاولات تفسير النص الديني المقدس، أما بالنسبة إلى مصر فإن عدم القدرة على فك رموز اللغة

والكتابة القديمة فتح بابًا واسعًا للخيال الذي قام بتفسير و"ترقيع" التاريخ بالحكايات والأساطير التي مثّلت خيالًا شعبيًّا دالًّا على طبيعة العقلية ونوعية التطوُّر الذي يقترب من أو يبتعد عن نظريات التاريخ وحقائقه، بل وفي أحيان يقارب المحاولات التفسيرية الحديثة للنشوء والارتقاء.

فيضان نوح حادث محوري يقدّم المادة التاريخية عند المؤرخين المسلمين حدث مفصلي بين الأسطورة والواقعة الدينية وما يقوم حولها من وقائع وأحداث حتى أنه قيل أن الهرم بناء للهروب من الطوفان.

كما أن سفر السيدة هاجر إلى أرض الحجاز مصدر من مصادر تصوير الدور المحوري التاريخي لأرض مصر وما فيها من خير وماء.

يحدثك الكتاب عن أساطير الملكة العجوز "دلوكة" التي بنت سورًا لحراسة مصر من العريش إلى أسوان. وأسرار وخبايا جبل المقطم الذي أعطى لجبل الطور عندما كلم إبراهيم ربه عليه.. كل ما كان عليه من خضرة وشجر، فخصه الله بخصائص وقيل فيه:"يا أيها الجبل المرحوم سفحك جنة، وتربتك مسك، يدفن فيك غراس الجنة أرض حافظة مطيعة رحيمة، لا خلتك يا مصر بركة". عن السيوطي، والمقريزي فهل تذكر حادث الدويقة في المقطم؟ هل هو من التاريخ أم من الأساطير؟!

دعا نوح عليه السلام لمصر بالبركة والخصب. وفي جامع عمرو بن العاص أعمدة لها خصائص سحرية تفرق بين الإنسان الخبيث والإنسان الطيب.

أما رحلة اكتشاف منابع النيل في الكتابات التاريخية فقد استوعبت القصص والأساطير الشعبية والإسلامية مع الرواسب الفرعونية، والقبطية، وبعض قصص

الإسرائيليات لتصب كلها في مجرى واحد غايته اكتشاف منبع الخير هذا واللغز الذي ظل محيرا محيرًا آلاف السنين.

يقول ابن معصوم (تُوُفِّيَ 1120هـ) في كتابه "سلوة الغريب وأسوة الأديب "عن رحلة استكشافية لمنابع النيل مليئة بالأساطير والجن والقصور المطلسمة:"إن جماعة صعدوا هذا الجبل "جبل القمر" ليحيطوا خُبْرًا بمبدأ النيل فرأوا وراءه بحرًا عجاجًا أسود كالليل يشقه نهر أبيض كالنهار وهو النيل".

يختتم الدكتور عمرو كتابه الرائع بدعاء أن يقدّره الله على أن يفتح في جدار الجهل شقًّا يدخل منه شعاع من نور كهذا الذي دخل على الحسن بن الهيثم في سجنه، فأسس عليه علمه الخالد: علم البصريات.

تقديم

مصر، بلد عريق، قديم قِدم الحضارة نفسها. ومصر أولى خُطوات التاريخ، ومحور الحكايات والأساطير، أعجوبة الدنيا وعجيبة الزمان، ورد اسمها في كل الكتب المقدسة من التوراة إلى القرآن الكريم، تغنَّى بها الإغريق والرومان، وأحبَّها مَنْ سكنها، وطمع فيها كل الغزاة.. من الهكسوس حتى الإنجليز. وبقيت مصر بوتقة تنصهر فيها الثقافات، وتلتقي فيها الأعراق، وظلت دُرة الدنيا، ورمزًا لفجر الإنسان، ولا تزال تعجب الناس من أرجاء العالم حتى الآن.

مصر، التي يظلمها الآن نفر من بنيها الفاسدين المارقين، مدت يدها إلى الإنسانية بشعلة المعرفة، ومصباح العلم حين كانت البشرية لا تزال تحبو في طفولتها. مصر التي طالما أطعمت الشعوب المجاورة تعجز الآن عن أن تنتج حاجتها من الطعام، بسبب هذا النفر من بنيها الفاسدين، مصر الغنية دائمًا بما حباها الله من موارد وخيرات أفقرها الاستبداد والفساد.

مصر بهرت من غزوْها، وقهرت من احتلوا أرضها، فقد حوَّلت سلالة البطالمة إلى سلالة تحكم دولة راقية متقدمة، ذات حضارة وثقافة وقدرة سياسية واقتصادية مهمة طوال الفترة من بطليموس الأول (خليفة الإسكندر الأكبر) حتى كليوباترا السابعة الملكة التي جعلت روما ترتعد فرائصها. وطوال عصر البطالمة كانت مصر منارة عالم البحر المتوسط، ورائدة الثقافة والعلم، وهو العصر الذي قامت فيه مكتبة الإسكندرية القديمة بالدور الأكبر، وحين هُزمت كليوباترا السابعة في معركة أكتيوم فقدت مصر استقلالها، وصارت ولاية رومانية حتى الفتح الإسلامي في العقود الأولى من القرن السابع الميلادي.

وبدخول مصر تحت راية الإسلام، وبعد تمام تعريبها، عادت تمارس دورها في خدمة الحضارة الإنسانية من جديد، بعد أن كانت مجرد "ولاية" رومانية، لم تستطع أن تقدم شيئًا سوى سلة الخبز لروما، ثم الرهبنة والأديرة، والمذاهب المسيحية في ما بعد.

وطوال تاريخها القديم بهرت الإغريق، وتودَّد الإسكندر الأكبر إلى شعبها حين زعم أنه ابن الإله آمون، وتبنى البطالمة الديانة المصرية القديمة بكل ما تحمله من أساطير، وذابت السلالة البطلمية وتمصرت وصارت ثقافتها هي ثقافة كل المصريين. وحين جاء الإسلام، تصحبه اللغة العربية، امتزج ما جاء به الإسلام بتراث مصر العريق. ولم يتنكر العلماء والباحثون المسلمون لتراث مصر القديم -كما يفعل بعض السفهاء اليوم بزعم أنه تراث وثني- وإنما انبهروا به وتبنوه، وأظهروا إعجابهم بالحضارة المصرية القديمة ونسجوا حولها الأساطير التي أضافوها إلى رصيد مصر الثقافي، ولأن الأساطير تحمل الذاكرة الاجتماعية، وتعبِّر عن العقلية التي صاغتها فقد كان طبيعيًّا أن نجد في الأساطير العربية التي حملتها كتب المؤرخين المسلمين أصداء تتعلق بأرض مصر، ونيلها وأصول شعبها، ورؤية المصريين لأنفسهم.. وما إلى ذلك.

ومن هنا تأتي أهمية الدراسة التي يقدمها الدكتور عمرو عبد العزيز منير في هذا الكتاب، وهي بالتأكيد الدراسة الأولى التي بحثت في منطقة الحدود بين التاريخ والموروث الشعبي. وفي هذه الدراسة يقارن الدكتور عمرو بين القراءة الأكاديمية العلمية للتاريخ والقراءة الشعبية للتاريخ. وفي هذه الدراسة الفريدة في بابها أظهر الدكتور عمرو موهبة وقدرة تنبئ بباحث واعد في مجال لا يزال جديدًا إلى درجة البكارة.

وإنه ليسعدني تقديم الكاتب والكتاب إلى القارئ العربي، ونحن على ثقة من أننا نقدم باحثًا جادًّا من شباب الأمة الذين يزرعون الأمل في حيوية أمتنا.

والله الموفق والمستعان.

الدكتور قاسم عبده قاسم

المقدمة

"... وإن فحول المؤرخين في الإسلام قد استوعبوا أخبار الأيام وجمعوها، وسطَّروها في صفحات الدفاتر وأودعوها، وخلطها المتطفلون بدسائس من الباطل، وَهِمُوا فيها وابتدعوها، وزخارف من الروايات المضْعَفَةَ لفّقوها ووضعوها، واقتفى تلك الآثارَ الكثيرُ ممن بعدهم واتبعوها. وأدَّوْها إلينا كمَا سمعوها، ولم يلاحظوا أسباب الوقائع والأحوال ولم يراعوها، ولا رفضوا تُرَّهات الأحاديث، ولا دفعوها. فالتحقيق قليل، وطَرْف التنقيح في الغالب كليل، والغلط والوهم نسيب للأخبار وخليل، والتقليد عريق في الآدميين سليل، والتطفل على الفنون عريض وطويل، ومرعى الجهل بين الأنام وخيم وبيل، والحق لا يُقاوَم سُلطانُه، والباطل يَقذِف بشهاب النظر شيطانهُ، والناقل إنما هو يملي وينقل، والبصيرة تنقد الصحيح إذا تمقُّل، والعلم يجلو لها صفحات الصواب ويصقل....".

ابن خلدون

(العبر وديوان المبتدأ والخبر) 3/1

(المقدمة) 282/1

ثمة علاقة جدلية بين الموروث الشعبي والتاريخ، فالموروث الشعبي مادة من مواد التدوين التاريخي، التي تساعد على تفسير الظواهر التاريخية وفهمها، والتاريخ بدوره يشترك معه في دعامات ثلاث: الإنسان، الزمان، المكان.

وهكذا، فإن مادة المؤرخ ومصادره تشمل في ما تشمل الموروث الشعبي بكل

أجناسه وإبداعاته التراثية للشعوب، سواء كانت بدائية أو متحضرة، أي كل ما تم إنجازه عن طريق استخدام الأصوات والكلمات، في أشكال غنائية شعرية، أو نثرية متضمنة الاعتقادات الشعبية أو الخرافات والأساطير والعادات والتقاليد والرقصات والتمثيليات وغيرها، مما تنم به عن أساسيات التفكير وما تفصح عنه النظرة إلى علاقة الإنسان مقترنًا ببيئته في إطار من المعتقدات والعادات والتقاليد، التي تحمل رؤية العصر الذي يصوره. كما تكشف عن وجدان الإنسان الذي يحيا فيه، كما يصور هذا الإنسان بقضاياه التي يتعامل معها في سياق فني محكم وببساطة وعمق آسرين، وفوق هذا كله فهو يأتي في مواجهة ما يكتبه المؤرخون المحترفون، سواء في العصور السابقة أو في عصرنا الحالي، من مؤلفات تعكس آراء أولئك المؤرخين وتفسيراتهم.

فقد مكث المؤرخون ردحًا من الزمن، يتجاهلون نتاج العامَّة الثقافي بروح من التعالي والغطرسة، التي جعلتهم يضربون عرض الحائط بما ظنوه ضربًا من العبث والخرافة[1]، التي تناسب عقول العامَّة وإدراكهم. بيد أن التطورات التي ألمت بمجال

---

(1) لم يحظَ الأدب الشعبي العربي بالقيمة الفنية الاعتبارية اللائقة به على المستوى الرسمي، وظلّ بعد معرفته الطويلة مهمشًا ومنبوذًا، وبعيدًا عن التناول والدرس، والبحث والتقصي لأسباب عديدة، في طالعها: عدم اهتمام أولي الأمر، الولاة والأمراء، والملوك، وأصحاب الأدب به، لأنهم جميعًا عدّوه أدبًا للعامة، يحتفي بالصعاليك، والشذّاذ، والجواري والقينات، والمعارك الوهمية، وطقوس السحر والشعوذة، وفنون الاحتيال والمداورة، والتشاطر الكاذب (من الشطارة)، وبالحكايات التي لا تؤهلها خرافاتُها أن تدوّن وتسجل في القراطيس، ومن ثم لأن منشئي الأدب الشعبي كانوا يحتفون بالسجع، والترادف، والتوازن، والإطناب، والتطويل، والالتفات، وبصياغات بعيدة عن نهج البلاغة العربية، ومن بعد هذا كله لأن مصنفي الأدب العربي وناسخيه عدّوا الأدب الشعبي بلا قيمة أحيانًا لما فيه من سلوكيات وأساليب بعيدة عن الأخلاق وتوجهاتها، وأحياناً لأنه يدور في عوالم الخيال والإضافات كالغولة، والعفاريت، والبحور السبعة، إلخ. وإضافةً إلى ما سلف اقتنع مصنفو الأدب العربي أن الكثير من الأدب الشعبي

الدراسات التاريخية دفعت بالمؤرخين إلى الاعتراف المتزايد بما طال السكوت عنه في (الموروث الشعبي)، الذي يقدم إلينا رؤية جمعية للحقيقة التاريخية، إذ إن الجماعة في رؤيتها للحدث التاريخي تقفز فوق التفاصيل، وعلاقات الزمان والمكان، ولا تهتم سوى برسم صورة كلية حُبلى بكل الرموز الاجتماعية والثقافية، كما تحرص على بلورة موقفها التاريخي إزاء الحدث، وهذه الصورة الشعبية غالبًا ما تحمل وعي الجماعة بذاتها، وتختزن في طيات أحداثها الخيالية كثيرًا من المضامين التاريخية، ولهذا تبرز أهمية اعتماد المؤرخ على (الموروث الشعبي)، إلى جانب مصادره التقليدية، ذلك أن المزاوجة بين هذين النوعين من المصادر يساعد المؤرخ على استيعاب الظاهرة التاريخية ورسم صورة كلية لها.

من هنا تأتي مشروعية تلك الدراسة، التي تحاول أن تملأ فجوات في بنية (المسكوت عنه تاريخيًا عمدًا أو دون قصد) في المصادر التاريخية التقليدية، التي لا تستطيع وحدها أن تقدم إلينا الحقيقة التاريخية، إذ إنه لا يمكن للشهادات الجزئية أن تقدم إلينا الحقيقة التاريخية، وإنما غاية ما يمكنها أن تقدمه إلينا جانبًا جزئيًا من تلك الحقيقة التاريخية. فالتاريخ وحده لا يمكن أن يطلعنا على وجدان الشعب، لأنه يصنف الحوادث، ويحتفل بالأسباب والنتائج، ويتسم بالتعميم. وقد أخذ هذا التاريخ في صورته الرسمية إلى سنواتٍ قليلةٍ خلت، يقص سيرةَ مصر وبلدان المشرق العربي عامّة من قمة الكيان الاجتماعي، ويرتب مراحل هذه السيرة بالدول الحاكمة أي

أدبٌ وظيفي – شفهي، حاضنته الأساسية، بل موزعته الأساسية، هي الجدات اللواتي ابتدعن الخرافات، والحكايات من أجل السمر في الليالي، ودهدهة الأطفال وتخويفهم حصرًا من الليل والعتمة.

تاريخ (القمم)، بحيث إنها نادرًا ما تطرقت إلى تاريخ الناس العاديين الذين يقبعون في (سفوح المجتمعات) إن صح التعبير، مما جعلنا نُستقرأ تراثًا ناقصًا، ولا نلتفت إلى ما أنشأه الشعب لنفسه عن نفسه.

وتراثنا العربي، الذي وصلنا من عصور التألق الفكري في رحاب الحضارة العربية الإسلامية، قد ضم الكثير من الموروث الشعبي بين صفحات الكتب التاريخية والأدبية وكتب الرحلات، فضلاً عن الموسوعات ودوائر المعارف، المتخمة بالأساطير والحكايات الشعبية، والأحاجي والألغاز والمحاورات الفكاهية والسِّير والملاحم الشعبية والطرائف وما إلى ذلك، كلها فنون تنطوي على قيمةٍ إنسانيةٍ ليس من الصواب الاستعلاء عليها، خصوصًا وقد دوَّنها لنا أعلام الثقافة العربية، ربما لأنهم كانوا من اتساع الأفق ورحابة الصدر بمكان، فلم يقيموا الحدود أو السدود بين ثقافة الخاصة وثقافة العامَّة، أو بين أدب الصفوة وأدب العامَّة، في مؤلفاتهم ومدوناتهم، التي تتطلب -في حقيقة الأمر- دراسةً مستقلةً ومستفيضةً لا تقتصر على جمع النصوص وتحقيقها فحسب، وإنما عليها أن تستخلص أيضًا ما قد تنم عليه من دلالات، وأساسيات في التفكير العربي والإسلامي، وما تفصح عنه النظرة إلى علاقة الإنسان بالكون، وأن نفتح ما نسميه بالنافذة الفولكلورية (العلمية/ المنهجية) على تراثنا المدون، الممتد طويلاً في المكان والزمان العربيين، فتتجدّد الرؤى المعرفية، وتتعدّد القراءات، فتتجذّر المناهج، وتتواصل الدراسات الشعبية العربية، اكتشافًا وتأويلاً، دراسةً وتأصيلاً، فتتجدّد الإفادة من هذا التراث بقدر ما يتنامى الوعي التاريخي والمعرفي والثقافي به. ويضيق بنا المقام لو حاولنا تتبع الخطوات العامَّة لأنماط عناصر ذلك الموروث الشعبي في كتب التراث العربي.

لذا تأتي هذه الدراسة الموسومة بـ(**مصر في الأساطير العربية.. دراسة في كتابات الرحالة والمؤرخين المسلمين**)، في محاولة لإثارة الوعي أو قُل "عودة الوعي" بتراثنا الحضاري، وهي تصدر عن رؤية تلتمس في الماضي التفسير الشعبي للتاريخ، أو ما يمكن أن نسميه بـ"البعد الثالث" للدراسات التاريخية، أي التفسير النفسي والوجداني ورؤية الجماعة الإنسانية لذاتها وللكون والظواهر والأحداث من حولها.

والمتأمل في موضوعات الدراسة يلمس خيطًا أو عقدًا فريدًا يربط فصولها، إذ إنها تعالج فكرة محددة، فحواها أن التاريخ والموروث الشعبي وجهان متوازيان، يُفهم أحدهما بواسطة الآخر، مما يسَّر على الباحث أن يتخذ المنهج التاريخي والتحليلي في رصد الأساطير والحكايات الشعبية والخرافية في كتابات الرحالة والمؤرخين القدامى، وما نفذ إلى النصوص المتعلقة بمصر من مضامين فكرية ذات محتوى أسطوري موروث من المرحلة الغيبية السابقة التي كانت تشكل آراء التاريخ وموضوعاته، وعلى الرغم من صياغتها صياغة تاريخية فنية على يد الرحالة والمؤرخين فإن أصولها لم تُستغلق، مستفيدًا من أشتات المعلومات الدينية والتاريخية الممزوجة بالحكايات الشعبية والخرافات والأساطير المتناثرة عن مصر في بطون الكتابات التاريخية والجغرافيَّة.

ولقد اتخذت الدراسة من "مصر" محورًا بوصفها نموذجًا طيبًا يمثل العنصر الثابت -نسبيًا- في أركان العملية التاريخية (المكان)، فضلاً عن أنها اكتسبت في مخيلة الرحالة والمؤرخين والكُتاب أبعادًا ودلالات اقتربت من الأسطورة والخيال، وأخذ هذا التصور يتمتع في تلك المخيلة بصفةٍ تكاد تكون "نمطية" تنطوي على الصدق حينًا، وعلى الكثير من التصورات والأوهام الغامضة في أحيان أخرى، ولعل هذه التصورات

التي راحت تتضخم عبر العصور هي التي اجتذبت باقة من أعلام الشرق والغرب، أدباء ومؤرخين وفلاسفة ورحالة وشعراء وغيرهم، فأقبلوا بأقلامهم وريشاتهم مشوقين إلى روائع الماضي في مصر، بما تحمله من دلالاتٍ جغرافيةٍ وتاريخيةٍ تمثل نمطًا فريدًا مفعمًا بالعلوم والفنون والسياسة والحكم، ومحورًا للعلاقات القائمة بين إفريقيا وآسيا.. بين أوروبا والشرق بين ذاكرة الماضي والواقع الفعلي، ومسرحًا لأهم الأحداث التاريخية العالمية.

هذه الدلالات كلها كانت الأرضية التي استندت إليها مبادئ الدراسة الموزعة على تسعة فصول رئيسية، ومسبوقة بمقدمة، ومودعة نتائجها في خاتمة، تلاها ثبت بالمصادر والمراجع المعتمدة، حيث أُفرد **الفصل الأول** للحديث عن أبعاد العلاقة بين التاريخ والأسطورة، وأوجه الائتلاف والاختلاف في ما بينهما، وعرضنا لتعريف كلٍّ من التاريخ والأسطورة ومدلولهما، وجاءَ **الفصلُ الثاني** منها عن الأساطير والحكايات المرتبطة بأصل اسم مصر، وأصول المصريين أنفسهم، وما حملته تلك الحكايات الخيالية عن اعتزاز المصريين ببلادهم، وعن تنازع نسبة أصولهم إلى الحاميين، أو اليونانيين أو العرب، والكشف عن أن هذه الاتجاهات الثلاثة في "الموروث الشعبي" كانت ترضي حاجة ثقافية/اجتماعية لشرائح بعينها في المجتمع المصري آنذاك.

وخُصِّصَ **الفصل الثالث** لعرض المادة الفولكلورية التي تدور حول "فضائل مصر"، باعتباره نوعًا من التأليف نشأ بداية من القرن الثالث الهجري جمع بين التاريخ والأساطير والموروث الشعبي، وكان إفرازًا للتفاعل القائم بين ما جاء به الإسلام، واللغة العربية، والموروثات الثقافية المحلية في كل مصر من أمصار دار الخلافة. أما **الفصل**

الرابع فيتناول الأساطير والحكايات التي تناولت الحضارة المصرية القديمة وإنجازاتها، التي تشي بمدى إعجاب أصحاب هذه الحكايات وجمهورهم بإنجازات الحضارة المصرية القديمة التي بقيت رغم عوادي الزمن. وتم تخصيص **الفصل الخامس** للحديث عن الأساطير والحكايات التي تناولت الدفائن والكنوز المصرية القديمة وفراعنة مصر، التي كان الحديث فيها عن الكنوز يحمل بعضه شيئًا من الحقيقة، على حين حمل البعض الآخر رائحةَ المبالغة. كما حاولنا أن نكشف عن صورة ملوك مصر القدامى التي تاهت في كتابات الرحالة والمؤرخين التي حفلت في بعض موضوعاتها بالخيال الواسع. وعرضت في **الفصل السادس** لأساطير أصول المدن المصرية القديمة، بما تحويه من أخبار العجائب والغرائب، والذي يدل على مدى إعجاب الرواة وانبهارهم بإنجازات الحضارة المصرية القديمة، وهو الأمر الذي بدا واضحًا من خلال تلك القصص الخيالية عن الأعمال الإعجازية لملوك مصر القديمة.

الفصل السابع جمع بين الحديث عن عمران مصر وما دار عنه من حكايات شعبية، إضافة إلى الحديث عن العجائب الموجودة على أرض مصر، على نحو يكشف عن حجم الخيال الذي غلَّف تاريخَ مصر، ويكشف عن عجز الرواة عن الوقوف على تاريخها الحقيقي، التي كانت تحاول أن تقدم إجابات "تاريخية" عن حضارة تليدة مضت، ولكن آثارها ما زالت ماثلة أمام عيون الناس، التي تنسب الكثير من منجزات هذه الحضارة إلى أعمال السحر والخوارق. بيد أن بعض هذه الحكايات كانت تحمل ظلاً أو نواةً من الحقيقة التاريخية في غالب الأحوال.

ودرست في **الفصل الثامن** الأساطير والحكايات التي تناولت النيل ومصادر

المياه في مصر. حيث أحب المصريون بلادهم وعشقوا نيلهم، وصاغت أساطيرهم وحكاياتهم الشعبية هذا الحب وهذا العشق صياغةً جميلةً ومثيرةً، أكدت أن حياة المصريين ووجودهم اعتمدا على النهر النبيل اعتمادًا مطلقًا، وأن إحساسهم بهذا كان كبيرًا للغاية. وأُفرد **الفصل الأخير** عن الموروث الشعبي المتعلق بالشخصية المصرية التي ظلت عُرضة للأخذ والرد وتضارب الآراء والتحليلات عند المؤرخين عبر عهود مختلفة، والتي جاءت كتاباتهم متسمةً ببعض المبالغة أحيانًا والواقع أحيانًا أخرى. وتلك هي مفردات الخطة التي اهتديت إلى وضعها، آملاً أن تكون مستوفية موضوع الدراسة من الجوانب كافّةً، ومتكفلة بتحقيق النتائج المرجوة لي في هذا المجال، وهي أيضًا خطوة لا تخلو من نقصٍ ضروري، يدعوني إلى المزيد من الحرص على البحث والتنقيب والتأمل والتسلح بطموحٍ ورغبةٍ في الفهم والتساؤل.

والله الموفق والمستعان.

نظرة في المصادر

... أما عن طبيعة المصادر التي أفاد منها البحث، واستقى مادته التاريخية، فقد تراوحت بين المصادر الأصلية، والمراجع الثانوية، فالمصادر الأصلية والكتابات القلمية لقدامى المؤرخين المسلمين فهي مصدر أول للاعتماد عليها في الدراسات التاريخية، سواء للباحثين في مجال التاريخ الإسلامي أو الوسيط على حد سواء، لأهميتها، إذ هي شاهد عيان حي صامت ونبع ثري جليل الفائدة بمادته التاريخية ذات القيمة الثابتة غير القابلة للتغيير، فهي بنصوصها تقف مباشرةً على روح العصر وأحداثه، وأفكاره، وطريقة حياة الناس، وموروثاتهم، وهي بذلك ضرورية للتاريخ الإسلامي والوسيط، إذ لا يقومان من دونها، مما يحقق الفائدة بما ورد بها من معلومات وأفكار، وترجع أهميتها إلى قرب مؤلفيها من الأحداث وما تناولوه من مظاهر العصر، ومشاركتهم فيها بحكم المكانة، وبمعايشتهم لها، ولأوضاع المجتمع، مما يحملنا على الاطمئنان إليها، وإن تباينت مسالكهم في استخدام المصادر، حيث لم يقتصر هؤلاء المؤرخون في كتاباتهم التاريخية على المصادر المكتوبة -معاصرة وغير معاصرة- فقط، وإنما استمدوا مادتهم التاريخية كذلك من مصادر أدبية، أو دينية، أو علمية بحتة. كما أنهم لم يقتصروا في مؤلفاتهم على تلك المصادر المكتوبة فحسب وإنما استمدوا معارفهم، أو عناصر حوادثهم -غالبًا- من مصادر مكملة كالمشاهدة والمشافهة، والآثار، والنقوش، والإجازات، والسماعات، فضلاً عن المكاتبات التي كانت متبادلة في ما بينهم، مما أفسح الطريق أمام الخرافات والأساطير لتتسرب بعمق إلى متون الكتابات التاريخية.

كما أنهم أظهروا في مواضع كأروع ما يكون في دقة النقل عن المصدر، وفي مواضع أخرى أخلوا بعبارة المصدر إخلالاً فاحشًا. كما اتفقوا في النقل عن المصدر بعباراته أو تصرفوا في النسقين، التعبيري والترتيبي المصاحبين للمنقول عنه أو في

أحدهما. والجدير أنه لم يكن في الإمكان إفادة البحث من مصادر أصلية خلافها، نظرًا لطبيعة الدراسة وعذريتها ونوعية ما تناولته من الأساطير والخرافات التي امتلأت بها تلك المصادر، كما تفاوتت طبيعة إفادته منها في جوانبه المختلفة تبعًا لتباين طبيعتها. وتلك المصادر التي لم يكن محتمًا الأخذ عنها، فقد أسهمت -في الغالب- وأعانت على إيضاح صورة المجتمع، وأفكاره السائدة عن مصر، وتأكيدها، وفي ذلك إفادة للبحث غير مباشرة.

وأبرز ما اعتمد عليه البحث من مصادر: (فتوح مصر وأخبارها) لابن عبد الحكم، و(المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار) للمقريزي، و(الاستبصار في عجائب الأمصار) لكاتب مراكشي مجهول، و(آثار البلاد وأخبار العباد) للقزويني، و(فضائل مصر وأخبارها وخواصها) لابن زولاق، و(الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة) لابن ظهيرة، (وأحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) للمقدسي، (وصورة الأرض) لابن حوقل، و(مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي)، و(مقدمة وتاريخ) لابن خلدون، وغيرها.

ونظرًا لأن المصادر التي اعتمدت عليها الدراسة لم تكن بها المادة التاريخية متاحة -بالمعنى المفهوم- إذ احتوت على أساطير وحكايات شعبية بين سطورها، وردت كأنها مرويات، وأقانيم لا جدال فيها، فقد لزم تتبعها في بطونها لجمع شذراتها وترتيبها ونقدها وتحليلها بقدر الإمكان ومناقشتها أحيانًا إذا لزم الأمر. وكان جل اعتمادنا على ما كتبه المؤرخون المسلمون، كما اعتمدنا على بعض المصادر التي تعالج موضوعات العلوم المختلفة أو تتعرض بطرف أو بآخر لمصر والحكايات الخرافية والأساطير المتعلقة بها.

ومن أهم المصادر التاريخية الأصلية التي اعتمد عليها البحث، كتاب **(المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار)** للمؤرخ تقي الدين أحمد المقريزي[2] أشهر مؤرخي العصر المملوكي دون منازع والمولود سنة (1364م/ 766هـ) بحارة برجوان بالقاهرة، والمتوفى بها سنة (1442م/ 845هـ) وهو في سن الثمانين من العمر، ليعكف على الكتابة، والإضافة إلى مؤلفاته. وقد بدأ منذ مرحلة باكرة من حياته في وضع كتاب تاريخ القاهرة المسمى (المواعظ والاعتبار)، وهو الكتاب المشهور باسم (الخطط)، لأنه توفر فيه على دراسة المعالم القاهرية من حارات وشوارع ودروب وقياسر وحمامات ورباع وأسواق ومدارس وخوانق ومستشفيات، فضلاً عن أخبار المدن المصرية الكبرى، وتراجم رجال الدول ونظم الحكم في مختلف العصور[3]، وقد جعل المقريزي كتاب (المواعظ والاعتبار) أساسًا قامت عليه مؤلفاته التاريخية في مختلف التاريخ المصري في العصور الوسطى[4].

ويعد هذا الكتاب من أهم الكتب التي تحوي مادة ثرية من الموروث الشعبي، ولا غرو فالكتاب بمثابة موسوعة جامعة، حشد فيها تقي الدين المقريزي معظم التراث

(2) هو تقي الدين أبو محمد أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن تميم بن عبد الصمد بن أبي الحسن بن عبد الصمد بن تميم المقريزي الشافعي. انظر: محمد كمال الدين عز الدين: الحركة العلمية في مصر في دولة المماليك الجراكسية، دراسة عن التاريخ والمؤرخين (رسالة دكتوراه، غير منشورة، كلية البنات جامعة عين شمس، 1989م)، ص272، ص273.

(3) محمد مصطفى زيادة وآخرون: دراسات عن المقريزي (الطبعة الأولى، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة 1971م)، ص7، محمد مصطفى زيادة: المؤرخون في مصر في القرن الخامس عشر الميلادي (الطبعة الثانية، القاهرة 1954م)، ص12، ص13.

(4) نفسه، ص19.

المدون حول مصر، وعاصمتها القاهرة: تاريخًا وجغرافية وأساطير ومأثورات شعبية ومعلومات عن المدن، والسكان، والأعياد، والأديان، والأقليات، فضلاً عن أخبار المؤسسات ذات الوظيفة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والتعليمية التي ذكرناها آنفًا. وفي ثنايا هذه الأخبار نجد الأسطورة مبثوثة والخرافة مسرودة، ليتمخض لدينا كم هائل من (الموروث الشعبي) بكل اتجاهاته وانتماءاته[5].

وقد أمضى المقريزي نحو ثلاثة وعشرين عامًا في جمع مادة هذا الكتاب وتأليفه في ما بين سنة (820هـ و843هـ)، وكان الغرض منه: "جمع ما تفرق من أخبار مصر وأحوال سكانها كي يلتئم من مجموعها معرفة جمل أخبار إقليم مصر، وهي التي إذا حصلت في ذهن إنسان اقتدر على أن يخبر في كل وقت بما كان في أرض مصر من الآثار الباقية والبائدة، ويقص أحوال من ابتدأها ومن حلها، وكيف كانت مصائر أمورها.. فتتهذب بتدبر ذلك نفسه وترتاض أخلاقه فيحب الخير ويفعله ويكره الشر ويتجنبه"[6]، مما يدلنا على مدى ضخامة الجهد الذي بذله من ناحية والكم الهائل من المعلومات، والقصص والأشعار والأساطير والخرافات التي جمعها، ليجمع الكتاب بذلك بين العديد من المباحث التاريخية والأثرية والجغرافية واللغوية والفقهية والاقتصادية والاجتماعية ومادة فولكلورية خالصة وأنماط متنوعة من الموروث الشعبي، مما جعله موسوعة لتاريخ مصر على الأصعدة كافة، فقد اتسعت رقعته الفولكلورية

---

(5) قاسم عبده قاسم: بين التاريخ والفولكلور (الطبعة الثانية، دار عين للدراسات، القاهرة 1998)، ص47، ص48.

(6) المقريزي (تقي الدين أبو العباس بن أحمد بن على) (ت 845هـ): المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (الجزء الأول، طبعة مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة 2002) ص3، 4.

والمكانية لتشتمل على أرجاء مصر كافة، ورقعته الزمنية لتشتمل على تاريخها في ما بين عصر الفراعنة وعصره.

وتنوعت مصادر (الخطط) وتعددت، بحيث يمكن إجمالها في المشاهدة والمشاركة، ويمثلها قوله في معرض الحديث عن سور القاهرة: "فشاهدت من كبر لبنها ما يتعجب منه في زماننا حتى إن اللبنة تكون قدر ذراع في ثلثي ذراع"(7)، وكذلك نجد المشافهة، وتتمثل في قوله: "وأخبرني الشيخ المعمر حسام الدين حسين بن عمر الشهرزوري أنه يعرف خليج الذكر وفيه الماء وسبح فيه غير مرة وأراني آثاره"(8)، وفي قوله عن باب زويلة بالقاهرة نجده أنه استخدم أسلوب الاطلاع على الخطوط والآثار في قوله: "ومن تأمل الأسطر التي قد كتبت على أعلاه من خارجه فإنه يجد فيه اسم أمير الجيوش"(9)، أضف إلى ذلك تنوع استخدام المقريزي المصادر المتداولة في عصره كاللغة والأدب والحديث والتفسير والفقه والتصوف والعقائد والفلسفة والطب والصيدلة والنبات والفلاحة والجغرافيا والرحلات والتاريخ بشتى فنونه.

والمطلع على ما دوَّنه المقريزي في الخطط سيجد كثيرًا ما تُردد فيها الخرافات والأساطير والروايات الشعبية و"مستغربات الحدوث" المثبتة لديه عن مصادره، خصوصًا "ابن وصيف شاه"، وقد وثق فيه على النحو الوارد في قوله: ".. فإن ابن وصيف شاه أعرف بأخبار أهل مصر"(10)، ومثال الخرافة عنده قوله: "إن عمود

---

(7) المصدر السابق: ج1، ص377.

(8) نفسه: ج2، ص145.

(9) نفسه: ج1، ص381.

(10) المقريزي: الخطط، ج1، ص150.

السواري الموجود الآن خارج مدينة الإسكندرية أحد سبعة أعمدة أتى بأحدها البتون بن مرة العادي وهو يحمله تحت إبطه من جبل بريم الأحمر قبلي أسوان إلى الإسكندرية"[11]، مما جعل من كتابه (الخطط) واحدًا من أنفس الكتب التي اعتمد عليها البحث وأعذبها موردًا وأصفاها منهلاً وأسداها منهجًا، بل كان بمثابة العمود الفقري الذي اتكأ عليه البحث في رحلته.

ومن المصادر المهمة التي نهل منها البحث في نواحيه، **(حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة)** للحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي[12]، المولود بالقاهرة ليلة الأحد مستهل رجب سنة تسع وأربعين وثمانمئة للهجرة[13]، الذي كانت له أسفار كثيرة في البلاد المصرية كالفيوم، حيث أشار إلى أن له مؤلفًا فيها اسمه (الرحلة الفيومية) ودمياط والإسكندرية وأعمالهما وفي خارجها كالحجاز والشام واليمن والهند والمغرب، وقد قام برحلة دمياط والإسكندرية في شهر رجب سنة سبعين وثمانمئة للهجرة (1466م)، ومع فوائدها في تأليف يسمى: (الاغتباط في الرحلة إلى الإسكندرية ودمياط)، أو (قطف الزهر في رحلة الشهر)، مما يستفاد منه أنها

---

(11) المقريزي: الخطط، ج1، ص160.

(12) هو جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد بن أبي بكر بن عثمان بن محمد بن خضر بن أيوب بن محمد بن الهمام الخضيري السيوطي الشافعي. وقد أشار السيوطي في كتاب (التحدث بنعمة الله) إلى أن أباه لم يسمه إلا يوم الأسبوع، ويبدو أن ذلك لم يكن تماونًا من الأب في حق الجلال وإنما كان تحريًا في تخير الاسم المناسب، مما دفع بمؤرخنا إلى إنشاء فصل في كتابه التحدث بنعمة الله ص32: ص38، أظهر فيه اعتداده باسمه، مشيرًا إلى أفضليته ومناسبته لاسم أبيه، انظر: التحدث بنعمة الله للحافظ جلال الدين السيوطي (تحقيق: إليزابث ماري سارتين، تقديم: عوض الغباري، سلسلة الذخائر، العدد 106، القاهرة 2003)، ص32.

(13) السيوطي: التحدث بنعمة الله، ص32، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، الجزء الأول، ص236.

استغرقت نحو الثلاثين يومًا توسطت شهري رجب وشعبان، فكان هناك مفيدًا إلى جانب كونه مستفيدًا بما حدث فيها من عشارياته أو كتب عنه هناك من مسموعاته كصحيح البخاري، والشفاء أو مصنفاته كشرح الألفية، والجزء الأول من نور الحديقة وعشارياته والمسلسل بالأولية وبإجازته فيها لمن قابلهم -هناك- وأولادهم[14].

وهكذا تأهل مؤرخنا ليمدنا بفيض من المعلومات التي امتزجت فيها الحقيقة بالخيال، والروايات الشعبية التي صقلها المنهج، وأكدتها المشاهدة والمعاينة، الأمر الذي أوثق المرئيات وأكد حدوث الوقائع، هذا علاوة على سعة كتابه من أفق ومدارك، بسبب دائرة اتصاله بالأقوام وحواره مع العلماء وأصحاب المعرفة بأحوال البشر وتقلبات الأحوال في الزمان والمكان، جمع فيه تاريخ مصر والقاهرة بوجه خاص وبعض فصول إضافية مسهبة عن النظام المملوكي وأساليبه، وتكلم عن طبقات العلماء والصوفية بمصر، وعن القضاة والأطباء وحكام مصر، والأسرات التي حكمت مصر، ومن دخل مصر من الأنبياء والصحابة والتابعين والأئمة والمجتهدين[15]، ولنجد موضوع ومنهج الأساطير في ثنايا الكتاب.

وما من شك في أن "حسن المحاضرة" يفيد كثيرًا في التعرف على جانب لا بأس به من السمات الفكرية لعصر "السيوطي"، حيث كتبه في عصر السلطان قايتباي، واعتمد في تأليفه على ثمانية وعشرين مؤلفًا، عدَّدها في مقدمته، وقد لخص

---

(14) السيوطي: التحدث بنعمة الله، ص83: ص87.

(15) علي إبراهيم حسن: استخدام المصادر وطرق البحث في التاريخ الإسلامي العام والتاريخ المصري الوسيط (الطبعة الثالثة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1980م)، ص194.

ذلك عن آثار المتقدمين، لا سيما ابن عبد الحكم والكندي وابن زولاق القضاعي[16]، فقد نقل كثيرًا عن مؤلفات الذين عاصروه والذين سبقوه، وكان النقل مألوفًا في العصور الوسطى. كذلك كان المؤرخون يميلون إلى ذكر الأساطير العجيبة والخرافات والأشياء الخارقة للعادة، كما كانوا يبالغون في الإحصاءات المختلفة، وكانت هذه المبالغات ظاهرة بوجه خاص حين يتحدثون في عصور ما قبل الإسلام[17].

ووضح لنا أن السيوطي اهتم بإظهار أهمية ومحورية دور مصر منذ العصور القديمة، فيشير على ما ذكر في فضائل مصر في القرآن الكريم، وذكر السيوطي أن "المدينة" في بعض الآيات القرآنية يراد بها "منف" عاصمة مصر القديمة مثل قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى﴾[18]، كذلك حاول السيوطي جمع الأحاديث النبوية الشريفة التي ورد فيها ذكر مصر، ثم ثناه بذكر تاريخ مصر في عهدها القديم، عهد الفراعنة وبناة الأهرام على حسب ما وقع لديه من المعارف والأفكار الشائعة في عصره حول تلك الآثار، ثم وصف الفتح الإسلامي وما صاحبه من وقائع وأحداث، وما شابه من معتقدات وروايات شعبية، وما تم من امتزاج المصريين بالعرب تحت راية الإسلام، ثم ذكر الوافدين على مصر ومن نبغ فيها من أصحاب المذاهب ومن عاش بها من الحفَّاظ والمؤرخين والقراء والقصاص والشعراء

---

(16) عبد الوهاب حمودة: صفحات من تاريخ مصر في عصر السيوطي (الطبعة الأولى، مطبعة دار التأليف، القاهرة، د. ت)، ص215.

(17) سيدة إسماعيل كاشف: دراسة نقدية لكتاب حسن المحاضرة للسيوطي، ضمن كتاب جلال الدين السيوطي، الطبعة الأولى (الهيئة المصرية العامَّة للكتاب، القاهرة، 1978م)، ص138، ص139.

(18) السيوطي: حسن المحاضرة، ج1، ص3.

والمتطببين وغيرهم، مع ذكر نُبذ من حياتهم وتاريخ موالدهم ووفياتهم، ومن أمتع ما ورد فيه تلك الفصول التي عقدها في ذكر عادات المصريين ومواسمهم وأعيادهم والأسباب الدائرة بينهم، وما كان فيها من أندية الأدب ومجالس الشعر والسهر على منهج طريف أخاذ، وكان سبيله في كل ما أورده من هذا الكتاب النقل عن الكتب المتخصصة في هذا الشأن، مضافًا إليها ما وقع له من المشاهدة أو ما نقله سماعًا من علماء مصر أو الناس[19]، مما فتح الباب على مصراعيه أمام الأساطير والخرافات، التي نظر إليها البعض على أنها من نواحي القصور التي شابت كتاب "حسن المحاضرة"، وأنه بتلك الأساطير والخرافات الشعبية التي كانت إفرازًا للحكايات الشعبية المتداولة آنذاك جاء الكتاب غير عميق الاستنباط وغير معلل للحوادث إلا ما ندر وعدم تمحيص صاحبه للروايات الخرافية التي كانت في الكتب التاريخية القديمة، فهو نقلها كما هي بحذافيرها وإن أسندها إلى رواتها[20].

من ذلك: ذكر النيل وأنه ينبع من الجنة. ومنها ذكر ما أذلَّ الأسد وحملت عرشه الشياطين "في باب ملك مصر قبل الطوفان"[21]، ومثل قوله في الإسكندرية إنها بنيت في ثلاثمئة سنة، وسكنت ثلاثمئة سنة، وخربت ثلاثمئة سنة، ومثل عجائب منارة الإسكندرية والتمثال والمرآة فيها، تلك المرآة التي كانت ترى خلالها جيوش الأعداء،

---

(19) محمد أبو الفضل إبراهيم: مقدمة تحقيق كتاب حسن المحاضرة (الجزء الأول، الطبعة الأولى، دار عيسى البابي الحلبي، القاهرة 1967م)، ص4.

(20) عبد الوهاب حمودة: صفحات من تاريخ مصر في عصر السيوطي، ص216: ص217.

(21) السيوطي: حسن المحاضرة، ج1، ص32.

وغير ذلك كثير[22]، بيد أن هذا لا يغيض من قيمة الكتاب، بل هو من أهم مراجع تاريخ مصر وأعلامها، كما أنه كان في مقدمة المصادر التي استعان بها البحث في مجال الحقل التطبيقي على المصادر.

ومن أمتع المؤلفات التي أفاد منها البحث كان كتاب "سياحتنامه مصر" للرحّالة المسلم "أوليا چلبي"، لما به من تصوير فريد لبناء المجتمع المصري وأفكاره وحياته وأحواله في العصور الوسطى، وبصفة خاصة أساسيات الفكر السائد وطبيعة العلاقات الاجتماعية ومحورها القائم على التجارة. كما كانت تلك الرحلة مجالاً خصبًا للحكايات الشعبية الخرافية والأسطورية، إذ إن حكايات الرحلة وخرافاتها وموضوعاتها التي شدت انتباه صاحبها، جعلته أكثر قربًا من المعتقدات الشعبية، إذ احتلت المسائل المتعلقة بالخرافات وحكايات الكرامات والغرائب والدراويش مكانة هامة بالنسبة إليه، وقد لا نجيز لأنفسنا أن نؤاخذه إذا لم يلق بالاً لجوانب الحياة التي تهم عصرنا، ولكنه كان بدوره يعكس بدقة وإخلاص العصر والوسط اللذين عاش فيهما، وذلك على ضوء الظروف الحضارية السائدة إذ ذاك، ولكن هل تشابهت المعتقدات وتجانست الموروثات في البيئات الإسلامية المتعددة التنوع، التي خبرها الرحالة وعاش فيها سنوات طوالاً من المعتقدات والموروثات الموجودة في البيئة التي نشأ فيها، أقول: نعم وبمقدار هذا التجانس القائم بين خرافات الرحلة وحكاياتها من مختلف البلدان، يتبين لنا أن هذا التجانس لم يكن إلا باختياره هو نفسه، وكل ما

---

(22) السيوطي: حسن المحاضرة، ج1، ص84: ص88.

أورده ورواه إنما لمصادفته هوى خاصًا لدية يتفق ومقوماته الشخصية[23].

إذ إن الأسطورة تتضمن تصورًا ما عن حدث معين أو شخص كان له وجود تاريخي، ولكن الخيال الشعبي أو التراث في حرصه على تأكيد قيمة معينة أو رمزية خاصة يلجأ إلى تصوير ذلك الحدث أو تلك الشخصية في إطار المبالغة والتضخيم، ومن المعروف أن المفهوم الإنثوجرافي لا يجرد الأساطير تجريدًا تامًا من الحقيقة، بل يرى أن في كل أسطورة شيئًا من الحقيقة لا يلبث أن ينمو ويتضخم بفعل الخيال الشعبي[24].

وتأتي أهمية رحلة أوليا چلبي إلى مصر في أنها تتم في فترة تندر فيها المصادر العربية والتركية والأوروبية عن وصف مصر، كما أنها تعد من أشهر الرحلات التي قامت بها عقلية شرقية إسلامية إلى الديار المصرية، وتأتي هذه الرحلة في الوقت الذي اكتسب فيها أوليا چلبي علمًا وخبرة أكثر، لأنها تعتبر نهاية المطاف بالنسبة إليه، حيث تُوفي بعدها بقليل[25]، فكان كتابه **"سياحتنامه مصر"** منهلاً ثريًا أفاد البحث في كثير من نواحيه، إذ يعد كتابه من أدق وأوفى ما كتب عن مصر في القرن السابع

---

(23) حسني محمود حسين: أدب الرحلة عند العرب (الهيئة المصرية العامة، القاهرة 1976م)، ص77. وانظر: أحمد فؤاد متولي: مقدمة رحلة أوليا چلبي (تحقيق عبد الوهاب عزام وآخرين، الطبعة الأولى، دار الكتب، القاهرة 2005م)، ص18.

(24) حسين محمد فهيم: أدب الرحلات (سلسلة عالم المعرفة، العدد 138، الكويت 1989م)، ص138، ص139.

(25) أحمد متولي: مقدمة رحلة أوليا چلبي، ص16. وقد وُلد أوليا چلبي في 25 مارس 1611م/10 المحرم 1020هـ، وتُوفي عام 1682م/ 1094هـ على وجه التقريب.

عشر الميلادي، فلو استبعدنا الخرافات والأساطير التي ألمت به في تفسير بعض الظواهر لاعتبر هذا الكتاب سجلاً وافيًا، لما كان في الحجاز ومصر من آثار ومساجد وجوامع وتكايا وزوايا ومستشفيات وكنائس وخانات وقصور وبرك وترع وقنوات ومعسكرات وعائلات. وكذا مرجعًا لا يُستهان به للوضع الاجتماعي والثقافي والاقتصادي والعسكري والإداري لمصر في تلك الحقبة التاريخية الغامضة من تاريخ مصر، ووصف لنا ما كانت عليه وما يسودها من عادات وتقاليد وأفكار وأعراف.

أوليا چلبي كان يدوّن ملاحظاته ومشاهداته عن مصر ثم يرجع إلى كتب التاريخ والرحلات التي سبقته إليها، خصوصًا الثقات منهم، أمثال القزويني، والمقريزي، والطبري، والذهبي، وجلال زادة، وصولق زادة، والأطلس الصغير، ثم يدعم هذا كله بالرجوع إلى القوانين والسجلات، وكتب المناقب، وسجلات الولايات ودفاترها وميزانياتها. وقد كان يستخدم أساليب عصره في القياس، فما إن يمر بجامع أو قلعة حتى يحصي الأبواب والأدوار والمخازن ويقيس بالخطوة والذراع كل ما يصادفه من آثار وأطلال، كما كان يعود إلى ما سجّله أو رجع إليه من مراجع في كتبه السابقة، على حد قوله[26].

وكان من أهم مقومات الاعتماد على كتاب أوليا چلبي في سياق إعداد هذا البحث هو اعتماده على الدراسة الميدانية التي تتوافر فيها ثلاث مراحل، وهي المشاهدة الدقيقة المصحوبة أحيانًا بالانبهار، ثم تسجيل المشاهدات وتدوينها،

---

(26) محمد حرب: قاهرة القرن السابع عشر في رحلة أوليا چلبي، دراسة بمجلة "الهلال" (عدد يناير، القاهرة 1986م)، ص90- ص97.

فالتفسير والشرح والوصف طبقًا للانطباع الذي خرج به، وقد اعتمد على قراءاته السابقة المتنوعة عن مصر وأرضها وأهلها وتاريخها وجغرافيتها وآثارها في إثراء ما كتب عن مصر التي انبهر بها. وقد اجتهد أوليا چلبي في وصف الشكل الخارجي للأماكن التي زارها في مصر مدعمًا كلامه بطريقة التقصي والتتبع، ومزج ذلك بمشاعره وعواطفه وأحاسيسه تجاه المعالم التي حازت على إعجابه وخلبت لبه.

نقل أوليا چلبي لهذا البحث صورًا حية وصادقة عن مشاهداته، وكانت هناك عاطفة قوية نحو ما يصف وما يصور، سواء كانت هذه العاطفة مبعثها الحب والإعجاب أو البغض والكراهية، وكان مغرمًا بذكر المواقف الغريبة والنادرة وشغوفًا بالحديث عن القصص والأساطير والخرافات الخيالية التي سمع بها مهما كانت شطحاتها، لأنها تشكل جزءًا من تراث الشعوب. وكان يركز أحيانًا على النوادر والغرائب والعجائب، ويأتي من أحوال البلاد بما يستغربه الناس، فيشيع الإثارة والبهجة، ويجعل القارئ يستمتع بمتابعته، فأسلوبه لا يخلو من الطرافة والجاذبية في عرض الأحداث وإيراد المعلومات[27]، وتأثير عامل الخيال يبدو واضحًا في كتاباته وقد قاده خياله في بعض المرات إلى المبالغة والمغالاة، وهو يصور الأحداث ويجسدها، مما أثرى البحث الذي نحن بصدده أيما ثراء.

ومن أمثلة ذلك حديثه عن مدينة "أمسوس" بعد طوفان نوح فيقول: (ولم يكن هناك شيء ظاهر سوى جبل الهرة الذي كان قد أقيم بإشارة من النبي إدريس تجاه النيل ليأووا إليه ومع ذلك فإن الذين لجؤوا إليه عند الطوفان قد غرقوا بأموالهم وكنوزهم في مياه الطوفان)[28].

---

(27) أحمد فؤاد متولي: مرجع سابق، ص17.

(28) أوليا چلبي: سياحتنا مه مصر (ترجمة: محمد علي عوني، تحقيق: عبد الوهاب عزام وأحمد السعيد سليمان،

ومن الكتب المهمة التي نهل منها البحث في نواحيه "مروج الذهب ومعادن الجوهر"، وهو أشهر من أن يعرف لشيوعه في القرن الرابع الهجري، فهو كتاب في التاريخ، ولكن إذا شئنا الدقة فإن الكتاب ليس تاريخًا فحسب، وإنما هو موسوعة ضمت معارف المسعودي جميعها، تلك المعارف التي حصدها في أثناء رحلاته المتعددة الطويلة. صحيح أن الجزء الأكبر من الكتاب مخصص للتاريخ الذي يعني بالماضي أساسًا ولا يتيح للمؤلف مجالاً لحكاية تجاربه الذاتية، غير أن المسعودي لم ينس عصره ولم ينس شخصه فظفرا -عصره وشخصه- بقسط من اهتمامه، وكان ذلك ارلربط بين الماضي والحاضر زمانًا والقريب والبعيد مكانًا والموضوع والذات منهجًا، كان ذلك كله سببًا في نجاح مؤلفات المسعودي والإقبال عليها[29].

وعلى هذا فإن نسبة الكتاب إلى محيط الأدب أقرب إلى الدقة، خصوصًا أن المسعودي كان أديبًا قبل كل شيء حريصًا على التأنق في عباراته والاستشهاد بالمأثورات الأدبية والشعبية، ولذا فالكتاب يسمح في محتواه بأن يضم إليه مجموعات من العجائب والأساطير تسير معه في نسق واحد، ويمكن أن يحملها معه مختصرًا يجمع كل شاذ وغريب.

والواقع أن المسعودي نفسه استهوته حكايات الأساطير وقصص العجائب فجمعها بكثرة إما من الكتب وإما من خلال أسفاره ومشاهداته في رحلاته المتعددة[30].

تقديم: أحمد فؤاد متولي، الطبعة الأولى، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة 2005م)، ص35.

(29) ناصر عبد الرازق الموافي: الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري (الطبعة الأولى، دار الوفاء - دار النشر للجامعات المصرية، القاهرة 1995م)، ص142.

(30) فاروق خورشيد: جولة في التراث معادن الجوهر (سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة 1999م)، ص18.

فالكتاب يعتمد على مصادر رحلات، ولكن هذا الحصاد مبعثر في جنباته، وما يمكن جمعه من إشارات إلى وجوه في أماكن معينة[31]، فالمسعودي اعتبر هذه الرحلات مصدرًا رئيسيًا وحقيقيًا في ما يتعلق بالعادات والتقاليد أو الممارسة العقلية للحياة، ولهذا فهو يضيف مشاهداته إلى ما جمع من أخبار، يسأل ويستقصي السر وراء كل ظاهرة، ثم يقدم ما يرى وما يسمع كشاهد حي على حركة التاريخ في عصره كمستقصٍ، باحثًا عن أسرار الظواهر ومعانيها وهو يقول عن الواحات بمصر: (وقد رأيت صاحب هذا الرجل المقيم بالواحات بباب الإخشيد محمد بن طغج، وذلك من سنة ثلاثين وثلاثمئة، وسألته عن كثير من أخبار بلدهم، وما احتجت أن أعلمه من خواص أرضهم، وكذلك كان فعلي مع غيره في سائر الأوقات ممن لم أصل إلى بلادهم، وأخبرني هذا الرجل عما بأرضهم من العشب وأنواع الزاج وما يجمل من بلادهم وما بأرضهم من أنواع العيون)[32].

بالإضافة إلى ذلك اعتمد المسعودي على مصادر حية في إمداده بالمعلومات كما جاء في الخبر السابق وكذلك: (لم أترك ممن شاهدت من التجار ممن له أدب وفهم وممن لا فهم عنده من أرباب المراكب إلا سألته عن ذلك)[33]. فالمسعودي إذن يشاهد ويسأل أهل العلم والفهم، ثم يسأل أهل الخبرة والمهنة ممن لا فهم عندهم، ولكن عندهم التجربة والممارسة والفعل اليومي الدائم، وقد أكسبته هذه الممارسة الفعلية للمواقع التي يصفها نوعًا من الإحساس بالثقة في ما يذكر من معلومات وما

(31) انظر – مثلاً: 100/1، 343/1، 767/1 (مروج الذهب).

(32) المسعودي: مروج الذهب، ج1، ص341.

(33) المسعودي: مروج الذهب، ج1، ص125.

يناقش من آراء أوردها غيره ممن لم يتمتعوا بهذا المصدر الرئيسي، أعني به الرؤية والمشاهدة، فيقول في ص81 من الجزء الأول: (وقد زعم عمر بن بحر الجاحظ أن نهر مهران الذي هو نهر السند من النيل ويستدل على أنه من النيل لوجود التماسيح فيه.. فلست أدري كيف وقع له هذا الدليل.. لأن الرجل لم يسلك البحار ولا أكثر الأسفار ولا يعرف المسالك والأمصار، وإنما كان حاطب ليل ينقل من كتب الوراقين)[34].

كتاب المسعودي إذن هو عمل موسوعي يضم إلى جوار التاريخ مشاهدات الكاتب وآرائه وما وقع عليه من معرفة بعادات الشعوب وثقافاتها ومعتقداتها، فقد دوّن المسعودي كل ما سمع، وشاهد الكثير من المعتقدات الشعبية الموجودة في عصره وأيضًا مظاهر الحياة الاجتماعية والسياسية التي تكشف الستار عن حقيقة نبض الشعوب التي تحدث عنها وأفاض في وصفها والنقل عن "الثقات" من أهلها، مما جعل كتابه حقلاً خصبًا يفيد منه البحث في تقصي الخرافات والأساطير.

أما كتاب "صورة الأرض" فهو كتاب جغرافي جامع يكشف عن النظرة الجغرافية لمصر والعالم المعروف آنذاك، تأليف ابن حوقل من جغرافيي القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) الذي حاول أن يضع كتابًا لا يأخذه من أفواه الناس ولا مما قرأه، وإنما يأخذه عن عينه ومشاهداته[35] في العالم الإسلامي، ولكننا في النهاية ننتقل في كتابه بين أخبار جغرافية وتاريخية وقصصية ومشاهدات يرويها، ومن هنا كانت أهمية المادة الموجودة به، التي أفاد منها البحث في جوانب شتى.

---

(34) نفسه، ج1، ص81.

(35) شوقي ضيف: الرحلات (الطبعة الثالثة، دار المعارف، القاهرة 1979م)، ص12.

ويبدو أن ابن حوقل كان معنيًا بتدوين كل ما يصل إليه علمه مما يفيد موضوعه منذ بداية خروجه عام 331هـ، والدليل على ذلك هذا التوثيق لبداية رحلاته، كما يدل عليه أيضًا ذكر أسماء مصادره أو صفاتهم في أغلب الأحوال، مما يعني اهتمامًا بالخبر والمخبر معًا. بل إنه كان يسأل مصدره أكثر من مرة عن الخبر الواحد -في أزمنة مختلفة- حتى يتأكد من صحته، يقول: (وكنت إذا لقيت الرجل الذي أظنه صادقًا وأخاله بما أسأله عنه خبيرًا فأجد -عند إعادة الخبر الذي أعتقد فيه صدقه وقد حفظت نسقه وتأملت طرقه ووصفه- أكثر ذلك باطلاً، وأرى الحاكي بأكثر ما حكاه جاهلاً، ثم أعاوده الخبر الذي ألتمسه منه.. وأجمع بينهما وبين حكاية ثالث بالعدل والسوية، فتتنافر الأقوال وتتنافى الحكايات)(36).

أهمية "صورة الأرض" لهذا البحث تتلخص في كون ابن حوقل كان موقفه من العجائب والغرائب علميًا، فقد نزّه كتابه عن ذكر ما لا يُعقل قدر الإمكان، وحاول أن يتأكد من صحة ما يُروى له، فقد سمع عن سمكة "العروس" بالإسكندرية حكاية غريبة (ورأيتها أنا وجماعة من ذوي التحصيل فشهدوا بكذب هذه الحكاية)(37)، وهو ما لم يفعله غيره ممن رووا الحكاية نفسها(38).

ويحسب له أيضًا أنه ناقش المعتقدات الجغرافية الخرافية المستقرة في عصره،

---

(36) ابن حوقل (أبي القاسم بن حوقل النصيبي) (ت 367هـ): صورة الأرض (تحقيق: كرامرس، ليدن 1967م)، ص329.

(37) ابن حوقل: صورة الأرض، ص157.

(38) انظر: مروج الذهب، ج1، ص356، المسالك والممالك للإصطخري، ص41، أحسن التقاسيم، ص208، الإفادة والاعتبار للبغدادي، ص43.

وانتهى إلى نقدها مثل أن الأرض مصورة بصورة طائر[39]، وأن الدنيا مسيرة خمسمئة عام[40]، ومع هذا جاءت لغة كتاب ابن حوقل مميزة -إذا قورنت بغيرها- حسبما يرى "آدم متز" فقد (جاءت كتب المقدسي وابن حوقل في القرن الرابع الهجري، فكانت هي الذروة التي بلغها العرب في وصف البلدان، وكلاهما قد سافر حتى دوخ المسالك وحمل تيار الأسفار واستهوته حياة الارتحال والسياحة على طريقة المسلمين.. وكلاهما قد انتهت إليه اللغة و.. وقد استعملاها في فنهما استعمال من يملك ناصيتها، وإن كان ابن حوقل في ذلك أقل إظهارًا لتكلف الطرافة والجمال من المقدسي)[41].

من المصادر القيمة التي أسهمت في هذا البحث كتاب "**أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**" للمقدسي الذي يعد من الأعمال القليلة التي نالت تأييد رهط غير قليل من الباحثين -من عرب ومستعربين- على أنه عمل مميز، مما جعل تأييدهم يكتسي أهمية بالغة، وقد أيَّد البحث العلمي الموضوعي ذلك الإجماع، مما جعل من هذا العمل أكثر قيمة وأدعى للاحترام ونال -وما زال ينال- إعجاب وتقدير كل من تعاملوا معه نظرًا لما تميز به من جدة وطرافة.

وقد تناول فيه أحوال كل بلدة وأهلها من طبائع وعادات حتى في لغاتهم، والكتاب بذلك يعد طرفة حقيقة، ففيه مادة غنية عن سكان كل بلدة بما فيها مصر

---

(39) ابن حوقل: صورة الأرض، ص209.

(40) نفسه: ص527.

(41) آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري (الجزء الثاني، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة، الطبعة الثالثة، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة 2003م)، ص4، ص5.

وما يمتازون به في طعامهم وثيابهم وعبادتهم ونسكهم، فيعرض علينا سكان العالم الإسلامي بكل خصائصهم وصفاتهم[42] كقوله عن سكان العالم الإسلامي: (وأكثرها عبادًا وقراءً وأموالاً ومتجرًا وخصائص وحبوبًا مصر..) والكتاب هكذا (نموذج للكتاب العلمي المرتب المنظم المبوب المقسم)[43]، رغم أنه قد اختلطت في هذا الكتاب الجغرافيا بالأخبار وعجائب الآثار والخرافات والأساطير بجانب أحوال الناس والعمران في تناغم آسرين، وكانت مخيلة المقدسي من المخيلات اللاقطة التي تلتقط كل ما تشاهده وتسجله مع التحقيق والتدقيق في الرؤية وما ينقله عن الأفواه والشفاه[44]، مما جعله حقلاً خصيبًا ينهل منه البحث في جوانب شتى وإشارات غزيرة منها صريح الدلالة ومنها خفيها، واتبع في ذلك نهجًا علميًّا صارمًا -في أغلب الأحيان- كفل له تقديم صورة شديدة الوضوح غنية المحتوى لمصر والعالم الإسلامي. واعتمد كذلك على الدراسة الميدانية المباشرة، مما أحدث شيئًا من التوازن في المضمون وأبعد عن الكتاب شبح الجفاف الصرف أو العلمية البحتة[45].

وحفظ لنا المقدسي عن مصر بعض الملاحظات الطريفة التي تدل على دقة النظر مثل أن النيل كان يصب في البحرين الأحمر والمتوسط قديمًا، ونقل ذلك عن بعض العلماء المصريين ليؤيد نظريته في التقاء البحرين وتحديدهما، وأن بنائي المسجد

---

(42) شوقي ضيف: الرحلات، مرجع سابق، ص15، ص16.

(43) نقولا زيادة: الجغرافيا والرحلات عند العرب (دار الكتاب اللبناني المصري، القاهرة 1962م)، ص50.

(44) ناصر عبد الرازق الموافي: الرحلة في الأدب العربي، ص172.

(45) نفسه: ص186، ص187.

الحرام من مصر والشام بدليل أسمائهم المكتوبة على الحائط[46]، وكذلك لاحظ المقدسي أن المصريين (يكثرون الإشارة في الصلاة والنخع والمخاط في المساجد ويجعلونه تحت الحصير وأنهم يحبون رؤوس السدمك)[47]، ويصف أبا الهول بأنه صنم يزعم أن (الشيطان كان يدخله فيكلمه حتى كُسر أنفه وشفتاه)[48]، ومعنى هذا كله أن كتاب المقدسي يحتوي على ثروة من الموروث الشعبي كبيرة جديرة بدرس خاص يكشف عن أسرارها أضاءت لنا العديد من النقاط المهمة.

كما تجدر الإشارة إلى كتابين، أولهما: "**آثار البلاد وأخبار العباد**" في الجغرافيا، والثاني "**عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات**" للقزويني الذي عاش في القرن السابع الهجري وتُوفي سنة (682هـ/ 1283م) واسمه زكريا بن محمد. ويعد كتابه الجغرافي من أطرف الكتب الجغرافية عند العرب، وهو فيه لا يهتم بالمسالك، إنما يهتم بأحوال البلاد والسكان، مضيفًا كل ما يستطيع من طرفه نادرة وعجيبة خارقة، وقد قسَّم الكتاب إلى سبعة أقاليم، تكلم في كل إقليم عن بلاده مرتبًا لها على حروف المعجم[49]، وآثار القزويني كلها تتصل بعلمي الجغرافية ووصف الكائنات، وكتابه هذا "**آثار البلاد وأخبار العباد**" يساوي في قيمته كتابه عجائب المخلوقات، فقد جمع فيه كما يقول في مقدمته: (كل ما وقع له وعرفه وسمع به

---

(46) المقدسي (شمس الدين أبي عبد الله): كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم (الطبعة الثانية، مطبعة بريل، ليدن 1909م)، ص73.

(47) المقدسي: كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص205.

(48) المقدسي: كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص210.

(49) شوقي ضيف: الرحلات، ص21.

وشاهده من لطائف صنع الله وعجائب حكمته المودعة في بلاده وعباده)[50]، ليفتح القزويني في كتابه باب الخرافة والأساطير على مصراعيه، ليجمع الكتاب لنا خوارق النساك والمتصوفة بجانب خوارق البنيان والآثار، ومن حين إلى حين نلتقي بغرائب الأخبار لا في الإنسان، بل أيضًا في الطير والحيوان البري والبحري والزواحف وعجائب الحيوانات النيلية، ونقل أخبارًا وحكايات كثيرة عن الرواة الذين كانوا يوردون الخرافات والمستحيلات دون تمحيص، وكان يقبلها على علاتها ويثبتها دون أن يحكم عقله على أنه كان يتخلص أحيانًا من تبعتها بقوله: (والله أعلم).

ومن أمثلة وصفه قوله: (عجائب مصر حوض لعين ماء منقور في حجر عظيم يسيل الماء إلى الحوض من تلك العين من جبل بجنب كنيسة، فإذا مسَّ ذلك الماء جُنبًا أو حائضًا انقطع الماء السائل من ساعته وينتن)[51].

فالكتاب حافل بالأفكار العامية السيَّارة والشائعة غير المحققة علميًّا، ورغم ذلك فالكتاب يعتبر من بواكير دراسة الإنسان، مقترنًا ببيئته الجغرافية وفي إطار من المعتقدات والعادات والتقاليد والغرائب، ولا غرو في ذلك، فقد كان الاهتمام بـ"**عجائب المخلوقات**" قاسمًا مشتركًا بين كتب الجغرافيين والمؤرخين والأدباء في العصور الوسطى والإسلامية. المهم أن المؤلفين العرب والمسلمين في تلك العصور حرصوا على الالتزام بالمفهوم القديم للأدب بمعناه العام، أي ذلك الأدب الذي يصلح

---

(50) القزويني (زكريا بن محمد بن محمود) (ت 1283م): آثار البلاد وأخبار العباد، (الجزء الأول، سلسلة الدراسات الشعبية، العدد 77، القاهرة 2003م)، ص5.

(51) القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، ص270.

زادًا للإنسان الشريف الذي يقع في منزلة بين المنزلتين في المجتمع الإسلامي، فلا هو من عامَّة الناس الذين يعيشون على إبداعهم الشعبي تأليفًا وتلقينًا، ولا هو من الطغاة والحكام والقادة العسكريين، بل هو من الطبقة -ذاتها- التي ينتمي إليها هؤلاء المؤلفون: التجار والإداريون والعلماء والكتاب.

فالفكر العجائبي والغرائبي والخرافي في المؤلفات القديمة ينهل بغير حساب من كل مناهل المعرفة -عالم البحر والبلدان والأساطير والجبال والكائنات ناقصي الخلقة والشعوب الأسطورية مثل: يأجوج ومأجوج والموروثات الشعبية الفارسية والهندية والعربية- والعجائب التي تقع عليها عيون الرحالة والتجار في عوالم الجماد والحيوان والنبات[52]، وقد بلغ الاهتمام بتلك العوامل الغرائبية أن فرضت نفسها على كتاب القزويني الذي ألفه أساسًا لوصف الأرض ومسالكها وممالكها فسماه بـ"**عجائب المخلوقات**" الذي أفاد الدراسة التي فوق راحة اليد الآن في كثير من نواحيها.

ولا بد أن نشير هنا إلى كثرة الكتب التي أُلفت في العصور الوسطى على هذا الطراز، وربما كان أقربها إلى الواقع "**معجم البلدان**" لياقوت الحموي الذي ألفه سنة 626هـ/ 1228م، ورتَّب البلدان فيه على حروف الهجاء، ولم يفتح في كتابه باب الخرافة والأساطير على مصراعيه، كما صنع القزويني وراء هذه الكتب التي وصفناها كتبًا جغرافية كثيرة تذهب مذهبها من مزج المعلومات الخاصة بوصف الأرض بمعلومات كثيرة تاريخية وعمرانية مع ذكر العجائب في البنيان والحيوان والطير في عالمي

---

(52) سيد خميس: وصل ما انقطع.. قراءات في التراث العربي الإسلامي (سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة 2002م)، ص44.

البر والبحر في امتزاج حيوي مع الخرافات والأساطير، ومن أشهرها "كتاب البلدان لليعقوبي"، و"الأعلاق النفيسة" لابن رسته، و"البلدان" لابن الفقيه، وأُفردت كتب للعجائب التي ساقها الجغرافيون والمؤرخون، وأعانت تلك الدراسة كثيراً بمعين لا ينضب بما دار فيها من حكايات خرافية شاعت في الأوساط الشعبية آنذاك، ومن أشهرها "**خريدة العجائب وفريدة الغرائب**" لابن الوردي، و"**نخبة الدهر في عجائب البر والبحر**"، وجميعها تلبي رغبة الناس في قراءة الخوارق والعجائب وتعكس بالضرورة نماذج للفكر والسلوك سادت في مصر والبلدان الإسلامية وغيرها طوال فترة التاريخ الإسلامي، وقد أسهمت كل هذه الدراسات في إثراء بنية البحث الذي نحن بصدده.

كما أفاد البحث من المراجع الحديثة الفرعية -لمؤلفين حديثين شرقيين ومستشرقين- التي تناولت الأسطورة كمصطلح ودلالة، أو بحثت عنها في الكتابات التاريخية بجمع ولملمة شذراتها من بطون الكتب القديمة، مع الإفادة منها بالاهتداء إلى المصادر الأصلية للموضوع، وكذا الكتب المتخصصة في الأساطير والفولكلور كدراسة قاسم عبده قاسم "**بين التاريخ والفولكلور**"، وقد خَصَّصَ فيها فصلاً تحت عنوان (الموروث الشعبي والدراسات التاريخية - خطط المقريزي دراسة تطبيقية) تناول فيه بالدرس والتحليل أبعاد العلاقة بين الموروث الشعبي والدراسات التاريخية بما يحتويه ذلك الموروث من أسطورة وسيرة وحكايات شعبية وشعر شعبي وتتبع المادة التراثية الشعبية في التراث العربي باعتبارها (التفسير الشعبي أو الرؤية الشعبية للتاريخ)، التي تأتي في مواجهة ما يكتبه المؤرخون المحترفون، سواء في العصور السابقة أو في عصرنا الحالي، وأفصح عن حدود الموروث الشعبي وطبيعته في الخطط المقريزية، وقدم إلينا ورقة

عمل حول أهمية المادة التراثية في الخطط للمؤرخ، في محاولة منه للكشف عن المسكوت عنه في الدراسات التاريخية في العصور الإسلامية في أسلوب جمع بين الموروث الشعبي والتاريخ من خلال منظومة متكاملة.

أضف إلى ذلك كتاب (**النيل والمجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك**) للمؤلف ذاته، حيث تحدث فيه عن الأساطير والخرافات التي دارت حول النيل في كتابات المؤرخين إلى جانب العديد من الكتب المهمة والدراسات كدراسة كارم عزيز بعنوان "**الأسطورة فجر الإبداع الإنساني**"، ودراسة محمد خليفة حسن الموسومة بـ"**الأسطورة والتأريخ في التراث الشرقي القديم**". وكذا العديد من المراجع الحديثة -سواء العربية منها أو المترجمة أو الأجنبية التي ساعدت كثيرًا في استجلاء غوامض هذا البحث، وقد قمت بإثباتها في قائمة المصادر الملحقة، التي لا يمكن معها الظن بأن موضوع الأساطير والخرافات في كتابات المؤرخين قد استكمل حقه بحثًا ونقدًا وتحليلاً، وذلك لضيق المقام بنا لو حاولنا تتبع الخطوات العامّة لأنماط عناصر الموروث الشعبي في كتب التراث العربي ومصادره، ومع كل فإن هذه الدراسة إنما هي محاولة لدراستها، يرجى أن تتبعها محاولات أكثر شمولا ومنهجية لكشف جوانب هذه النوعية من التاريخ، واقتحام منطقة بحثية معرفية تحتاج إلى الكثير من جهود الباحثين العرب لاكتشاف الكثير من جوانبها الخفية كشفًا عربيًا صرفًا، لا نحتاج بعده إلا إلى التواصل مع الغرب في هذا المجال كأنداد لا متلقين تابعين.

الفصل الأول..
العلاقة بين التاريخ والأسطورة

"كلما بَعُدَ التاريخُ عن القصصِ والخيالِ، ازداد بُعْد العامَّة عن تذوقه وتعلمه".

سَهير القلماوي

(ألف ليلة وليلة/ 207).

بدأت رحلة العلاقة بين التاريخ والأسطورة منذ زمن مبكر في عمر الإنسان على سطح هذا الكوكب، كانت البداية مرتبطة برغبة الإنسان في معرفة أصول الأشياء والعلاقات داخل هذا الكون، ولما كانت التسجيلات "التاريخية" ناقصة وجزئية، وربما غائبة في كثير من الأحيان، لجأ الإنسان إلى الخيال لكي يعوض به النقص ويسد الثغرات في تاريخ نشاطه في الماضي، وهنا اختلطت حقائق التاريخ بموضوعات الأساطير، وجاءت "القراءة" الأولى لتاريخ الإنسانية قراءة أسطورية تمثلت في نواة تاريخية محملة بالكثير من الخيال والتصورات والإسقاطات والصياغات التعويضية، وفي هذه "القراءة" الأولى لم يكن "المنهج" بمعناه العلمي موجودًا وإنما وجد بشكل بدائي، إذ كان الهدف هو رسم صورة للماضي تروي ظمأ الإنسان وتعطشه إلى المعرفة "التاريخية"، فالإنسان مولع بمعرفة الماضي لكي يفهم أصول الحاضر، وهذه الرغبة الطبيعية في معرفة الماضي هي التي حفزته على هذا النوع من القراءة الأسطورية للتاريخ، في محاولة للإجابة عن السؤال المضني "لماذا"؟ لماذا جرت الأمور على هذا النحو؟ وما أصول الأشياء والظواهر والعلاقات داخل الكون؟[53].

---

(53) قاسم عبده قاسم: تطور منهج البحث في الدراسات التاريخية (ط أولى، دار عين للدراسات، القاهرة 2000م)، ص5، 6.

وفي طيات المحاولات الدائبة التي بذلها الإنسان للحصول على إجابة مرضية لهذا السؤال ظهر "علم التاريخ" باعتباره أحد الأدوات التي يستخدمها الإنسان لفهم حقيقة الوجود الإنساني في ماضيه وحاضره ومستقبله، وهكذا تحددت، منذ البداية، قيمة المعرفة التاريخية بوظيفتها الثقافية/ الاجتماعية، ومن ثم كانت المعرفة التاريخية، سواء في شكلها الأولي المثقل بالعناصر الأسطورية والدينية، أو في تطورها الحالي، ليتمخض لدينا الرأي القائل بأن المعرفة التاريخية نشأت في رحم الأسطورة (التي هي نمط من التصور الشعبي للكون والعلاقات والأشياء داخل هذا الكون من ناحية، كما أنها تعبير شعبي عن رؤية الجماعة لذاتها، وأصولها وتطورها التاريخي من ناحية ثانية)، ثم عادت في تطورها الأخير لتمد وشائج الصلة بكل أنماط الموروث الشعبي[54].

وعلى الرغم من كثرة الشكوك التي أثيرت حول القيمة التاريخية للأساطير، فإن كثيرًا من الباحثين عدَّ الأسطورة مصدرًا من مصادر التاريخ، وتمكن هؤلاء من التعامل مع المادة الواردة في الأساطير واستخلاص القيمة التاريخية منها، وذهبوا إلى أنه على كل حال ستبقى الأسطورة أحد مصادر الاستدلال في البحث التاريخي وإن لم تكن هي التاريخ.[55]

وزعم الباحثون وعلماء الميثولوجيا أن الأساطير تمثل طفولة العقل البشري، وبدايات تعبيره عن الحقائق وتفسيره للظواهر الطبيعية برؤى خيالية توارثتها الأجيال،

---

(54) قاسم عبده قاسم: بين التاريخ والفولكلور (الطبعة الثانية، دار عين للدراسات، القاهرة 1998م)، ص6.

(55) وديع بشور: الميثولوجيا السورية وأساطير آرام (الطبعة الأولى، دار الحوار للنشر والتوزيع، دمشق 2001م)، ص17.

وهو زعم قائم على فرضية أن الأوائل اخترعوا أساطيرهم، لأنهم اختلقوا دينهم تأثرًا بجهلهم في تفسير قوى الطبيعة التي هي غيب وقوى خفية وأسرار وسحر بالنسبة إليهم، فلما نضج العقل اعتمد العلم بدلاً من الأساطير"[56].

هذه الفرضية تبدو غير صحيحة، ولعل السبب الذي حذا بهم إلى ذلك، نظرتهم إلى أساطير كل العالم نظرة واحدة دون تفريق، فملاحظاتهم تبدو صحيحة، وقد تنطبق على مدونات وأساطير بعض الشعوب، إذ جنحت أغلب أساطير الشعوب إلى الخيال واللا معقولية، إلا أن تعميم هذه الافتراضات على كل ما خلفه لنا التراث القديم يعد تعميمًا مجحفًا في حق أولئك الذين سجلوا بأساطيرهم حقيقة وحفظوا تاريخًا.

واتفق المؤرخون على أن الأسطورة تعود إلى أزمان سحيقة للتاريخ الإنساني قبل معرفة الكتابة بزمن طويل[57]، أما متى بدأ عصر الكتابة الرمزية وأين فلا يعرف حتى الآن، وفي التراث نجد أن [آنوش هو أول من خدش الخدوش][58]، وآنوش من سلالة

---

(56) مجموعة باحثين: الأسطورة توثيق حضاري (سلسلة السراة، الطبعة الأولى، البحرين 2005)، ص29.

(57) فراس السواح: مغامرة العقل الأولى دراسة في الأسطورة السورية، وبلاد الرافدين (الطبعة العاشرة، دار علاء الدين، دمشق 1993)، ص14.

(58) (الخدش): في كلام أهل مصر يعني الجرح، يقولون: "خدشه" إذا جرحه قليلاً، ويخدشه من باب ضربه وأدماه أو لم يدمه، خدشته خدشًا من باب جرحته في ظاهر الجلد، وسواء دمي الجلد، أو لا فهي أوضح. انظر الشافعي: (محمد بن أبي السرور) ت 1087هـ: القول المقتضب فيما وافق لغة أهل مصر من لغات العرب، (تحقيق: السيد إبراهيم سالم، الطبعة الأولى، دار الفكر العربي، القاهرة 1962م)، ص71، ويقال من المجاز: وقع في الأرض تخديش، وهو القليل من المطر، وبقلبه خدشه وهي الشيء من الأذى. انظر: الزمخشري (جار الله أبي القاسم محمود)، أساس البلاغة، (الجزء الأول، الطبعة الثالثة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1985م)،

آدم الإنسان الأول، اهتدى إلى النقش على الطين بعد أن لاحظ طباعة أقدامه على الأرض.

والأسطورة في اللغة العربية من (سطر) الفعل الثلاثي، ففي "العين" نطالع ما نصه "سطر" يسطُر، إذا كتب[59]، وفي التنزيل: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾[60]، وهي بمعنى تقسيم وتصفيف الأشياء، فالأسطورة تعني الكلام المسطور المصفوف، ولا يشترط فيها أن تكون مدونة أو مكتوبة، ولكن بالضرورة هي الكلام المنظوم سطرًا وراء سطر، فتظهر مصفوفة كقصائد الشعر، مما يسهل حفظها وتداولها ويحافظ على بنيانها وكلماتها[61]، وعلى ذلك يقول المعاندون للقرآن: "ما هذا إلا أساطير" ولم يروا الأساطير مكتوبة، وليس أغلبهم لهم علم بتدوينها بل هو علم بها تناقلوه شفويًّا بسطورها المحفوظة.

وقد زعم بعض الباحثين أن الكلمة مقتبسة من اللغة اليونانية، يقول إبراهيم شعلان: "الأساطير: الأباطيل، الواحدة "أسطورة"، والأصل يوناني هُستريا: حكاية، تاريخ، ومنه **istoreya**، "إسطوريا" بالمعنى نفسه في السريانية. وفي الفارسية **ustur** "أسطور" بمعنى حكاية عن اليونانية هستريا[62]، وهي على حد قول وديع بشور:

ص218.

(59) الفراهيدي (الخليل بن أحمد) (ت 175 هـ): العين (تحقيق: مهدي المخزومي، إبراهيم السامرائي، دار الحرية، بغداد 1984م)، ص210.

(60) القلم: آية 1.

(61) مجموعة من الباحثين: الأسطورة توثيق حضاري، ص15.

(62) إبراهيم خليفة شعلان، ثنائية الألفاظ في العربية أسبابها وأصولها (طالأولى، الزقازيق 1998م)، ص14.

"مقتبسة من كلمة "أستوريا" **historia** اليونانية وتعني حكاية أو قصة"[63]. فهل الكلمة حديثة لم يعثر لها على أصل في معاجم اللغة العربية لكي يقال عنها إنها يونانية!!، رغم تسليمنا بأن حروفًا أعجمية سقطت إلى العرب فأعربتها بألسنتها وحولتها عن ألفاظ العجم إلى ألفاظها فصارت عربية، ثم نزل القرآن فاختلطت هذه الحروف بكلام العرب فمن قال: إنها عربية فقد صدق، ومن قال: إنها أعجمية فقد صدق أيضًا[64].

ونجد في المحيط: "سطر تسطيرًا، ألَّف علينا وأتانا بالأساطير"[65]، ومنها "السطر: الصف من الشيء كالكتاب والشجر والنخل وغيره"[66]، والأساطير: جمع أسطورة نحو أرجوحة وأراجيح، وأثفية وأثافي، وأحدوثة وأحاديث، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾، أي شيء كتبوه كذبًا ومينًا في ما زعموا، نحو قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾، ومن هذا الباب أيضًا يقال: "هو يُسطّر ما لا أصل له، أي يؤلف، وسطر يسطر إذا كتب"[67].

---

(63) وديع بشور: الميثولوجيا السورية: أساطير آرام (طالأولى، دار الحوار للنشر، دمشق2001م)، ص9.

(64) حسين مجيب المصري: الأسطورة بين العرب والفرس والترك دراسة مقارنة (الأنجلو المصرية، القاهرة 1991م)، ص13.

(65) الفيروز آبادي (أبو طاهر محمد بن يعقوب) (ت 817هـ): القاموس المحيط (مطبعة السعادة بمصر، د.ت)، فصل السين باب الراء.

(66) الزبيدي (محمد مرتضى الحسيني) (ت 1205هـ)، تاج العروس من جواهر القاموس (منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت د.ت)، ص302.

(67) الأزهري (أبو منصور محمد) (ت 370هـ): تهذيب اللغة (تحقيق: عبد السلام هارون، الدار القومية للطباعة،

فالكلمة عربية الأصل وجذرها من الفعل الثلاثي "سطر"، وباعتبار أن لكل كلمة مشتقة (في العربية) جانبين: الأول مادتها، والثاني صيغتها أو وزنها، فمادة كلمة "أسطورة" تقوم على جذر يدل على المعنى العام الذي يجمع بين سائر المشتقات منه كما ذكرنا، أما وزنها فوجدناه كما سبق عند الأزهري على وزن "أُفعولة" كأحدوثة وألعوبة وغيرها، وجمعها "أساطير" على وزن "أفاعيل" كأحاديث، وهذا ما يؤكد أن كلمة أسطورة هي أحد اشتقاقات الجذر الثلاثي (س ط ر) على وزن أفعولة، مما يعني أن الرأي المذكور سابقًا قلب الحقيقة تمامًا، وهو من آثار فرض آراء الغربيين وتفسيراتهم على تراثنا وتاريخنا.

إذن، الكلمة عربية في أصلها عبرت إلى شبه الجزيرة اليونانية مع حركة القدماء العرب وهجرتهم، هذه الكلمة كغيرها من الكلمات العربية شكلت جذور اللغة اليونانية التي نسب إليها واضعو التاريخ في عصرنا الحديث الأصول الإغريقية للمصطلحات والألفاظ، وغضوا الطرف عن أصولها العربية، وهو ما أفقدهم في كثير من الأحيان الموضوعية[68].

والحق أن الكلمة حديثًا أصبحت تعني السطور أو الأخبار القديمة المدونة المسطورة، وهي بمثابة أول كتاب في التاريخ، وقد انتقلت الكلمة إلى اللغات الأجنبية، وتطورت لتصبح [هستوريا]، والهاء حرف تعريف في اللهجة العربية الفينيقية، ثم صارت تعني في ما بعد بـ"التاريخ" في عدة لغات، مع قليل من الاختلافات، فعند

القاهرة 1384 هـ)، ص326

(68) مجموعة من الباحثين: اللسان العربي بُعد فطري وارتباط كوني (جمعية التجديد، البحرين 2005م) ص170.

اليونان أستورا، وتعني حكاية أو قصة كما تعني "تاريخ"، وفي الإنجليزية نجد كلمة **history** بمعنى تاريخ، وهي كلمة مشتقة من الكلمة العربية أسطورة، التي تعني بكتابة التاريخ وتدوينه.

على جانب آخر، نجد أن الأسطورة لا تعني بالضرورة كل ما كتب وسُطر، وليس كل المسطور في التاريخ هو من الأساطير، ولا يقال عن المسطور إنه "أسطورة" إلا باعتبارات معينة أهمها مادتها العلمية ذات الطابع المقدس، وصياغتها في هيئة رمزية تضفي عليها طابعًا سحريًّا قادرًا على تحفيز وقيادة المشاعر والاتجاهات، وعلينا البحث عن تلك الاعتبارات واستخلاصها من المدونات التي بين أيدينا، فليست كلها نصوصًا مقدسة[69]. ويعد ذلك مرتكزًا أساسيًّا في تناولنا للأساطير، واعتمادنا عليها في تفسير التاريخ والحقائق، خصوصًا في ضوء الكميات الكبيرة جدًّا من المدونات القديمة التي تناولت موضوعات متعددة في شؤون التاريخ والحياة المختلفة.

أما إشكالية التعامل العربي مع الأسطورة ومفهومها بكل ما تستثيره من تحيزات أو إخفاقات أو صناعة للقوالب الذهنية تثير مفارقة واضحة، خصوصًا لدى من يحاولون استلهام الإدراك الحقيقي لماهية الأسطورة، أو حتى لوضع تعريف لها من خلال الغرب. ولا يمكن القول: إن مفهوم الأسطورة اصطلاحًا ينتمي إلى الغرب أو الشرق على حد سواء، مرجع هذا إلى اختلاف مفهومها في تراث كل منهما، فهي ليست ابنًا شرعيًّا أو غير شرعي للغرب بشكل مطلق، كما أنها لم تكن في أولويات تطبيقات الدرس العربي.

(69) مجموعة من الباحثين: الأسطورة توثيق حضاري، ص24

جاء في كتاب الميثولوجيا السورية، تعريف الأسطورة عن الباحث (ميرسيا إيلياد): "إن الميتوس (mythos) وهي عند الإغريق تعني حكاية، والأسطورة تروي قصة مقدسة وحادثًا وقع في زمن البدء سواء أكان ما أتى إلى الوجود هو الكون أو جزء منه، ولا يروي الميتوس إلا ما حدث فعلاً ويفسر ما هو كائن وموجود فعلاً، لذلك فهو قصة حقيقية"، ويضيف: "إن الأساطير تنبعث من حاجة دينية عميقة وتوق أخلاقي وانضباطات وتحديات تظهر في صيغة اجتماعية ومتطلبات عملية. وفي الحضارات القديمة البدائية تلعب الأساطير دورًا ضروريًّا، إذ إنها تعبِّر عن المعتقدات، أنها تشريع حقيقي للديانة البدائية وللحكمة العملية كما يقول مالينوفسكي"(70).

ويضيف (مالينوفسكي) أن الأسطورة إذا درست وهي حية فعالة فإنها لا تكون تفسيرًا يتطلبه إشباع الولع بالعلم، وإنما هي بعث روائي لحقيقة أزلية، يروى لإشباع رغبات دينية عميقة وحاجات أخلاقية ومتطلبات اجتماعية واحتياجات عملية"(71).

ويرى (يوهيمروس): "أن الأسطورة هي التاريخ في صورة متنكرة"، كما يضيف (ماكس موللر): "أنها مرض من أمراض اللغة"(72).

أما "أرنست كاسيرر" فيؤكد: "أن الأسطورة لا تمثل قوة أساسية في تطور الحضارة الإنسانية، عبر الإنسان من خلال رموزها عن اهتماماته وتطلعاته، وقد وجد

---

(70) وديع بشور: الميثولوجيا السورية، ص11.

(71) Malinowski, Bronislaw, Magic. Science and Religion, and other Essays, Doubleday, Company, Inc, New York, 1954, P. 101.

(72) محمد عبد المعيد خان: الأساطير والخرافات عند العرب (الطبعة الثالثة، دار الحداثة، بيروت 1981م)، ص17.

أنها تكون مع اللغة والفن والدين صورًا حضارية، تبدعها طاقة الإنسان الرمزية"[73].

هذا، في حين أن البعض رأى أن "الأساطير علم قديم، وهو أقدم مصدر لجميع المعارف الإنسانية، لذا فإن الكلمة ترتبط دائمًا ببداية الناس"[74]، لذا فهي "قصة تراثية تم قبولها باعتبارها قصة تاريخية تشتمل على معتقدات الناس في ما يتعلق بالخلق والآلهة والكون والحياة والموت"[75]، كما رآها البعض: أنها "روايات محرفة للأحداث التاريخية"[76].

ويقدم فراس السواح في كتابه "**الأسطورة والمعنى**" مقدمة مهمة قبل طرح تعريف الأسطورة عَيَّن فيها المعايير الدقيقة التي تميز النص الأسطوري عن غيره من النصوص، وهو يرى أن تحديد المعايير يعتبر أمرًا بعيد التحقق في ضوء الوضعية الراهنة للبحث الميثولوجي[77]، حيث يخلص إلى عدة نقاط نجتزئ منها ما هو آت[78]:

1- من حيث الشكل، الأسطورة هي قصة بما تحويه من حبكة وعقدة، وشخصيات مصاغة في قالب شعري يساعد على سرعة تداولها وحفظها.

2- يحافظ النص الأسطوري على ثباته عبر فترة طويلة من الزمن، وتتناقله

---

(73) عبد الباسط سيدا، من الوعي الأسطوري إلى بدايات التفكير الفلسفي النظري، بلاد الرافدين تحديدًا (الطبعة الأولى، دار الحصاد للنشر، سوريا، 1995)، ص19.

(74) أحمد كمال زكي: الأساطير دراسة حضارية مقارنة (ط1، مكتبة الشباب، مصر، 1975)، ص44.

(75) Montague, Ashley, Man: his first million yers. The New American Library, New York, 1957, P. 148.

(76) Money – Kyrle, Roger. Superstition and society Hogarth Press. London, 1939, P. 18.

(77) مجموعة من الباحثين، الأسطورة توثيق حضاري، ص20.

(78) فراس السواح: الأسطورة والمعنى: دراسات في الميثولوجيا والديانات الشرقية (ط2، دار علاء الدين، دمشق 2001م)، ص12- 14.

الأجيال ما دام حافظ على طاقته الإيحائية بالنسبة إلى الجماعة دون أن يعني ذلك الجمود أو التحجر، فالفكر الأسطوري قادر على خلق أساطير جديدة أو تجديد الأساطير نفسها أو تعديلها.

3- تتميز موضوعات الأساطير بالجدية والشمولية، مثل مواضيع التكوين والأصول والموت والعالم الآخر ومعنى الحياة وسر الوجود.

4- تبعث الأسطورة رسالة غير زمنية وغير مرتبطة بفترة ما، فهي تنطلق من وراء تقلبات الزمن الإنساني تجعلها أكثر صدقًا وحقيقة عند المؤمن بها من أي مضامين تاريخية أو روائية أخرى.

5- ترتبط الأساطير ارتباطًا وثيقًا بنظام ديني معين وتعمل على توضيح معتقداته.

6- تتمتع الأساطير بقدسية وبسلطة عظيمة على عقول الناس ونفوسهم، وليست نتائج خيال فردي، بل ظاهرة جمعية يخلقها الخيال المشترك للجماعة.

وبهذه المقدمة يخلص فراس السواح إلى التعريف التالي للأساطير فيقول: "إن الأسطورة هي حكاية مقدسة، ذات مضمون عميق يشف عن معاني ذات صلة بالكون والوجود وحياة الإنسان"[79].

من خلال التعريفات والآراء السالفة الذكر، وبالتحليل الدقيق للأساطير باعتبارها جزءًا من التراث القديم المعبر عن نتاجات الأولين وأفكارهم وانعكاس تعليم القوى الربانية لهم، يمكن القول: بأن الأسطورة هي القصة المصفوفة زجلاً أو شعرًا أو

---

(79) فراس السواح: الأسطورة والمعنى، ص14.

نثرًا، بحيث تحوي موضوعًا يتعلق بالقوى العلوية والخفية، وتعبر عن معارف الإنسان الأول وأخلاقه ومستويات علومه وتأملاته، وهي موضوعة في قالب يتضمن الحدث المراد تأريخه سواء كان من صنع الإنسان أو الطبيعة أو الرب، لأجل أن يُتلى ويُتداول ويؤدي دوره في تثقيف العقول وتحريك المشاعر.

ويمكن من خلال دراسة الأساطير اكتشاف المستوى المعرفي والعقائدي والعلمي والأخلاقي والثقافي للشعوب، والتعرف على أطوار التاريخ الإنساني، لأنها تمثل انعكاسًا لمعارف الإنسان الأول وعلومه وحكمته، وهي تعبير عن منطقة وأسلوبه في المعرفة والتفكير، وسبيله لتفسير الأشياء وتعليل أسباب حدوثها[80].

غير أنه ليس كل ما يكتبه الإنسان في ما يتعلق بحياته ونظامه ومعارفه، بل وبتفاصيل سجلاته الحياتية اليومية وتندراته وفكاهاته وسجلات معاملاته التجارية، وأسماء المواليد، وعقود الزواج، وغيرها، هي أساطير، بناءً على تعريف الأسطورة فهذه خارجة فليس كل مدون أسطورة، وهي وإن اشتركت مع غيرها من المدونات، بل ومع الخرافات في صياغتها على هيئة نثرية أو شعرية عاطفية تكثر فيها المحسنات والزيادات، إلا أن هذا التشابه ناتج من طبيعة ذلك الزمان ومستواه الثقافي والاجتماعي[81].

وصف البعض الأسطورة، أنها "العلم البدائي"، ورغم ذلك، فإنه ينبغي القول:

---

(80) مجموعة من الباحثين، الأسطورة توثيق حضاري، ص27.

(81) المرجع نفسه، ص26.

إن المعرفة التاريخية قد ولدت من رحم الأسطورة[82]، بل إن التاريخ -عبر مراحله المختلفة- قد رافق الأسطورة طوال حقب زمنية عدة، ولا عجب -بعدئذٍ- أن أصبح التاريخ والأسطورة شيئًا واحدًا خلال أحد أطوار حياتهما، قبل أن يحدث ذلك الانفصال غير التام بينهما -في ما بعد- إذ إن التاريخ بعد دخول أجواء المرحلة الواقعية المقترنة بنضجه المنهجي أيضًا، يرقد إلى أجواء الأساطير والحكايات الشعبية، في رحلة البحث المستميتة والصعبة عن العناصر المنسية والقلقة لمسيرته التي تفصح عنها الإشارات والإيحاءات والرموز والعلامات، التي كان قد اختزنها "اللا شعور الجمعي" لدى الجماعات بعامة، والمؤرخين بخاصة، ملتمسين انعكاساتها على الأحداث التاريخية، وتقيم القناعة بوجود "اللحمة" بين الأسطورة والتاريخ.

من هنا، يبدو منطقيًّا أن نحاول -بدايةً- أن نتعرف على المعنى اللغوي لكلمة "تاريخ"، خصوصًا بعد أن شاع لدى الكثيرين اقتران مصطلح التاريخ بالأحداث الماضية التي قام بها الإنسان، غير أن هذا المفهوم، وإن شاع، لا يعد بالضرورة حجة علينا، وعليه فمن الواجب البحث عن حقيقة هذا المصطلح.

في سياق تتبع التعاريف اللغوية لكلمة "تاريخ"، نجد أن تعريف الوقت هو المعنى الغالب لدى معاجمنا اللغوية[83]، حيث أشارت إلى أن التاريخ: "تعريف الوقت، والتواريخ مثله، أرخ الكتاب ليوم كذا: وقته والواو فيه لغة، وزعم يعقوب أن الواو بدل

---

(82) قاسم عبده قاسم: تطور منهج البحث في الدراسات التاريخية، ص96.

(83) ابن منظور: لسان العرب (دار الجيل، بيروت 1988م) ج1، ص44، الزبيدي: تاج العروس (دار صادر، بيروت، د.ت)، ج2، ص4، الرازي: مختار الصحاح (مكتبة لبنان، بيروت 1986م)، ص5.

من الهمزة"[84]، أما عن أصل الكلمة فقد اختلف فيه، فقد قيل إنه عربي، وقيل إنه غير ذلك[85]، والراجح أن كلمة (تاريخ) لفظ عربي قديم، وأنها لفظ مشترك في اللغات السامية[86].

جدير بالذكر أن لفظة كلمة "تاريخ" قد استعملت في الاصطلاح على نحوين اثنين، فتارة تستعمل ويُراد بها مضمون ومحتوى المادة التاريخية، وتارة أخرى تستعمل، ويُراد بها طريقة التعامل مع هذه المادة، وهذه الازدواجية في الاستعمال أدت إلى خلط في فهم معنى اللفظ، إذ يوجد تناقض لفظي في (موضوع التاريخ) كما هو الملاحظ في كل من اللغات الإنجليزية والفرنسية والألمانية، مفهومان مختلفان عن بعضهما يستخدمان للدلالة على كلمة واحدة، أما في التاريخ فالمفهومان (موضوع التاريخ) و(علم التاريخ) اشتركا بلفظة واحدة وهي (التاريخ) لبيان مدلولاتهما[87].

يشير قاسم عبده قاسم إلى: "أن هناك تفريقًا شائعًا بين كلمة التاريخ كتعبير دال على مسيرة الإنسان الحضارية على مسطح كوكب الأرض منذ الأزل، وعبارة تدوين التاريخ كتعبير دال عن العملية الفكرية الإنشائية التي تحاول إعادة تسجيل وبناء وتفسير مسيرة الإنسان على كوكبه"[88].

بيد أن عبارة تدوين التاريخ لا تعبر بالضرورة عن الطريقة العلمية للتعامل مع

---

(84) لسان العرب: مادة (أ ر خ).

(85) قاسم عبده قاسم: الرؤية الحضارية للتاريخ، ص17.

(86) حسين نصار: نشأة التدوين التاريخي عند العرب (مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، د.ت)، ص3، نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي (النهضة العربية، ط ثانية، القاهرة 1996م)، ص170.

(87) على شريعتي: الإنسان والتاريخ (ترجمة: خليل علي، ط.أولى، دار الصحف للنشر، طهران، د.ت)، ص10.

(88) قاسم عبده قاسم: الرؤية الحضارية للتاريخ، ص27.

المادة التاريخية، حتى وإن قصد بها واضعو المصطلح ذلك، فهذه العبارة توحي بالجمع والتقييد دون التحليل والتفسير، وهناك مصطلح آخر فرق بين المفهومين وهو: "تفسير التاريخ" ومصطلح آخر، هو: فلسفة التاريخ، ويرى البعض أنه لا يوجد أي اعتراض على مصطلح "فلسفة التاريخ"، لأنها فلسفة في حقل معرفي علمي مفيد، ويمكن اعتباره مصطلحًا مكافئًا لمصطلح "تفسير التاريخ"[89].

وهكذا، يتضح لنا أنه حينما نتحدث عن مفهوم التاريخ فإننا نريد به معرفة المادة التي يمكن أن يطلق عليها مصطلح تاريخ، ونجد أنفسنا في النهاية، قد خرجنا دون تحديد "جامع مانع" للتاريخ، بسبب طبيعة التاريخ نفسه من ناحية، وبسبب عجز اللغة في التفريق الحاسم بين الاستخدامات المختلفة لمصطلح التاريخ من ناحية أخرى، ولكن يمكن القول: "إن ميدان علم التاريخ ومجال اهتمامه هما مسيرة البشر الحضارية في الماضي"[90].

وفي ما يلي بعض الإطلاقات الاصطلاحية للتاريخ، ونعتمد في ذلك على تعريفين لعالمين، أحدهما حاول أن يضع تعريفًا جامعًا مانعًا للتاريخ وقواعد عامَّة، أو قوانين تفسير الحركة التاريخية، ومنهجًا لكتابة التاريخ ودراسته وتفسيره، على حين حاول الثاني أن يكتب تاريخًا للتاريخ[91]، والأول هو (**ولي الدين عبد الرحمن بن**

---

(89) عبد الحليم عويس: تفسير التاريخ علم إسلامي (دار الصحوة للنشر، د.ط، د ت)، ص15، حسين مؤنس: التاريخ والمؤرخون دراسة في علم التاريخ وماهيته وموضوعاته ومذاهبه ومدارسه (طأولى، دار المعارف، القاهرة 1984م)، ص36، ص38.

(90) قاسم عبده قاسم: المرجع السابق، ص28.

(91) نفسه: ص19.

خلدون)، أما الثاني فهو **(شمس الدين عبد الرحمن السخاوي)**، وباعتبارهما من أوائل المتحدثين عن التاريخ والمهتمين به.

يقول السخاوي: "... وفي الاصطلاح التعريف بالوقت الذي تضبط به الأحوال من مولد الرواة والأئمة ووفاة وصحة وعقل وبدن وحج وحفظ وضبط وتوثيق وتجريح، وما أشبه هذا مما مرجعه الفحص عن أحوالهم في ابتدائهم وحالهم واستقبالهم، ويلتحق به ما يتفق من الحوادث والوقائع الجليلة.. وربما يتوسع فيه لبدء الخلق وقصص الأنبياء، وغير ذلك من أمور الأمم الماضية... والحاصل: إنه فن يبحث فيه عن وقائع الزمان من حيثية التعيين والتوقيت، بل عما كان في العالم..."[92].

نلحظ في التعريف أن السخاوي يربط التعريف الاصطلاحي بالتعريف اللغوي ربطًا تامًا، ويتبين ذلك في قوله: "فمن يبحث فيه عن وقائع الزمان من حيثية التعيين والتوقيت، بل عما كان في العالم"، ويبدو أن نظرة السخاوي للتاريخ توحي "بأن وظيفة التاريخ قاصرة على تحديد موقع الحادثة التاريخي زمانًا ومكانًا، على الرغم من أنه يشي بشمولية علم التاريخ"[93].

أما ابن خلدون فيقرر أن التاريخ: "... في ظاهره لا يزيد على أخبار الأيام والدول والسوابق من القرون الأول، تنمو فيها الأقوال، وتضرب فيها الأمثال، وتُطرَفُ بها الأندية إذا غضها الاحتفال، وتؤدي إلينا شأن الخليقة كيف تقلبت بها الأحوال، واتسع للدول فيها النطاق والمجال، وعمروا الأرض حتى نادى بهم الارتحال، وحان

---

(92) السخاوي (شمس الدين محمد بن عبد الرحمن) (ت 902 هـ): الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ (دراسة وتحقيق: محمد الخشت، الطبعة الأولى. مكتبة ابن سينا، القاهرة 1995م)، ص20- 21.

(93) قاسم عبده قاسم: الرؤية الحضارية للتاريخ، ص21.

منهم الزوال، وفي باطنه نظر وتحقيق، وتعليل للكائنات ومباديها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق، فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق، وجدير بأن يعد في علومها وخليق"[94].

ويتضح لنا أن ابن خلدون قد فرّق بين مفهوم التاريخ كمادة ومضمون، وبين التاريخ كطريقة تعامل مع تلك المادة، وقد استعمل في ذلك لفظي "في ظاهره.. في باطنه"، كما يبدو أنه حصر المادة التاريخية في الأحداث الإنسانية الماضية، وعمومًا سنجد شبه توافق عام بين المهتمين بدراسة التاريخ على أن التاريخ هو معرض الأحداث الماضية، وأن الماضي الإنساني وتطور المسيرة البشرية هما موضوع التاريخ الذي يهتم بالإنسان والزمان معًا(95)، ويلهث وراء الإنسان في محاولة لأن يَفْهمه وأن يُفْهمه حقيقة ذاته، عندئذٍ تم اللجوء إلى الأسطورة في بدايات رحلة تفسير نشأة الكون، وبدايات الإنسان وذاته وعلاقته بالكائنات، والظواهر الأخرى في الكون، وحاولت الأسطورة هنا أن تفسر كل غوامض الكون للإنسان في بداية رحلة الوجود الإنساني. بيد أن الأسطورة عجزت عن توضيح البعد الزمني والبعد المكاني في تجربة الإنسان التاريخية(96).

ورغم عجز علماء الميثولوچيا عن فهم أو تكوين الصورة الكاملة التي أراد الأولون تسجيلها والأخذ بالاعتبار عاملي الزمان والمكان، فمع كل ما تحمله

---

(94) ابن خلدون: (عبد الرحمن بن محمد)، مقدمة ابن خلدون (الجزء الأول، تحقيق: علي عبد الواحد، مكتبة الأسرة، القاهرة 2006م)، ص282.

(95) قاسم عبده قاسم: في تطور الفكر التاريخي (طأولى، دار عين، القاهرة، 2004م)، ص21.

(96) قاسم عبده قاسم: بين التاريخ والفولكلور (طبعة الهيئة العامّة لقصور الثقافة، القاهرة، 1997م)، ص16، 17.

الأسطورة من النزعات الخيالية، فإن ذلك لا يعني أن ليس للأسطورة قيمة تاريخية، فبين الأسطورة والتاريخ صلة كبيرة تحتِّم الاستفادة من المادة الأسطورية والاعتماد عليها مصدرًا فريدًا من مصادر التاريخ الإنساني الواحد المتسلسل في فصوله ومراحله، فالأسطورة من أهم وصلات الاتصال بيننا وبين الإنسان الأول، لكونها إحدى الوسائل التي ابتكرها للتعبير عن فكره وأنشطته وعلمه وعقيدته وإيمانه وميوله[97].

أما ما ذكره البعض من تقسيم العهد الإنساني إلى عهدين أسطوري وتاريخي فما هو إلا محاولة لاعتبار الأسطورة فصلاً خارجًا عن التاريخ الإنساني الحقيقي، من خلال اتهامها بأنها نتاج صنف إنساني ناقص العقل، بخلاف التاريخ السجل للإنسان العاقل المنتج، فجعلوا الكتابة الحد الفاصل بين العهدين، مع أن الأسطورة ما هي إلا طريقة لكتابة وتوثيق الأحداث التي مر بها الإنسان في مرحلة من مراحل التاريخ الإنساني، وقد استخدمت الكتابة في شكلها المبدئي كالتصويرية أو المقطعية أو المسمارية[98]، فالتاريخ أكثر شمولية من الأسطورة، وهي ليست إلا جزءًا منه.

ورجوعًا إلى تعريف ابن خلدون للتاريخ في قوله: "إذ هو في ظاهره لا يزيد على

---

(97) محمد خليفة حسن: الأسطورة والتاريخ في التراث الشرقي، ص24، مجموعة من الباحثين: الأسطورة توثيق حضاري، ص108.

(98) الكتابة التصويرية: هي شكل من أشكال الكتابة البدائية التي تصور الفكرة لا الصوت يتم فيها نقش الصور والرسومات للدلالة على المعنى، والكتابة المقطعية: هي الكتابة التي تصنع رموزًا وعلامات لمقاطع كثيرة يجري الاتفاق على معانيها في ما بين واضعيها، وتعدان المرحلتان الأوليان من مراحل اختراع الكتابة ما قبل الأبجدية، أما الكتابة المسمارية فهي طريقة للكتابة عن طريق النقش على ألواح الطين باستخدام مسمار خاص استخدم في كتابة اللغة الأكادية والبابلية، انظر: هاري إلمر بارنز، تاريخ الكتابة التاريخية (ترجمة: محمد عبد الرحمن، الجزء الأول، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة 1984م)، ص: ص25-28..

إخبار عن الأيام والدول والسوابق من القرون الأول تنمو فيها الأقوال، وتضرب فيها الأمثال، وتُطرَفُ بها الأندية إذا غصها الاحتفال، وتؤدي إلينا شأن الخليقة كيف تقلبت بها الأحوال، واتسع للدول فيها النطاق والمجال، وعمروا الأرض حتى نادى بهم الارتحال، وحان منهم الزوال، وفي باطنه نظر وتحقيق، وتعليل للكائنات ومباديها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق"[99]، نجد أن الأساطير لا تخرج عن إطار هذا التعريف، فالتاريخ المكتوب هو انعكاس للفكر وتسجيل للأحداث تمامًا كما الأسطورة التي عبرت عن الفكر والحدث.

فالتشابه بين وظيفة وطبيعة التاريخ والأسطورة أدى إلى خلق علاقة ثنائية بين الطرفين فبدا الأمر وكأنهما وجهان لعملة واحدة، ومرجع التشابه إلى عدة نواحٍ، من **الناحية الوظيفية**: فإن كلاً من الأسطورة والتاريخ يهتمان بتسجيل النشاط الإنساني وتدوين النشاط الإلهي، فالأساطير القديمة ما هي إلا قصص عن الآلهة (حسب تعبير البعض) والإنسان، والتاريخ أيضًا ما هو إلا حكاية عن الإنسان تضمنت في بعض فصولها حديثًا عن التاريخ الإلهي أو التاريخ المقدس الذي عني بقصص الوحي والأنبياء والقديسين، ومن **الناحية الطبيعية**: فإن طبيعة كل من التاريخ والأسطورة نستمده من ذلك القطع بربط التاريخ بالواقع والأسطورة بالخيال، والحقيقة أن التاريخ ليس كله وصفًا واقعيًا للحقيقة أو للحادثة، كما أن الأسطورة ليست كلها خيالاً، ولكن هناك علاقة ثنائية بين الأسطورة والتاريخ تسمح ببعض الخيال في الوصف

---

(99) ابن خلدون: المقدمة، ص282.

التاريخي، كما تسمح ببعض الواقعية في الوصف الأسطوري(100)، وعلى هذا فالتاريخ كما يعتقد البعض هو وليد الفكر الأسطوري، فمطالع التاريخ موصولة بأواخر عصور الأسطورة(101)، ومن يبحث في الأساطير عن التاريخ سوف يجد إلى جانبه خيالاً كثيرًا، كما أن من يبحث فيها عن الخيال سيجد تاريخًا كثيرًا(102)، يصدق هذا على التراث الأسطوري للمنطقة العربية كما يصدق على الإلياذة والأوديسة وغيرهما من التراث الإغريقي القديم الذي من شأنه أن يجعل من هذا التراث الأسطوري يبدو بديلاً هزيلاً عن التاريخ وعن الوصف الأنثروبولوجي للحياة الاجتماعية والثقافية، ويقدم بعض المفاتيح الأساسية لفهم المجتمع والثقافة(103).

وهكذا، فالأسطورة والتاريخ ينشآن عن التوق إلى معرفة أصل الحاضر، ولكنهما يفترقان في القيمة التي نسبغها على ذلك الأصل، فالأسطورة تنظر إلى التاريخ باعتباره تجليًا للمشيئة الإلهية، أما التاريخ فينظر إلى موضوعه باعتباره تجليًا للإرادة الإنسانية في جدليتها مع قوانين فاعلة في حياة الإنسان الاجتماعية(104)،

---

(100) محمد خليفة حسن، الأسطورة والتاريخ في التراث الشرقي، ص26- 27.

(101) محمد خليفة حسن، المرجع السابق، ص25، كارم محمود عزيز: الأسطورة فجر الإبداع الإنساني (سلسلة الدراسات الشعبية، العدد 66، القاهرة 2002م)، ص150.

(102) قاسم عبده قاسم: تطور مناهج البحث في الدراسات التاريخية (مجلة "عالم الفكر"، المجلد العشرون، العدد الأول، الكويت 1989م)، ص197.

(103) لطفي عبد الوهاب: "عالم هوميروس" (مجلة "عالم الفكر"، المجلد الثاني عشر، الكويت 1981م)، ص13-15، أحمد أبو زيد: الملاحم كتاريخ وثقافة (مجلة "عالم الفكر"، المجلد السادس عشر، العدد الأول، الكويت 1985م)، ص15.

(104) فراس السواح: الأسطورة والمعنى، ص91.

أضف إلى ذلك أن الأسطورة كانت هي الوعاء الذي ضم خلاصة أفكار الإنسان، ولهذا نجد أن فترات تاريخية طويلة لا نجد مصادر لتاريخها سوى الأساطير، والتاريخ باعتباره علمًا، ووسيلة حديثة نسبيًّا للتعبير عن نشاط الإنسان في الكون عبر الزمان، وقد حلت (القراءة) الموضوعية للتاريخ -من خلال مناهج البحث التاريخي- محل القراءة الأسطورية، فلقد حفظت الأساطير وقائع وأحداث المدن القديمة كمدينة أور، وبابل، وطيبا[105]، وذكرت تفاصيل كثيرة عن حضارات الإنسان الأوَّل كالحضارة السومرية والبابلية وحضارة وادي النيل، وروت حكايات عن ملوك أثبتت المكتشفات الأثرية أنهم صنعوا تاريخًا حافلاً كجلجامش (ملك سومري)، وسرجون (ملك أكادي)، وإيزيس وأوزوريس، وعلى ذلك يمكن القول إنّ **مادة الأساطير هو الحدث التاريخي**[106].

وعلى الرغم من ذلك، فالاختلاف بينهما سرعان ما يبرز، وذلك حينما ننتقل إلى دراسة القوى الفاعلة التي كانت تسهم في تلك الأحداث الماضية التي تستحوذ على اهتمامهما المشترك.

فالتاريخ يتعامل مع البشر، لأن مادة التاريخ نفسه هي الإنسان[107]، بينما مادة الأسطورة هي من الآلهة، وأنصاف الآلهة من البشر[108]، بيد أننا لا ينبغي أن

---

(105) أور عاصمة السومريين، وبابل عاصمة البابليين، وطيبا هي ثيبا، بلدة في اليونان بناها قدموس السوري حينما انتقل إلى اليونان. انظر/ الأسطورة توثيق حضاري، ص125.

(106) قاسم عبده قاسم: بين التاريخ والفولكلور، ص32.

(107) حسين مؤنس: التاريخ والمؤرخون، ص53.

(108) عبد الباسط سيدا: من الوعي الأسطوري إلى بدايات التفكير الفلسفي، ص21.

ننسى أن كثيرًا من آلهة العالم القديم جاءت أيضًا من أصول بشرية، بمعنى أنهم إما كانوا ملوكًا وإما أبطالاً وإما أشخاصًا بارزين وحولتهم شعوبهم إلى آلهة لسبب أو لآخر، كما أن فكرة إضفاء الإلوهية على الملوك، كانت عملية ذات أبعاد سياسية أحيانًا يقصد بها تبرير السلطة المطلقة، ومثلها كانت مشكلة قدسية الحاكم ذات تأثير على القراءة الأسطورية للتاريخ، فإنها كانت ذات أثر عميق على فكرة التاريخ لدى شعوب العالم القديم[109]، وربما كان (أليكسي لوسيف) يشير إلى أمر من هذا القبيل عندما قال: إن الأسطورة "تاريخ شخص معطي في كلمات"[110].

ثمة تناقض يراه البعض بين الأسطورة والتاريخ، وهو أن الأحداث التاريخية تتميز بواقعيتها، أما أحداث الأسطورة فهي عرضة للتضخيم والغلو[111]، إلا أن هذا الرأي لا يبدو منسجمًا مع حقائق الأمور، فالقراءة الأسطورية تدور بالفعل حول "واقع تاريخي"، كما أن التاريخ في قراءته للأحداث لا يخلو من الخيال[112]، فالأحداث التي تناولتها الأسطورة تحمل "نواة تاريخية"، ولكن نقص المعلومات المدونة، والبعد الزماني، جعل هذه النواة تختفي وراء تراكمات خيالية ورمزية هي في حقيقة أمرها محاولات للشرح والتفسير والفهم، ومن ناحية أخرى، فإن الدراسة التاريخية بمعناها الحديث، لا تخلو من الخيال، كما أن الأساطير قد سربت بعض

---

(109) قاسم عبده قاسم: المرجع السابق، ص33.

(110) أليكسي لوسيف: فلسفة الأسطورة (ترجمة: منذر حلوم، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية 2000م)، ص220.

(111) عبد الباسط سيدا، المرجع السابق، ص21.

(112) محمد خليفة حسن: الأسطورة والتاريخ، ص27.

تفاصيلها إلى الكتابات التاريخية[113]، وبهذا، تتناغم متناقضات الأسطورة والتاريخ مثل امتزاج النور بالظلمة في الغسق، أو امتزاج الخيال بالعقل، بحيث ينصهر التاريخ مع الأسطورة، فيتبادلان الأماكن لنجد في الأسطورة تاريخًا، والتاريخ أسطورة، حيث ينفجر الخيال ساحقًا المنطق العقلي، خالقًا لنفسه منطقًا مغايرًا، يتجاوز فيه العقل نفسه، لأنه هنا يتجاوز حدوده الثابتة[114].

يتبين لنا أن قسمة التاريخ إلى عصر أسطوري وعصر تاريخي قسمة تعسفية خضعت لعوامل خارجية لا علاقة لها بالتاريخ الحقيقي للإنسانية، فالتاريخ الإنساني يمثّل وحدة واحدة خاصة في ما يتعلق بالفكر، هذا مع الاحتفاظ بالخصوصية التاريخية لكل شعب من الشعوب، ويقرر البعض: "أن هناك بلا شك خطًّا فكريًّا عامًّا يربط تاريخ الشعب الواحد، على الرغم من اختلاف عصور هذا التاريخ، واختلاف الظروف الفكرية لكل عصر من هذه العصور"[115]. وعن الفصل إلى عصر أسطوري وعصر تاريخي يقول أحد الباحثين: "من الملاحظ أن الفصل هنا في الحقيقة فصل في وسيلة التعبير، وليس فصلاً حقيقيًّا لعصرين مستقلين استقلالاً كليًّا، أو فصلاً لعصرين مختلفين اختلافًا جوهريًّا في التفكير كما يبدو من الاستخدام العلمي الحديث لهذه المصطلحات عند المؤرخين وعلماء الحضارات في الوقت الحالي"[116]، لذلك فإن قسمة التاريخ إلى عصرين أسطوري وتاريخي أدت إلى إحداث مشكلة في النظر إلى

(113) قاسم عبده قاسم: المرجع السابق، ص34.

(114) مختار أبو غالي: الأسطورة المحورية في الشعر العربي المعاصر (مكتبة الأسرة، القاهرة 2006م)، ص31.

(115) محمد خليفة حسن، الأسطورة والتاريخ في التراث الشرقي، ص28.

(116) نفسه: ص28.

التاريخ الإنساني كحلقة واحدة متصلة، تبدأ فصولها الأولى بآدم الذي مر بعملية تخليق على يد القوى الربانية ليكون مهيأ للخلافة على هذه الأرض، ثم لتمتد فصولها بعد ذلك فصلاً فصلاً، لتحقيق الهدف الأسمى الذي ميَّز الإنسان عن سواه من المخلوقات ألا وهو حمل أمانة خلافة الله في الأرض، فلا بد لهذه الفصول من أن تمر في خط تطور تصاعدي، يكتسب الإنسان فيها العلوم والمعارف عن طريق الملائكة الموكلين بهذا الإنسان وعن طريق الأنبياء والمرسلين المعلمين، إضافة إلى جد الإنسان نفسه وسعيه الدؤوب نحو الارتقاء بحياته وتحسين سبل عيشه على مر التاريخ، فمجموع ذلك كله أدى إلى حصول التطور الذي أوصل الإنسانية على ما هي عليه اليوم[117].

مجمل القول: إن "القراءة الأسطورية للتاريخ" كانت المرحلة الأولى في تاريخ التاريخ، أو في تاريخ قراءة مسيرة البشر في الكون عبر الزمان، وهذه القراءة كانت النواة التي نبتت فيها شجرة المعرفة التاريخية بكل تجلياتها عبر العصور، وقد تميزت بكونها "نواة تاريخية" على الرغم من كل الرموز والدلالات والصياغات الخيالية التي أثقلت هذه "القراءة الأسطورية" للتاريخ[118]. ومن ناحية أخرى فإن "القراءة الشعبية " للتاريخ، أيضًا، ارتكزت على المفاهيم الرمزية التعويضية التي كانت أساسًا للقراءة الأسطورية، وبيد أن الفارق الأساسي بينهما تمثل -كما سبق القول- في أن الأساطير اهتمت بأنشطة البشر والآلهة على حين ركزت القراءة الشعبية على دور عامَّة الناس في صنع التاريخ.

---

(117) الأسطورة توثيق حضاري، ص124

(118) قاسم عبده قاسم: بين التاريخ والفولكلور، ص34.

من هنا فإن علينا أن ننظر للتاريخ نظرة شمولية، وليس هناك أي مبرر لتقسيم التاريخ الإنساني إلى عصرين أسطوري وتاريخي، فالأسطورة كتاب التاريخ الأول ما هي إلا أحد نتاج العصر القديم، وهي وثائق مدونة استمدت مادتها وشخصياتها وأزمنتها وأمكنتها من التاريخ الذي ولدت فيه، كما أنها فوق ذلك كله حكاية مقدسة يؤمن أهل الثقافة التي أنتجتها بصحة وصدق أحداثها، وهي سجل لما حدث في الماضي، ولها دور أساسي في البناء المعرفي والعلمي والتطور الحضاري للإنسانية، أي أنها أحد أسباب ما وصلنا إليه اليوم من تطور وعلوم، إنها إذن مصدر من مصادر التاريخ وهي جديرة بالدراسة والاهتمام، ويمكن الاعتماد عليها للحصول على معلومات تاريخية هامة، إلا أن الأسطورة هنا ليست رديفًا للتاريخ بمسلماته المختلفة وجيوبه السرية، ولكنها بحث مستميت وصعب في العناصر المنسية والقلقة، عمل حفري منتهاه النهائي الأسطورة ذاتها بأخيوليتها وإيهامياتها، لا مطابقة التاريخ.

فالتاريخ ينسج مع الأسطورة علاقات كبيرة مرئية وغير مرئية، والغالب على الظن أنه ليس هناك تاريخ صافٍ وعلمي بالمعنى الموضوعي وبشكل مطلق، فالتاريخ كثيرًا ما يمحو فواصله بين الحقيقة الموضوعية، والحقيقة المتخيلة، وقد يحتاج في بحثه المستميت عن الحقيقة إلى ترميمات لا يقربها منه إلا الأسطورة التي ترتكز على القرابة مع التاريخ.

الفصل الثاني..
اسم مصر وأصول المصريين في الأساطير العربية

".. السبب في تسمية مصر بأم الدنيا، أنها تحتوي على جميع أجناس الخلق، وأنواع الأمم، التي يبلغ عددها اثنين وسبعين أمة تتكلم بمئة وأربعين لغة. كما تشمل على أقوام من التابعين للمذاهب الأربعة، فبفضل مصر هذه يعيش كل هؤلاء الخلائق، فضلاً من الله ومنة.. وما ذلك إلا أن كثرة أهالي مصر، وسكانها من الفلاحين. أعني أنهم من أهل الكد والعمل الشاق، ومعاناة الأهوال في سبيل إسعاد الغير. إذ إن هؤلاء المساكين بعملهم الدائب هذا يجعلون مصر في بحبوحة من الخيرات، والخصب وعلى جانب عظيم من النعم، ورغد العيش الذي يتمتع به الناس والحيوان. فلأجل هذا سميت مصر بحق (أم الدنيا) كالأم الرؤوم تُعنى بجميع أركان الدنيا، وتحدب عليها وتبذل لها من متاعها وسلعها، وهكذا تكون الأقاليم السبعة من الدنيا عالة عليها..".

أوليا چلبي

(سياحتنامه مصر/ 607)

بُهر العرب الفاتحون بمصر وحضارتها، مثلما بُهِرَ بها الغزاة السابقون من فرس وآشوريين ويونان ورومان، ويعكس ما يكتبه الرحالة والمؤرخون العرب والمصريون المسلمون منذ كتاب ابن عبد الحكم "فتوح مصر وأخبارها" -وهو أول كتاب يصلنا كاملاً عن فتح العرب لمصر- وحتى ما كتبه الجبرتي في كتابه الشهير "عجائب الآثار، في "التراجم والأخبار"، يعكس هذا الانبهار والإعجاب بمصر أرضًا وعمرانًا وآثارًا وبشرًا ونيلا، ولم يجد هؤلاءِ المؤرخون والكتاب تفسيرًا لعظمة الحضارة المصرية المبهرة

غير الأساطير القديمة التي نقلوها من الكتاب المقدس أو سمعوها من سكان مصر، وهي الأساطير التي تفسر نشأة الحضارات القديمة بعد طوفان نوح.

وهكذا، ضم تراثنا العربي الذي وصلنا من عصور التألق الفكري في رحاب الحضارة الإسلامية، الكثير من الموروث الشعبي بين صفحات الكتب التاريخية والأدبية، فضلاً عن الموسوعات ودوائر المعارف[119]. ساعد على ذلك، أن المؤرخين والرحالة -حتى كبارهم- ظلوا رواة أساطير في نفس الوقت، وأكبر مثال لذلك، الرحالة والمؤرخ أبو الحسن المسعودي، فلا شك في أنه كان مؤرخًا جليلاً، ولكن كتبه حافلة بالأقاصيص والأساطير[120]، والملاحظ أن تلك التفاصيل الأسطورية قد دخلت، خصوصًا في أخبار الأمم الغابرة أو الأمم البعيدة الأوطان[121]، التي لا يتأتى للمؤرخ العربي التحقق من أخبارها، مثل كثير من الأمم في العصور الماضية[122]،

---

(119) قاسم عبده قاسم: بين التاريخ والفولكلور، ص45.

(120) حسين مؤنس: الحضارة دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها (طالثانية، سلسلة عالم المعرفة، العدد 237، الكويت 1998م)، ص69.

(121) أربعة عوامل أساسية كانت وراء تغلغل الفكر الأسطوري في الوعي العربي-حسب رأي محمد خليفة حسن- وهي الانفتاح العربي على الفكر الأسطوري القديم بعد الفتوحات الإسلامية، والتعرف على فكر معظم الشعوب القديمة التي تم دخولها الإسلام، حيث احتوى الفكر القديم لهذه الشعوب قبل إسلامها على معظم التراث الأسطوري في العالم القديم، الاعتماد على الإسرائيليات في التفسير، نشأة الفرق والمذاهب وابتداع الأساطير، لتثبت به اعتقاداتها أو في ما ادعاه مؤسسوها من قوى خارقة للعادة كالمعجزات والكرامات والشطحات، أو من ادعاء للنبوة والألوهية، أضف إلى ذلك تطور الآداب الشعبية وانتشار الأساطير البطولية كتأكيد على صفتها القومية. للمزيد انظر محمد خليفة حسن: رؤية عربية في تاريخ الشرق الأدنى القديم وحضارته (طأولى، دار غريب، القاهرة 1998م)، ص70- 80.

(122) حسين مؤنس: المرجع السابق، ص71.

وكذلك الأمر مع تاريخ مصر: "فكل ما يتعلق معرفته منذ بدء الخلق وأحوال القرون السالفة فإنه مختلط بتزويرات وأساطير لبعد العهد، وعجز المعتني به عن حفظه"[123]، على حد قول المؤرخ المقريزي، وهو ما دفع "أبو عثمان النابلسي أن يكتب كتابًا عن تاريخ الفيوم قال عنه: "**نزَّهته عن أكاذيب الأقاويل الماضية وتحريف المؤرخين بوصف الأمم الخالية، وأخبر عنه خبرًا يشهد العقل بصحته وتميل النفس الفاضلة إلى موافقته**"[124].

كانت مصر بتاريخها القديم في طليعة هذه الأمم التي لم تكن أسرار تاريخها قد تكشفت بعد، لذلك لعبت الأساطير والخرافات والحكايات الشعبية دورًا لا بأس به في محاولة كشف غوامض آثار مصر وعجائبها وأصولها ومدنها وحياتها وفضائلها، فضلاً عن قيام هؤلاء المؤرخين بسرد حكايات عديدة عن مصر، مصدرها الخيال الشعبي الذي كان متداولاً بين الناس، فالعديد منهم قد دخلوا إلى صميم التاريخ العربي لمصر من بوابات الأسطورة ووقف رهط كثير منهم أمام تاريخها مشدودًا مشدوهًا، خصوصًا بعد أن فتحها العرب في ظروف -بدت في الكتابات التاريخية- كالأساطير"[125]. عضد من أثر ذلك غموض أرض مصر نفسها ورصيدها

---

(123) المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي عبد القادر)، (ت 845 هـ): الخطط المقريزية، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (الجزء الأول، مطبعة النيل، القاهرة 1325هـ)، ص250.

(124) النابلسي (أبو عثمان النابلسي الصفدي الشافعي)، (ت 660 هـ): تاريخ الفيوم وبلاده (الطبعة الأولى، المطبعة الأهلية، القاهرة 1898م)، ص3.

(125) محمد عبد الله عنان: مؤرخو مصر الإسلامية ومصادر التاريخ المصري (مكتبة الأسرة، القاهرة 1999م)، ص11.

الأسطوري في مخيلة الناس، وقد أجمل **ابن الوردي** هذا المعنى في سياق وصفه مصر بقوله: "هو إقليم العجائب ومعدن الغرائب وأهله كانوا أهل ملك عظيم وعز قديم"(126).

كل هذا ربما يساعدنا على استخلاص وإبراز الصورة التي رسمتها لها تلك المادة، والتي تمثل الوجه الآخر المكمل لذلك الوجه الذي أبرزته الأبحاث التي اعتمدت على المادة التاريخية والأدبية التقليدية، الأمر الذي يساعد على تكوين صورة واضحة الأبعاد لمصر: الأرض، والإنسان، والحضارة، كما بدت في طور من أطوار الكتابات التاريخية، وهو أمر على درجة من الأهمية، لأنه يمكن من التعرف على النظرة التي سادت في ذلك الطور إلى مصر ما قبل الإسلام، وما خلفته من مظاهر الحضارة، وعلى الآلية التي جرى بها التعامل والتواصل مع ذلك الموروث الشعبي الثري.

ولقد كان لهذه الأرض التي بدأت تسميتها في أحداث أسطورية غائرة في أعماق الزمن أهمية كبيرة في عصور مختلفة، مما يفسر هيمنة اسمها منذ القدم على جميع أقاليم ومدن وادي النيل حتى غدا اسمها اسمًا للوادي، ويعد القرآن الكريم أقدم المصادر الإسلامية التي وردت فيها كلمة "مصر" اسمًا علمًا لهذه الأرض التي: "لها حد يأخذ من بحر الروم من الإسكندرية –وزعم قوم من برقة في البر– حتى ينتهي إلى ظهر الواحات، ويمتد إلى بلد النوبة، ثم يعطف على حدود النوبة في حد أسوان –على حد أرض السبخة في قبلي أسوان– حتى ينتهي إلى بحر القلزم، ثم يمتد من بحر القلزم،

(126) ابن الوردي (سراج الدين أبي حفص عمر): خريدة العجائب وفريدة الغرائب (الطبعة الأخيرة، مكتبة عبد السلام شقرون، القاهرة، د.ت)، ص32.

ويجاوز القلزم إلى طور سينا، ويعطف على تية بني إسرائيل مارًّا إلى بحر الروم في الجفار خلف العريش ورفح، ويرجع إلى الساحل مارًّا على بحر الروم إلى الإسكندرية ويتصل بالحد الذي قدم ذكره في نواحي برقة"[127].

وعن ذكر مصر في القرآن الكريم يقول ابن زولاق: "فأول ما ابتدئ من ذلك، أن الله جل ثناؤه، وتقدست أسماؤه ذكر مصر في ثمانية وعشرين موضعًا في القرآن"[128]، ويعلق الإسحاقي المنوفي بقوله: "أما مصر حرسها الله تعالى فإن الله – عز وجل– ذكرها في كتابه العزيز، في ثمانية وعشرين موضعًا منها ما هو صريح ومنها ما دلت عليه القرائن وكتب التفسير"[129].

وحفلت المصادر التاريخية بالقصص والأساطير التي دارت حول أصل هذا الاسم، وكان الدافع وراء تلك الأساطير أن العديد من الرحالة والمؤرخين كانت تستهويهم منهجية الحبكة الكاملة، كولع بالحكايات التي اشتهر بها العرب قديمًا، والتي لاقت قبولاً واسعًا، عند طلاب الأخبار من الناس، ثم إن حسهم التاريخي كان غامرًا (حيث كانت الأساطير بالنسبة إليهم آنذاك هي التاريخ)، خصوصًا في ما يتعلق بأخبار الأمم الغابرة، كما باتت الحاجة ملحة لمعرفة كل ما يتعلق بمصر في

---

(127) المقريزي: الخطط، ج1، ص15.

(128) ابن زولاق (الحسن بن إبراهيم بن الحسين الليثي) (306 – 387 هـ): فضائل مصر وأخبارها وخواصها (تحقيق: علي محمد عمر، سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة 1999م)، ص3، انظر:القرآن الكريم، يونس 78/10، يوسف 21/12، يوسف 99/12، الزخرف 51/43، البقرة 61/2.

(129) الإسحاقي المنوفي (محمد بن عبد المعطي بن أبي الفتح): أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول (سلسلة الذخائر، العدد 35، القاهرة 1998م)، ص3.

سياق تفسيرهم للقرآن الكريم، فلم يجدوا بين أيديهم تفاصيل يشرحون بها الكثير مما ورد في القرآن الكريم عن مصر وأهلها، فالتمسوا المادة في ما وصل إليهم من تفاصيل ما رُوي من أخبار مصر في الكتب الدينية المتداولة بين اليهود والنصارى، وفي الحكايات التي كان يتناقلها الفرس، المصريون والإغريق وغيرهم ممن دخل الإسلام أو صار في ذمة دولته، وساعد على ذيوعها بينهم أن نفرًا من أهل الكتاب هؤلاء دخلوا الإسلام حاملين معهم ما ورد في كتبهم الدينية من أخبار عن مصر وملوكها والأنبياء والرسل الذين عاشوا على أرض مصر، ومن تبعهم أو لم يتبعهم من الأقوام وما قام بينهم وبين خصومهم من صراع[130].

وهناك من فصَّل أكثر واتهم الرحالة والمؤرخين باللين والضعف بشكل قد أفسح المجال ومهَّد الطريق لدخول الأساطير والخرافات والمرويات إلى الحوامل الرئيسية التي يركن إليها أي باحث في التاريخ، أضف إلى ذلك، تلك النزعة التقريرية التفصيلية والرغبة في معرفة كل شيء، خصوصًا في ما يتعلق بالمجهولات التي سكت عنها القرآن لعدم ضرورتها وترك معرفتها أي أثر على مدى فهم القصة واكتساب الدروس والعبر منها، وقد أدت تلك الرغبة العارمة المحفوفة بالمحاذير والمخاطر إلى أن يبيح بعض المؤرخين لأنفسهم أن يستندوا إلى تلك المرويات دون نقد وفحص.

ولقد سبق لابن خلدون أن لمس عن قرب بفضل حسه النقدي، ضرورة هذا التمييز[131] بقوله: "... **وإن فحول المؤرخين في الإسلام قد استوعبوا أخبار**

---

(130) حسين مؤنس: الحضارة، ص70.

(131) رغم هذا النقد العلمي عند ابن خلدون إلا أنه وقع في ذلك أيضًا في كتابه "العبر وديوان المبتدأ والخبر في

الأيام وجمعوها، وسطروها في صفحات الدفاتر وأودعوها، وخلطها المتطفلون بدسائس من الباطل وهموا فيها أو ابتدعوها، وزخارف من الروايات المضعفة لفقوها ووضعوها، واقتفى تلك الآثار الكثير من بعدهم وابتدعوها، وأدوها إلينا كما سمعوها، ولم يلاحظوا أسباب الوقائع والأحوال ولم يراعوها ولا رفضوا ترهات الأحاديث ولا دفعوها..."[132].

ورجوعًا إلى مثل هذا النوع من الأساطير التي دارت حول أصل "اسم مصر" نجد أن المصادر التاريخية وكتب الرحلات حفلت بالروايات التي حاولت أن تجد تفسيرًا منطقيًا له، فقد أورد بن عبد الحكم -نقلاً عن سلسلة من الرواة- أنهم قالوا: "أول من سكن بمصر، بعد أن أغرق الله قوم نوح، بيصر بن حام بن نوح، فسكن منف، وهي أول مدينة عمرت بعد الغرق هو وولده، وهم ثلاثون نفسًا قد بلغوا وتزوجوا فبذلك سميت ماقة -وماقة بلسان القبط ثلاثون- قال: وكان بيصر بن حام قد كبر وضعف، وكان مصر أكبر ولده، وهو الذي ساق أباه وجميع إخوته إلى مصر فنزلوا بها، فمصر بن بيصر سُميت مصرُ مصرَ، فحاز له ولولده ما بين الشجرتين خلف العريش إلى أسوان طولاً ومن برقة إلى أيلة عرضًا.."[133].

وبناء على هذه القصة تكون مصر قد سميت بهذا الاسم نسبة إلى واحد من أحفاد نوح كان يعرف بـ"مصر"، وإذا كان ابن عبد الحكم "قد اعتمد على الأساطير

أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر"!!

(132) ابن خلدون: المقدمة، ج1، ص282

(133) ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب (تحقيق: علي عمر، الطبعة الأولى، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة 2004م)، ص28- 29.

-باعتبار أن تلك الأساطير هي الحقيقة- للتخلص من شرح المظاهر التي تتعلق بتاريخ مصر القديم، فيبدو أنه نجح في إثارة حوافز المعاصرين له، إلى دراسة التاريخ المصري القديم، والبحث عن أصل مصر"[134]، وقد جمع لنا المقريزي تلك الروايات تحت عنوان "ذكر اشتقاق مصر ومعناها وتعدد أسمائها"[135]، مشيراً في ذلك إلى أنه: "قد اختلف أهل العلم في المعنى الذي من أجله سميت هذه الأرض بمصر.."[136]، كما أشار إلى أن اسمها كان في الدهر الأول قبل الطوفان "جزلة"[137]، ثم سميت بمصر، وقد أورد عدة قصص تنسب كل منها اسم مصر إلى جنس من الأجناس التي كانت على صلة بالمصريين طوال تاريخهم الطويل[138]، ونجد لها نظائر في كتابات المؤرخين بداية من ابن عبد الحكم حتى ابن إياس.

فالرواية الأولى تقول إن اسم "مصر" نسبة إلى: "مصر بن حام وهو مصرايم[139]، وقيل إن بنصر بن هرمس بن هردوس جدّ الإسكندر. قال: ونلمح لوما بن حام بنت شاويل بن يافث بن نوح فولدت له بوقير، وقبط أبا القبط. قبط مصر

---

(134) إبراهيم أحمد العدوي، ابن عبد الحكم رائد المؤرخين العرب، (مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة 1963م)، ص69.

(135) المقريزي: الخطط، ج1، ص18 ص23.

(136) نفسه، ص18.

(137) نفسه، ص18، ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور (الجزء الأول، الطبعة الأولى، المطبعة الأميرية ببولاق، القاهرة 1311هـ)، ص3، المسعودي: أخبار الزمان (الطبعة الأولى، الرياض 1415 هـ)، ص41- 42.

(138) قاسم عبده قاسم: بين التاريخ والفولكلور، ص51.

(139) الملاحظ أنه لم تتفق المصادر على هذه الأسماء، بل كل كتاب يخالف الآخر في شكل التسمية والنسب والنطق.

ومن هنا أن مصر بن حام وإنما هو بن هرمس ابن هردش ببن بيطون بن روي بن ليطي بن يونان وبه سميت مصر فهي مقدونية"[140]، ونجد ابن خرداذبة يقول: "وكانت مصر دار الفراعنة واسمها مقدونية..".[141]

هذه الرواية تحاول نسبة المصريين ومصر إلى اليونانيين عن طريق اختلاق أسطورة يختلط فيها نسب أولاد حام بن نوح بنسب الإغريق عن طريق هرمس الذي جعلوه جد الإسكندر، والواضح هنا اختلاط التيارات الثقافية والحضارية بين كل من مصر القديمة وبلاد الإغريق القديمة، وربما كانت هذه الرواية صدى لتلك الأسطورة التي نسجها الكهنة بعد فتح الإسكندر المقدوني مصر، عندما ذهب إلى معبد الإله آمون في واحة سيوة، وأذاع الكهنة أنه ابن الإله آمون، ومن المهم أن نشير في هذا المقام إلى أن هرمس هو المعادل الإغريقي للإله "تحوت" "توت" رب الحكمة عند قدماء المصريين، وقد ربط الكتاب العرب بينه وبين النبي إدريس، وربما يكون ذلك ناتجًا عن صفات العلم والحكمة التي ارتبطت في التراث الشعبي بهذا الإله المصري القديم ونظيره الإغريقي، وعندما جاء الإسلام بالتوحيد حاول الكتاب والرواة أن ينسبوا هذه الصفات إلى النبي إدريس بأن جعلوه أحيانًا هو هرمس[142].

وربما كان اختلاف تلك الأساطير والحكايات المتعلقة بنسبة مصر إلى اليونانيين إفرازًا لرغبة المختلفين من الرواة في إلقاء هذه الحكايات على مسامع الجاليات

---

(140) المقريزي: الخطط، ج1، ص18

(141) ابن خرداذبة (أبي القاسم عبيد الله بن عبد الله) (ت 300هـ): المسالك والممالك (طبعة أبريل 1889م)، ص80، المقريزي: المصدر السابق، ج1، ص18.

(142) قاسم عبده قاسم: بين التاريخ والفولكلور، ص51.

الإغريقية والرومانية التي كانت تجوب مصر أو تقيم بها، فقد كان الكثيرون يأتون لمصر طلبًا للعلم والمعرفة، فضلاً عن وجود إشارات وشواهد عديدة في الأدب الإغريقي إلى زيارات قامت بها بعض الشخصيات المهمة في الحضارة الإغريقية لمصر، وقد أسهبت تلك المصادر في حديثها عن عجائب مصر[143]، مثل هيرودوت الذي كان يتساهل في تصديق كل ما يروي له دون تمحيص يذكر، فاختلط في كتابه عن مصر التاريخي الحقيقي بالحكايات الشعبية، والخرافات والأساطير الدينية في مزيج ممتع[144].

وقد يرجع ذيوع تلك الروايات التي تنسب مصر إلى اليونانيين في كتابات المؤرخين، إلى تسربها من الجاليات الإغريقية نفسها، والتي استوطنت مصر منذ عهد مبكر، وتأسيسهم مستوطنات إغريقية على أرض مصر، مثل "نقراطيس" التي قامت على ضفاف الفرع الغربي من النيل، وبالقرب من سايس (Sais) "صا الحجر" عاصمة الأسرة الصاوية[145]، فضلاً عن تأثر الأدب اليوناني نفسه بالمصريات، فلقد ورد اسم "إچبيوس" (Egyptous) كملك لبلاد وادي النيل في الأسطورة اليونانية "بنات دانوس" أوردها "هومر" في الأوديسيا[146].

---

(143) أبو اليسر فرح: النيل في المصادر الإغريقية (دار عين للدراسات، القاهرة 2004م)، ص27.

(144) بريان م. فاجان: نهب آثار وادي النيل ودور لصوص المقابر (ترجمة: أحمد زهير، مكتبة الأسرة، القاهرة 2003م)، ص24.

(145) Pertie, W. M. Flinders, 1888, Naukraties; the Memory of the Egypt exploration fund, part II, P. 4.

سيد أحمد الناصري: الإغريق تاريخهم وحضارتهم (الطبعة الثانية، دار النهضة العربية، القاهرة 1977م)، ص159، ص165.

(146) مجموعة باحثين: اختطاف جغرافيا الأنبياء) سلسلة السراة، البحرين 2005م)، ص24.

نجد أثر ذلك على كتابات المؤرخين المسلمين كقول المقريزي: "وقال ابن خالويه في كتابه ليس أحد فسر لنا لمَ سميت مصر مقدونية قديمًا، إلا في اللسان العبراني، قال مقدونية مغيث، وإنما سميت مصر، لما سكنها بنصر بن حام، وتزعم الروم أن بلاد مقدونية جميعًا وقف على الكنيسة العظمى التي بالقسطنطينية، ويسمون بلادًا مقدونية إلا وصفية وهي عندهم الإسكندرية وما يضاف إليها وهي مصر كلها بأسرها إلا الصعيد الأعلى، ويقال لمصر أم خنور وتفسيره (النعمة)"(147)، أما السيوطي فيشير إلى ذلك المعنى بقوله: "ويسمى اليونان بلد مصر مقدونية"(148)، ويضيف أوليا چلبي أن "بعد الطوفان سموها مصرايم ومن هنا صار اسمها الآن مصر ويقال لها باللسان اليوناني (مقدونية)"(149).

أما الرواية الثانية، التي راجت في كتابات الرحالة والمؤرخين: فتقول: "إن بني آدم لما تحاسدوا وبغى عليهم بنو قابيل بن آدم ركب نقراوس الجبار بن مصرايم بن مركابيل بن دوابيل بن عرياب بن آدم عليه السلام في نيف وسبعين راكبًا، من بني عرياب جبابرة كلهم، يطلبون موضعًا من الأرض، يقنطون فيه فرارًا من بني أبيهم، فلم يزالوا يمشون حتى وصلوا إلى النيل فأطالوا المشي عليه فلما رأوا سعة البلد فيه وحسنه، أعجبهم، وبنى نقراوس مصر، وسماهم باسم أبيه مصرايم، وكان نقراوس جبارًا له قوة، وكان مع ذلك عالما وله ائتمر الجن"(150).

---

(147) المقريزي: الخطط، ج1، ص22.

(148) السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن السيوطي): حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة (الجزء الأول، تحقيق، محمد أبو الفضل، الطبعة الأولى، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة 1997م)، ص25.

(149) أوليا چلبي: سياحتنا مه مصر، ص29.

(150) المقريزي: الخطط، ج1، ص18- 19.

وتمضي القصة لتقول إنه بفضل العلوم التي عرفها قهر الجبابرة الذين كانوا قبله وبني مدينة "أمسوس" وزرع أتباعه الأرض وبنوا المدائن ثم حفروا النيل حتى أجروا ماءه إليهم "...... ولم يكن قبل ذلك معتدل الجري إنما كان ينبطح ويتفرق في الأرض حتى يتوجه إلى النوبة فهندسوه وساقوا منه أنهارًا إلى مواضع كثيرة من مدنهم التي بنوها وساقوا منه نهرًا إلى مدينتهم أمسوس..."(151).

وتمضي الرواية لتقول إن مصر سميت بعد الطوفان بمصرين بنصر بن حام نوح عليه السلام، وقصة هذه التسمية نجدها شائعة أكثر من غيرها عند المؤرخين والرحالة المسلمين، فيذكر ابن محشرة: "يقال إن أول من نزل مصر بعد الطوفان، مصر بن بنصر بن حام بن نوح عليه السلام، بدعوة سبقت له من جده نوح عليه السلام، وقيل وكان السبب في نزول مصر أرض مصر وبه سميت، أن قليمون الكاهن صدق نوحًا عم وآمن بالله تعالى، وسأل نوحًا أن يحمله بأهله وولده معه في السفينة فحمله، قال فلما أنجلى الطوفان، قال فليمون لنوح عليه السلام يا نبي الله اجعل لي رفعة وقدرًا أذكر به بعدي، فزوج نوح [مصر بن] ينصر بن حام من بنت فليمون، فولدت له ولدًا فسماه فليمون على اسم جده لأمه، فلما أراد نوح قسمة الأرض بين بنيه قال له فليمون: يا بني الله إن بلدي خير البلاد، وأولى الناس به ابني مصر، فابعثه معي إليه أظهر على كنوزه وأوقفه على علومه ورموزه،.. واطلع فليمون صهره مصر بن ينصر على كنوز مصر وعلومها، وعلمه خط البرابي، وأخرج له المعادن من الذهب والفضة والزبرجد والفيروز وغير ذلك من الجواهر، وأطلعه على عمل الصنعة في الجبل الشرقي فسمى به

---

(151) المقريزي: الخطط، ج1، ص19، أوليا چلبي: سياحتنا مه مصر، ص33.

المقطم.."[152]، الرواية ذاتها نجدها عند "المقريزي" مع بعض الاختلافات الطفيفة مثل: "كانت ابنة فليمون قد ولدت لينصر ولدًا سماه مصرايم"[153].

وهذه الرواية تحاول أن تقول إن مصر والمصريين من أصل حاميّ مختلط بأصول مصرية قديمة، واللافت للنظر في هذه الحكاية أنها تتحدث عن وجود مصري مستقل قبل الطوفان ينحدر من نسل "مصرايم" (الأول)، ثم تأكدت التسمية مرة أخرى من خلال زواج ابنة الكاهن لابن حام الذي أنجب "مصرايم" (الثاني). كما نجد في الرواية صدى لبعض الحقائق التاريخية، وهي معرفة الكهنة بعلوم وأسرار مصر القديمة، إذ لم يكن كهنة مصر القديمة مجرد "إكليروس" ديني، وإنما كانوا هم الفئة التي حفظت العلم وتناقلته، كما كان دورهم غاية في الأهمية في العديد من جوانب الحياة في مصر القديمة[154].

ويبدو أن إرجاع اسم مصر إلى أحد أحفاد نوح يدعى (مصرايم) هو الشائع بين الذين يأخذون الألفاظ على ظواهرها، وراج بين العديد من المؤرخين مثل ابن إياس الذي أشار إلى ذلك بقوله: "كان في زمن مصرايم الذي سميت مصر به.."[155]، أما ابن الزيات فيشير بقوله إلى: "أن مصر سميت على أسماء أبناء نوح عليه السلام.. وأن سبب تسميتها مصر، أن أول من سكن أرضها مصر بن بيصر بن حام بن نوح وهو أبو القبط"[156].

---

(152) ابن محشرة: (كاتب مراكشي مجهول)، (ت 598 هـ): كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار (تحقيق: سعد زغلول عبد الحميد، الطبعة الأولى، الإسكندرية، 1958م)، ص65- 66.

(153) المقريزي: الخطط، ج1، ص19

(154) قاسم عبده قاسم: بين التاريخ والفولكلور، ص53.

(155) ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج1، ص4.

(156) ابن الزيات (شمس الدين محمد): الكواكب السيارة في ترتيب الزيارة، في القرافتين الكبرى والصغرى (المطبعة

وينسب المقريزي إلى (مصرايم) أنه "كان أول من صنع السفن في النيل، ويقال إنه نكح امرأة من بنات الكهنة فولدت له أربعة أولاد هم: قبطيم وأشمون وأتريب وصا، فكثروا وعمروا الأرض، وبنوا مدينة (منف)، ثم كشف أصحاب فليمون الكاهن عن كنوز مصر وعلومهم"[157].

وفي تلك الرواية، التي نجد لها مثيلاً عند الرحالة (أوليا چلبي)[158] نلاحظ فيها تأثير فكرة الأنساب التي كانت لها أثر بالغ في حياة الناس خصوصًا -العرب- حيث كان اهتمام العرب بالنسب بمثابة اهتمامهم بحياتهم، لأنه يعد بمثابة الاسم من الجسد، وأن أول ما يتعرف عليه الإنسان هو انتسابه إلى أبويه، ومن ثم تكبر دائرة النسب مع العائلة والعشيرة[159]، كما أن اعتناق العرب الإسلام لم يجعلهم يتخلون عن تراثهم في مجال المعرفة التاريخية، إذ إنهم احتفظوا بالأيام والأنساب وقصص عرب الجنوب، ولكنهم طوعوها في خدمة الأغراض الثقافية الجديدة التي تلبي حاجاتهم

الأميرية بمصر، القاهرة، 1907م)، ص7.

(157) المقريزي: المصدر السابق، ج1، ص19.

(158) أوليا چلبي: سياحتنا مه مصر، ص34: ص35.

(159) ليس غريبًا أن يهتم العرب -وهم مجتمع قبائلي- هذا الاهتمام بالأنساب، وليس غريبًا أيضًا أن تكثر هذه الأنساب وتختلط في كتبهم اختلاطًا كبيرًا، ولكن الغريب حقًّا أن نقبل هذا الذي قالوه في أصلهم وتفرعهم على أنه حقيقة واقعة. وكذلك الأمر مع انتساب مصر وأهل مصر إلى جد أسطوري أعلى، فنحن لا نستطيع أن نقبل ذلك، بل لعلنا نتوقف في هذه الأنساب على ما رأيت عندهم من اختلاط فيها، ولكن المنهج العلمي -مع ذلك- يتطلب التقييم والتصنيف، وعلينا إذن أن نقبل تقسيمهم أو نخلق لنا تقسيمًا جديدًا، ولكننا لا نستطيع أن نقترح الآن هذا التقسيم الجديد، لأن التاريخ القديم لهذه المنطقة غامض مختلط. للمزيد انظر: عبده الراجحي: اللهجات العربية في القراءات القرآنية (الطبعة الأولى، مكتبة المعارف، الرياض 1999م)، ص26.

الثقافية/ الاجتماعية التي جدت بعد الإسلام[160]. تأثير فكرة الأنساب العربية طالت مصر وغيرها من الأمصار في نسبة كل شعب إلى جد أعلى أسطوري يفسرون به معنى الاسم، إذ تذكر الرواية –السابقة– أن "مصرايم" أنجب أربعة أبناء هم قبطيم، وأشمون، وأتريب، صا، والمعروف أن "الأسماء الثلاثة الأخيرة أسماء لمدن مصرية"[161].

أما **الرواية الثالثة**: "أن سبأ الأكبر أو حمير وكهلان ملك بعد أبيه يشجب بأرض اليمن وجمع بني قحطان وبني هود، ثم سار بهم إلى أرض بابل ففتحها، حتى بلغ أرض أرمينية وملك أرض بني يافث بن نوح عليه السلام وبني قنطرة على البحر عبر منها إلى بلاد الشام وأرض الجزيرة.. ثم نهض يريد بلاد العرب فنزل على النيل، وجمع أهل مشورته، وقال لهم: إني رأيت أن ابني مصرًا إلى حد بين هذين البحرين، يعني بحر الروم وبحر القلزم[162]. فيكون فاصلاً بين الشرق والغرب.. فبنى مدينة سماها مصر، وولى عليها ابنه بابليون، ومضى إلى بني حام بن نوح وهم نزول في البراي إلى يمونية.. ثم مات عن خمسمئة سنة وقام من بعده ابنه حمير بن سبأ، فعتا بنو حام على بابليون، وأرادوا تخريب مصر فاستدعى أخاه حمير لينجده عليهم فتقوم عليه مصر ومضى إلى بلاد المغرب.. فمات بابليون بن سبأ بمصر، وولى بعده ابنه امرؤ القيس بن بابليون، ثم مات حمير بن سبأ..."[163].

ففي تلك الرواية، نلاحظ محاولة من جانب الرواة في نسبة مصر إلى أصول

---

(160) قاسم عبده قاسم: الرؤية الحضارية للتاريخ، ص90.

(161) قاسم عبده قاسم: بين التاريخ والفولكلور، ص53.

(162) البحر المتوسط والبحر الأحمر.

(163) المقريزي، الخطط، ج1، ص20.

عربية يمنية، وهذا الاتجاه الأخير يعتمد أسلوب النسابة في نسبة كل قبيلة أو شعب أو مدينة إلى جد أسطوري أعلى. ويلفت النظر هنا استخدام الرواية لاسم (بابليون)، وهو (اسم الحصن الذي كانت تقيم به الحامية البيزنطية التي حاصرها جيش عمرو بن العاص في خضم أحداث فتح مصر)، باعتباره اسمًا لواحد من حكام مصر من نسل سبأ الأكبر، الأسلوب ذاته نجده عند المؤرخين في حديثهم عن مدينة الإسكندرية، حيث يقول ابن محشرة: "فأتى موضع الإسكندرية فأصاب به أثر بنيان، وعمد رخام منها عمودًا عظيمًا مكتوبًا عليه بالقلم المسند وهو القلم الأول من أقلام حمير وملوك عاد: (أنا شداد بن عاد، سددت بساعدي الوادي وقطعت عظيم العماد من شوامخ الجبال والأوتاد، وبنيت إرم ذات العماد..)"[164].

ويضيف الرحالة الدمشقي: "وقبط مصر منهم من يزعم أنهم من ولد ربيعة ثم من تغلب، وذكروا أن قومًا من تغلب انتجعوا بإبلهم أرض مصر لطلب الكلاء.. فتزوجوا القبطيات وتناسلوا هناك"[165].

روايات أخرى تأخذ وجهة لغوية في كتابات الرحالة والمؤرخين المسلمين، فتجعل الاسم "مصر" مشتقًا من مصدر عربي، إذ يُروى عن الجاحظ أنه قال في كتاب "مدح مصر": "إنما سميت مصر بمصر، لمصير الناس إليها واجتماعهم بها، كما سُمي مصير الجوف مصيرًا ومصرانًا لمعبر الطعام إليه"[166].

---

(164) ابن محشرة: كتاب الاستبصار، ص95.

(165) الدمشقي: نخبة الدهر في عجائب البر والبحر (طبعة بطربورغ، المحروسة)، 1865، ص266.

(166) ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة (تحقيق: مصطفى السقا، كامل المهندس، دار الكتب، القاهرة، 1969م)، ص7، القلقشندي: صبح الأعشى، ج3، ص314.

وتضيف الرواية أن أهل "هجر" يقولون: اشتريت الدار بمصورها أي بحدودها"[167]، "والمصر، الفرق بين الشيئين"[168]، ويعلق المسعودي بقوله "مصر واسمها كمعناها، وعلى اسمها سميت الأمصار"[169]، وأوضح المقريزي اشتقاق اللفظ في اللغة فقال: "مصر أخصب بلاد الله، وسماها الله بمصر وهي هذه دون غيرها بإجماع القراء.. وهي عندنا مشتقة من مصرت الشاة إذا أخذت من ضرعها اللبن فسميت مصر، لكثرة ما فيها من الخير، مما ليس في غيرها، فلا يخلو ساكنها من خير يدر عليه منها، كالشاة التي ينتفع بلبنها وصوفها وولادتها.. وقال البكري: "(أم خنور) بفتح أوله وتشديد ثانيه وبالراء المهملة اسم لمصر. وسميت مصر (أم خنور) لكثرة خيرها"[170]. ويعلق ابن إياس أن: "مصر كان اسمها في قديم الزمان (درسان)، أي باب الجفاف"[171].

الملاحظ هنا أن الروايات السابقة تفسر اسم (مصر) وترجعه إلى أصل عربي، ولكن لم تستخدم الأنساب هنا، غير أنها اتكأت على الاشتقاق في اللغة العربية، فتجعله مشتقًا من مصدر يعبر عن بعض أحوال هذا البلد في فترات من تاريخه، فهي مصر من مصير الناس إليها وتجمعهم فيها، كما أن دلالة الاسم هنا توحي أيضًا بما عرف عن مصر من كثرة الخيرات ووفرة النعمة بها، وقد نسبها العرب كالناقة الحلوب،

---

(167) ابن ظهيرة، ص7، القلقشندي: صبح الأعشى، ج3، ص314.

(168) المقريزي: الخطط، ج1، ص22، القلقشندي: صبح الأعشى، ج3، ص315.

(169) المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين) (ت 346هـ): مروج الذهب ومعادن الجوهر (الجزء الأول، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الطبعة الخامسة، الرياض الحديثة، الرياض 1973م)، ص342.

(170) الخطط، مصدر سابق، ص22- 23.

(171) ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، ص3.

يحلبونها حتى آخر قطرة في ضرعها، وهو ما يستدعي في المقام تلك الراية التي أوردها ابن عبد الحكم في فتوح مصر وتناقلها المؤرخون والرواة من بعده وفحواها: "أن عمرًا جباها اثني عشر ألف ألف، قال غير الليث: وجباها المقوقس قبله بسنة عشرين ألف ألف فعند ذلك كتب إليه عمر بما كتب به، قال الليث: وجباها عبد الله بن سعد حين استعمله عليها عثمان، أربعة عشر ألف ألف، فقال عثمان لعمرو: يا أبا عبد الله درت اللقحة بأكثر من درها الأول، فقال عمرو: أضررتم بولدها.."[172].

ويبدو أن النزوع نحو نسبة مصر إلى العرب والإسلام هو الغالب في كتابات الرحالة والمؤرخين ربما تحت تأثير الواقع الجديد الناتج عن فتح مصر ودخولها في الإسلام، الذي معه حاول الخيال الشعبي النبش في ماضي وتاريخ مصر لإثبات إيمانها بالتوحيد والإسلام منذ عهود موغلة في الزمن من خلال مرجعية أسطورية تتدعى موت "مصرايم بن بنصر ابن حام بن نوح بعد سبعمئة عام مضت من أيام الطوفان ولم يعبد الأصنام.. ويؤمن بالمبعوث بالفرقان الداعي إلى الإيمان آخر الزمان.."[173]، وحصن مجلسه بأسماء الله تعالى العظام التي لا يصل إليها أحد من الأنام وكان يلين للملك الديَّان، ويؤمن بالمبعوث بالقرآن"، ولإكمال الحبكة القصصية تضيف الروايات "ثم دهموا ذلك بالصخور وذلك بين جبلين متقابلين وجعلوا فيها علامات"[174]، وبهذا تروّج تلك الرواية الأخيرة إلى أسبقية أهل مصر إلى التوحيد وبالتالي أحقيتهم في الانتساب إلى العرب.

---

(172) فتوح مصر والمغرب، ص188.

(173) الخطط، ج1، ص19.

(174) ابن محشرة: الاستبصار في عجائب الأمصار، ص66.

هكذا، إذن، نجد في الروايات الثلاث ثلاثة اتجاهات في نسبة اسم مصر وأهلها:

أولها: اتجاه ينسبهم إلى نسل حام بن نوح عليه السلام، **ثانيها:** اتجاه يوناني يعكس العلاقات الحضارية بين مصر القديمة وبلاد الإغريق، ويحاول نسبة مصر والمصريين إلى أصول إغريقية. **وثالثها:** هذه الاتجاهات عربية وتحاول نسبة مصر إلى أصول عربية يمنية.[175]، بيد أن الروايات التي تناولت أصل مصر والمصريين لم تخل بشكل أو بآخر من تأثير الإسرائيليات التي كانت تعكس التفسير التوراتي لأصول شعوب المنطقة، التي كانت بدورها نابعة من التراث الثقافي والأسطوري لهذه المنطقة ذاتها[176].

فالمتداول بين المتخصصين في علوم آثار وادي النيل أن أقدم اسم كان أهل مصر يسمون بلادهم به كان بتصويت (كيمي) Keme أو (كيميت) Kemet أو (كمت) Kmt، الذي يعني الأرض السوداء، ويعتقد أن هذا المسمى يرجع في معناه للتعبير عن خصوبة الأرض النيلية. وهناك من يصوتها (كام) Kam أو (خام) Kham لأغراض تخدم مصالح الطرح اليهودي[177]*.

وينعكس هذا الطرح في رواية أوردها المؤرخ عبد الرحمن بن عبد الحكم، ونقلها عنه العديد من المؤرخين والرحالة، وتحكي هذه الرواية التي نقلها لنا ابن عبد الحكم

---

(175) قاسم عبده قاسم: بين التاريخ والفولكلور، ص54.

(176) فراس السواح: مغامرة العقل الأولى، دراسة في الأسطورة (طالعاشرة، دار علاء الدين، دمشق 1993م)، ص21- 23.

(177) مجموعة من الباحثين: اختطاف جغرافيا الأنبياء (سلسلة السراة، البحرين، 2005م)، ص88. * لاحظ التقريب الصوتي بين كلمة (خام) و(حام).

نقلاً عن سلسلة من الرواة أنهم قالوا: "كان لنوح عليه السلام أربعة من الولد، سام بن نوح، وحام بن نوح، ويافث بن نوح، ويحطون بن نوح.. فنادى نوح ولده وهم نيام عند السحر فنادى سامًا، فأجابه يسعى وصاح سام في ولده فلم يجبه أحد منهم إلا ابنه أرفخشد، فانطلق به معه حتى آتياه، فوضع نوح يمينه على سام وشماله على أرفخشد، وسأل الله عز وجل أن يبارك في سام أفضل البركة، وأن يجعل الملك والنبوة في ولد أرفخشد، ثم نادى حامًا فتلفت يمينًا وشمالاً ولم يجبه، ولم يقم إليه هو ولا أحد من ولده، فدعا الله عز وجل أن يجعل ولده أذلاء وأن يجعلهم عبيدًا لولد سام.. قال: وكان مصر بن بيصر بن حام نائمًا إلى جنب جده حام، فلما سمع دعاء نوح على جده وولده قام يسعى إلى نوح، فقال: يا جدي قد أجبتك إن لم يجبك أبي ولا أحد من ولده فاجعل لي دعوة من دعوتك، ففرح نوح عليه السلام، ووضع يده على رأسه وقال: اللهم إنه قد أجاب دعوتي فبارك فيه وفي ذريته وأسكنه الأرض المباركة التي هي أم البلاد وغوث العباد، التي نهرها أفضل أنهار الدنيا، واجعل فيها أفضل البركات، وسخر له ولولده الأرض وذللها لهم وقوّهم عليها.. ثم دعا ابنه يافث فلم يجبه هو ولا أحد من ولده، فدعا الله عز وجل عليهم أن يجعلهم شرار الخلق.."[178].

ويعلق (شمس الدين الدمشقي) على تلك الرواية مضيفًا إليها: "ذكر أهل الآثار أن السبب في سواد أولاد حام أنه أصاب امرأة في السفينة فدعا عليه نوح أن يغير الله نطفه، فجاءت بالسودان، وقيل إنه أتاه فوجده نائمًا وكشفت الريح عورته، وذكر ذلك لأخويه سام ويافث فنهضا وستراه وهمّا مدبرين وجوههما، حتى لا يريا سوءته، فلما علم نوح بذلك قال: ملعون حام ومبارك سام، ويكثر الله يافث.. أما

(178) فتوح مصر والمغرب، ص27، الخطط، ج1، ص20- 21، السيوطي، حسن المحاضرة، ج1، ص34.

القبط: فيقال: إنه من ولد فقط بن مصر بن بنصر بن حام، ولد له أشمون، وقفط، وصا، وأتريب، فلم يعقب منهم غير قفط وولده صيفان، فمن سكن منهما صعيد مصر يسمى المريس ومن سكن أسفلهما يسمى البيما،.. ويقال: إن حامًا ولد له ثلاثة أولاد فقط، وكنعان، وكوش، فقفط أبو القبط"[179].

ما يهمنا في تلك الروايات نزوعها العنصري، التي تجعل أبناء سام أفضل الخلق بالقدر الذي يعكس فكرة الاختيار اليهودية التي تزعم أن اليهود هم شعب الله المختار، بيد أن الصيغة المصرية لهذه الرواية الخيالية استثنت المصريين من الذل الذي كتبه الله على أبناء حام، بسبب إجابة مصر بن بنصر بن حام لدعوة جده نوح، هذا الجزء الخاص بأرض مصر ونيلها وخيراتها يعكس تأثير الرواة المحليين الذين استثنوا مصر والمصريين من الذل الذي كتب على أبناء حام وفقًا للقصة العبرانية.

هذه هي الخطوط العريضة للأساطير والحكايات الشعبية التي جمعها ودونها لنا الرحالة والمؤرخون عن أصل تسمية مصر والمصريين، وبغض النظر عن الجوانب التاريخية لهذا الموضوع فإن ما يهمنا هنا هو الدلالة التي تحملها هذه الحكايات الخيالية عن اعتزاز المصريين ببلادهم، وعن تنازع نسبة أصولهم إلى الحاميين، تأكيدا لتميزهم عن غيرهم من أهل البلاد المجاورة، أو اليونانيين تحت تأثير التراث الثقافي السائد بتأثيراته المختلفة، أو العرب بفعل الواقع الجديد الناتج عن فتح مصر ودخولها في ظل الإسلام والعروبة، ومن الواضح هنا أن كلاً من هذه الاتجاهات الثلاثة في "الموروث الشعبي" كان يرضي حاجة ثقافية/ اجتماعية لشرائح بعينها في المجتمع المصري آنذاك، فقد كانت مصر تضم العرب والمتعربين، كما بقي بها الأقباط النصارى الذين

(179) الدمشقي: نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، ص266.

يتفاخرون كثيرًا بأصولهم المصرية القديمة، فضلاً عن البعض من ذوي الأصول اليونانية، وعلى الرغم من أن هؤلاء وأولئك ذابوا في شعب واحد له خصائصه الثقافية الواحدة، فإن هذه الروافد الثقافية كانت فعّالة للغاية في القرون الأولى بعد الفتح الإسلامي لمصر، وهو ما تعكسه الروايات التي نقلها المؤرخون اعتمادًا على الموروث الشفوي والمكتوب الذي كان سائدًا في أوساط المصريين آنذاك[180].

حدود مصر الجغرافية لقيت العناية من جانب المؤرخين عامّة والرحالة بصفة خاصة، إذ إن أحد الأغراض الرئيسية من تدوين مذكراتهم هو اطلاع مواطنيهم على طرق ومسالك الممالك والأمصار.. إلا أن تلك الحدود الجغرافية لمصر لم تسلم من الشطط والروايات الأسطورية، خصوصًا تلك الحدود والمناطق المرتبطة بسير الأنبياء والرسل التي ورد ذكرها في الكتب السماوية، فبعد أن يحدد المقريزي -على سبيل المثال- موقع مصر، وفقًا للمفاهيم الجغرافية السائدة آنذاك تحت عنوان "ذكر محل مصر من الأرض وموضعها من الأقسام السبعة"، ثم "ذكر حدود مصر وجهاتها"[181]، تجعله يذكر بعض الأساطير حول البحر الأحمر والبحر المتوسط وعن البحر الأحمر الذي يسميه "بحر القلزم" يقول مؤرخنا: "وفي جانب هذا البحر الغربي الذي يخرج منه البحر الرومي [المتوسط] الآتي ذكره إن شاء الله، الجزائر الخالدات وهي في ما يقال: ست جزائر يسكنها قوم متوحشون.. وفي ما بين مدينة القلزم ومدينة أيلة، مكان يعرف بمدينة فاران وعندها جبل لا يكاد ينجو منه مركب لشدة اختلاف الريح، وقوة ممرها من بين شعبتي جبلين.. يقال إن فرعون غرق فيها فإذا

---

(180) قاسم عبده قاسم: بين التاريخ والفولكلور، ص55.

(181) الخطط، ج1، ص21- 24.

هبت ريح الجنوب لا يمكن سلوك هذه البركة، ويقال: إن الغُرُنْدُل اسم صنم، كان في القديم هناك قد وضع ليحبس من خرج من أرض مصر مغاضبًا للملك أو فارًّا منه، وأن موسى عليه السلام لما خرج ببني إسرائيل من مصر وسار بهم شرقًا، أمره الله سبحانه وتعالى أن ينزل تجاه هذا الصنم فلما بلغ ذلك فرعون، ظن أن الصنم قد حبس موسى ومن معه ومنعهم من ا لمسير..."[182].

وعلى الرغم من الأصل الديني لقصة خروج موسى عليه السلام وبني إسرائيل من مصر، وما أحاط بتلك الحادثة بعدد من المعجزات الربانية وقوة ظهور الفعل الإلهي في نجاة موسى وقومه، وهلاك فرعون موسى وبروز التدبير الربّاني الذي نجد صداه في الكتب السماوية ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ (القصص:40)، وهكذا، في اختصار حاسم أخذ شديد ونبذ في اليم، نبذ كما تقذف الحصاة أو كما يرمي بالحجر بفعل الله[183]، وتجسد في قول موسى: "لا تخافوا قفوا وانظروا خلاص الرب. الرب يقاتل عنكم وأنتم تصمتون" (خروج 14:13، 14).

بيد أن الخيال الشعبي كانت له رؤيته في قصة غرق موسى وأسباب هذا الحدث، فربط بين ظاهرة طبيعية، وهي صعوبة الملاحة في هذا الجزء من البحر الأحمر وبين خروج بني إسرائيل من مصر. واللافت للنظر هنا أن سبب هذه الظاهرة الطبيعية

---

(182) المقريزي: الخطط، ج1، ص25- 26، القلقشندى: صبح الأعشى، ج3، ص311.

(183) جمال عبد الهادي، وفاء رفعت: تاريخ وحضارة مصر والعراق وبلاد الشام وإيران وتركيا منذ أقدم العصور (دار الشروق، جدة، د.ت)، ص205- 206.

واضح ومعروف، كما أشار إليه المقريزي وهو "شدة اختلاف الريح وقوة ممرها من بين شعبتي جبلين"، ومع ذلك ترك الخيال بصمته على قصة هذه المنطقة التي ارتبطت بقصة دينية إعجازية[184]، وألمح الخيال الشعبي إلى أن التفسير المقبول لديه أن فرعون قد: "غرق ببركة تعرف بـ(الغرندل) يقال إن فرعون غرق فيها فإذا هبت ريح الجنوب لا يمكن سلوك هذه البركة"[185].

ويبدو أنه قد استمر شغف الناس حول معرفة وتحديد المكان الذي غرق فيه فرعون موسى، وذلك في سياق وصف الرحالة "چوزيف بتس" (سنة1680م) لخط سير رحلته بقوله: "وبعد أن أبحرنا قليلاً من الطور أردنا الموضع الذي عبر منه بنو إسرائيل البحر الأحمر ويسمونه بئر فرعون، ويعني المكان الذي غرق فيه فرعون ومن معه بعد عبور بني إسرائيل، ويقولون إنه مكان خطر جدًّا، حتي إذا لم تهب عواصف هوجاء، وذلك لوجود نوع من الدوامات البحرية تبتلع السفن"[186].

وقد حاكت المخيلة الشعبية حول بحر القلزم وارتباطه بغرق (فرعون موسى) العديد من الأساطير والحكايات الخرافية، التي نلمس أثرًا لها عند الرحالة القزويني في قوله: "وهو البحر الذي أغرق الله تعالى فيه فرعون لعنه الله وجنوده"، وقالوا: كان بين البحر وأرض اليمن جبل يحول الماء عنها وامتداده في أرض اليمن، وكان بين البحر واليمن مسافة، فقدّ بعض الملوك ذلك الجبل بالمعاول ليدخل منه خليجًا يهلك بعض

---

(184) قاسم عبده قاسم: بين التاريخ والفولكلور، ص50.

(185) الخطط، ج1، ص17، القلقشندى: صبح الأعشى، ج3، ص311.

(186) چوزيف بتس: رحلة الحاج يوسف إلى مصر ومكة المكرمة والمدينة المنورة (ترجمة: عبد الرحمن الشيخ، سلسلة الألف كتاب الثاني، العدد 189، القاهرة 1995م)، ص42.

أعدائه فقطع من الجبل حاولي سهم، وأطلق البحر في أرض اليمن فطفا الماء، وأهلك أممًا كثيرة، واستولى على بلاد كثيرة، وصار بحرًا عظيمًا وصل إلى بلاد اليمن وجدة وجاوى وينبع ومدينة شعيب ﷺ وآيلة والقلزم".[187]

أما **البحر الرومي** (البحر المتوسط) والذي يمثل حدود مصر الشمالية، فقد دارت حوله العديد من الأساطير والخرافات، التي شقت طريقها إلى كتابات المؤرخين والرحالة. وقد ناقش الدمشقي المعروف (بشيخ الربوة) الآراء التي راجت في عصره حول ذلك البحر -الذي يمثل الحد الشمالي لمصر- فيقول "زعم المؤرخون أن الإسكندر حفر الزقاق وأجراه من المحيط عصبًا على أهل البلاد والأقاليم التي أغرقها به"[188]، وأضاف أنه قد "زعم قوم منهم أنه حفره، ليكون فارزًا بين أهل الأندلس والبربر وأهل برّ العدوة الأشبان (الإسبان) يمنعهم من الغارات التي يغارونها بعضًا على بعض وذلك بعد شكوى منهم إليه..."[189]، كما أورد رواية تذهب إلى أنه قد "زعم آخرون أنه لم يحفره. ولكنه أراد أن يعمّر عليه جسرًا على قناطر ففعل. ذلك ثم إن البحر طما وزاد وغطاها واتسع واستمر، وأنه إلى الآن ينظر الراكب فيه إلى القناطر تحت الأرض عمد سكون الريح وهدوء الموج، ونقص مده وجزره"[190]، ويبدو أن شيخ الربوة يرجح صحة الرواية الأخيرة، فوصف ذلك الجسر المزعوم الذي بناه

---

(187) القزويني (زكريا بن محمد بن محمود) (ت 682 هـ)، عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات (الطبعة الخامسة، مطبعة مصطفى البابي، القاهرة، 1980م)، ص89.

(188) الدمشقي: نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، ص136.

(189) نفسه، ص136.

(190) نفسه، ص137.

الإسكندر وقدم شرحًا تفصيليًا لكيفية بناء هذا الجسر، مدعمًا قوله بخرائط. ورسومات من وحي خياله ضمَّنها كتابه المعروف ب(نخبة الدهر).

وقد رفض المقريزي تلك الرواية التي تقول بحفر الإسكندر للبحر الرومي، كي يفصل بين البربر والإسبان، وقال "هذا الخبر أظنه غير صحيح، فإن أخبار هذا البحر وكونه بسواحل مصر لم يزل في الدهر الأول قبل الإسكندر بزمان طويل.."[191].

ابن الوردي خالف كلاً من المقريزي والدمشقي حول ماهية هذا البحر فقال: "ذُكر في كتاب أخبار مصر، أنه بعد هلاك الفراعنة كانت ملوك بني دلوكة في شق البحر المحيط الغرب، وهو البحر المظلم، فتغلب الماء على بلاد كثيرة وممالك عظيمة وجرى بها، وامتد إلى الشام وبلاد الروم وصار حاجزًا بين بلاد مصر وبلاد الروم على أحد ساحليه المسلمون وعلى الآخر النصارى..."[192].

وهنا، يتضح غياب المعلومات التي تتناول نشأة البحار، والتي كانت سببًا في ذيوع مثل تلك الروايات الخرافية، لدرجة أن مؤرخنا المقريزي لم يجد ما يعارض هذه الروايات سوى بقوله: "فإما أن يكون ذلك قد كان في أول الدهر مما عمله بعض الأوائل وإما أن يكون خبرًا واهيًا"[193].

ويحكي المقريزي قصة خرافية أخرى مؤداها، أن بعض أصحاب السّير من

---

(191) المقريزي: الخطط، ج1، ص17.

(192) ابن الوردي: فريدة العجائب، ص127. .

(193) الخطط، ج1، ص17.

الفلاسفة ذكروا: "... أن ما بين الإسكندرية وبلادها وبين القسطنطينية كانت في قديم الزمان أرض تنبتُ فيها الجميز، وكانت مسكونة وخمة، وكان أهلها من اليونانية، وأن الإسكندر خرق إليها البر فغلب على تلك الأرض، وكان بها فيما يزعمون الطائر الذي يقال له وقنس وهو طائر حسن الصوت، وإذا حان موته زاد حسن صوته قبل ذلك بسبعة أيام، حتى لا يمكن أحد يسمع صوته، لأنه يغلب على قلبه من حسن صوته مما يميت السامع، وأنه يدركه قبل موته طرب عظيم وسرور فلا يهدأ من الصياح.."[194]، وتستمر الحكاية لتقول إن واحدًا من الفلاسفة المهتمين بالموسيقى أراد أن يتوصل لسماع صوته بالحيلة، كما تحكي عن أن ماء البحر كان سببًا في هلاك هذا الطائر الأسطوري.

وربما كانت شهرة الإسكندر الكبير وفتوحاته العريضة وراء ذلك العدد الكبير من الأساطير والحكايات الخرافية التي ذاعت حوله في عالم البحر المتوسط ومصر من بلدانه بطبيعة الحال[195]، حتى إن الإسحاقي قد نسبه إلى مصر وأهلها فقال: "مصر دار العلماء والحكماء، فمنهم الإسكندر ذو القرنين صاحب السد الذي ذكره الله تعالى في كتابه..."[196]. وكذلك فعل ابن الكندي في قوله: "ومنهم: الإسكندر ذو القرنين، من أهل قرية نحو الإسكندرية يقال لها لوبية، ملك الأرض بأسرها، وذكره الله في كتابه العزيز باسمه"[197].

---

(194) نفسه، ج1، ص18.

(195) قاسم عبده قاسم: بين التاريخ والفولكلور، ص50.

(196) الإسحاقي: أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول، ص6.

(197) ابن الكندي (عمر بن محمد بن يوسف): فضائل مصر المحروسة، (تحقيق: علي محمد عمر، سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة 1997م)، ص16.

الفصل الثالث..
المادة الفولكلورية
التي تدور حول "فضائل مصر"

"تمير الحرمين الشريفين، ولولا مصر لما أمكن أهل الحرمين وأعمالهما المقام بهما، ولما توصل إليها من يرد من أقطار الأرض".

النويري

(نهاية الأرب في فنون الأدب/ 354هـ).

".. ومن فضائل مصر أنها تمير أهل الحرمين وتوسع عليهم، ومصر فرضة الدنيا يحمل خيرها إلى ما سواها.. وأهلها مستغنون بها عن كل بلد حتى إنه لو ضرب بينها وبين بلاد الدنيا بسور لاستغنى أهلها بما فيها عن جميع البلاد..".

المقريزي

(المواعظ والاعتبار 28/1)

شهد القرن (الثالث الهجري/ التاسع الميلادي) بروز مراكز ثقافية عديدة متنافسة على امتداد العالم الإسلامي، كما ازدهر النشاط العلمي والفكري في مصر وبلاد الشام والمغرب والأندلس، فضلاً عند بلدان المشرق الإسلامي، وكان علم التاريخ واحدًا من ميادين المنافسة، وتمثلت النتيجة النهائية في ظهور التواريخ المحلية، التي تتحدث عن تواريخ البلدان ثم ظهرت تواريخ المدن التي ذاعت وانتشرت على مدى عصور الثقافة العربية والإسلامية، فقد وجدت حاجة ثقافية/ اجتماعية جديدة، وهي منافسة المراكز الثقافية في شتى أنحاء دار الإسلام، وكان المسلمون قد صاروا منذ

القرن الثالث الهجري أغلبية في البلاد المفتوحة وأخذت كل جماعة تحاول إبراز فضائل البلد الذي تنتمي إليه[198].

وهنا نجد أن الكلام عن فضائل البلدان كان نوعًا من التأليف جمع بين التاريخ والأساطير والموروث الشعبي، فضلاً عن الأدب والدين، والذي كان إفرازًا للتفاعل القائم بين ما جاء به الإسلام واللغة العربية، والموروثات الثقافية المحلية. في كل مصر من أمصار دار الخلافة، الذي كان قد نضج بالقدر الذي جعل لكل بلد شخصيتها الثقافية المتمايزة داخل الإطار العام للثقافة العربية الإسلامية كلها[199].

وجرت العادة بين أغلب أصحاب ذلك النوع من التدوين التاريخي من المصريين في العصور المختلفة، أن يبدأ بعدة فصول تدور كلها حول فضائل مصر، كم مرة ذكرت في القرآن الكريم؟، وفي الأحاديث النبوية؟ مَنْ نزلها من الصحابة والتابعين؟ ثم ينتقل المؤرخ إلى سرد تاريخها منذ بدء الخليقة. وهنا تلعب الأساطير دورًا بارزًا وتفعل فعلها في الواقع والوقائع. ورغم أن كثيرا من الرحالة ومؤرخي مصر قد دخلوا إلى صميم (فضائل مصر) من بوابات القرآن والحديث النبوي، فإن باب الأسطورة ظل مفتوحًا لم يغلقه أحد إلا القليل، خصوصًا حول تفسير الآيات القرآنية الكريمة التي ورد فيها ذكر مصر.

فنجد قصصًا شعبية تتسم بالحبكة الكاملة في سياق تفسير الآيات القرآنية كالتي يحكيها ابن زولاق وغيره من المؤرخين عن السحرة الذين آمنوا بموسى في ساعة

---

(198) قاسم عبده قاسم: تطور منهج البحث في الدراسات التاريخية، ص139.

(199) قاسم عبده قاسم: بين التاريخ والفولكلور، ص56.

واحدة، فيقول ابن زولاق: "وممن أخرجت مصر من الأفاضل، السحرة الذين أحضرهم فرعون لموسى، وكانت عدتهم اثني عشر ألفًا، تحت يد كل ساحرة عشرون عريفًا، تحت يد كل عريف ألف من السحرة، فكان جميع السحرة مئتي ألف واثنين وثلاثين ألف ساحر، آمنوا كلهم في ساعة واحدة، ولا يعلم من آمن في ساعة واحدة أكثر من هذا"[200]، لنجد خلافًا بين المؤرخين[201]، في تقدير عدد هؤلاء السحرة وقد حسبها هؤلاء المؤرخون من فضائل مصر.

وتتسع الرؤية والتفسير الأسطوري للحادثة عند (الإسحاقي المنوفي) لتلعب الكائنات الأسطورية دورها في المخيلة الشعبية بقوله: "... إن السحرة الذين حشرهم فرعون من سبع مدائن، شطى.وبوصير وبنها وطنان وأرمنت وأسيوط وأنصنا، ومع ذلك لم يغن عنهم عددهم، ولا كثرة عددهم، بل لما ألقى موسى عصاه بإذن الرب الإله خروا له ساجدين. قَالُوا: آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ، قيل: إنه لما ألقى موسى عصاه فإذا هي ثعبان مبين، أي حية صفراء فاتحة فاها.. ثمانون ذراعًا، وقيل: إنها ارتفعت من الأرض قدر ميل، وقامت على ذنبها، واضعةً فكها الأسفل في الأرض والأعلى على سطح القصر الذي فيه فرعون، فوثب فرعون هاربًا. أحدث. قيل: أخذته البطنة في ذلك اليوم أربعمئة مرة وحملت على الناس فانهزموا، ومات منهم خلق كثير... مات منهم خمسة وعشرون ألفًا، وذكر أن فرعون صاح وقال: خذها يا موسى وأنا أؤمن بك.. فأخذها فعادت عصا فلم يؤمن فرعون بل كفر وعصى..."[202].

---

(200) ابن زولاق: فضائل مصر وأخبارها، ص14.

(201) انظر، ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة، ص83، المقريزي: الخطط، ج1، ص23.

(202) أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول، ص6.

نموذج آخر ساقه الرحالة والمؤرخون حول (الموروث الشعبي) المرتبط بتفسير الآيات القرآنية التي ورد فيها ذكر مصر تصريحًا أو تلميحًا، الذي يقول فيه أحد الرحالة إن: "بمصر موضع يدعى "مرج البحرين" -وهو ثابت بالقرآن - الذي هو اختلاط النيل المبارك بالبحر ببوغاز دمياط.."[203]، وتمضي أحداث الرواية عند بعض المؤرخين في محاولة مستميتة منهم لإثبات أن الخضر عليه السلام قد جاء لمصر في هذا الموضع المسمى "مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ" (الرحمن: 19)، وذلك بالقول: "قدم الخضر مع سيدنا موسى[204] في رحلاته إلى هذا المحل المسمى (مرج البحرين)، وحيث بادر إلى خرق سفينة صيد فغرقت... وهذا دليل كافٍ على أن سيدنا موسى كان ساكنًا بمصر، وحيث إن موسى والخضر قد ترافقا في مرج البحرين، فيكون الخضر أيضًا ممن دخل مصر.."[205]، والخضر في (الموروث الشعبي) شخصية تتمتع بأبعاد أسطورية واضحة، منها اكتسابه الخلود، مما يضفي على زمن وجوده في القصص الشعبية شيئًا من "المطلقية"، والمطلقية كما هو معلوم إحدى سمات الزمن الأسطوري[206]، حتى إن البعض يشير إلى ذلك بقوله إن الخضر عليه السلام "لا يزال حيًّا يُرزق"[207].

---

(203) أوليا چلبي، مصدر سابق، ص50.

(204) وردت قصة موسى عليه السلام مع الخضر في القرآن الكريم في سورة الكهف الآيات 64- 82، ويرى المعتقد الشعبي أن الخضر أحد أولياء الله الصالحين الذين يعيشون في كل زمان ومكان، وقد اتخذ الخيال الشعبي من قصة موسى عليه السلام مع الخضر تكئة لإثبات أن بعض الأولياء كرامات تبلغ درجة تفوق المعجزة التي منحها الله للنبي، ويضربون المثال على ذلك من قصة الخضر وسيدنا موسى، فقد كان الخضر أكثر علمًا من موسى، وكانت كراماته أكثر تفوقًا من معجزات النبي موسى عليه السلام الحسية. فاروق أحمد مصطفى، الموالد، ص179.

(205) المقريزي، الخطط، ج1، ص28، أوليا چلبي: سياحتنا مه، ص50.

(206) كارم محمود عزيز: الأسطورة فجر الإبداع الإنساني، ص39، ص391.

(207) السيوطي: حسن المحاضرة، ج1، ص55، أوليا چلبي، المصدر السابق، ص50.

ويمضي بنا الغرناطي في استعراض الخيال الشعبي الذي ورد فيه ذكر مصر ليوضح لنا أن "في مجمع البحرين التي وصل إليها موسى ويوشع ونسي عندها الحوت، وكان الحوت مشويًّا قد أكلا نصفه الأيمن طولاً مع نصف رأسه وعينه الواحدة اليمنى، وأخبر الله تعالى أن موضع الخضر في المكان الذي يصير إليه فيه حيًّا، فلما وصل إلى الصخرة، عاد نصف السمكة المشوية المأكول نصفها حيًّا، وأنسل ذلك في صورة نصف السمكة بعين واحدة، الجانب الأيمن كأنه قد أكل، وبقي حشوته عليها شوك أضلاعها وجلد رقيق يحفظها والنصف الأيسر صحيح، وهو من أطيب السموك..."[208].

وإذا كان الاصطفاء والتكريم مألوفًا في الناس وفي الأوقات والأزمنة، فإنه وارد أيضًا في الأمكنة والبلاد والأقطار، وهذا ما التفت إليه أعلام المؤرخين الذين كتبوا عن "فضائل مصر"، فقد تتبعوا احتفاء القرآن بها عندما ورد ذكرها فيه بصريح اللفظ أو بما دلت عليه القرائن والتفاسير، كما احتفى الضمير الشعبي بالمأثورات النبوية التي جمعها المؤرخون وكتّاب الفضائل عن مصر، فجاءت في سيل من النبوءات النبوية تبشر بفتح الإسلام لمصر، وبدورها في دولة الإسلام، وضرورة الرفق بأهلها، وتحت عنوان "باب ما رُوى عن رسول الله ﷺ في ذكر مصر"[209]، ينسب ابن زولاق وابن الكندي وغيرهما من المؤرخين والرحالة عددًا لا بأس به من المرويات المنسوبة إلى الرسول ﷺ، التي تناقلها المؤرخون المسلمون في ما بينهم، دون تدقيق وتمحيص، كان

(208) الغرناطي، (أبو حامد محمد الأندلسي) (ت 565 هـ): تحفة الألباب ونخبة الإعجاب (تحقيق: على عمر، الطبعة الأولى، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة 2003م)، ص73.

(209) ابن زولاق: فضائل مصر وأخبارها، ص6- 8، القلقشندي: صبح الأعشى، ج3، ص279.

أبرزها: "ستفتح عليكم بعدي -يُقصد هنا الرسول ﷺ- مصر، فاستوصوا بقبطها خيرًا، فإن لكم منهم ذمة ورحمًا"[210]، وفي رواية أخرى "فإن لكم منهم صهرًا وذمة"[211]، "حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة قال: حدثني ابن إسحاق قال: سألت الزهري ما الرحم الذي ذكره رسول الله ﷺ لهم؟ قال: كانت هاجر أم إسماعيل.."[212]، ويقول ابن الكندي: "رُوي عن النبي ﷺ في مصر وعجمها خاصة -ذكره لقرابتهم (ورحمهم) ومباركته عليهم وعلى بلدهم وحثه على برهم- ما لم يرو عنه في قوم من العجم غيرهم"[213].

هذه هي أبرز المرويات عن الرسول ﷺ، وهي الروايات التي يتمسك بها المؤرخون وغيرهم، للتعويل على (فضائل مصر) رغم أنها تحمل في طياتها ما يسيء إلى القيم الإسلامية، وبالتالي تسيء لتعاليم الرسول الأكرم ﷺ، وصحابته ﷺ المنسوب تلك الأحاديث إليهم، وتعليل ذلك أن المسلمين لم يفتحوا فقط مصر بعد وفاة النبي ﷺ وحسب، بل فتحوا أيضًا الشام والعراق والأندلس، وفارس والمغرب وخراسان.. إلخ، ولم يرد ذكره الشريف للوصاية بسكان تلك البلدان، كما أوصى بالأقباط خاصة -(فاستوصوا بأهلها خيرًا..) (إذا فتحتم مصر فاستوصوا بالقبط خيرًا..)- إذ إن

---

(210) نفسه، ص6، رواه مسلم في صحيحه مع زيادة في اللفظ، كتاب فضائل الصحابة، باب وصية النبي ﷺ بأهل مصر، صحيح مسلم، ج4، ص1970.

(211) فتوح مصر، ص20، والحديث أخرجه صاحب الكنز برقم 34022 عن ابن عساكر.

(212) ابن جرير الطبري، تاريخ الطبري (تاريخ الأمم والملوك)، ج1، ص173، البيهقي، السنن الكبرى، ج9، ص206، المتقي الهندي، كنز العمال، ج11، ص368.

(213) ابن الكندي: فضائل مصر المحروسة، ص6، ص7.

ذلك تخصيص لشعب مصر بالخير يقابله بالضرورة استثناء للشعوب الأخرى، وإحراز الرخصة للقواد العسكريين والسياسيين لإنزال الشعوب الأخرى منزلة دون الخير المخصوص به شعب مصر سلفًا، كما نقول إنه جاء على لسان الرسول ﷺ.

ومع فرضية أن الأقباط كان لهم خصوصية عند رسول الله ﷺ من دون باقي الشعوب، كما جاءت في الأحاديث المذكورة أعلاه، وأن لهم (ذمة ورحمًا)، فإن لهم (ذمة ورحمًا أو قال ذمة وصهرًا)، ألا يعني أخذنا بهذا التبرير لخصوصية الأقباط أن الرسول الأكرم ﷺ جعل همه ليس العدل والمبدأ ومصلحة الدين والأمة بمقدار ما يتحكم به في علاقة النسب والعرق والأسرة والعشيرة كأي حاكم عشائري أو قبلي!! فماذا عن الشعوب التي لا رحم لها مع رسول الله ﷺ إذن؟ فهل هؤلاء لا وساطة لهم مع السماء كما هو الحال مع القبط فوقعوا بذلك خارج دائرة التميز والوصاية والخير؟! أليس هذا التبرير الغريب واقعًا في مسار تصادمي مع قيم ومبادئ السماء التي دعا إليها الرسول ﷺ نفسه وأسس لها من مساواة بين الناس جميعًا.

مجمل القول، إن تلك الجمهرة من المرويات في أغلبها هي من ذخائر (الموروث الشعبي) التي كانت ترضى حاجة ثقافية/ اجتماعية لشرائح بعينها في المجتمع المصري آنذاك، وهو المعنى نفسه الذي ألمح إليه الرحالة (ابن الوزان الزيَّاتي) في معرض حديثه عن مدينة الإسكندرية بقوله: "وبعد ذلك راحت تخسر أهميتها تدريجيًا، على مدى السنين، وفقدت شرفها القديم إذ لم يعد أي تاجر من اليونان أو من أوروبا يستطيع أن يمارس فيها التجارة، حتى لقد كادت أن تصبح خاوية تمامًا من السكان. ولكن نسب أحد الخلفاء الدهاة إلى الرسول محمد ﷺ قولاً زورًا لا يخلو من مكرٍ، وهو أن الرسول ﷺ منحَ أهل الإسكندرية في إحدى نبوءاته، العديد من الكرامات،

أي إلى الذين يعودون إليها في يوم ما لتحقيق حمايتها وحماية الذين يؤتون الزكاة، وبعد برهة من الوقت امتلأت بالسكان، من غرباء عن البلاد، ومن أخلاط الناس الذين قصدوها لهذه الكرامات"[214]، وربما كانت وسيلة لحث الحكام الجدد –العرب– للترفق بأهل مصر وحسن معاملتهم على غرار المثل الشعبي السائر: "**اتوصوا علينا يا للي حكمتو جديد، إحنا عبيدكم وأنتم علينا سيِّد**"[215]، التي تجسد تفاعل أهل مصر مع من حولهم من ظواهر ومعطيات.

جانب آخر من فضائل مصر أشار البكري إليها في (الروضة المأنوسة) بقوله: "في التوراة مكتوب: مصر [خزاين] الأرض كلها ومن أرادها بسوء كبه الله على وجهه وقصمه الله.. ما يريدهم أحد بسوء إلا أهلكه الله ولا يريد أحد هلاكهم إلا ورده الله عليه"[216]، فمصر في أذهان الناس كما وَرَدَ عند ابن الوردي: "كنانة الله ما رماها أحدُ بسوء، إلا أخرج الله من كنانته سهمًا فرماه به فأهلكه.."[217].

ولم يعجز الخيال الشعبي عن تبرير أسباب تلك الحماية الربانية التي اختصها الله لمصر، التي اعتبرها من فضائلها، ليجد ضالته في رواية أخرى يعضد بها ما ذهب إليه من تلك الرعاية الإلهية مؤداها: "أنه لما خلق الله آدم مثَّل له الدنيا شرقها وغربها

---

(214) ابن الوزان: (الحسن بن محمد الوزان الزياتي المعروف بجان ليون الإفريقي) (ت 957هـ): وصف إفريقيا، ترجمة: عبد الرحمن حميدة، مراجعة: على عبد الواحد، سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة 2005م، ص570.

(215) إبراهيم أحمد شعلان: الشعب المصري في أمثاله العامية (الدراسات الشعبية، العدد 87، 88، القاهرة 2004م)، ص81.

(216) البكري (محمد بن أبي السرور): الروضة المأنوسة في أخبار مصر المحروسة (تحقيق عبد الرازق عيسى، الطبعة الأولى، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1997م)، ص53.

(217) ابن الوردي: خريدة العجائب وفريدة الغرائب، ص34.

وسهلها وجبلها وأنهارها وبحارها، وبناءها وخرابها، ومن يسكنها من الأمم، ومن يملكها من الملوك، فلما رأى مصر أرضًا سهلةً ذات نهر جار مادته من الجنة تنحدر فيه البركة، ورأى جبلاً من جبالها مكسوًا نورًا لا يخلو من نظر الرب إليه بالرحمة في سفحه أشجار مثمرة وفروعها في الجنة تسقى بماء الرحمة، فدعا آدم في النيل بالبركة، ودعا في أرض مصر بالرحمة والبر والتقوى، وبارك في نيلها وجبلها سبع مرات..."[218].

ويعلق الرحالة چوزيف بتس على ذلك بقوله: "يقول أهل القاهرة: إن الله يحب مدينتهم ويرعاها بناظريه سبع مرات في اليوم ليحفظها من كل سوء"[219]، أضف إلى ذلك ما شاع بين الناس عن دعوة نوح عليه السلام لمصر، حيث كان: "قد دعا لمصر أن يسكنه الله تعالى الأرض الطيبة المباركة التي هي أُمُّ البلاد وغوث العباد، ونهرها أفضل الأنهار، ويجعل له فيها البركات، ويُسَخِّر له الأرض ولولده ويذللها لهم، ويقويهم عليها"[220]، وربما لم يكن غريبًا أن نجد في السيرة الهلالية انطباعات كثيرة من هذه الحماية والمعتقدات المصرية، مثال ذلك قولهم: "مصر المحروسة من عدوها بالأقطاب الموكلين بالأرض"[221].

---

(218) الخطط، ج1، ص26، ص27، الإسحاقي المنوفي: أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول، ص4.

(219) چوزيف بتس: رحلة الحاج يوسف إلى مصر (ترجمة:عبد الرحمن الشيخ، سلسلة الألف كتاب الثاني، العدد 189، القاهرة 1995م)، ص39.

(220) القلقشندى: صبح الأعشى، ج3، ص312، الإسحاقي المنوفي: أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول، ص5.

(221) عبد الحميد يونس: الهلالية في التاريخ والأدب الشعبي (سلسلة الدراسات الشعبية، العدد81، القاهرة

تلك المرويات التي اتخذت لنفسها سندًا دينيًّا تعكس بالضرورة أصداء اعتقاد المصريين بأن خيرات بلادهم كانت خيرًا إلهيًّا اختصهم به الله ومنح بلادهم شهادة الخلود التي جعلها غير قابلة للزوال أو الاحتلال أو التجزئة أو الاحتواء حتى وإن تطاول عليها أقزام في غفلة من الزمن، كما تكشف لنا عن جانب من الأفكار العامية السَّيارة والشائعة عن مصر يومئذٍ، في إطار من المعتقدات والعادات والتقاليد التي سادت الخريطة الثقافية للمشرق العربي في ذلك الوقت. كما أن تلك المرويات كانت ترضي حاجة اجتماعية/ ثقافية لشرائح بعينها في المجتمع المصري، خصوصًا بعد الفتح الإسلامي لمصر، وما أيقظه من شعور في الأمم المختلفة التي غلبت على أمرها، مما جعل لها تكئة لانتحال الحديث وإرجاعه إلى الرسول ﷺ. وإيجاد ما يعزز صلتهم بالإسلام، وتقيم لنفسها أمام ملء المسلمين حجة ناهضة، تدل على فضل ومكانة أمصارهم ومدنهم على بقية المدن والأمصار الأخرى.

وفي الصفحات الأولى عند ابن زولاق وفي سياق عرضه لفضائل مصر يوقف السرد، ليورد سطورًا تكشف عن إحساسه بمكانة مصر في العالم في إطار تصور ساذج لشكل الأرض تناقله المؤرخون والرحالة على غير روِّية منهم.

إلا أنه يدلنا على قصور المعلومات الجغرافية في ذلك الحين، كما نستشف منه أن الأساطير والحكايات الخرافية في ذلك الحين، قد غطت المناطق المجهولة التي لم تستطع الجهود العقلية آنذاك أن تكتشفها، فيقول: "خلقت الدنيا على صورة طائر برأسه وصدره وجناحيه وذنبه، فالرأس مكة والمدينة واليمن والصدر مصر

2003م)، ص279- 315.

والشام.."[222]، غير أننا نجد الرحالة ابن حوقل (القرن الرابع الهجري) يسجل موقفه من خرافات التصور الجغرافي الذي راج في كتابات المؤرخين، وحاول تنزيه كتابه (صورة الأرض) عن ذكر ما لا يعقل، بل ويحسب له أنه ناقش تلك المعتقدات الجغرافية المستقرة في عصره مناقشة علمية، وانتهى إلى نقدها رافضًا فكرة تصوير الأرض على شكل طائر بقوله: "فقد اتفق العلماء بمسالك الأرض وبعض الحساب المشار إليهم بعلم الهيئة في ما تواضعوه من صفات الأرض أنها مصورة بصورة طائر، فالبصرة ومصر الجناحان، والشام الرأس والجزيرة الجؤجؤ، واليمن الذنب، وهذه الحكاية ما رأيتها قط مقررة، وإذا كان الأمر كذلك ففارس وسجستان وكرمان وطبرستان وأذربيجان وخراسان ليست من الأرض، ولا معدودة في حسابها.. وهذا قول يحتاج إلى تقرير بفهم جامع وفكر صحيح ليقف على حق ذلك من باطله.."[223]، غير أن السيوطي قد أشار إلى أن "هذا التشبيه رفعة في القدر وفخرها على البلاد كفخر العلماء على العباد"[224].

بيد أن ما يهمنا أن تصور موقع مصر في صدر ذلك الطائر أو جناحية دلالة على إحساس أهلها ومن عاصرهم بأهمية بلادهم ومحوريتها، التي لا شك تبوأت مركز الصدارة بعد أن آل إليها كرسي الخلافة الإسلامية التي أحياها الظاهر بيبرس في-شهر

---

(222) ابن زولاق: فضائل مصر وأخبارها، ص12، المقريزي: الخطط، ج1، ص25، المنوفي: أخبار الأول، ص8.

(223) ابن حوقل (أبي القاسم ابن حوقل النصيبي): صورة الأرض، (القسم الأول، الطبعة الثانية، ليدن 1938 م)، ص88.

(224) السيوطي (جلال الدين) (ت 1911م): كوكب الروضة في تاريخ النيل وجزيرة الروضة (تحقيق: محمد الششتاوى، الطبعة الأولى، دار الآفاق العربية، القاهرة 1997م) ص338.

رجب (سنة 659 هـ/ 1261م)[225]، أو انعكس وضعها الجديد على كتابات المؤرخين والرحالة، الذي نلمسه في قول (البلوي): "مصر هي قاعدة المشرق، و"أم المدائن ومقر الملوك ودار الطمأنينة"؛ قد كمل الله حضرتها وجمل نضرتها بأن قلَّد بها أمور الملوك وخلَّد فيها العز والتمكين للسلطان الناصر الدنيا والدين قسيم أمير المؤمنين من الخلفاء العباسيين"[226].

اتجاه آخر من الرحالة والمؤرخين رأى أن أهم فضائل مصر أنها: "تمير أهل الحرمين وتوسع عليهم.. فمصر فرضة الدنيا يحمل خيرها إلى ما سواها. ومن مدينة القلزم يحمل إلى الحرمين واليمن والهند والصين وعمان والسند.."[227].

ولنجد أن أبعاد الدور المصري ومركزيته والتزاماته تجاه أهل الحجاز استخدمه الضمير الشعبي كجسرٍ يعبر عليه إلى أغوار التاريخ الأسطوري حول حفر (خليج مصر) فيقول المؤرخون: "وهو خليج قديم احتفره بعض قدماء ملوك مصر، بسبب هاجر أم إسماعيل بن إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام حين أسكنها وابنها إسماعيل خليل الله إبراهيم عليهما الصلاة والسلام بمكة، ثم تمادت الدهور والأعوام فُجدد حفره ثانية.."[228]، وتمضي الرواية لتحكي حكاية أحد ملوك مصر، ويدعى (طيطوس) مع

---

(225) قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، التاريخ السياسي والاجتماعي (الطبعة الأولى، دار عين للدراسات والبحوث، القاهرة 1998م)، ص88.

(226) البلوى (خالد بن عيسى) (ت 795هـ): تاج المفرق في تحلية علماء المشرق (الجزء الأول، تحقيق: الحسن السائح، د.ت) ص216- 217.

(227) الخطط، ج1، ص28، الإسحاقي: أخبار الأول فيمن تصرف في مصر، ص8.

(228) الخطط، ج3، ص139، الحِميَري: الروضُ المعطار في خبر الأقطار (تحقيق: إحسان عباس، بيروت 1979م)، ص552.

الخليل إبراهيم عليه السلام وزوجته سارة، وما كان من تقديمه هاجر هدية إلى سارة.. ثم يقول: "وعاش طيطوس إلى أن وجهت هاجر من مكة تعرّفه أنها بمكان جدب وتستغيثه، فأمر بحفر نهر في شرقي مصر بسفح الجبل حتى ينتهي إلى مرقى السفن في البحر الملح، فكان يحمل إليها الحنطة وأصناف الغلات، فتصل إلى جدة، وتحمل من هناك على المطايا، فأحيا بلد الحجاز مدة. ويقال إنها حليت الكعبة في ذلك العصر مما أهداه ملك مصر.. ويقال إنه سأل إبراهيم عليه السلام أن يبارك له في بلده فدعا بالبركة لمصر.."[229].

ما يهمنا هنا، هو ربط "الموروث الشعبي" بين حفر خليج مصر وهاجر (المصرية)، وكيف أن المصريين لم يتركوا ابنتهم هاجر تعاني الجوع في مكة، وتجد بعض الحقائق التاريخية الثابتة في سياق تلك الرواية الخيالية، وهو ما يعرف من أن المصريين القدماء حفروا قناة تصل النيل بالبحر الأحمر من ناحية، ثم لما كانت تقوم به مصر في العصور الإسلامية من تحمل أعباء إطعام سكان الحرمين الشريفين، كما تشي بمدى احتفاء (الموروث الشعبي) بهاجر المصرية التي عمرت أرض العرب بنسلها وكيف أن مصر كانت تعولها، ومن معها من خيراتها الوفيرة، وأنها أول من كسي الكعبة، وهو أمر مستقر في الذهنية الشعبية، له تقاليده من إعداد الكسوة ودوران المحمل ثم سفره، الذي تحدث عنه الرحالة بكثرة[230]، لما كانت توجد علاقات قديمة بين مصر والعرب في شبة الجزيرة العربية.

---

(229) المقريزي، الخطط، ج1، ص140- 141.

(230) ابن جبير (أبي الحسين محمد بن أحمد) (ت 1217م): رحلة ابن جبير (تحقيق: حسين نصار، مكتبة مصر، القاهرة 1992م)، ص93، ابن بطوطة (عبد الله بن محمد اللواتي)، (ت 808هـ): رحلة ابن بطوطة (طبعة المكتبة التوفيقية، القاهرة، د.ت)، ص42.

الموروث الشعبي المتعلق "بفضائل مصر" في كتاب المؤرخين كشف (عمدًا أو دون وعي)، أن مصر لم تقف عند حدود الانتماء للإسلام كدين ودولة، وإنما تبوأت مكانتها حتى لكأنها هي صاحبة هذا الدين والأمينة عليه، بل ووجدت في شريعة محمد ﷺ كما لو اكتمال توحيد إدريس عليه السلام ومن صار على دربه من أنبيائها وحكمائها وملوكها الأقدمين[231]، مثل "مصر بن ينصر بن حام بن نوح عليه السلام" الذي ظهر في المادة الفولكلورية التي دارت حوله بأنه: "يؤمن بالمبعوث بالفرقان الداعي إلى الإيمان الظاهر آخر الزمان"[232]، وأوردت الكتابات التاريخية كثيرًا من الروايات التي تتضمن نبوءات[233] بظهور النبي محمد ﷺ وفتح العرب المسلمين مصر، التي عرفت التوحيد منذ القدم لا سيما وأن المخيلة الشعبية رأت أن "أخنوخ وهو هرمس أي إدريس عليه السلام.. وكان قد نُبئ إدريس وهو ابن أربعين سنة، وأراده الملك (تبلبل) بسوء فقصمهُ الله، وولد بمصر وخرج منها وطاف الأرض كلها.. وأطاعه ملك مصر.."، فـ"هرمس هذا هو إدريس عليه السلام"[234].

---

(231) محمد عمارة: أثر الإسلام في مصر وأثر مصر في الحضارة العربية الإسلامية (ضمن كتاب في مواكب النور، إشراف: قاسم عبده قاسم، الطبعة الأولى، هيئة قصور الثقافة، القاهرة 1999م)، ص86، ص87.

(232) ابن محشرة: الاستبصار في عجائب الأمصار، ص66.

(233) النبوءة: هي الأخبار بالمستقبل قبل وقوعه، أي قراءة الغيب، وهي من العناصر التي تعد مشتركة بين القصص البطولي في معظم أشكاله، وهي رسالة للبطل نفسه، تريحه وتمنحه اليقين، وتزيل عنه الخوف، وقد تكون يقينًا للجماعة بدور بطلهم المقدَّر عليهم، ويساعدنا في التعرف على النبوءة طرق عديدة، أهمها النبأ الموجود في الكتب القديمة. أحمد شمس الدين الحجاجي: مولد البطل في السيرة الشعبية (دار الهلال، القاهرة 1991م)، ص48، كارم محمود عزيز: النموذج الفولكلوري للبطل في العهد القديم (رسالة دكتوراه – غير منشورة – جامعة الزقازيق 1997م)، ص20.

(234) عبد الله الشرقاوي: تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الولاة والسلاطين (الطبعة الأولى، المطبعة الأزهرية

المقريزي وغيره من المؤرخين، تحدثوا عن (مصرايم) الذي سميت مصر باسمه في إحدى الروايات: "ولما حضر مصرايم الوفاة عهد إلى ابنه قبطيم، وكان قد قسم مصر بينه فجعل لقبطيم من قفط إلى أسوان، ولأشمون من أشمون إلى منف.. وأمرهم عند موته أن يحفروا له في الأرض سربًا، وأن يفرشوه بالمرمر الأبيض، ويجعلوا فيه جسده، ويدفنوا معه جميع ما في خزائنه من الذهب والجواهر، ويزبروا عليه أسماء الله تعالى المانعة من أخذه... فحفروا له سربًا وجعلوا في وسطه مجلسًا مصفحًا بصفائح الذهب، وجعلوا جسده في جمد مرمر مرصع بالذهب، وزبروا على مجلسه: مات مصرايم بن بنصر بن حام بن نوح. بعد سبعمئة عام مضت من أيام الطوفان، ولم يعبد الأصنام، إذ لا هرم ولا سقام ولا حزن ولا اهتمام، وحصنته بأسماء الله العظام، ولا يصل إليه إلا ملك ولدته سبعة ملوك تدين بدين الملك الديَّان، ويؤمن بالمبعوث بالفرقان الداعي إلى الإيمان، آخر الزمان، وجعلوا معه في ذلك المجلس ألف قطعة من الزبرجد المخروط وألف تمثال من الجوهر النفيس، وألف برينة مملوءة من الدر الفاخر، والصنعة الإلهية والعقاقير والطلسمات العجيبة وسبائك الذهب وسقفوا ذلك بالصخور، وأهالوا فوقها الرمال بين الجبلين.."(235).

يسترعي الانتباه أن وصف مدفن مصرايم وعملية دفنه هي امتداد لما عُرف عن المصريين القدماء حيث تجهيز المقبرة، التوابيت المذهبة، التماثيل والنقوش... إلخ، والطلاسم والتعاويذ الحافظة والاجتهاد في إخفاء المقبرة عن عيون اللصوص، وتأتي

المصرية، القاهرة 1311هـ)، ص17، المقريزي: الخطط، ج1، ص27.

(235) الخطط: ج1، ص19.

بعد ذلك النبوءة واضحة، فمصرايم يقول في ما خلفه من نقوش إنه لن يصل إليه إلا ملك من سلالة ملوك يؤمنون بالمبعوث بالفرقان الداعي إلى الإيمان آخر الزمان، وهو محمد ﷺ، وهذا بطبيعة الحال يشير إلى دخول الإسلام والمسلمين أرض مصر.

بيد أن الملاحظ أن تلك الرواية كانت تمثل **الاتجاه** الذي يتنازع نسبه إلى أصول مصرية حامية، ويعبر عن اعتزازه بمصريته، التي لا تتنافر مع عقيدة التوحيد منذ زمن موغل في القدم.

أما **الاتجاه الثاني**، وهو الاتجاه الذي تتنازعه الانتساب إلى اليونانيين تحت تأثير العلاقات الحضارية بين مصر القديمة وبلاد الإغريق، فيقول في روايته "بباب القصر بمصر دير عظيم، وهو الآن مدرسة، كان قدماء الكهنة صنعوا به صورة من النحاس على وجهها نقاب مطلي بالذهب، وعليه نقوش باللغة اليونانية تدل على أن نبي آخر الزمان يكون على هذه الصورة، وأن أمته ستفتح مصر وتنفذ فيها العدل والإنصاف، ويأتي أولئك الفاتحون بعد محمد ﷺ بثمانية عشر عامًا في عهد الفاروق عمر بن الخطاب ﷺ، وعامله عمرو بن العاص، ورسموهم على الرخام رجالاً ذوي أثواب صفر راكبين ألف جمل أبيض، وقد نقشت على الرخام الذي عليه الصورة آية من الإنجيل باللغة اليونانية، وهي هذا الرجل من سلالة آدم نبي اسمه محمد صاحب العالمين. بيد أن النصارى أزالوا صورة سيدنا عمر ﷺ حين حاصر عمرو بن العاص مصر"[236].

أما **الاتجاه الثالث**: فهو الاتجاه العربي برواياته المختلفة الناتج عن الواقع

---

(236) أوليا چلبي: سياحتنا مه مصر، ص626.

الجديد وفتح العرب لمصر، الذي شمل العرب والمتعربين الذين حاولوا أن يثبتوا بقرائن ذهنيتهم عروبة وإيمان مصر بالتوحيد منذ نعومة أظافرها، فنجد ابن عبد الحكم ينفذ إلى صميم التاريخ العربي والفتح الإسلامي لمصر من بوابات الأسطورة وطاقة النبوءات بقوله "قال ابن لهيعة وبلغني أنه وجد حجرًا بالإسكندرية مكتوبًا فيه أنا شداد بن عاد، وأنا الذي نصب العماد وحيَّد الأحياد، وسدَّ بذراعيه الواد بنيتهن إذ لا شيب ولا موت، وأن الحجارة في اللين مثل الطين وكنزت في البحر كنزًا على اثنتي عشر ذراعًا لن يخرجه أحد حتى تخرجه أمة محمد ﷺ"[237].

ابن إياس أورد نقلاً عن ابن عبد الحكم نبوءة جاء فيها "كان بالإسكندرية باب لا يزال مغلقًا وعلية أربعة وعشرون قفلاً، فعزم المقوقس على فتحه، فنهوه عن ذلك القساوسة والرهبان وقالوا له: لا تفتح هذا الباب واجعل عليه قفلاً كما فعل من تقدمك من الملوك القبط، فلم ينته عن فتحه، وفتحه، فلما دخل فيه لم يجد به شيئًا من المال ورأي على صدر الحائط نقوشًا على هيئة تصاوير للعرب وهم على خيولهم بعمائمهم وسيوفهم في أوساطهم وهم على الخيل والإبل، ورأى تحت هذه الصور كتابة بالقلم القديم.. معناه: إذا فتح هذا المكان آخر الزمان فتملك العرب المدينة في السنة التي يفتح فيها، وكان الأمر كذلك"[238].

كان فتح الإسكندرية إذن مقدرًا مكتوبًا –عاصمة مصر آنذاك– وصور العرب

---

(237) ابن عبد الحكم، مصدر سابق، ص60.

(238) ابن إياس: (أبو البركات محمد بن أحمد) (ت 930هـ): كتاب تاريخ مصر المسمى بدائع الزهور في وقائع الدهور(الجزء الأول، الطبعة الأولى، المطبعة الأميرية الكبرى ببولاق، مصر المحمية، القاهرة 1311هـ)، ص106.

الفاتحين مرسومة على الحوائط، وما كان في الإمكان أن يحول أحد دون ذلك، كما تمدنا الرواية ببعض الوصف الإنثوجرافي للفاتحين العرب وملابسهم وهيئتهم وطرق حياتهم. ويبدو أن سيلاً من النبوءات قد شاع في المجتمع المصري، وأصبح مألوفًا في التراث المتعلق بالفتح الإسلامي لمصر، ومن أمثلة ذلك ما ذكره ابن نصر المصري للمؤرخ المقريزي بأنه "كان على باب القصر الكبير الذي يقال له باب الريحان عند الكنيسة المعلقة، صنم من نحاس على خلقة الجمل، وعليه راكب عليه عمامة منتكب قوسا عربية، في رجليه نعلاً، كانت الروم والقبط وغيرهم إذا تظالموا بينهم واعتدى بعضهم على بعض تجاروا إليه حتى يقفوا بين يدي ذلك الجمل، فيقول المظلوم للظالم أنصفني قبل أن يخرج هذا الراكب الجمل، فيأخذ الحق لي منك شئت أم أبيت. يعنون بالراكب النبي محمد ﷺ، فلما قدم عمرو بن العاص غيرت الروم ذلك الجمل لئلا يكون شاهدًا عليهم.."[239].

السيوطي أيضًا يتحدث عن بربي (معبد) أخميم وما كان منقوشًا ومصورًا على جدرانها من علوم وأسرار: "... وبربي أخميم، كان فيه صور الملوك الذين ملكوا مصر.. ويُقال إنه كان بها جميع ما يحدث في الزمان حتى ظهور رسول الله ﷺ، وأنه كان مصورًا فيها راكبًا على ناقة"[240].

ويعلق ابن الزيات بأنهم: "كانوا يعنون بالراكب النبي ﷺ، ولما قدم عمرو بن العاص إلى مصر غيرت الروم ذلك الجمل، وبلغني أن تلك الصورة في ذلك الموضع

---

(239) المقريزي: الخطط، ج1، ص32.

(240) السيوطي: حسن المحاضرة، ج1، ص65، ص66.

أتى عليها ألف سنة أو أكثر، ولا يعرف من عملها فهذه عجائب مصر.."[241]. أما (ابن خرداذبة) المتوفى (سنة 300هـ) يؤكد لنا براوية ساقها على ما جلبت عليه أفهام الناس آنذاك من تصديق ما تريد أن تصدقه، وتؤمن به وتطوع النصوص من أجله، فيقول في سياق سرده لحادثة عثورهم على كنز من كنوز المصريين القدماء: ".. ثم فتحت النيمخانجة القبلية فوجدنا فيها جرنًا من حجر أصم أسود مطبق... فإذا فيه شيخ ميت، فوجدنا في جانب منه صورتين من ذهب، إحداهما صورة رجل بيده حية، والأخرى صورة رجل على حمار بيده عكاز، وفي الجانب الآخر صورة رجل على ناقة بيده قضيب.. وأجمعنا على أن الصور لموسى وعيسى ومحمد ﷺ أجمعين"[242].

أما النبوءة التي وردت عند أحد الرحالة المسلمين فتقول: "وكان الملك طوطيس قد أسال نهر النيل إلى بحر السويس في عهد سيدنا إبراهيم، وبعد ذلك حينما سمع والد الملك المقوقس بطلوع شمس صاحب الرسالة المحمدية، بادر إلى سد الخليج نكاية بالرسول، ولبث النيل لا يصل إلى السويس كما كان عهده"[243].

وبغض النظر عن صحة تلك الروايات وأسطوريتها فإننا نجد في ثناياها بعض الحقائق التاريخية، وهي ثبوت اتصال بين العرب مؤثِّلي العربية والإسلام بهذه الأرض المصرية، ولما خبروها حدَّثوا عنها حديث الإعجاب والفتون قبل الإسلام، وسمعوا وصفها من القرآن وأكرم به وصفًا، وأعزز بأرض الجنات والعيون والزروع، والمقام

---

(241) ابن الزيات (شمس الدين محمد): الكواكب السيارة في ترتيب الزيارة في القرافتين الكبرى والصغرى (المطبعة الأميرية بمصر، القاهرة 1907م)، ص66.

(242) ابن خرداذبة: المسالك والممالك، ص160.

(243) أوليا چلبي: سياحتنا مه مصر، ص66.

الكريم وفيها قوله تعالى: "فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ" (الشعراء: 85، 59)، فقد كانت الجنات بحافتي النيل منْ أوله إلى آخره من الجانبين ما بين أسوان إلى رشيد"[244].

كما تقدم الروايات السابقة صدى لما عُرِفَ عن تلك القناة القديمة التي تصل النيل والبحر الأحمر التي ذكرناها سابقًا، وتقدم تعليلاً شعبيًّا عن كيفية اندثار تلك القناة، وتشير إلى توق الكثير من أبناء مصر إلى قدوم مخلص يخلصهم من الضيم الواقع على كاهلهم، من خلال تمثال النبي محمد ﷺ الذي يركب جملاً، وكانوا يلجؤون إليه إذا ظُلموا وينتظرون عدْله، ويوقنون بمجيئه ليخلصهم، ومن المتعارف عليه أن انتظار المخلص (البطل) هو أمر مألوف وشائع في القصص الشعبي والسِّير العربية.

وربما كان لظهور **الناقة**[245] بكثرة في الروايات التي تنبأت بظهور النبي ﷺ تُعَد إشارة ودلالة لها علاقة بتقديس العرب للإبل وتأليهها، وترتبط بنظرة العرب إليها من زاوية ارتباطها بمعتقداتهم ونمط تفكيرهم قبل الإسلام[246]، ولم تكن مثل هذه

---

(244) الخطط: ط1، ص23، القلقشندي: صبح الأعشى، ج3، ص315.

(245) تعد فكرة الناقة من أكثر الأفكار تنوعًا في التراث العربي القديم، فالناقة منبت كل ما أهمَّ وأقلق وأحزن الشاعر الجاهليّ، والناقة هي خالقة الأساطير التي أخرجت الشعر من الغناء الساذج إلى التصدي الملح لفكرة المشكلات، أو لنقل أن الناقةَ هي التي نقلت الفكر العربي قبل الإسلام مما نسميه طبيعة الملاحم إلى طبيعة الدراما والصراع، فالعلاقاتُ الأساسية بين العربي والعالم في شكل مزاج من الرفض والقبول تكمن في هذه الناقة، كما أن العربي القديم كان يظن الناقة رمزًا لكل هم أو اهتمام أساسيّ، ولذلك لا ينافسها في خلق الأفكار شيء. انظر/ ثناء أنس الوجود: تجليات الطبيعة والحيوان في الشعر الأموي، (طبعة الشركة المصرية العالمية للنشر، القاهرة 1998م)، ص42.

(246) أحمد إسماعيل النعيمي: الأسطورة في الشعر العربي قبل الإسلام، ص181.

الاعتقادات والتصورات قاصرة على الجاهلية، بل امتدت إلى العصر الإسلامي، فاتخذت العقلية الشعبية من الناقة مادة تتجلى مع معجزات الرسول ﷺ[247].

القراءة الشعبية للفتح الإسلامي لمصر جاءت زاخرة أيضًا بالحكايات الشعبية والأسطورية والنبوءات والإشارات التلميحية، وهو ما يعكس بوضوح تأثير ذلك النوع من القصص التاريخي الذي كان شائعًا في مصر يومئذ على أيدي الإخباريين والرواة الذين كانوا يعقدون مجالسهم في المساجد والمحافل، ولما كانت الرواية شفوية كان لا بد من عنصر الإثارة والتشويق لجذب انتباه السامعين، ومن الواضح أن المؤرخين قد اعتمدوا على جانب كبير من هذه الروايات الشفوية التي تروي وقائع الفتح وأحداثه، ومن ثَمَّ كان طبيعيًّا أن تتأثر كتاباتهم -لا سيما في القسم الذي يعالج أحداث الفتح- بأسلوب القصص التاريخي الذي تغلب عليه سمة الأدب أكثر من خاصية التاريخ[248]، فامتزج فيها الخيال الشعبي بالحقائق، مسجلاً بطولات عمرو بن العاص، وكرامات عمر بن الخطاب،.ومشركًا عروس النيل في تلك الأحداث، وهو في كل هذا لا يخالف النصوص التاريخية المعروفة، وإنما هو يزيد عليها ويضيف، ويجري الخيال في تعميق (الأخبار) تعميقًا دراميًّا، لتتحول إلى أحداث قصصية، ومن هنا خرجت من عباءة التاريخ لتدخل في إطار العمل الشعبي، أو القراءة الشعبية للفتح الإسلامي لمصر، ليصب في خانة الإضافة إلى (فضائل مصر) لا الخصم منها.

---

(247) صلاح الراوي: الفولكلور في كتاب حياة الحيوان (سلسلة الدراسات الشعبية، العدد 73، القاهرة 2003م)، ص63.

(248) قاسم عبده قاسم، أحمد إبراهيم الهواري: الرواية التاريخية في الأدب العربي الحديث (الطبعة الأولى، دار المعارف، القاهرة 1979م)، ص25.

مثال ذلك، ما تناوله المؤرخون من أن الفاروق عمرًا ﷺ أخبر عمرو أنه مرسل إليه كتابًا فإن أدركه قبل دخوله أرض مصر فليعد من حيث أتى، وإن أدركه بعد دخولها فليمض على بركة الله، وأن عمرًا قد أدركه هذا الكتاب وهو لا يزال في فلسطين، فلم يقرأ الكتاب إلا بعد أن تأكد من أنه في أرض مصر[249].

كلام لا سبيل إلى تصديقه وذلك لأسباب: منها أن فتح مصر كان واجبًا لا سبيل إلى إرجائه، ولا إلى التمهل في أدائه، كما أن الفاروق ﷺ -الذي قال: ما دخلت في أمر إلا وأنا أعرف كيف أخرج منه- لو لم يكن على قناعة من فتح مصر لرفض المضي فيه، إذا طلب منه من غير حاجة إلى الكتاب المزعوم الذي سبق الحديث عنه. أضف إلى ذلك أن (عمرو بن العاص) ما كان ليخدع الفاروق أو يغرر به، وهو على يقين من أن فتح مصر ليس أمرًا سهلاً، وإنما هو في حاجة إلى عدد وعدة ولا سبيل إلى الحصول عليها إلا من الخليفة[250]، على هذا فإن الكتاب من الأساطير التي لا يؤيدها عقل ولا نقل.

أما العقل فللمحاذير التي سبق وأمطنا اللثام عنها، وأما النقل فلأن الطبري لم يذكره ولا أشار إليه وهو أقدم وأقرب المصادر إلى الصدق التي تناولت العصرين، الخلافي والأموي، وقد نسج على منواله في أنه الكتاب الآنف الذكر ابن الأثير في تاريخه، وابن عبد الحكم في فتوحه، والحافظ في البداية والنهاية، وذكره المقريزي في المواعظ والاعتبار، وهو آخر هذه المصادر وأحدثها.

---

(249) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص77.

(250) عبد العزيز غنيم: على هامش الفتح الإسلامي لمصر، مصر والإسلام، (سلسلة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، العدد 66، القاهرة 2003م)، ص43، 44.

وعلى هذا فالرأي الأكثر رجحانًا، يذهب إلى أن بعض تفاصيل روايات المؤرخين إن لم تكن كلها، التي روت وقائع (فتح مصر) شابها الكثير من الخيال والتحريف، حيث إن القراءة الشعبية للفتح لعبت دورًا لا بأس به في هذا الميدان الرحب، وإذا كانت وقائع هذا الفتح المبين ومراحله وتواريخه وفكرته قد اختلف في بعضها بعض روايات المؤرخين وجنحوا بخيالهم في كثير من مراحله، فإن التحقيق لهذه الروايات والمقارنة بينها يحكي لنا بعضًا من حقائق سَيْر خطوات هذا الحدث الحاسم في تاريخ الإسلام.

جدير بالملاحظة أن هؤلاء المؤرخين لم يقتصروا في كتاباتهم التاريخية في ما يختص (بمصر وفتوحها) على المصادر التاريخية -معاصرة وغير معاصرة فقط- وإنما استمدوا مادتهم التاريخية كذلك من مصادر أدبية ودينية وعلمية بحتة. كما أنهم استمدوا معارفهم وكثيرًا من عناصر حوادثهم من مصادر مكملة، كالمشاهدة العينية ومعايشة الواقع والمشاركة والمشافهة والإجازات والسماعات، مما جعل ذلك مرتعًا خصبًا لخيالات المؤرخين وفتح المجال واسعًا لتخمينهم وأهوائهم[251]، ولتأييد ذلك نسجوا مرويات دينية حولها لإضفاء المصداقية عليها، مثل ما أورده القزويني ونَسبهُ إلى الرسول ﷺ من أنه قال لعمر بن الخطاب ﷺ: "يا عمر سيفتح على يديك ثغران، الإسكندرية ودمياط، أما الإسكندرية فخرابها من البربر، وأما دمياط فهم صفوة شهداء، من رابطها ليلة كان معي في حظيرة القدس.."[252].

---

(251) محمد كمال الدين عز الدين: الحركة العلمية في مصر في دولة المماليك الجراكسة، دراسة عن التاريخ والمؤرخين (رسالة دكتوراه -غير منشورة- كلية البنات، جامعة عين شمس 1989م)، ص644.

(252) القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، ص193.

ولم يكتف الخيال الشعبي بالجانب الديني وحسب، بل قدَّم نصوصًا شعبية تناولت فتح العرب لمصر تناولاً يمزج بين الحقيقة والخيال، لتحرره من قيود التاريخ وانطلاقه في رحاب الإبداع الفولكلوري بشكل واضح وصريح، وهو على كل حال يؤكد أن (فتوح مصر) لم تمر على الخيال الشعبي دون استجابة يقظة، وانتباه واعٍ بدور (القراءة الشعبية) في تسجيل بطولات هذا الحدث الهام.

نلمح ذلك في رواية أوردها لنا أحد الرحالة المتأخرين تقول: "إن السبب في فتح مصر هو أن اليونانيين كانوا قد ازدادوا شوكة وطغيانًا، بعد الإسكندر الأكبر، حتى وضعوا أيديهم على أقاليم الدنيا السبعة، وفيها مصر التي أذلوا ملكها القبطي (المقوقس) وجعلوه عاملاً لهم، ثم أخذوا يتأهبون لغزو مكة والمدينة عن طريق (بني سويف) في أثناء فيضان النيل فبدؤوا بمنع تسيير السفن في النيل إلى السويس، الأمر الذي أفضى إلى حدوث القحط والغلاء في المدينة ومكة، وهنا بادر صاحب الرسالة إلى العمل على إرغام أنوف الكفار الأذلاء، فبعث بسيدنا عمرﷺ على رأس جيش يتألف من (ثمانين ألفًا) إلى القدس...."[253].

ويستمر الخيال الشعبي في عرض حوادث الفتح الإسلامي لمصر وسط بحر متلاطم من الحقيقة والخيال، ويعرض لنا عن وجود علاقات تجارية قديمة بين مصر والعرب قبل الإسلام، حيث كانوا يحملون إليها تجارتهم وينقلون منها خيراتها، وكان عمرو بن العاص فاتح مصر واحدًا من التجار العرب الذين ترددوا عليها قبل ظهور الإسلام، فقد نقل المقريزي عن الكندي وغيره أن "عمرو بن العاص كان تاجرًا في

---

(253) أوليا چلبي، سياحتنا مه مصر، ص54.

الجاهلية، وكان يختلف بتجارته إلى مصر وهي الأدم والعطور.."[254]، فالرابطة بين العرب والمصريين حقيقة قائمة منذ أقدم العصور، فجاءت تلك الحقيقة في بعض الروايات مغلفة بالأساطير ومحاطة بالمخلوقات الخرافية حبيسة الفولكلور، حيث يقول: "كان عمرو بن العاص في الجاهلية، وقبل أن يتشرف بالإسلام من ذوي المكانة والشأن في قومه قريش، وكان يتردد على الشام وبُصرى، والقدس الشريف كل سنة، ففي ذات يوم بينما كان راقدًا تحت شجرة على قارعة الطريق إذ بحيوان كبير الجثة، مثل الثعبان العظيم، قد ظهر وأخذ في مهاجمة شخص نائم تحت شجرة أخرى هنالك، فما كان من عمرو بن العاص إلا أن تناول قوسه ورمى الثعبان الهائل بسهم أصابه في مقتل، فسقط على الأرض يتلوى، وينفخ يمينًا وشمالاً، وفي هذه الأثناء استيقظ النائم تحت الشجرة ونظر إلى ما حوله وقد تولاه الذعر والدهشة.. فما كان من هذا الشخص الناجي من أنياب الثعبان القاتلة إلا أن ارتمى على يدي عمرو وقدميه يشكره على صنيعه.. وكان هذا الشخص فريد عصره ووحيد دهره في علم الإسطرلاب، ليرى طالع عمرو فوجد أنه يملك عرش مصر ويحكمها، فبادر إلى إعطائه حمل سبعين جملاً من المال"[255].

ما يهمنا من تلك الرواية الممزوجة بالحقيقة والخيال معًا، هو اتساع نطاق الخرافات والأساطير في كتابات المؤرخين، في الفترة الزمنية الفاصلة بين ما كتبه ابن عبد الحكم وأقرانه في القرن الثالث الهجري، وبين ما ورد بالكتابات التاريخية المتأخرة

---

(254) المقريزي: الخطط، ج1، ص56.

(255) المقريزي: الخطط، ج1، ص45، أوليا چلبي، المصدر السابق، ص54– 55.

في قرون لاحقة مع زيادة في تحريف الأحداث، والروايات الشائعة، والسَّيارة التي حملت أصداء الخرافة، وأريج الأسطورة بطريقة تراكمية. انعكست على الكتابات التاريخية وما تداخل معها من روايات شفوية، سجلها لنا المؤرخون والكتَّاب، اعتمادًا في جزء كبير مما سطروه على الموروث الشفوي والمدون الذي كان سائدًا في أوساط المجتمع المصري آنذاك، خصوصًا مع تزايد وتيرة اهتمام المسلمين بالتأريخ لمدنهم الكبرى والصغرى، وحديثهم عن فضائلها مع حشد جمهرة من الروايات المختلفة، التي من شأنها تعضيد مكانة مدنهم وبلدانهم، والتي عادة ما كانوا يرتبونها على مقدمة وعدة فصول وخاتمة، في ذكر مبدأ مصر وأول أمرها، وذكر حدودها، وذكر ملوكها وحكامها من قبل الطوفان إلى زمن الملوك في عصرهم، وكور مصر (محافظاتها ومراكزها)، وما ورد في فضل مصر من الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة، ودعاء الأنبياء لمصر وأهلها، ووصف العلماء بها، ومن ولد بها من الأنبياء والحكماء والملوك والعلماء، وذكر فتوح مصر، وما بها من ثغور الرباط والمساجد الشريفة، ووصف من كان بها من العلماء والحكماء وعدة خُلُجها، وخراجها في الجاهلية والإسلام، وما اختصت به مصر من مأكول وملبوس ومشروب، ومتحدثين عن عجائب مصر وغرائبها، وذكر مقاييسها، وذكر القاهرة بالخصوص، وذكر محاسن مصر الكلية الجامعة، وذكر ما اختصت به مصر والقاهرة.

الفصل الرابع..
الحضارة المصرية القديمة
في الأساطير العربية

"... إقليم مصر هو الإقليم الذي افتخر به فرعون على الورى، وقام على يد يوسف بأهل الدنيا، فيه آثار الأنبياء، والتيه وطور سيناء، ومشاهد يوسف، وعجائب موسى، وإليه هاجرت مريم بعيسى، وقد كرر الله في القرآن ذكره، وأظهر للخلق فضله. أحد جناحي الدنيا، ومفاخره لا تحصى. مصر قبة الإسلام، ونهره أجلُّ الأنهار وبخيراته تعمر الحجاز، وبأهله يبهج موسم الحاج، وبره يعم الشرق والغرب. قد وضعه الله بين البحرين، وأعلى ذكره في الخافقين. حسبك أن الشام على جلالتها رستاقه، والحجاز مع أهلها عياله، وقيل إنه هو الربوة، ونهره يجري عسلاً في الجنة، قد عاد فيه حضرة أمير المؤمنين ونسخ بغداد إلى يوم الدين، وصار مصره أكبر مفاخر المسلمين...".

المقدسي

(أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم/ 193)

كان لحادثة **الطوفان** التي تصوَّر الأقدمون وقوعها في عصور بعيدة دور هام في الفكر التاريخي، باعتبارها حادثة تاريخية عظيمة، تركت بصماتها على ذاكرة الشعوب وتناقلتها جيلاً بعد جيل، فأصبحت بحق آية للعالمين (لا سيما مع وجود محاكٍ لها في بيئاتهم)(256)، وبقيت حيَّة في الأذهان وفي ثقافة الشعوب المختلفة باختلاف في

(256) ينظر للطوفان كحدث عالمي لكثرة انتشاره وإن بتفاصيل مختلفة يقترب بعضها من الحادثة الحقيقية التي حدثت كما في أساطير السومريين والبابليين، ويبتعد بعضها الآخر عن تلك التفاصيل، بحيث يطغى الخيال على الحقيقة كما في أساطير الإغريق والهنود، فمثلاً نقرأ قصة الطوفان في الملحمة الشعرية الهندية (مها بهراتا) بطلها

التفاصيل يزداد شيئًا فشيئًا كلما ابتعد عن (المركز) موقع حدوث الطوفان، بل وحين قسَّم أوغسطين تاريخ العالم إلى عصور ستة، في محاولة منه لتطويع الفكر التاريخي في إطار يخدم الفكرة المسيحية القائلة بعودة المسيح لخلاص البشرية، جعل من حادثة الطوفان محورًا هامًّا في تقسيمه للتاريخ العالمي للبشرية[257]، كما كان للطوفان بصمته

يسمى (ريشي مانوا) (رئيس وباني) أي النبي، ويعتقد الأستراليون أن جزيرة سيلان أصبحت أصغر مما كانت عليه في الماضي، لأن جزءًا كبيرًا من الجزيرة ابتلعه الطوفان، وتقول أسطورة بورمية إن الحدأة فتحت ثغرًا في جمجمة السرطان، فغضب وانتفخت البحار والأنهار حتى السماء فوقع الطوفان، ولم تخل الأساطير الإغريقية لأكثر من طوفان، أساطير الطوفان منتشرة في جميع أنحاء العالم عند الشعوب المتحضرة والبدائية، وقد كشفت الحفريات التي تمت في منطقة بلاد ما بين النهرين، عن ألواح ورقم دوِّنت عليها ملاحم أدبية تتحدث عن الخليقة وفي سياقها ترد حادثة الطوفان، فهناك الملحمة السومرية والملحمة الأكادية (البابلية)، وفي تراث الهند الثقافي ملحمة ورد فيها عن الطوفان ما يشبه إلى حدٍّ ما ملاحم بلاد الرافدين والأسطورة اليونانية عن الطوفان مقتبسة من بلاد ما بين النهرين مع تعديل بسيط. وتبدو رواية التوراة والطوفان متشابهة مع رواية الطوفان في الأساطير السومرية والبابلية. أما القرآن الكريم فقد أجمل القصة كما ذكرنا ولم يحدد مكان وزمان الطوفان، ولم يحدد من كان مع نوح، ولكن أكد حقيقة الطوفان. محمد خليفة حسن، الأسطورة والتاريخ في التراث الشرقي القديم، ص37- 50، مجموعة من الباحثين، طوفان نوح بين الحقيقة والأوهام، (سلسلة السراة، الطبعة الأولى، البحرين، 2005)، ص12، كارم محمود عزيز، النموذج الفولكلوري للبطل في العهد القديم، ص45- 145، فراس السواح: مغامرة العقل الأولى، ص157-210، محمد الحامدي: الطوفان بين الحقيقة والأسطورة (مجلة "التراث العربي"، العدد 58، دمشق 1995م)، ص67.

(257) قسَّم أوغسطين تاريخ العالم إلى عصور ستة، وجعل مجرى العصور الستة مماثلة لمراحل عمر الإنسان، وكانت غايته أن يوضح أن الوجود الإنساني سوف ينتهي بعودة المسيح وقيام القيامة في اليوم السابع، وجاء التقسيم على النحو التالي: من آدم إلى الطوفان، من الطوفان إلى أبراهام، من أبراهام إلى داوود، من داوود إلى الأسر البابلي، من الأسر إلى ميلاد المسيح، العصر الحاضر. قاسم عبده قاسم: تطور منهج البحث في الدراسات التاريخية، ص45، بيريل سمالي: المؤرخون في العصور الوسطى (ترجمة: قاسم عبده قاسم، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة 1984م)، ص39، آلبان ويدجري: التاريخ وكيف يفسرونه من كنفوشيوس إلى توينبي (ترجمة: عبد

على قراءة المؤرخين لتاريخ مصر من خلال ذكر تاريخها وملوكها قبل وبعد الطوفان، وحين تاهت عقول مؤرخي العالم الوسيط في تفسير أسباب بناء أهرام ومعابد وآثار مصر القديمة لم يكن في وسعهم سوى أن يتخذوا من (طوفان نوح) تكئة يستندون إليها في شروحاتهم ويتركوا لنا هذا القدر الهائل من الغموض والأساطير الذي يشهد بتفوق مصر -لسوء الحظ- في القدرة على إخفاء أسرارها العلمية إلى الحد الذي جعل بوسع كل من أراد أن ينكر حضارتها وينسب الفضل إليه، أن يفعل ذلك وهو بمأمن من المناقضة.

وتتلخص الخطوط العريضة للأسطورة في نقاط تتكرر كلها مع بعض التنويعات في بقية الأساطير اللاحقة، قرار إلهي بدمار الأرض بواسطة طوفان شامل، اختيار واحد من البشر لإنقاذ مجموعة صغيرة من البشر، وعدد محدود من الحيوانات، انتهاء الطوفان واستمرار الحياة من جديد بواسطة من نجا من الإنسان والحيوان[258]، وبهذا الشكل سنجد قصة الطوفان عند الكثير من اليهود والمسيحيين والمسلمين، فضلاً عن عامّة الناس قد اعتقدوا بعالمية الطوفان.

وإن لم يكن اليقين كله فإن أقرب الأشياء إلى اليقين، أن يد الخيال طالت حادثة الطوفان في مدونات التوراة أو ترجماتها وتفاسيرها، بإضافة تفردت بها "مدونة التوراة" دون غيرها من المصادر، فاستغلت حادثة (طوفان نوح)، والإضافة التي تفردت بها مدونات التوراة من قبل اليهود ليسوغوا لأنفسهم ارتكاب المحظورات،

العزيز جاويد، سلسلة الألف كتاب الثاني، العدد 221، القاهرة 1996م)، ص183.

(258) فراس السواح: مغامرة العقل الأولى، ص157.

واستعباد الآخرين، واتهام الأنبياء بارتكاب المحظورات، واستعباد الآخرين، واتهام الأنبياء بارتكاب الفاحشة أو بادعاء أنها بإيعاز منهم، فاتهموا نوحًا بالسكر والتعري، ولعن كنعان ومباركة سام(259)، ثم أرجعوا نسبهم إلى سام بن نوح وجعلوه حكرًا عليهم بغرض التأسيس للنظرية السامية والتمييز بين الشعوب والأمم على أساس سلالي عرقي عنصري بغيض.

واكتنف حادثة الطوفان الغموض والخرافة في آراء من قالوا بعالميتها من الرحالة والمؤرخين وغيرهم، رغم عدم تصريح النصوص بذلك، فلم يكن الطوفان عالميًا، ولم يكن الناجون هم نوحًا وأبناءه وزوجاتهم فقط، لم تصرح الأساطير بذلك ولا التوراة ولا القرآن الكريم(260)، إلا أنه يمكن القول: إن طوفان نوح حقيقة لا مراء فيها، أهلك قوم نوح، وكان طوفانًا عارمًا، وما جاء في الأساطير والتوراة مبالغ فيه ولا ينسجم مع معطيات الواقع، وقواعد المنطق، ورغم ذلك ظن أكثر الناس على اختلاف عقائدهم بأن الطوفان كان عالميًا، وتأسس على ذلك أكذوبة تسمى "السامية"(261)، وتاه الناس في وهم ولا يزالون، كانت بدايته هوى ومطمعًا، فأصبح اليوم حقيقة وواقعًا، لأجل حفنة من اليهود شاؤوا أن يقنعوا العالم بأنهم شعب الله المختار، فعبثوا بحقائق

---

(259) أحمد عثمان: تاريخ اليهود (الجزء الأول، مكتبة الشروق، القاهرة 1994م)، ص5.

(260) ذكرت قصة نوح في عدة سور بشيء من التفصيل في "الأعراف" و"هود" و"المؤمنون" و"الشعراء" و"القمر" و"نوح"، وتختلف الآيات بالألفاظ بحسب ما تكون الغاية من إيراد الآيات والمراد من معناها. ورويت التوراة في سفر التكوين في الإصحاح السادس والسابع والثامن قصة الطوفان، فأسهبت في سرد الأحداث، وبينت الأسباب والنتائج، ورواية التوراة فيها عناصر مشابهة للعناصر الموجودة في أساطير بلاد ما بين النهرين، وتختلف عنها في جوانب أخرى، وقد أثرت هذه الرواية في كل أتباع الأديان الثلاثة: الموسوية والمسيحية، والإسلام.

(261) السامية: نسبة إلى سام بن نوح عليه السلام، أما الحامية: فهي نسبة إلى حام بن نوح عليه السلام.

التاريخ والجغرافيا وعبثوا بسيرة الأنبياء الأطهار، ليثبتوا لأنفسهم حقًّا غير مشروع ففعلوا، ولكنهم ما كانوا ليفلحوا لو كانت العقول متيقظة وواعية، وما كان للخدعة أن تستمر ردحًا من الزمن لو تحرر المؤرخون من التفسير التوراتي الذي هيمن على تناولهم تفاصيل الحادثة التي دخل منها المؤرخون إلى تاريخ مصر وحضارتها القديمة.

يقول المقريزي: "الفرس وسائر الكلدانيين، أهل بابل والهند وأهل الصين، وأصناف الأمم المشرقية ينكرون الطوفان وأقر به بعض الفرس.. ولم يعم العمران كله ولا غرق إلا بعض الناس ولم يتجاوز عقبة حلوان ولا بلغ ممالك المشرق"[262].

ويضيف في "ضوء الساري": "وأهل الهند والصين لا يقرون بذلك، ويقول بعضهم إن الطوفان لم يحدث سوى في إقليم بابل، وما [وراه] من البلاد الغربية فقط، فإن ولد [كيومرت] الذي هو عندهم آدم كان بالشرق فلم يصلهم الطوفان، ولذلك أهل الصين والهند لا يعرفون الطوفان"[263]، ويؤكد ابن خلدون في تاريخه: "واعلم أن الفرس والهند لا يعرفون الطوفان وبعض الفرس يقولون كان ببابل فقط"[264]. وأشار إلى ذلك المسعودي بقوله: "وقد ذكر أن مواضع سلمت من الطوفان، يذكر ذلك الفرس وتزعم أنها لا تعرف الطوفان وكذلك الهند.."[265]، وقال البيروني: "لم يعم

---

(262) الخطط، ج1، ص325.

(263) المقريزي: (تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد) (ت 845هـ)، ضوء الساري لمعرفة خبر تميم الداري (مخطوط مطبوع غير محقق)، الرياض 1423هـ.

(264) ابن خلدون (عبد الرحمن بن خلدون)، (ت 808 هـ): تاريخ ابن خلدون، (الجزء الثاني، سلسلة الذخائر، العدد 154، القاهرة 2007م)، ص5.

(265) المسعودي (أبو الحسن على بن الحسين) (ت 346 هـ): أخبار الزمان ومن إبادة الحدثان من الأمم الماضية

العمران كلها ولم يغرق فيه إلا أمم قليلة، وأنه لم يجاوز عقبة حلوان ولم يبلغ ممالك المشرق"[266].

وباتفاق في المعنى واختلاف في الألفاظ تجمع الروايات السابقة التي تناولت حادثة الطوفان على أنه كان محليًا، وقضى على الهمج والخطاة، ونجا نوح عليه السلام ومن معه من ذريته، وأهله وآخرون من غير الظالمين والكافرين[267]، بينما شذت مدونات التوراة بإضافة جيء بها في نهاية الحادثة، فنسبوا إلى النبي نوح عليه السلام السكر والتعري ولعن كنعان ظلمًا، ليحققوا أغراضًا خاصة ذات علاقة بخلافهم مع الكنعانيين، ثم استغلت تلك الإضافة لوضع بذرة التمييز العنصري والتأسيس للنظرية السامية وسطروا أساطيرهم بهتانًا وكذبًا منذ أول يوم زورت فيه التوراة.

ورغم لا معقولية عالمية الطوفان، فإن الاعتقاد بعالميته ووصوله إلى مصر ساد في أوساط الناس، الذي أوهم السواد الأعظم منهم بهذا، هو ما ذهب إليه مفسرو التوراة، حيث لم تخل تلك الروايات بشكل أو بآخر من تأثير الإسرائيليات التي كانت تعكس التفسير التوراتي لأصول شعوب المنطقة، التي كانت بدورها نابعة من التراث الثقافي والأسطوري لهذه المنطقة ذاتها، وانعكس ذلك التأثير في روايات الرحالة والمؤرخين في سياق حديثهم عن آثار الحضارة المصرية القديمة، بل اتخذوا من حادثة الطوفان بابًا يعرجون منه إلى فضائل مصر وعجائبها وتاريخها الموغل في القدم.

والأجيال الخالية (ط الأولى، الرياض 1415هـ)، ص58.

(266) البيروني (أبو الريحان محمد بن أحمد): الآثار الباقية عن القرون الخالية (مكتبة المثنى، بغداد، د.ت)، ص24.

(267) محمد فيض الله الحامدي: طوفان نوح بين الحقيقة والأسطورة، ص67، مجموعة من الباحثين: طوفان نوح بين الحقيقة والأوهام، ص217.

يحكي البكري في (الروضة المأنوسة) أن "نوحًا عليه السلام لما طاف الأرض بالسفينة فصار كلما مر على بلدة خرج إليه الملائكة الذين يتولون حراستها، فيسلمون على نوح عليه السلام، فلما مر على مصر لم يخرج إليه أحد، فتعجب من ذلك، فنزل عليه الوحي من الله تعالى، بأن لا تعجب فإن كل بلدة قيدت لها ملائكة لحراستها إلا مصر، فإني توليت حراستها بنفسي.."[268].

ما يهمنا في هذه الرواية، هو استمرار (الموروث الشعبي) في استثناء مصر وتميزها عن غيرها مثلما سبق وتم استثناء مصر وأهلها من الذل الذي كتب على أبناء حام، وفقًا للقصة العبرانية، وكما تعكس إحساس أبناء مصر بمكانة بلدهم، وأنها هبة ربانية اختصها الله دون سائر البلاد بالرعاية والحماية والخير.

روايات عديدة جمعها لنا المؤرخون تشير إلى أن المصريين كانوا أول من تنبؤوا بالطوفان وأول من وضعوا الأساطير والقصائد الموزونة مثلما يقول المقريزي: "هرمس الأول الساكن بصعيد مصر الأعلى[269]، أول من نظر في علم الطب وألف لأهل

---

(268) الروضة المأنوسة في أخبار مصر المحروسة، ص55.

(269) تقول إحدى الأساطير المصرية القديمة إن (توت) خرج من رأس الإله (ست) إله الشر عند المصريين القدماء بعد أن ابتلع (ست) مَنِي حورس بطريق الخطأ، ونتيجة لارتباط (توت) بالقمر صار إله الوقت و"حاسب الزمن"، وبوصفه الرب الذي اخترع الكتابة فكان حاميًا للكتبة أيضًا، وكان (توت) يوصف بأنه لسان رع أو قلبه، ويوصفه حاميًا لأوزوريس صار معينًا للموتى أيضًا. ولهذه الصفات جميعًا قال الإغريق أنه (هرمس) إله الحكمة لديهم، وهرمس في الأساطير اليونانية هو رسول آلهة الأوليمب. كما كان إله الطرق ومرشد المسافرين، كما اعتبره الإغريق إله الخصوبة مانح الثروة وموزع الحظوظ، وهو ابن الإله زيوس من مايا ولد في الصباح. انظر: قاسم عبده قاسم: بين التاريخ الفولكلور، ص51، 57.

زمانه قصائد موزونة في الأشياء الأرضية والسماوية وقالوا إنه أول من أنذر بالطوفان، ورأى أن آفة سماوية تصيب الأرض من الماء والنار"[270].

وأضاف المسعودي: "كان عند أهل مصر علم الطوفان، ولم يقدروا كثرته ولا طول مقامه على وجه الأرض، فاتخذوا السراديب تحت الأرض وصفحوها بالزجاج وحبسوا الريح فيها بتدبيرهم، واتخذ الملك فليمون رأس الكهنة مع نفسه عدة له ولأهل بيته.."[271].

مما تعكسه الرواية السابقة أن الكهنة في مصر كانوا هم الفئة التي حفظت العلم وتناقلته، وكان لهم دور هام في العديد من جوانب الحياة في مصر القديمة، وهكذا تأثرت قراءة ورؤية المؤرخين لآثار مصر وحضارتها بحادثة الطوفان الذي شاع خبره بين الناس جيلاً بعد جيل، لدرجة أنه انطبع على القراءة الشعبية للتاريخ، وترك بصمته واضحة على وجدان الشعب المصري من خلال أمثاله العامية، ليدل على حياة التمزق الأسري فيقول المثل السَّيار: "**إن جه عليك البحر طوفان، حط ابنك تحت رجليك**"، وربما لأن الطوفان كان حادثة شاذة في التاريخ، فإن المثل أيضًا يعبر عن الأنانية، ولكنها شذوذ يؤكد القاعدة التي تشير إلى شدة ترابط الأسرة المصرية واتحادها في وجه التقلبات وعقبات الزمن، وهذه الرؤية الشعبية نجد ما يعضدها من إشارات عند (ابن الزيات) في (الكواكب السيارة) عندما قال: "مَنْ ملك مصر بعد الطوفان، والمرأة التي أخذت ولدها على كتفها، وأغرقها الله تبارك وتعالى مع قوم

---

(270) المقريزى: الخطط، ج1، ص27.

(271) المسعودى: أخبار الزمان، ص57.

نوح.. وكان لها ولد وأخ كانا في السفينة لم ينج من قوم نوح غيرهما، وذكر النسابة، وذكر أنها من ولد رجل من مصر، لم ينج من الطوفان غيره.."[272].

وهكذا أثْرَتْ المعطيات الدينية الحكايات الشعبية والمدونات التاريخية بالرؤى والأفكار التي حملت جزءًا من المعاناة الإنسانية، التي تلونت بالسمة الدينية، لا سيما في ما يرتبط بمواقف الناس من قصص الأنبياء، وأخبار عاد وثمود وطوفان نوح، وقد أسدى المقريزي النصح إلى كل من ينظر في تلك الأخبار بتوخي الحذر لأن "كل ما تتعلق معرفته ببدء الخلق وأحوال القرون السالفة، فإنه مختلط بتزويرات وأساطير، لبعد العهد، وعجز المعتنى به عن حفظه، وقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾، فالأولى أن لا يقبل من ذلك إلا ما يشهد به كتاب أنزل من عند الله، يعتمد على صحته، لم يرد فيه نسخ ولا طرقه تبديل، أو خبر ينقله الثقات"[273].

شاعت حول **أهرام مصر** وآثارها أقاويل، ونظريات كثيرة اعتنقها الرحالة والمؤرخون القدماء، حيث تركوا لنا سيلاً من الافتراضات تتناقض في ما بينها، خصوصًا عندما يشيرون إلى أسباب تشييدها، والكيفية التي شيدت بها تلك الأهرامات، فحركت خيال مؤرخيهم وكتّابهم، فراحوا يبحثون عن أسرارها، لماذا شيدت؟ وكيف شيدت؟ ومن شيدها؟ وماذا حدث؟ فحيكت الأساطير، وكثرت الأقاويل والخرافات، وتكأكأ الضباب حولها، ووصفوا تلك الأهرامات، وأثبتوا

---

(272) ابن الزيات: الكواكب السيارة، ص10.

(273) المقريزي: الخطط، ج1، ص250.

دهشتهم الشديدة وانبهارهم بتلك الأوصاف التي قد تعتبر الشيء الوحيد المعقول من بين أقوالهم الأخرى.

وقد ورد الكثير من الحكايات في هذا الشأن. يقول المقريزي: "اعلم أن الأهرام كانت بأرض مصر كثيرة جدًا.. وأعظم الأهرام الثلاثة التي هي اليوم قائمة تجاه مصر، وقد اختلف الناس في وقت بنائها واسم بانيها، والسبب في بنائها، وقالوا في ذلك أقوالاً متباينة أكثرها غير صحيح"[274]، وتشير بعض الروايات إلى هذا بقولها: "وما أكثر الروايات والأساطير التي تتداولها الألسنة في أصل هذه الجبال"[275]، ورغم ذلك لم يجد لها البغدادي ذكرًا "في التوراة ولا في غيرها ولا رأيت أرسطو ذكرها"[276]، فكيف إذن بنوها أو شاركوا في بنائها؟! ويذكر التلمساني: "أن أحوال الأهرام عجيبة وحكاياتها غريبة، وللناس فيها كلام كثير، وهي من عجائب البلدان وغرائب البنيان"[277]. ويقرر أبو الصلت: "أن الأهرام والبرابي فإنها من الآثار التي حيرت الأذهان الثاقبة واستعجزت الأفكار الراجحة، وتركت لها شغلاً بالتعجب منها والتفكير فيها.."[278]، ولم يشذ الهروي عن ذلك القول: "الأهرام من عجائب الدنيا

---

(274) المقريزي، مصدر سابق، ج1، ص207.

(275) أوليا چلبي، مصدر سابق، ص617.

(276) البغدادي (موفق الدين أبو محمد): الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر، (سلسلة الألف كتاب الثاني، العدد 314، القاهرة 1998م)، ص112.

(277) التلمساني (ابن أبي حجلة أحمد بن يحيى) (ت 776هـ): سكردان السلطان (الطبعة الثانية، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، 1957م)، ص460.

(278) أبو الصلت (أمية بن عبد العزيز) (ت 528 هـ)، الرسالة المصرية (ضمن نوادر المخطوطات، تحقيق: عبد السلام هارون، المجموعة الأولى، الطبعة الثانية، مكتبة البابلي الحلبي، القاهرة 1972م)، ص25.

وقد اختلفت الأقاويل بين الناس فيها، وفيمن بناها. ما أريد بها.."[279]، وأجمل المقدسي الآراء التي دارت في عصره حولها فقال: "سمعت في الأهرام أشياء مختلفة، فمنهم من قال هما طلسمان، ومنهم من قال كانتا أهراء يوسف، وقيل بل كانت هي قبورهم، وقرأت أنهما للرمل المحبوس"، ويستقر رأي المقدسي على أنها مقابر: "ألا ترى ملوك الديلم بالري كيف اتخذوا على قبورهم قبابًا عالية"[280]، وهكذا، للناس في أمرها اختلاف: فمنهم من يجعلها قبورًا لعاد وبنيه، ومنهم من يزعم غير ذلك"[281].

أما أسباب بناء الأهرام كما جاء في تلك الحكايات: يذكر الرحالة أبو الصلت رواية تعكس استمرار تنازع الاتجاهات السائدة في ذلك الوقت، سواء العربية أو الإغريقية أو القبطية المصرية. ورغبة كل اتجاه في نسبة منجزات الحضارة المصرية القديمة إليه، تلبيه لحاجات ثقافية/ اجتماعية آنذاك فيقول: "زعم نفر من الناس أن هرمس الأول المدعو بالمثلث، بالنبوة والملك والحكمة، وهو الذي يسميه العبرانيون خنوخ بن يرد بن مهلائيل بن قينان بن آنوش بن شيث بن آدم –وهو إدريس عليه السلام– استدل من أحوال الكواكب على كون الطوفان يعم الأرض، فأكثر في بنيان الأهرام، وإيداعها الأموال وصحائف العلوم، وما يشفق عليه من الذهاب والدروس حفظًا لها واحتياطًا عليها. ويقال: إن الذي بناها ملك اسمه سوريد بن سهلوق بن سرياق، وقال آخرون: إن الذي بنى الهرمين المحاذيين للفسطاط: شداد بن عاد، لرؤيا رآها.

---

(279) الهروي: (أبو الحسن علي)، (ت 611هـ): الإشارات إلى معرفة الزيارات (تحقيق علي عمر، الطبعة الأولى، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة 2002م، ص41.

(280) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص210.

(281) ابن جبير: رحلة ابن جبير، ص50، 51.

والقبط تنكر دخول العمالقة بلد مصر، وتحقق أن بانيها سوريد. لرؤيا رآها وهي آفة تنزل من السماء، وهي الطوفان"[282].

ويضيف ابن خرداذبة: "ويقال والله أعلم إنهما من بناء بطليموس القلوني الملك"[283].

أما الرحالة القزويني فيذكر أن "من الناس من يزعم أن إدريس عليه السلام أمر ببناء الأهرام وإيداعها الأموال وصحائف العلوم، إشفاقًا عليها من الدروس واحتياطًا عليها وحفظًا لها.."[284]، ومنهم من قال إنما عملوها خوفًا من الطوفان[285].

وباتفاق في المعنى واختلاف في الألفاظ تحدث كلٌّ من المقريزي والسيوطي عن أسباب بناء الأهرام فقالا: ".. قال جماعة من أهل التاريخ: الذي بنى الأهرام سوريد بن سلهوق بن شرياق ملك مصر، وكان قبل الطوفان بثلاثمئة سنة، وسبب ذلك أنه رأى في منامه كأن الأرض انقلبت بأهلها، وكأن الناس هاربون على وجوههم، وكأن الكواكب تساقطت، ويصدم بعضها بعضًا، بأصوات هائلة، فأغمه ذلك، وكتمه، ثم رأى بعد ذلك كأن الكواكب الثابتة نزلت إلى الأرض في صورة طيور بيض، وكأنها تخطف الناس وتلقيهم بين جبلين عظيمين، وكأن الجبلين انطبقا عليهم، وكأن الكواكب النيرة مظلمة، فانتبه مذعورًا وجمع رؤساء الكهنة من جميع أعمال مصر – وكانوا مئة وثلاثين كاهنًا– فأخذوا في ارتفاع الكواكب، فأخبروا بأمر الطوفان، فأمر

---

(282) أبو الصلت، الرسالة المصرية، ص27، 28.

(283) ابن خرداذبة: المسالك والممالك، ص159.

(284) القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، ص269.

(285) الهروي: الإشارات إلى معرفة الزيارات، ص41.

عند ذلك ببناء الأهرام وملأها طلسمات وعجائب، وأموالاً، وخزائن، وغير ذلك، وزبر فيها جميع ما قالته الحكماء وجميع العلوم الغامضة، وأسماء العقاقير، منافعها ومضارها، وعلم الطلسمات (الألغاز والرموز)، والحساب والهندسة والطب، وكل ذلك مفسر لمن يعرف كتابتهم ولغاتهم، ولما أمر ببنائها، وقطعوا الأسطوانات العظام والبلاطات الهائلة وأحضروا الصخور من ناحية أسوان فبنى بها أساس الأهرام الثلاثة، وشدها بالرصاص والحديد والصفر، وجعل أبوابها تحت الأرض بأربعين ذراعًا، وكان ابتداء بنائها، في طالع سعيد، فلما فرغ منها، كساها ديباجًا ملونًا من فوق لأسفل، وجعل لها عيدًا حضره أهل مملكته كلها.

ثم عمل في الهرم الغربي ثلاثين مخزنًا مملوءة بالأموال الجمة، والآلات والتماثيل المصنوعة من الجواهر النفيسة وآلات الحديد الفاخر والسلاح الذي لا يصدأ والزجاج الذي ينطوي ولا تكسر، والطلسمات الغريبة، وأصناف العقاقير المفردة والمؤلفة والسموم القاتلة، وغير ذلك، وعمل في الهرم الشرقي أصناف القباب الفلكية والكواكب وما صنع أجداده من التماثيل، وجعل في الهرم الملون [الأكبر] أخبار الكهنة في توابيت من صنوان أسود، ومع كل كاهن مصحفة، وفيها عجائب صنعته، وحكمته وسيرته، وما عمل في وقته، وما كان وما يكون من أول الزمان إلى آخره. وجعل لكل هرم خازنًا من قرب منه وثبت إليه من ناحية قصده وطوقت على عنقه فقتله.."[286]، ونجد ابن حوقل يناقش ما قيل عن الأهرام فيقول: "وقد ذكر قوم أنهما

(286) المقريزي: الخطط، ج1، ص207، السيوطي: حسن المحاضرة، ج1، ص70- 72، ابن محشرة الاستبصار في عجائب الأمصار، ص53، أوليا چلبي: سياحتنا مه مصر، ص617، ص618، الإسحاقي المنوفي: أخبار الأول، ص109، ص110.

قبران وهما ليسا كذلك، وإنما حدا صاحبهما أن عملهما أنه قضى بالطوفان وهلاك جميع ما على وجه الأرض إلا ما حصن في مثلهما فخزن ذخائره، وأمواله فيهما وأتى الطوفان، ثم نضب فصار ما كان فيهما إلى بيصر بن نوح"[287]، كما يؤكد الدمشقي أن "السبب الموجب لبنائها استدلال هرمس بالأحوال الكوكبية على حدوث الطوفان فأمر ببنائها وإيداعها صحائف العلوم والأموال وما تخاف عليه من الذهاب الدثور.."[288]، وأن "هرمس الأول الذي يسميه اليونانيون أخنوخ بن يرد –وهو إدريس عليه السلام– علم بطوفان نوح إما بالوحي أو بالاستدلال.. فأمر ببناء الأهرام.."[289].

ما يهمنا في تلك الروايات عن أسباب بناء الأهرامات، هو تأثير قصة الطوفان عليها، وقد تبين لنا كيف يصير القصص الديني مادة لأمثال هذا النوع من القصص، كما تفصح عما كان للأهرامات من شغل شاغل في فكر المصريين، فلقد اكتنزوا فيها علومهم النافعة وفنونهم وأموالهم وذهبهم، وادخروها لمن يأتي بعدهم، وينجح في حل طلاسمها وقراءة رموزها، مما يعني حكمة وحصافة وعلمًا لم يتسن لغيرهم من الأمم، ولسان حالهم يقول: "كونوا أسعد حظًّا منا"، فلم يكونوا أبدًا من الجبارين والطغاة الذين استعبدوا شعوبهم وسخروهم في ما لا فائدة منه من أجل مجد شخصي، وإنما كان في مخيلتهم من أجل الإنسانية. كما أن أبا الصلت في روايته القائلة: "وهذه

(287) ابن حوقل: صورة الأرض، ج1، ص152.

(288) الدمشقي: نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، ص33.

(289) القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، ص269.

صفة كل واحد من الهرمين المحاذيين للفسطاط من الجانب الغربي على ما شاهدناه منهما"[290]، يكشف لنا عن أن الهرم الثالث كان ما زال مطمورًا لم يكشف عنه بعد حتى نحو عام 487هـ.

كما أن هذه الحكايات تعيد إلى الأذهان قصة حلم فرعون الذي ربط القصص الديني بينه وبين يوسف بن يعقوب، ذلك الحلم الذي كان نبوءة بكارثة الجوع، وما كان من تأويله، والقيام بتخزين، وحفظ القمح المصري في سنوات الوفرة إلى سنوات الجوع، كما أننا نجد في الرواية الأخيرة، التي سجلها كلٌّ من السيوطي والمقريزي، والتي نسبها السيوطي إلى مجهول مبهم وغير محدد سماه "جماعة من أهل التاريخ"، الذين هم في الحقيقة رواة التاريخ الشفاهي الفولكلوري، الذين تختلط في رواياتهم بقايا المعرفة التاريخية الحقيقية ببقايا الأساطير، التي تحولت إلى مأثورات شعبية حيث تشكل هذه المأثورات الفولكلورية في بعض جوانبها: "الحجرة الخاصة" للتاريخ، وهي الحجرة التي تضع فيها الطبقات الشعبية عواطفها، وتخزِّن فيها موروثها التاريخي -كما ينبغي أن يكون لا كما كان- وتودع فيها تصوراتها ورؤاها وحكمتها العملية، والباحث المدقق في رواية السيوطي عن الأهرام سيجد فيها مزجًا أدبيًّا بين الحقائق التاريخية والمأثورات الشعبية، أو أنه بتعبير آخر سيجد صياغة فولكلورية لبعض الحقائق التاريخية القليلة التي وصلت إلى عصر السيوطي، وهي صياغة تحاول أن تملأ الفراغات التاريخية بالخيال الأدبي، وهو تقليد عرفه المؤرخون والجغرافيون والعلماء العرب منذ العصور الإسلامية، عندما انفتح أمام العرب عالم العجائب والغرائب والحقائق في البر

---

(290) أبو الصلت: الرسالة المصرية، ص27.

والبحر، في البلدان الحقيقية والبلدان الأسطورية، وكانت مصر بالتالي في طليعة تلك البلدان.

سبب آخر رآه المؤرخون دعا إلى بناء الأهرام يقول عنه البيروني: ".. وقالوا إن أهل المغرب لما أنذر به حكماؤهم -يعني الطوفان- بنوا أبنية كالهرمين المبنيين في أرض مصر، إذا كانت الآفة من السماء دخلناها، وإذا كانت من الأرض صعدناها، فزعموا أن آثار ماء الطوفان، وتأثيرات الأمواج بينه على أنصاف هذين الهرمين لم يجاوزهما.. وقيل إن يوسف.. جعلهما هريًا وجعل فيهما الطعام والميرة لسني القحط"[291]، ويعتمد المسعودي على جماعة من رواة التاريخ الشفاهي الشعبي في قوله: "فإني سمعت جماعة من أهل الخبرة يخبرون أن يوسف النبي ﷺ حين بنى الأهرام اتخذ مقياسًا لمعرفة زيادة النيل.."[292]، ويشير إلى ذلك صاحب "آكام المرجان" بقوله: "الهرمان ارتفاعهما مئة ذراع، وهي من صخرة، وبها كان يجمع الطعام في أيام يوسف عليه السلام"[293].

ونجد قول البلوي حين يتحدث عن فضائل مصر فيقول: "إن بها الأهرام القديمة المعجزة البناء الغريبة المنظر البديعة الإنشاء كأنها القباب المضروبة في جو السماء، وبها كان يجعل الطعام في أيام يوسف عليه السلام.."[294]، وقال المقدسي: "ومنهم

---

(291) المسعودي: الآثار الباقية عن القرون الخالية، ص24.

(292) المسعودي: مروج الذهب، ج1، ص344.

(293) المنجم (إسحق بن حسين): آكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة في كل مكان، (بريدة 1407هـ)، ص23.

(294) البلوي: تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، ص220.

من قال كانتا أهراء يوسف عليه السلام"[295]، بينما اقترب المؤرخ (ابن ظهيرة) من بعض الحقائق التاريخية، التي تتصل بجوهر عقيدة البعث والخلود لدى القدماء المصريين فيقول: "لم تزل مشايخ مصر يقولون إن الأهرام بناها شداد بن عاد، وهو الذي بنى الغار وجند الأجناد وهي الدفائن، وكانوا يقولون بالرجعة، فكان إذا مات أحدهم دفن معه ماله كائنًا من كان وإن كان صانعًا دفنت معه آلته.."[296].

في الروايات السابقة، التي جعلت من الأهرامات (أهراء) أو مخازن خزن فيها النبي يوسف عليه السلام القمح يتبين لنا كيف يصير القصص الديني –مرة أخرى– مادة لأمثال هذا النوع من القصص، وكيف يستمر لجوء الخيال الشعبي إلى الخرافة، والحكايات الشعبية لسد النقص في سطور القصص الديني أو لتأكيد الإيمان بالقصص الديني نفسه، كإضافة إلى رصيده في الوجدان الشعبي لا الخصم منه، كما يتبين لنا أن أصحاب النزعة الإسلامية من المؤرخين حاولوا أن ينسبوا كل شيء في مصر القديمة إلى يوسف عليه السلام، ولا شك أن تيارًا يهوديًّا ساعد في هذا وأكده، فحكاية أن يوسف عليه السلام هو باني الأهرامات وصاحب عمارتها، وأمرها. كل هذا ربما دخله عنصر إسلامي قرآني من ناحية، ودخله عنصر يهودي مغرض وفاهم ومنظم في دنيا الأخبار والتاريخ من ناحية أخرى، وسنجد الكثير من الكتابات التاريخية خضعت لهذه الأخبار موردة لها عن اقتناع ديني مرة، وعن اقتناع عصبي مرات، ولكنها –الكتابات التاريخية– لا تغفل في كل أخبارها دور يوسف عليه السلام في حياة مصر، محملة كل خيراتها له ولجهوده بما في ذلك بناء الأهرام.

---

(295) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص210.

(296) ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، ص156.

وفي أوروبا العصور الوسطى، كادت قصص العهد القديم عن يوسف عليه السلام في مصر أن تكون لها وجودها المستقل، فقد كانت موضوعات شعبية لتزيين صناديق المجوهرات، وفي كنيسة سان مارك التي بنيت على طراز البازيليكا في البندقية القرن الحادي عشر الميلادي، رُسمت قصة يوسف عليه السلام بالموزايكو. في سقف الرواق الشمالي، حيث تجد يوسف الوزير يشرف على تخزين الغلال، وكانت هذه الغلال تشاهد مخزونة في الأهرام، التي صورها الفنان أينيه، وعددها خمسة ولها نوافذ، وفكرة أن الأهرام كانت مخازن الغلال للفراعنة (أو شُوَن يوسف عليه السلام) لها تراث طويل استمر حتى القرن السادس عشر الميلاد[297]، وقد سببت ارتباكًا لبعض أولئك الرحالة اللاحقين الذين سافروا إلى مصر، الذين كانوا قد عرفوا الكُتَّاب الكلاسيكيين من أمثال هيرودوت الهاليكارناسي الذي زار مصر نحو سنة 450 ق.م، وقد وصف هيرودوت أهرام الجيزة، وسجل طريقة بنائها مثلما حكاها له الكهنة[298].

---

(297) آن وولف: كم تبعد القاهرة؟ (ترجمة: قاسم عبده قاسم، سلسلة المشروع القومي للترجمة، العدد 1053، القاهرة 2006م)، ص86، ص87.

(298) يبدو أن هيرودوت حيث زار مصر، كان قد وقع في حبائل مجموعة من آفاقي الإدلاء والكهنة الجهلاء، الذين حشوا دماغه بمعلومات هي أقرب إلى الخرافة منها إلى الحقيقة، فهو أول من قال: "إن الهرم قد بُني بالسخرة واستغرق بناء الهرم نفسه عشرين عامًا، وإن ملك مصر حين أفلست خزائنه من المال الكافي لاستمرار تمويل عمليات البناء طلب من ابنته أن تمارس الدعارة، والرذيلة في ماخور. وأمرها أن تحصل على مبلغ معين لم يذكروا له مقداره من كل من يأتيها، فضلاً عن حصولها على ما أمرها به أبوها، فكرت بدورها في ترك أثر خاص بها، لذلك كانت تطلب إلى كل من دخل عليها أن يهديها حجرًا، ومن هذه الأحجار -في ما يُقال- بُني الهرم الذي يقع بين الثلاثة وهم أمام الهرم الأكبر". هيرودوت يتحدث ن مصر (ترجمة: محمد صقر خفاقة، دار القلم، القاهرة 1966م)، ص251- 254.

وواصل المؤرخون وسط بحر متلاطم من الخرافة الحديث عن **كيفية بناء الأهرام** ونسج المؤرخون والرحالة معلومات من وحي خيالهم، وأكثر بعدًا عن منطق الأشياء، وظل المؤرخون خلال أمد طويل لاحق يمزجون بين التاريخ التوراتي والبعد الأسطوري في ما يتعلق بأهرام مصر وكيفية بنائها، حتى ساد الاعتقاد بأن المصريين الذين صنعوا تلك الآثار ناس غير طبيعيين يتمتعون بقدرة فائقة على الإتيان بالخوارق، وأنهم قد استعانوا بالسحر في تنفيذ كل هذه الإنشاءات الهائلة، ويرجع هذا الاعتقاد بصفة أساسية إلى عدم معرفة أسرار الكتابة المصرية القديمة التي كانت مدونة على تلك الآثار.

ورغم أن الرحالة العبدري يصف أهرامات مصر بقوله: "على شكل مخروط وليس لها باب ولا مدخل، ولا يعلم كيف بنيت"[299]، إلا أن السؤال ظل ملحًا على أذهان الناس بما فيهم المؤرخون والرحالة سواء من الشرق أو الغرب وشُيدت الأهرام في مخيلة الناس باستخدام السحر أحيانًا أو بالمعجزات الإلهية أو بواسطة عمالقة من البشر أحيانًا كثيرة.

يقول المسعودي: "كان القوم يبنون الهرم مدرجًا ذا مراقي كالدرج فإذا فرغوا منه نحتوه من فوق إلى أسفل.."[300]، ويسوق التجيبي قولاً: "إن سبب حسنها –الأهرام– أنها نحتت بعدما بُنيت فخفي بسبب ذلك ما استعين به على

---

(299) العبدري (أبو عبد الله محمد بن مسعود) (ت 700 هـ): رحلة العبدري (تحقيق: علي إبراهيم كردي. الطبعة الأولى، دار سعد الدين، دمشق 1999م)، ص316.

(300) مروج الذهب، ج1، ص350، العبدري: الرحلة، ص317.

إلصاقها.."[301]، ويعلق البغدادي على ذلك: "والعجب في وضع الحجر بهندام ليس في الإمكان أصح منه، بحيث لا تجد بينهما مدخل إبره ولا خلل شعرة، وبينهما طين كأنه الورقة، لا أدري ما صنعته ولا هو.."[302]، ويقرر ابن زولاق: "لا يعلم في الدنيا حجر على حجر في هذا الوسع... ولا يقدر الخلق على عمل مثلها، ولم يقوهما إلا خالق الأرض"[303].

ويشرح الإسحاقي كيفية بناء الأهرامات بقوله: ".. لما شرع في بنائها، أمر بقطع الأسطوانات العظام واستخدم الرصاص من أرض المغرب، وإحضار الصخور من ناحية أسوان فبنى بها أساس الأهرام الثلاثة: الشرقي، والغربي، والملون، وكانوا يمدون البلاطة ويثقبونها ويجعلون بوسطها قضيبًا من حدي قائمًا ويربكون عليها بلاطة أخرى مثقوبة ويدخلون القضيب فيها ثم يذاب الرصاص ويصب في القضيب حول البلاطة إلى أن أكملت، وجعل ارتفاع كل واحد من الأهرام مئة ذراع بالذراع الملكي.. ولما فرغت كساها ديباجًا ملونًا من أسفلها إلى أعلاها.."[304].

ويعلق (ابن جبير) على بناء الأهرام فيقول: "قد أقيمت من الصخور العظام المنحوتة، وركبت تركيبًا هائلاً، بديع الإلصاق، دون أن يتخللها ما يعين على إلصاقها.."[305].

---

(301) مستفاد الرحلة والاغتراب، ص166.

(302) الإفادة والاعتبار، ص92.

(303) ابن زولاق: فضائل مصر وأخبارها، ص71.

(304) الإسحاقي: أخبار الأول فيمن ملك مصر، ص110.

(305) ابن جبير: الرحلة، ص50.

أما المقريزي فقد حاول مناقشة كيفية بناء الأهرام مناقشة علمية فقال: "فكرت في بناء الأهرام، فأوجب علم الهندسة العملية ورفع الثقيل إلى فوق، أن يكون القوم هندسوا سطحًا مربعًا، ونحتوا الحجارة ذكرًا وأنثى ورصوها بالجبس البحري إلى أن ارتفع البناء مقدار ما يمكن رفع الثقيل، وكانوا كلما صعدوا ضموا البناء حتى يكون السطح الموازي للرفع الأسفل مربعًا أصغر من المربع السُّفلاني، ثم عملوا في السطح المربع الفوقاني مربعًا أصغر بمقدار ما بقي في الحاشية، ما يمكن رفع الثقيل إليه، وكلما رفعوا حجرًا مهندمًا رصوه إليه ذكرًا وأنثى، إلى أن ارتفع مقدار مثل المقدار الأول، ولم يزالوا يفعلون ذلك إلى أن بلغوا غاية لا يمكنهم أن يفعلوا ذلك فقطعوا الارتفاع، ونحتوا الجوانب البارزة التي فرضوها لرفع الثقيل ونزلوا في النحت من فوق إلى أسفل، وصار الجميع هرمًا"[306].

والأهرامات كانت قرينة الرحالة (أبو الصلت) على ما وصل إليه المصريون القدماء من تقدم في علم الهندسة فيقول: "كان فيهم -المصريين- طائفة من ذوي المعارف والعلوم خصوصًا بعلم الهندسة والنجوم. ويدل على ذلك ما خلفوه من الأشغال البديعة المعجزة، كالأهرام والبرابي (المعابد)، فإنها من الآثار التي حيرت الأذهان الثاقبة واستعجزت الأفكار الراجحة وتركت لها شغلاً بالتعجب منها والتفكير فيها.."[307]، ويصفها الإصطخري بقوله: "مربع الأسفل ثم لا يزال يرتفع ويضيق حتى يصير أعلاه نحو مبرك الجمل، ومُلئت بنيانه بكتابة يونانية، وفي داخله طريق يسير فيه الناس رجالة"[308].

---

(306) المقريزي: الخطط، ج1، ص114، الأقفهسي: أخبار نيل مصر، ص63.

(307) الرسالة المصرية: ص25.

(308) الإصطخري (أبو إسحاق إبراهيم بن محمد): المسالك والممالك، (تحقيق: محمد جابر عبد العال، سلسلة

أما الرحالة اليهودي (بنيامين التطيلي) (القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي)، فقد كان له رأي مخالف فقال عن الأهرامات[309] إن في الجيزة "الأهرام التي بناها السحرة مما يندر نظيره بين مباني العالم.."[310]، فما أكثر الروايات والأساطير التي تتداولها الألسنة في أصل هذه الجبال الاصطناعية.."[311]، خصوصًا بعد أن بَعُدَ زمانهم عن زمان بناء الأهرام بنحو 4000 سنة أو يزيد، ولذلك شاعت بينهم معلومات مغلوطة، يبدو بعضها وقد اختلق اختلاقًا بقصد ادعاء المعرفة بأسرار الغرائب والعجائب، حتى ولو كان ذلك على حساب العقل والمنطق وبديهيات التفكير السليم.

وهكذا، بُنيت الأهرامات باستخدام السحر في نقل أحجارها الضخمة من المحاجر إلى مكان البناء، إذ يبدو بوضوح أن تلك الروايات تأثرت بما شاع عن المصريين من فنون السحر، كما قدمت لنا صورة عن أفكار الناس وآرائهم عن الأهرام، التي عدوها من فضائل مصر، كما تعكس مدى انشغال الذهنية الشعبية بأخبار تلك الآثار، فراح الوجدان الشعبي يضيف من تصوراته وموروثاته إلى تلك الروايات، فجاءت متعددة بمقدار انشغال الوجدان الشعبي بها.

الذخائر، العدد 119، القاهرة 2004م)، ص41.

(309) ارتبطت بالأهرام العديد من الخرافات، وقد نقل إلينا الرحالة اليهودي بنيامين التطيلي ما يتداوله الناس عن تلك الأهرام، وهو على أ] حال لم يزعم كغيره أن اليهود هم الذين بنوها أو حتى شاركوا في بنائها.

(310) بنيامين (ابن يونة التطيلي النباري الأندلسي)، (561- 569هـ): رحلة بنيامين التطيلي (ترجمة: عزرا حداد، دراسة: عبد الرحمن الشيخ، الطبعة الأولى، المجمع الثقافي، أبو ظبي، 2002م)، ص353.

(311) أوليا چلبي: سياحتنا مه مصر، ص617.

أما الأرصاد الحافظة للأهرام والروايات التي شاعت حولها فقد تأثرت كذلك بما عرف عن المصريين من إتقان للسحر، حيث "كان أهل مصر أعلم الناس بالسحر، وأقواهم عليه، وانتشر ذلك فتناذرهم الناس.."[312]، وعلى هذا يصف (ابن الظهيرة) أهرام مصر وعلاقتها بالسحر في قوله: ".. ليس على وجه الأرض بناء أرفع منهما -الهرمان- منقور فيها بالمسند كل سحر وطب وطلسم.."[313]، ومن هنا يؤكد (أوليا چلبي) أنه "ليس هناك شك في أن هذا البناء العجيب -الأهرام- مطلسم، لأننا حينما وصلنا الحوض المذعور، بهتنا كلنا وتولتنا الحيرة، والدهشة، وأحاط بنا النصب والأذى لمن كان جهة، فعدنا بأعجوبة، ولكن بكل مشقة وبلاء، وقد كادت أرواحنا تفارق أجسامنا، من هول الموقف حتى وصلنا إلى الهواء الطلق، وتنفسنا الصعداء ودبت الحياة فينا من جديد.."[314].

وبإسناد مبهم وغير محدد يضيف (التلمساني): "يُحكى أن الذي بناها ملك يُقال له سلموق بن درمسيد، الذي أغرقه نوح عليه السلام بالطوفان.. وأنه لما بناها وكّل بكل هرم منها روحانيًا يحفظه، فوكّل بالهرم البحري، وهو المفتوح الآن، روحانيًا في صورة امرأة عريانة مكشوفة الفرج، ولها ذوائب تصل إلى الأرض، فإذا أرادت أن تستفز الإنسي ضحكت في وجهه وجرّته إلى نفسها، فتطعمه وتسخر به، وحكى من رآها عريانة عند هذا الهرم أنه امتلأ قلبه رعبًا، وعدل عنها ولم يكلمها ولم تكلمه، ووكّل بالهرم الذي إلى جانبه روحانيًا في صورة غلام أمرد أصغر عريانًا، وذكر جماعة

---

(312) ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص48.

(313) ابن ظهيرة، محاسن مصر، ص155.

(314) سياحتنا مه مصر، ص621.

أيضًا أنهم رأوه على جانبه مرة بعد مرة، ثم يغيب عنهم، ووكل بالثالث، وهو الصغير، روحانيًا في صورة شيخ في يده مبخرة، وهو يبخر بها، وعليه ثياب الرهبان، ذكر قوم من أهل الجيزة أنهم رأوه مرات في أطراف النهار، فإذا قربوا منه يغيب عنهم، ولم يظهر فإذا بعدوا عنه عاد إلى حالته التي كان عليها.."[315].

وقدمت إلينا كتب التراث صورة عما كان شائعًا من روايات شفوية ومكتوبة عن الأهرام، وأدلى المؤرخون والأدباء والرحالة بدلوهم في ما رأوه، عاكسين بذلك بعض الأفكار التي سادت المجتمع المصري حول هذه الأعاجيب، كيف أن تلك الأفكار كانت مزيجًا من الحقيقة والخيال، لدرجة أنها: "حيرت الأذهان الثاقبة، واستعجزت الأفكار الراجحة أو تركت لها شغلاً بالتعجب منها والتفكير فيها"[316]، على حد قول الرحالة (أبو الصلت الأندلسي)، ولدرجة أن الخيال الشعبي أضفى على الأهرام هالة قدسية، مثلما للكعبة المشرفة من قداسة ومكانة في نفوس تابعيها، ففي تلميح إلى وجود أرصاد حارسة للأهرام استعار "الخيال الشعبي" هيكل أسطورة "إساف ونائلة"[317] العربية دون المضمون، خصوصًا حينما حاولا أن يفعلا الفاحشة في جوف الكعبة فيقول المسعودي: "... وحُكي أن رجلاً وامرأة دخلا (الهرم) للفجور

(315) سكردان السلطان، ص459، الخطط: ج1، ص210.

(316) الرسالة المصرية، ص25.

(317) أسطورة إساف ونائلة: ملخصها كما جاءت في كثير من كتب الأدب، أن (إسافًا ونائلة) رجل وامرأة تمكن الحب من قلبيهما فأصبحا عاشقين، وكانا يرغبان في اللقاء والاجتماع بعيدًا عن أعين الرقباء، فلم يجدا مكانًا يلتقيان فيه خفية غير الكعبة، فأحدثا في الكعبة فعوقبا على ذلك بأن مُسخا حجرين كما أن الآلهة لم ترض عن هذا اللقاء في هذا المكان، وكانت قد حظرت عليهما اللقاء في الكعبة حرم الآلهة. علي عبد الحليم محمود: القصة العربية في العصر الجاهلي، ص155.

فصرعا جميعًا فلم يزل مصحوبين مشهورين إلى أن ماتا... وحُكي أن قومًا دخلوا الهرم، ومعهم غلام يعبثون به، فخرج عليهم غلام أسود في يده عصا، فأخذ يضربهم ضربًا وجيعًا، فخرجوا هاربين وتركوا طعامهم، وشرابهم، وبعض ثيابهم، وقد أصاب قوم في بربا أخميم مثل ذلك..."[318].

المدقق في تلك الروايات سيجد أن الحديث عن أولئك الخدام والروحانيات والطلاسم، والصيغ السحرية التي وضعت لحماية الأهرام، تتصل بما صار يعرف بلعنة الفراعنة، ويشير هذا إلى أن الاعتقاد في وجود تلك اللعنة والرصد قديم، كما تشير أيضًا إلى أن أماكن الآثار المصرية كانت من الأماكن المحببة إلى الناس ارتيادها كما تدل على ما ابتلي به المجتمع المصري من أمراض اجتماعية كالزنى واستيلاء شهوة المردان الملاح على قلوب البعض، أضف إلى ذلك ما تعكسه الروايات من اعتداد المصريين بتاريخهم وآثارهم، حيث كانوا ينظرون إلى الأهرام باستمرار نظرات ملؤها الاحترام والتقديس، وهو ما نكتشفه في الروايات التي تناثرت في كتابات المؤرخين عن **عبادة الأهرامات.**

تشير الكتابات التاريخية إلى انتشار ما اصطلحنا عليه في العصر الحديث بظاهرة -الافتتان بالمصريات-[319] بين شعوب العالم الوسيط، وأن تلك الظاهرة قد

---

(318) المسعودي: أخبار الزمان، ص53.

(319) ظاهر الافتتان بالمصريات: ما يعرف اليوم ب"الاجيبوتومانيا"، وهي نوع من الولوع أو الافتتان الشديد بمعرفة المعلومات التي تتصل بمصر وتاريخها وحضارتها القديمة، وهو أيضا ضرب من ضروب الجنون يتميز بالانفعال الشديد في الانعطاف نحو شيء ما، وهي ظاهرة عامّة تفشت بين عشرات الملايين من الناس على مدى آلاف السنين، انتشرت بين معظم الشعوب التي تنتمي إلى حضارات قديمة أخرى غير الحضارة المصرية.

اتخذت أطوارًا متباينة وأشكالاً عدة، ونتيجة لشيوع الأساطير والخرافات حول الأهرام بين شعوب العالم الوسيط، نشأ نوع من "الحج" لزيارة الأهرام، فتوافد -خلال العصور الوسطى- مئات الألوف سواء من الشرق أو الغرب، وخلد المؤرخون تلك الزيارات في سياق حديثهم عن عجائب مصر فيقول أوليا چلبي: ".. إذا كان جبل الهرمين في تلك العصور مزارًا للخاص والعام، لأنه مقبرة يزورونها، ويتطوفون بها مثل الكعبة، وقد دام الحال على هذا المنوال منذ عهد سيدنا إبراهيم عليه السلام"[320]، ويضيف أنه "كان يؤم هذين الهرمين في ربيع كل سنة مئات الألوف من الناس من أنحاء العالم ويزورونهما.."[321]، ويشير الغرناطي إلى أن "الصابئة تزعم أن هذه القبور -الأهرام- أحدهما قبر غاثمور، وهو عند شيث، والآخر قبر هرمس، وإليه تنسب الصابئة على قول من يزعم ذلك، وهم يحجون إليها ويذبحون عندها الديكة، وما يريدون علمه من الأمور المغيبة..."[322]، كما يذكر البغدادي: "أنه كان يحج إليهما، ويهوي نحوهما من أقطار الأرض"[323]، وأن الصابئة تحجهما من حران"[324].

وطاف الخيال الشعبي حول الأهرام فخلع عليها صفات استعارها من الأفكار الإسلامية والعربية عن الكعبة وكسوتها، فيسوق الهمذاني رواية تقول: "ذكر الشريشي

---

(320) ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، ص154، أوليا چلبي: سياحتنا مه مصر، ص37.

(321) نفسه، ص618.

(322) الغرناطي (أبو حامد محمد) (ت 565 هـ): تحفة الألباب ونخبة الإعجاب (تحقيق: علي عمر، الطبعة الأولى، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة 2003م)، ص94.

(323) البغدادي: الإفادة والاعتبار، ص94.

(324) الكندي: فضائل مصر، ص66.

في شرح المقامات أن بين الجيزة والأهرام سبعة أميال.. ورُوي في بعض أخبارها أن عليها مكتوبًا، بنينا هذه الأهرام في ستين سنة فليهدمها من يريد في ستمئة سنة، فإن الهدم أهون من البناء، وكنا نكسوها حريرًا فاكسوها بعدنا حصرًا.."[325]، أضف إلى ذلك ما لاحظه المؤرخون من أن الحج وصفات القداسة لم تقتصر على الأهرام فحسب، بل حاز تمثال "أبو الهول" على قدر كبير من تلك الصفات القدسية وأعده البعض أحد أركان مناسك الحج إلى الأهرامات، حيث كانت الصابئة "تحج إليه" وتقول: يا أبا الهول إليك قد حججنا..."[326].

وإذا كانت الأهرام قد ظلت قابعة في غياهب الخرافة والأساطير، فإنه بسقوط سلطان الرومان في مصر، هوى "أبو الهول"[327] في غياهب الإهمال والنسيان ووقف

---

(325) الهمذاني (بهاء الدين محمد بن حسين) (ت 1031 هـ): المخلاة (الطبعة الثانية، مكتب مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، 1957م)، ص258.

(326) ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، ص154، الأقفهسي (شهاب الدين بن العماد)، (ت 808هـ): كتاب أخبار نيل مصر، (تحقيق: لبيبة مصطفى، نعمات محمد، الطبعة الأولى، دار الكتب، القاهرة 2006م)، ص62.

* والصابئة: من الفرس الذين عبدوا قوى الطبيعة، وهم القائلون بالأصنام الأرضية للأرباب السماوية، أي الكواكب، ومتوسطون إلى رب الأرباب، ينكرون الرسالة في الصور البشرية عن الله تعالى ولا ينكرونها عن الكواكب، انظر: المقريزي، الخطط، ج1، ص261- 262، كرد على: خطط الشام، ج6، ص213، (طدمشق 1928م).

(327) أبو الهول: اصطلاح مأخوذ من التعبير المصري شسب عنخ shesep ankh، ومعناه "الصورة الحية" تمثل قوة وسلطة فرعون، تمثال رأسه بشري وجسده جسم أسد ضخم رابض، وهو حامي الخير وطارد الشر، وكان الهدف من إقامته حماية المتوفى بإبعاد الأرواح الشريرة عن المقابر، وكان الأسد بالنسبة إلى المصريين القدماء حارس بوابات الفجر، ويواجه "أبو الهول" كرمز شمس للإله "رع" اتجاه الشرق، مستقبلاً الأشعة الأولى للشمس الساطعة في أول أيام الربيع، بريان م. فاجان: نهب آثار وادي النيل (ترجمة: أحمد زهير، مكتبة الأسرة، القاهرة 2003م)،

أبو الهول صامدًا، وصامتًا أمام زحف الرمال التي لم تعد يكبحها أوامر الملوك في الأساطير فقد طفقت تغرقه شيئًا فشيئًا إلا على الرأس فوق سطح الأرض، وأصبح فريسة للعوامل الجوية والتعصب الديني، ومع ذلك الإهمال والإعراض الذي كان فيه، فلقد ظل أبو الهول يمارس تأثيره الخلاب على عقول الذين ينظرون إليه، وحفظ لنا الكثير من التكهنات عن أصله وطبيعته في كتابات المؤرخين المسلمين، في حين صار اسمه الأصيل تعبيرًا شائعًا يرادف اللغز في كل أذهان العالم الوسيط والإسلامي تقريبًا، حتى اعتبره كثير من الناس أنه يستحق الإعجاب والتقدير أكثر من الأهرام، إذ إنه يروع الإنسان بسكونه وصمته المهيب.

وأفاضت المصادر التاريخية في الحديث عن تمثال أبي الهول، فوصفته وتحدثت عن اسمه وأشارت إلى دورة ووظيفته في حياة مصر والمصريين، ولقد أورد "السبتي" من أخباره: "بمقربة من هذه الأهرام الثلاثة رأس صورة من حجر صلد هائل المنظر، على صورة رأس الإنسان، غير أنه غاية في الكبر، قد قام كالصومعة العظيمة ووجه هذا الرأس مقابل الأهرام وظهره إلى القبلة مهبط النيل ويدعوه أهل مصر بأبي الأهوال.. ويزعمون أنه طلسم للرياح، وأنه لو ذهب لأتلف ريح مصر، والله أعلم بحقيقة ذلك، وبما كان المراد منه، وبما مر عليه من الدهور والعصور"(328).

أما القزويني فقد كانت روايته مختلفة في ما يتعلق بوظيفة **"أبو الهول"** فقال:

ص248، آنا رويز: روح مصر القديمة (ترجمة إكرام يوسف، سلسلة المشروع القومي للترجمة، العدد 965، القاهرة 2005م)، ص245.

(328) السبتي: مستفاد الرحلة والاغتراب، ص167، ابن جبير: الرحلة، ص51.

"ومن عجائب مصر أبو الهول، وهو صورة آدمي عظيمة مصنعة، وقد غطى الرمل أكثره. يقال: إنه طلسم للرمل لئلا يغلب على كورة الجيزة، فإن الرمال هناك كثيرة شمالية متكاثفة، فإذا انتهت إليها لا تتعداه، والمرتفع من الرمل رأسه وكتفاه، وهو عظيم جدًا، وصورته مليحة كأن الصانع فرغ منه.. وهو مصبوغ بالحمرة.."[329].

وتحت عنوان "ذكر الصنم الذي يقال له أبو الهول" يقول المقريزي في خططه: "هذا الصنم بين الهرمين عرف أولاً ببلهيب، وتقول أهل مصر اليوم -سنة 780هـ تقريبا- أبو الهول.. ويقال إن أبا الهول طلسم الرمل يمنعه عن النيل.."[330].

ويورد المقريزي من أخبار ما كان يعرف بـ"**سرية أبي الهول**" فيقول: "ويقابله -يعني أبا الهول- في بر مصر، قريبًا من دار الملك، صنم عظيم الخلقة والهيئة متناسب الأعضاء كما وصف، وفي حجره مولود، وعلى رأسه ماجور الجميع صوان مانع، يزعم الناس أنها امرأة، وأنها سرية أبي الهول المذكور، وهي بدرب منسوب إليها، ويقال لو وضع على رأس أبي الهول خيط ومد إلى سريته لكان على رأسها مستقيمًا، ويقال إن أبا الهول طلسم الرمل عن النيل، وإن السرية طلسم الماء يمنعه عن مصر"[331].

وسلكت بعض الروايات مسلكًا مخالفًا للروايات السابقة فتقول: "ويقال إن هذا الرأس -أبو الهول- كان في الزمن الماضي يكلم القادمين والرائحين، من الزوار، وقد جعل له طلسم بحيث ينبئ عن هجوم عدو على مصر، أو ظهور قحط أو غلاء

---

(329) القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، ص269.

(330) الخطط: ج1، ص123: ص124.

(331) الخطط: ج1، ص112.

ونزول الأمطار وامتناعها، ومقدار فيضان النيل أو عدم فيضانه، أو موت أحد أو حياته، أو بالاختصار كان يخبر عن المغيبات الخمسة"[332]، وهي الرواية التي رفضها المقدسي وعدَّها من المزاعم الباطلة بقوله "وثم صنم -أبو الهول- يزعمون أن الشيطان كان يدخله فيكلمه، حتى كسر أنفه وشفتاه.."[333].

هكذا، نلحظ أن الروايات حول آثار مصر القديمة كانت تسير في خط صاعد، في ما بين كتابات المؤرخين، مما أدى إلى تراكم رصيد ضخم من الأساطير والخرافات التي راجت حول حضارة مصر القديمة، في محاولة لفك رموزها والوقوف على أسرارها، كما تكشف عن النظرة الإيجابية إلى آثار القدماء المصريين، التي رآها الوجدان الشعبي أنها تقوم بدور هام في حياة الناس، وأن لكل منها دورًا ووظيفة في الحفاظ على خيرات مصر وأمن وسلامة أهلها.

كتابات المؤرخين بما حملته من "موروث شعبي" حول آثار مصر تؤكد أنه لم ينظر إلى تلك الآثار على أنها أوثان أو مظاهر للكفر والوثنية يجب تحطيمها أو إزالتها إلا في حالات نادرة وشاذة تؤكد القاعدة، وهي أن مصر، واسطة العقد بوسطيتها. يدل على ذلك الروايات التي أوردها المؤرخون عما لحق بوجه أبي الهول من تشويه، وما كان من أمر تحطيم أنفه، وسط بحر لجي من الأساطير التي أحاطت بما ترتب على ذلك التشويه من آثار ضارة لحقت بأرض مصر، فيقول أحد المؤرخين: "وفي زماننا -780هـ- كان شخص يعرف بالشيخ محمد صائم الدهر من جملة صوفية

---

(332) سياحتنا مه مصر، ص623.

(333) أحسن التقاسيم، ص210.

الخانقاه الصلاحية، سعيد السعداء، قام في نحو سنة ثمانين وسبعمئة لتغيير أشياء من المنكرات، وسار إلى الأهرام، وشوه وجه أبي الهول، وشعثه، فهو على ذلك إلى اليوم، ومن حينئذ غلب الرمل على أراضٍ كثيرة من الجيزة، وأهل تلك النواحي يرون أن سبب غلبة الرمل على الأراضي فساد وجه أبي الهول ولله عاقبة الأمور.."[334].

ومن بوابات الأسطورة دخلت بعض الروايات لتفسير تشويه وجه أبي الهول فتقول: "لما بلغ ذلك موسى عليه السلام ذهب إليه -أبو الهول- وقال له: إنك قادر على التحدث فيجب عليك أن تؤمن بي أنا رسول الله الحق، فقال له أبو الهول إني أؤمن بإدريس عليه السلام ولا أُؤمن لغيره، فغضب موسى وكان عاتيًا، وضرب أبا الهول بعصاه، وثلمه عدة ثلمات، وخدش فمه وأنفه وقال: "اسكت يا ملعون"، وانصرف ومن ذلك اليوم صمت أبو الهول، ولم يعد يتكلم، ولا تزال آثار عمل موسى باقية على رأسه، ولم تزل عيناه مخدوشتين، ومع ذلك فهو صنع إنسان بديع، وأثر عجيب"[335].

ما يهمنا في تلك الروايات هو انشغال الوجدان الشعبي بقصص الأنبياء التي لم تشبع حاجات هذا الوجدان الروحية، فراح يضيف من تصوراته وموروثاته إلى تلك القصص التي حفظتها لنا الكتابات التاريخية، خصوصًا ما يتعلق بالمعجزات الموسوية العديدة التي ينسبها رواة التراث لموسى عليه السلام التي نجد إشارات لها في القرآن الكريم أو مدونات التوراة، كما نجد كيف أضاف "الوجدان الشعبي" العديد من التفاصيل في ما يتعلق بكرامات ومعجزات عصا موسى عليه السلام التي ورد ذكرها في القرآن الكريم، وهي من عادات التراث الشعبي.

---

(334) المقريزى: الخطط، ج1، ص123، 124.

(335) سياحتنا مه مصر، ص622، ص623.

حيث أورد لنا أخبارًا ترسم ملامح ومعجزات وكرامات لا حصر لها تختلف قليلاً في ما بين المؤرخين، التي جاءت في سياق الموروث الشعبي الذي جمعه لنا هؤلاء المؤرخون. وتكشف لنا عن جوانب أُخرى للقراءة الشعبية لسير الأنبياء، حيث يتفاعل فيها الواقع بالحلم والأسطورة، وتجسد لنا رد الفعل التخيلي للجماعة الشعبية لطبيعة معجزات الأنبياء وأخبارهم.

وربما حمل هذا النوع من القصص الشعبي المتعلق بآثار الحضارة المصرية، رسالة تحذير لمن يتجرأ ويتطاول على حرمة الآثار وانتهاك قدسيتها، وتؤكد نبذ الناس في مصر لكل الأفكار الشاذة، نلحظ ذلك في سياق عرض بعض الروايات لأسباب تهشم وجه "أبو الهول" فيقول: "كان في خانقاة الصلاحي صوفي متعصب يدعى محمدًا -محمد صائم الدهر- وكان يقول بحرمة صور الحيوانات. وفي سنة 781هـ، تصدى هذا الصوفي لتهشيم فم أبي الهول وأنفه أكثر مما هشما بيد موسى عليه السلام، وأقدم على هذا العمل دون أن يحصل على إذن بذلك من حاكم ذلك الوقت، وبينما هو يحاول ذلك هبت ريح عاتية بحكمة الله على مدينة الجيزة، فحالت دون وصول البرسيم والغلال وسائر الأرزاق إلى القاهرة، حيث غرقت في الرمال، فقبض الحاكم على محمد الذكور وقطعه إربًا إربًا، وأمر بدفنه بجانب أبي الهول، ولا يزال زوار أبي الهول يرجمون قبر ذلك الصوفي المنحرف.."[336].

أما **المعابد المصرية القديمة**، فقد كانت معلمًا بارزًا من معالم الحضارة المصرية القديمة، وقد أثارت اهتمام المؤرخين والرحالة المسلمين، فأفاضوا في الحديث

(336) المقريزي: الخطط، ج1، ص38، أوليا چلبي: سياحتنا مه مصر، ص623.

عنها، وكانوا يعرفونها بـ"البرابي"[337]، ويقول المقريزي في أصل برابي مصر إنها "تنسب إلى براب بن الدر مسيل بن نخويل بن خنوخ بن فار بن آدم عليه السلام"[338].

وكعادة العرب في اهتمامهم بالأنساب وإرجاعهم كل شيء إلى جد أسطوري أعلى، فأرجعوا الاسم إلى "براب" هذا وكأنها عرفت به ونسبت إليه وهو تعليل وتفسير وجدنا أمثاله -في ما سبق- من الحديث عن أصل الاسم "مصر".

وعرفها القزويني بقوله: "البربا عبارة عن بيت عمل فيه شجر أو طلسم.."[339]، ورآها البعض أنها "من أبنية مصر القديمة.. وهي بيوت حكماء القبط ويقال إنه كان بكل كورة من كور مصر بربا، يجلس بها كاهن على كرسي للتعليم.."[340]، ووصفها البعض الآخر على أنها: "مخزن لذخائر القوم الذين قضوا من أهل مصر بالطوفان قبل وقته بقرنين.."[341]، وأضاف المقريزي أن: "بمصر أبنية يقال لها البرابي من الحجارة العظيمة الكبيرة، وهي على أشكال مختلفة.. عملت لصناعة الكيمياء"[342]

بربا أخميم كان من أشهر البرابي التي ذكرتها المصادر التاريخية إذ إنه "من

---

(337) البرابي: بيوت الحكمة (المعابد)، وهي الدور التي كان المصريون القدامى يتعلمون فيها العلوم، خصوصًا اللاهوتية. انظر: مروج الذهب، ج1، ص360- 361، فضائل مصر وأخبارها، ص65، حاشية (9)، معجم البلدان، ج1، ص532.

(338) الخطط، ج1، ص37.

(339) آثار البلاد وأخبار العباد، ص139.

(340) الدمشقي: نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، ص35.

(341) ابن حوقل: صورة الأرض، ص159.

(342) المقريزي: المصدر السابق، ص37.

الهياكل المتحدث بغرائبها في الدنيا، هيكل عظيم شرقي المدينة المذكورة وتحت سورها -يقصد أخميم-، طوله مئتا ذراع وعشرون ذراعًا وسعته مئة وستون ذراعًا، يعرف عند أهل هذه الجهة بالبربة، وكذلك يعرف كل هيكل عندهم.. قد عم هذا الهيكل العظيم الشأن كله هذا النقش البديع، ويأتي في صُمَّ الحجارة من ذلك ما لا يأتي في الرخو من الخشب، فيحسب الناظر له استعظامًا له، أن عمر الزمان لو شغل بترقيشه وترصيعه وتزينه، لضاق عنه. فسبحان الموجد للعجائب.. وبالجملة فشأن هذا الهيكل عظيم، ومرآه إحدى عجائب الدنيا التي لا يبلغها الوصف، ولا ينتهي إليها الحد.."[343].

هكذا، ظلت البرابي المصرية لها سحرها الخاص، ورهبتها في النفوس على مر العصور، وقد حظيت بعض البرابي شهرة تاريخية، واكتسبت قدسية لدى الخيال الشعبي الذي تدخل كثيرًا برواياته المشبعة بالخيال ليغير ما يراه من حقائق أو يقدم تفسيرًا لما قد غمض عليه فهمه حول أسباب إنشاء البرابي ووظيفتها في المجتمع المصري.

يقول ابن عبد الحكم: "لجأت إحدى ملكات مصر، وهي دلوكة[344] إلى عجوز ساحرة، كانت السحرة تعظمها، ويستشيرها فرعون في كثير من الأمور قبل

(343) ابن جبير: الرحلة، ص62، المقريزي: نفسه، ص239.

(344) دلوكة: هي الملكة دلوكة بنت زباء، رآها الوجدان الشعبي، أنها كانت ذات عقل ومعرفة وتجارب، ولها شرف عالٍ بين نساء مصر الذين بقوا بمصر بعد غرق فرعون وأصحابه، وقد ملكت مصر ثلاثين سنة، وكانت تبلغ من العمر 160 سنة. لمزيد من التفاصيل عنها راجع: فتوح مصر، ص47، 49، الخطط، ج1، ص199، حسن المحاضرة، ج2، ص334، الأقفهسي، كتاب أخبار مصر، ص66.

غرقه.. فقالت لها دلوكة: احتجنا إليك في شيء تصنعينه يكون حرزًا لبلادنا ممن يرومه من الملوك، إذ بقينا بغير رجال. فأجابتها إلى ما أرادت وصنعت لها بربا، وهو بيت له أربع أبواب إلى أربع جهات.. وقالت: قد عملت لك شيئًا يغنيك عن الرجال والسلاح والحصن، فإن أتاكم من البر يكون على الخيل والبغال والحمير، وإن من أتاكم من البحر يكون في السفن، فعند ذلك تحركت الصور التي هي مثلهم وتشاكلهم فما فعلتم بالصور أصابهم مثل ذلك في أنفسهم.."[345].

تدلنا الرواية على الجانب الاعتقادي الذي ارتبط بآثار مصر وبالبرابي التي شاعت بين الناس، بأن فيها من الأسرار والطلاسم والكنوز ما يمكن أن يكشف عنه الإنسان ويستفيد منها إذا عرف الوسيلة إلى ذلك، كما يكشف عن النظرة التي أدت إلى وجود أسرار خفية، وأن لكل أثر أو حجر دورًا ووظيفة يؤديها في حياة الشعب المصري، لدرجة أن السيوطي يقول عنها: "ويقال إنه كان فيها -بربا أخميم- جميع ما يحدث في الزمان حتى ظهور رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنه كان مصورًا فيها راكبًا على ناقة.."[346].

أما المقريزي فقد أورد أن الهدف من بنائها هو رغبة الملك: "يقال إن اسمه دومريا، وأنه جعل هذه البربا مثلاً للأمم الآتية بعده، وكتب فيها تواريخ الأمم والأجيال ومفاخرهم التي يفتخرون بها، وصور فيها الأنبياء والحكماء وكتب فيها من يأتي من الملوك إلى آخر الدهر"[347]

---

(345) ابن عبد الحكم: فتوح مصر: ص48، القزويني: آثار البلاد، ص139، المسعودي: مروج الذهب، ج1، ص359، الحميرى: الروض المعطار، ص16- 17.

(346) السيوطي: حسن المحاضرة، ج1، ص65.

(347) المقريزي: الخطط، ج1، ص448.

عجائب بربا أخميم ورد عنها العديد من الحكايات التي نسجتها الذهنية الشعبية، والتي أضفت على تاريخ وآثار الحضارة المصرية القديمة قدرًا من الحيوية، وبالطبع لم تكن أسرار العصر القديم قد تكشفت بعد.لذلك كانت مرتعا خصبًا للخرافات والأساطير التي دارت حول عجائب تلك الآثار. منها ما رواه ابن محشرة في قوله:" رأيت في بربي أخميم صورة عقرب، فألصقت عليها شمعا فلم أتركها في موضع إلا أن انحاشت العقارب إليها من كل موضع وإن كانت في تابوت اجتمعت حول التابوت"[348]

ويورد المقريزي من أخبار عجائب هذا البربا: "ذكر أهل أخميم أن رجلاً من الشرق وكان يلزم البربا، ويأتي إليه كل يوم ببخور وخلوق فيبخر ويطيب صورة من عضادة الباب فيجد تحتها دينارًا.. فيأخذه وينصرف"[349]، ويصفه المقريزي بقوله: "بربا أخميم عجب من العجائب بما فيه من الصور وأعاجيب، وصور الملوك الذين يملكون مصر وكان ذو النون الأخميمي يقرأ البرابي فرأى فيها حكمًا عظيمة فأفسد أكثرها"[350].

ويقول المقريزي أيضًا "يقال إنه كان في بربا (معبد) أخميم شيطان قائم على رجل واحدة. وله يد واحدة قد رفعها إلى الهواء وفي جبهته وحواليه كتابه، وله إحليل ظاهر ملتصق بالحائط، وكان يذكر أن من احتال حتى ينقب على ذلك الإحليل حتى يخرجه من غير أن ينكسر، ويعلقه على وسطه فإنه لا يزال منعظًا أن ينزعه، ويجامع ما

---

(348) الاستبصار في عجائب الأمصار، ص60، المقريزي: المصدر السابق، ص447.

(349) الخطط، ج1، ص248، الحميرى: الروض المعطار، ص18.

(350) الخطط، ج1، ص31.

أحب ولا يفتر ما دام معلقًا عليه، وأن بعض من والي أخميم أقتلعه فوجد منه شيئًا عجيبًا من ذلك"[351]. وأشار المقريزي إلى تمثال مشابه بالإسكندرية على: "صورة صنم قائم وله إحليل إذا أتاه المعقود والمسحور ومَنْ لا ينتشر ذكره فمسحه بكلتي يديه انتشر ذكره وقوي على الباه"[352].

العديد من البرابي الأخرى التي حمَّلها الخيال الشعبي بالأساطير انتشرت في أرجاء مصر، فنجد في "بلاد أسوان بربا، وبأتفوا بربا، وبشامة وطامة بربا وبإسنا بربا، وبقوص بربا وبدندره بربا عجيبة، وبالبهنسة بربا عجيبة، وبشاطئ النيل فيها بين أسوان وجبل الطير برابي منحوتة في الجبال كالمعابد للمتفردين من الناس وبأنصنا بربا"[353]، أما بربي

---

(351) الخطط، ج1، ص240.

(352) المقريزي: الخطط، ج1، ص33. نستشف من رواية المقريزي أنه ربما كان يتحدث عن الإله المصري القديم "مين" "MIN" فهو حامي إخميم وقفط وحامي الطريق إلى بلاد العرب، فكان الأول "مين" يصور بجسمه النحيل ووقفته المتصلبة الخجلى، ويبدو طويلاً جدًا بالريشتين اللتين يضعهما على رأسه والجزء الظاهر من جسمه، خارج ثوبه المحكم حول جسده ولونه الأسود، أما ذراعه الأخرى فوضعها تحت ثوبه، أمسك بيده الذكر الإلهي المنتصب، وقد شبه الإغريق الإله "مين" بإلههم "بان" (PAN)، وقد وصف "هيرودوت" موكبًا للإله "مين" الذي ظل متواريًا في الوجدان الشعبي المصري حتى ظهر في شخصية "علي كاكا" وهو شخصية غريبة تدل على ولوع المصريين بعلاقاتهم الجنسية، إذ هي شخصية رجل يلبس الحذاء ويلبس في وسطه حزامًا تتدلى منه قطعة على شكل (العضو التناسلي الذكوري) في أضخم أنواعها، وقد رأى البعض أن شخصية "علي كاكا" لا تعكس ولع المصريين بعلاقاتهم الجنسية، وإنما هي دفقة من التيار التحتي للموروث الشعبي الذي يسري في اللا وعي الجمعي للمصريين. ديمتري ميكس وآخرون: الحياة اليومية للآلهة الفرعونية (ترجمة فاطمة محمود، سلسلة الألف كتاب الثاني، القاهرة، 2000م)، ص373، جورج بوزنر وآخرون، معجم الحضارة المصرية القديمة (ترجمة: أمين سلامة، سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة 1996م)، ص328. أحمد أمين: قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية (ط الثانية، القاهرة، د.ت)، ص337.

(353) الدمشقي: نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، ص35.

[بربا] سمُّنود فقد دار حولها روايات تشي بمدى رهبتها في النفوس فيقال عنها: "قد خزن فيها بعض عمالها قرضًا فرأيت الجمل إذا دنا من بابها بحمله وأراد أن يدخلها، سقط كل دبيب في القرظ، فلا يدخل منها شيء إلى البربا".[354]، أما عجائب بربا إسْنا فقد تحدث عنها الخيال الشعبي بقوله: "إن الفأر لا يدخلها، وإن دخلها مات"[355].

ولم تكن **المسلات المصرية**[356]، أحسن حالاً من البرابي، في ما يتعلق بالخرافات والأساطير التي دارت حولها، وعنها يقول المقدسي: "وبعين شمس شبه منارتين طويلتين، قطعة واحدة على رأسها شبه حربة تسميان المسلتين، وتم أيضًا على هذا العمل دونهما وسمعت فيهما أشياء لا يقبلها العقل، وقرأت في كتاب الطلسمات أنهما طلسمان للتماسيح ويجوز هذا، ألا ترى أن التماسيح في كورة الفسطاط لا تضر مع عظمها وكثرتها"[357]، وقيل عن عجائبها أيضًا إن "الشمس تطلع على [المسلة] الجنوبية منهما في أقصر يوم في السنة، وعلى الشمالية في أطول يوم في السنة"[358]، "وفيهما صورة إنسان على دابّة وعلى رأسيهما شبه الصومعتين من نحاس فإذا جاء النيل قَطَرَ من رأسيهما ماء ويظهر حتى يجري إلى أسفلهما"[359]، فلم يستطع الخيال

---

(354) القلقشندي: صبح الأعشى، ج3، ص323.

(355) نفسه، ص324.

(356) المسلات: حجر طويل مستدق يشبه القلم، رأسه هرمي الشكل، كانت على علاقة بعبادة الشمس، استولى الأثريون الأوائل على كثير منها وتسمى (Obelisk).

(357) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص210، القلقشندي: صبح الأعشى، ج3، ص324.

(358) القلقشندي: صبح الأعشى، ج3، ص325، ابن عبد الظاهر: الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة، ص121.

(359) ابن عبد الظاهر: الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة، ص121.

الشعبي أن يفسر تكثف بخار الماء على السطح الأملس للمسلات على شكل قطرات ندى فعدها من العجائب، ورغم الخرافات والأساطير التي تداولها الناس، فقد وصف المؤرخون المعالم الخارجية للآثار المصرية كأبنية جسيمة، وأثبتوا دهشتهم الشديدة وانبهارهم بتلك الأوصاف التي قد تعتبر الشيء الوحيد المعقول في أقوالهم.

أما **اللغة المصرية القديمة**، فقد جاء حين من الدهر كانت فيه تلك اللغة تمثل لغزًا محيرًا للعقول، هاجسًا يؤرق الناظر فيقف أمامها مشدودًا مشدوهًا، إلى أن خرج (جان فرانسوا شامبليون) من مصر، وفي إحدى يديه مفتاح الهيروغليفية[360]، بهذا المفتاح أضاف إلى تاريخ البشر، خمسة آلاف عام أو يزيد، فكان إيمانه بمصر كعصا موسى: يبطل معها كل سحر[361]، ولما كانت تلك الرموز مثار اهتمام الرحالة

---

(360) الهيروغليفية: النقش الهيروغليفي "Hieroglyphs" كتابة تصويرية ظهرت كاملة التطور نحو سنة 3100 ق.م، وظلت مستخدمة حتى العصر الروماني، وهي مزيج النطق (خواص الصوت أي الفونجرام) والرموز التصويرية (إيدوجرام)، وكانت تستخدم أساسًا في كتابة النصوص الأدبية والدينية، كما يوجد ما يسمى ب"الخط الهيراطيقي"، هو خط متشابك (متصل/ متطور عن الهيروغليفية استخدم في كتابة الوثائق القانونية، وفي مجال الأعمال حتى نهاية الدولة الحديثة، حيث شاركه في ذلك الخط الديموطقي، والخط الديموطيقي أيضًا، خط متشابك (متصل) الحروف تطور عن الهيروغليفي في القرن السابع الميلادي، وكان يستخدم في المعاملات الرسمية الجارية لتسهيل الشؤون الإدارية، وكان متشرًا مع الهيراطيقية والهيروغليفية: كلير لالويت، الفن والحياة في مصر الفرعونية (ترجمة/ فاطمة عبد الله، سلسلة المشروع القومي للترجمة، العدد 370، القاهرة 2003م)، ص379، بريان فاجان: نهب آثار وادي النيل، (ترجمة: أحمد زهير، مكتبة الأسرة، القاهرة 2003م.)، ص240، ج.جيمز: الحياة أيام الفراعنة، ص127.

(361) أميط اللثام عن بعض الدراسات تتحدث عن المكتشف الحقيقي للغة المصرية القديمة الهيروغليفية، وهو ابن وحشي النبطي أبو بكر أحمد بن علي بن وحشية الذي كان عالما بالعلوم الخفية والفلاحة والكيمياء والسموم والفلك والأقلام القديمة والسحر والحيل وغيرها، الذي خلف أكثر من خمسين كتابًا على وجه التقريب، وعاش في القرن الرابع الهجري في كتابه (شوق المستهام في معرفة رموز الأقلام) الذي تضمن نحوًا من تسعين قلمًا من أقلام

والمؤرخين وغيرهم وباتت سرًّا مستغلقًا على مدى العصور ومثار دهشة، فما كان للخيال الشعبي أن يقف أمامها عاجزًا طويلاً إذ حلق في آفاقه، وقدم لنا تفسيراته المنطقة لتعويض النقص المعرفي الحاد في تلك المنطقة المبهمة من تاريخ مصر القديم.

صدى تلك التفسيرات وجدت طريقها إلى دفات كتابات المؤرخين المسلمين، التي أظهرت الشغف الذي ساد المجتمع المصري لحل رموز تلك الكلمات والكتابات المنقوشة على جدران آثار مصر، الذي ساعد بدوره على فتح المجال واسعًا للحضور الأسطوري والخرافي حولها، وإن كنا لا نعدم محاولات جادة لفك رموز تلك الكتابات، التي لا شك أنها أكثر أشكال الكتابة جمالية وإلهامًا للخيال في تاريخ البشرية، وبخاصة أن الكتابة كانت عند المصريين لغة الآلهة السحرية[362].

أشار الرحالة اليعقوبي إلى أسباب وجيهة لعدم معرفة أسرار اللغة المصرية القديمة بقوله: ".. وفي دهرنا –القرن الثالث الهجري– قد عدم الناس معرفة قراءاته –الخط

اللغات القديمة وأقلام التعمية، بينها أقلام الهيروغليفية الثلاثة، وقد نشر الكتاب المستشرق النمساوي جورج هم في لندن سنة 1806م بالعربية والإنكليزية مع دراسة مهمة نبّه فيها على أهمية الكتاب في كشف اللغات القديمة، والهيروغليفية خاصة، وقد تأكد أن شامبليون الذي نُسب إليه اكتشاف اللغة المصرية القديمة الهيروغليفية المدونة على حجر رشيد بنصوصها الثلاثة عام 1822م أي بعد 16 سنة من صدور كتاب ابن وحشية قد اطلع على إنتاج ابن وحشية، والكتاب له نسخ خطية كثيرة موزّعة على مكتبات العالم: باريس ولندن والنمسا وإيران وتركيا. وقد صدر الكتاب ضمن سلسلة "نصوص ودراسات" ويصدرها المعهد الألماني للأبحاث الشرقية في بيروت، الذي يتخذ من إسطنبول مقرًّا له الآن. انظر: جمال الغيطاني: ملامح القاهرة في ألف عام، سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة 2007م، ص237. وراجع النص الأصلي لمخطوط ابن وحشية (شوق المستهام في معرفة رموز الأقلام) لمصنفه أبي بكر أحمد بن علي بن وحشية النبطي (طبعة دار الفكر، دمشق 2003م).

(362) سيمسون نايوفتس: مصر أصل الشجرة، السياقات (الجزء الأول، ترجمة: أحمد محمود، سلسلة المشروع القومي للترجمة، العدد 993 القاهرة 2006م)، ص11.

المصري القديم- والسبب في ذلك، أنه لم يكن يكتب به منهم إلا الخواص، وكانوا يمنعون العوام، الذين يقومون به منهم حكماؤهم، وكهانهم، وكانت فيه أسرار دينهم، وأصول مقالتهم التي لا يطلعون عليها إلا كهانهم، ولا يعلمون بها أحدًا إلا أن يأمر الملك بتعليمه، فلما قهرتهم الروم، وملكتهم بسطوة شديدة وسلطان، أبطلوا ما كانوا يقومون به من سعيهم وأعمالهم، وحملوهم في بدء أمورهم على شرائع اليونانيين حتى فسدت لغتهم، ومازج كلامهم كلام الروم، ثم تنصرت الروم، فحملوهم على التنصر، فدرس جميع ما كانوا فيه من أمر دينهم وسنتهم، وقتل الروم كهانهم، وعلماؤهم فهلك من كان يفهم ذلك الكتاب، ومنع من بقي منهم من تعليمه، والنظر فيه، فلذلك لا يوجد أحد يقرؤه منهم ولا غيرهم[363]، ويضيف المسعودي أن من أسباب عدم معرفة تلك الكتابة هو: "تداول أرض مصر الأمم، فغلب على أهلها القلم الرومي، وأشكال الأحرف للروم، والقبط تقرؤه على حسب تعارفها إياه وخلطها لأحرف الروم بأحرفها على حسب ما ولدوا من الكتابة بين الرومي والقبطي الأول، فذهبت عنهم كتابة آبائهم..."[364].

ونجد المسعودي، حين يسأل عن اللغة المصرية القديمة، ولا يجد إجابة، يناقش ويدقق ويستنتج، وساعتها يكون أكثر دقة، وأقرب إلى الصواب، فإن عقله الواعي، كان طيعًا في إعطائه الجواب الصحيح أو الأقرب إلى الصحة إن ترك له فرصة المناقشة والاستنتاج، فيقول: "وسألت جماعة من أقباط مصر بالصعيد، وغيره من بلاد مصر،

---

(363) اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب) (ت 284 هـ): تاريخ اليعقوبي (المجلد الأول، الطبعة الأولى، دار صادر، بيروت 1960م)، ص187.

(364) مروج الذهب، ج1، ص350، 351.

من أهل الخبرة (رواة التاريخ الشفاهي) عن تفسير فرعون، فلم يخبروني عن معنى ذلك ولا تحصل لي في لغتهم.. فيمكن والله أعلم، أن هذا الاسم كان سمة لملوك تلك الأمصار وأن تلك اللغة تغيرت كتلك، كتغير الفهلوية، وهي الفارسية الأولى إلى الفارسية الثانية، كاليونانية إلى الرومية، وتغير الحميرية وغير ذلك من اللغات"[365].

فهو هنا قد أصاب مرتين، حين ذكر أن لفظ فرعون لقب يطلق على الملوك، ومرة حين ذكر أن اللغة المصرية القديمة قد تغيرت وليست هي لغة أقباط عصره.

إلا أن رجاحة عقل المسعودي لم تمنعه من أن يكون ناقلاً للوهم إلى جوار الحقيقة، وأورد الأمرين معًا تاركًا للعقل أن يقبل ما يلائمه، وللخيال أن يأخذ ما يروقه. فيقول: "وأخبرني غير واحد من بلاد أخميم من صعيد مصر، عن أبي الفيض ذي النون بن إبراهيم المصري الأخميمي الزاهد، وكان حكيمًا.. وكان ممن يقرأ عن أخبار هذه البرابي ودارها وامتحن كثيرا مما صور فيها ورسم عليها من الكتابة والصور، قال: رأيت في بعض البرابي كتابًا تدبرته، فإذا هو "احذروا العبيد المعتقين، الأحداث المغترين، والجند المتعبدين، والنبط المستعربين". قال: ورأيت في بعضها كتابًا تدبرته فإذا فيه "يقدر المقدور والقضاء يضحك". "وزعم أنه رأى في آخره كتابة وتبينها بذلك القلم الأول فوجدها... تدبر بالنجوم ولست تدري ورب النجم يفعل ما يريد"[366].

الغياب المعرفي بتلك اللغة المصرية القديمة تحدث عنه المؤرخون في قولهم: "لم أجد بديار مصر من يزعم أنه سمع بمن يعرف القلم القديم، وهذه الكتابات كثيرة جدًّا

---

(365) المسعودي: مروج الذهب، ج1، ص316، ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ج2، ص74.

(366) المسعودي: مروج الذهب، ج1، ص360، القلقشندي: صبح الأعشى، ج3، ص323، أوليا چلبي: سياحتنا مه مصر، ص622.

لو نُقل ما على الهرمين فقط إلى صحف لكانت زهاء عشرة آلاف صحيفة"[367].

ويقول آخر: "ورأينا سطوح كل واحد من هذين الهرمين مخطوطةً من أعلاها إلى أسفلها بسطور متضايقة متوازية من كتابة بانيها، لا تعرف اليوم أحرفها ولا تفهم معانيها، وبالجملة الأمر فيها عجيب، حتى إن غاية الوصف لها والإغراق في العبارة عن حقيقة الموصوف"[368]، ويضيف الهروي أن: "الكتابة التي عليها -يقصد الأهرام- بقلم الطير لا يعلمه أحد في الدنيا، وكذلك البرابي ببلاد الصعيد لا يحل قلمها أحد.."[369]، واقترب التلمساني من الحقيقة قليلاً حين قال: "وهي كتابة كاهنية"[370]، ورآها البعض أنها "كتابة بالمسند"[371].

ورغم التكهنات حول ماهية الكتابة المصرية القديمة، فقد ظلت بالنسبة إلى المؤرخين والرحالة مستغلقة الفهم و"أشياء لا تُعلم الآن بالخط القديم، وكثير باقٍ إلى الآن لا يدري ما كان المراد به.. إلا الله عز وجل. ويزعم بعض أهل البطالة، أن لبعض هذه الصور خواص ينتفع بها من يلازم خدمتها، ويرقبها حتى تتحرك بزعمه فإذا تحركت انقضى له ما أمل، وهذا كله باطل وهوس وضعف عقل ودين.."[372].

ورغم العبث بآثار مصر القديمة، ونبش مقابر المصريين القدماء، وإطلاع الناس

---

(367) البغدادي: الإفادة والاعتبار، ص92.

(368) أبو الصلت: الرسالة المصرية، ص28.

(369) الإشارات إلى معرفة الزيارات، ص41.

(370) سكردان السلطان، ص459.

(371) الغرناطي: تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، ص50.

(372) السبتي: مستفاد الرحلة والاغتراب، ص166، 170.

على الأحجام الحقيقية للمومياوات المصرية، فإن الآثار المصرية الخالدة التي كانت تملأ ربوع وادي النيل طولاً وعرضًا، كانت مثار إعجاب جميع الغرباء الذين كانوا يفدون إلى مصر من وراء الحدود، سواء أكانوا من الزائرين العابرين أو من المستعمرين المستوطنين أو من المواطنين.

كانوا جميعًا يقفون مبهورين أمام ضخامة وروعة هذه المعابد والتماثيل، ناهيك بالأهرام وأبي الهول... حتى ساد الاعتقاد بأن المصريين الذين صنعوا تلك الآثار، أُناس غير طبيعيين يتمتعون بقدرة فائقة على الإتيان بالخوارق، وأنهم قد استعانوا بالسحر في تنفيذ كل هذه الإنشاءات الهائلة، وهو ما نلمسه عند البغدادي في قوله: "إذا رأى اللبيب هذه الآثار، عذر العوام في اعتقادهم عن الأوائل بأن أعمارهم كانت طويلة، وجثثهم عظيمة، أو أنه كان لهم عصا إذا ضربوا بها الحجر سعى بين أيديهم..."[373].

وروج الرحالة أوليا چلبي لهذه الأفكار الممزوجة بالخرافات بقوله عن نفسه: "لقد عثر كاتب هذه السطور -بقصد أوليا چلبي نفسه- في الطريق، على عظمة ساق في جلدها، يبلغ طولها واحدًا وسبعين شبرًا من أشباره، وكأن هناك كثيرًا من أمثال هذه العظام، وترقد في مغارة كبيرة جثث ورفات آدمية مكفنة.. يبلغ طول الجثة الواحدة منها سبعين أو ثمانين خطوة.."[374].

ومن الحكايات الشعبية في ذلك، يشاع أن (عبد العزيز بن مروان) أراد إعادة

---

(373) البغدادي: الإفادة والاعتبار، ص103.

(374) أوليا چلبي: سياحتنا مه مصر، ص620.

بناء الإسكندرية: "فذهب قوم من الناس إلى ناووس وأخرجوا منه رأس آدمي وحملوه على عجلة ووزنوا سنًّا من أسنانه، فوجدوها عشرين رطلاً على ما بها من النخر والقدم، فقالوا: جئنا بمثل هؤلاء الرجال حتى نعيدها إلى ما كانت، فسكت"[375].

إذن، لم يكن عجيبًا أن تتردد أخبار الخرافات والأساطير في كتابات الرحالة والمؤرخين، ولكن أقرب الأشياء إلى العجب هو إيمان الكثير من الرحالة والمؤرخين بحقيقة هذه الخرافات والأساطير، بل والدفاع عنها، فالعجب ليس منصرفًا إلى إثباتهم هذه الخرافات عن مصادرهم، وانصرافهم إلى ما جُبِلَ عليه الرحالة والمؤرخون من التصديق لأكثرها، بل والتدليل على صحتها، وإن كان فيها ما يمجه العقل، ويأباه الذوق، ومن ذلك قول المقريزي مدللاً على صحة ما ورد في خططه من جلب سبعة من العواميد منها عمود السواري من الصعيد إلى الإسكندرية حملاً تحت الآباط، قائلا: ".. ويقال إن عمود السواري الموجود -الآن- خارج مدينة الإسكندرية، أحد سبعة أعمدة، أتى بأحدها البتون بن مرة العادي، وهو يحمله تحت إبطه من جبل بريم -قبلي أسوان- على الإسكندرية، فانكسر ضلعه، لأنه كان ضعيف القوى في قومه، فشق ذلك على يعمر بن شداد بن عاد، وقال: "ليتني فديته بنصف ملكي"، وجاء بعمود آخر جحدر بن سنان الثمودي وكان قويًّا، فحمله من أسوان تحت إبطه، وجاء بقية رجالهم كل رجل بعمود، فأقام العمد السبعة، الجارود بن قطن المؤتفكي، وكان بناءها بعد أن اختاروا طالعًا سعيدًا كما هي عادتهم في عامّة أعمالهم، وقد ذكر غير واحد أن الصخور في القديم من الدهر، كانت تلين فعمل منها أعمدة ناعط،

---

(375) القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، ج1، ص146، 147، ابن محشرة: الاستبصار، ص100.

ومأرب، ويبنون مآثر اليمن، وأعمدة دمشق ومصر ومدين وتدمر، وأن كل شيء كان يتكلم.."[376].

ويمضي المقريزي في حديثه معلقًا على ذلك بقوله: "وكأني بمن قلَّ علمه ينكر عليَّ إيراد هذا الفصل، ويراه من قبيل المحال، وما وضعه القصاص، ويجزم بكذبه، فلا يوحشنك حكاية له، واسمع قول الله تعالى عن عاد وقوم هود: ﴿أَوَ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾. (**الأعراف: 69**)، أي طولاً وعظم جسم.. قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: كان أطولهم مئة ذراع وأقصرهم ستين ذراعًا، وهذه الزيادة كانت على خلق آبائهم، وقيل على خلق قوم نوح... كان رأس أحدهم مثل قبة عظيمة، وكانت عين الرجل منهم تفرخ فيها السباع، وكذلك مناخرهم.. كان الرجل ليحمل المصراعين لو اجتمع عليه خمسمئة من هذه الأمة لم يطيقه، وإن كان أحدهم ليغمز بقدميه الأرض فيدخل فيها... واستظل سبعون رجلاً من قوم موسى عليه السلام في قحف رجل من العماليق وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ (الفجر: 6- 8). وقال بعضهم: سموا ذات العماد لطول قاماتهم.. كان طول أحدهم اثنتي عشرة ذراعًا... وذكر غير واحد أنه وجد في خلافة المقتدر بالله أبي الفضل جعفر ابن المعتضد كنزًا بمصر فيه ضلع إنسان طوله أربعة عشر شبرًا في عرض ثلاثة أشبار..."[377].

---

(376) المقريزي: الخطط، ج1، ص160.

(377) المقريزي: الخطط، ج1، ص161.

وهكذا، حاول المقريزي، أن يلح على توكيد هذا الخبر بما فيه من الأساطير والخرافة -المدرك نكارتها لدى مطالعتها- موهمًا صحته، استنادًا إلى أقوال علماء التفسير واللغة ورواة الأخبار في عاد قوم هود، معتقدًا أن العلم والفهم ينفيان الارتياب فيه، بل فيهما الدليل على تصديقه، بيد أننا يجب أن لا نغفل حقيقة أن بعض الروايات التي يعدها البعض مجرد حكايات أسطورية قديمة لا يقبلها عقل أو نقل، يعتبرها آخرون من موقع فهمهم الديني وموقعهم الزمني حقيقة تاريخية لا جدال فيها، ويتلمس موظفوها كل سبيل تربطهم بما يحبه الناس وينقادون له من حكم وأمثال وأحاديث ومراجع علمية دينية، في محاولة من جانب المؤرخين تقديم رؤية متماسكة للأبعاد الزمنية الثلاثة: الماضي والحاضر والمستقبل، وتحتل الخرافة والأساطير مكان الصدارة من هذه المفاتيح الثلاثة.

وكان من السهل على رحالة ومؤرخي العصر تناقل الخرافات والأساطير بحذافيرها وترديدها كأمور مسلَّم بها، بل قد تتكرر الخرافة بعينها مع اختلاف الزمان والمكان وسردها بالأسانيد المختلفة، التي تحاول شرعنتها وتبريرها وتسويقها بانتقاء مجموعة من الأحاديث والأخبار وإسقاطها على الواقع والوقائع، خصوصًا أن الكثير من المؤرخين لم يميزوا بين القص والتأريخ، فكان أن امتزج لديهم القصص بالتاريخ، والخيال بالواقع، فإذا وضعنا في الاعتبار أن مصادرهم في معظمها كانت تعتمد على الروايات الشفاهية المأثورة، استطلعنا القول دون حذر كبير، أن هذه المادة التاريخية هي في آخر الأمر، مادة فولكلورية في المقام الأول، لما جُبِلَ عليه المؤرخون على معالجة التاريخ القديم معالجة أسطورية، التي نهج أصحاب المنهج التقليدي الذي يؤثر أصحابه أن يمهدوا لمؤلفاتهم بالحديث عن تاريخ البشرية منذ البدء، منذ هبوط آدم من الجنة حتى عصرهم الأمر

الذي جعل هذه الكتابات حافلة بالتاريخ الأسطوري[378]، ربما كان الاقتراب منها من المحاذير الكبرى آنذاك.

لكن نجد الرحالة "ابن خلدون" يسلك مسلكًا مغايرًا في مناقشة ما تفيضه الرواية على فراعنة وآثار مصر القديمة من الأساطير التي جرت في الرواية الإسلامية مجرى التواريخ. بل ليس في الرواية الإسلامية كلها في هذا الموضوع فصل كالذي يقدمه لنا فيه ابن خلدون من خلال مقدمته عن تلك الإشكالية البحثية التي واجهت علماء عصره، صورة بلاغية وعلمية نقدية من أقوى الصور وأبدعها نقدًا، فيقول: "وربما يتوهم كثير من الناس إذا نظر إلى آثار القادمين ومصانعهم العظيمة، مثل إيوان كسرى وأهرام مصر، وحنايا المعلقة، وشرشال بالمغرب، أنها كانت بقدرتهم متفرقين أو مجتمعين، فيتخيل لهم أجسامًا تناسب ذلك أعظم من هذه بكثير في طولها، وقدرها لتناسب بينها وبين القدر التي صدرت تلك المباني عنها، ويغفل عن شأن الهندام والمحال، وما اقتضته في ذلك الصناعة الهندسية وكثير من المتغلبين في البلاد يعاين من شأن البناء وأكثر آثار الأقدمين لهذا العهد تسميها العامَّة عادية، نسبة إلى قوم عاد لتوهمهم أن مباني عاد ومصانعهم إنما عظمت لعظم أجسامهم، وتضاعف قدرهم، وغير ذلك من المباني والهياكل التي نقلت إلينا أخبار أهلها، قريبًا وبعيدًا وتيقنًا أنهم لم يكونوا بإفراط في مقادير أجسامهم، وإنما هذا رأي ولع به القصاص عن قوم عاد وثمود والعمالقة.... وإنهم ليبالغون فيما يعتقدون من ذلك حتى إنهم ليزعمون أن عوج

---

(378) محمد رجب النجار: دراسة المأثورات الشعبية في التراث العربي (مجلة عالم الفكر، المجلد الحادي والعشرون، العدد الثاني)، ص182، ص183.

بن عناق[379] من جيل العمالقة كان يتناول السمك من البحر طريًّا، فيشويه في الشمس ويزعمون بذلك أن الشمس حارة في ما قرب منها.."[380].

هذه القصص مثل قصص أخرى أوردها الرحالة والمؤرخون في هذا السياق، تكشف عن مدى انبهار الناس بالحضارة المصرية القديمة من ناحية، كما تكشف عن عجزهم عن الوقوف على تاريخها الحقيقي من ناحية أخرى، كما أن بناءها الفني يفوح بأريج حكايات شعبية تشبه حكايات ألف ليلة وليلة وعالمها السحري، وفي رأي بعض الباحثين أن هذه الحكايات تهدف أساسًا إلى التسلية على الرغم من أنها تهدف إلى تحقيق غرض ثانوي آخر، وأنها محض خيال اختلقه الرواة. غير أن الراجح أن هذه الحكايات التي أوردها الرحالة المؤرخون لم تكن بقصد التسلية، وإنما كانت ترغب في تقديم إجابات "تاريخية" عن حضارة تليدة مضت، ولكن آثارها ما زالت ماثلة أمام عيون الناس، وعندما عجز المتعلمون عن العثور على إجابات تاريخية

---

(379) أسطورة عوج بن عناق: ترددت في التراث الشعبي الشفوي، كما ترددت في كتابات المؤرخين والمفسرين في التراث العربي المدوّن وارتبطت بقصة الطوفان كما ارتبطت بخروج بني إسرائيل من مصر، ودخولهم إلى أرض كنعان. وعنه يذكر ابن جرير الطبري (310هـ) في تاريخه عن الأمم والملوك، عند حديثه عن الطوفان أنه "لم يبق شيء من الخلائق إلا نوح ومن معه في الفلك، وإلا عوج بن عنق في ما يزعم أهل الكتاب". وذكره القزويني في كتاب (عجائب المخلوقات) تحت باب: "خاتمة في حيوانات غريبة الصور والأشكال"، فيقول: "كان الطوفان يصل إلى وسطه. وكان جبارًا في خلقته مفسدًا في أفعاله، وإذا غضب على أهل بلد بال عليهم فيغرقون في بوله.. وقد ضربه موسى بعصاه، فلم يلحق إلا كعبه فانصرع قتيلاً إلى الأرض، فكانت فخذة ساقه زمانًا طويلاً قنطرة على النيل". القزويني: عجائب المخلوقات، ص197، وانظر قصته في سفر يشوع (12/4- 5)، سفر العدد (23/21، 24، 25).

(380) ابن خلدون، المقدمة، ج2، ص782، 783.

حقيقية بدأ ترقيع هذا النقص عن طريق الخيال، بيد أن بعض هذه الحكايات عن أمجاد مصر القديمة كانت تحمل ظلاً، أو نواة، من الحقيقة التاريخية في غالب الأحوال[381]، مثال ذلك ما قدَّمه لنا الرحالة والمؤرخون عن وصف للكسوة الخارجية للهرم -التي كانت لم تزل بقاياها موجودة على أيامهم- ووصفهم للنقوش والكتابات التي تغطي أحجارها مقررين -في بعض الأحيان- أن تلك النقوش لو نقلت مصغرة على الورق لشغلت آلاف الصفحات.

فالأساطير والخرافات التي شاعت حول تلك الآثار ترجع بصفة أساسية إلى عدم معرفة أسرار الكتابة (الهيروغليفية)، التي كانت مدونة على تلك الآثار، وحين قام هيرودوت بزيارته لمصر (في القرن الخامس قبل الميلاد)، كان قد ندر استعمال الهيروغليفية كلغة مصرية، إلا في ما بين بعض الكهنة المحافظين الذين كانوا يعيشون أيامئذٍ، ولذلك فقد أصبحت هذه اللغة كالطلاسم تمامًا أمام كل من يفكر في قراءتها أو استجلاء معانيها، ومن هنا شاعت الأساطير والخرافات القديمة عن المصريين القدماء الذين صنعوا هذه الحضارة.

---

(381) قاسم عبده قاسم: بين التاريخ والفولكلور، ص59.

الفصل الخامس
كنوز وملوك مصر القديمة
في الأساطير العربية

".. ويبلغنا لهذا العهد عن أحوال القاهرة ومصر، من الترف والغنى في عوائدهم، ما يقضي منه العجب، حتى إن كثيرًا من الفقراء بالمغرب ينزعون إلى النقلة إلى مصر، لذلك لما يبلغهم من أن شأن الرفه بمصر، أعظم من غيرها. ويعتقد العامَّة من الناس أن ذلك لزيادة إيثار في أهل تلك الآفاق على غيرهم، أو أموال مختزنة لديهم، وأنهم أكثر صدقة، وإيثارًا من جميع أهل الأرض.."

ابن خلدون

(مقدمة ابن خلدون 805/2)

"ويقال إن غالب أرضها ذهبٌ مدفون، حتى قيل إنه ما فيها موضع إلا وهو مشغول بشيء من الدفائن".

ابن الوردي

(خريدة العجائب وفريدة الغرائب/ 32).

القصص والحكايات التي دارت في المجتمع المصري عن كنوز قدماء المصريين التي كانت مخبأة في مقابرهم ومعابدهم -التي لا تزال تكتشف كل حين إلى الآن- فقد كان بعضها حقيقيًّا، على حين حمل البعض الآخر رائحة المبالغة، وقد أوردها تقي الدين المقريزي تحت عنوان "ذكر الدفائن والكنوز التي تسميها أهل مصر

المطالب"[382]، وهي تسمية تكشف على أي حال عن أن هذا الموضوع كان يشغل الناس فترة طويلة من الزمان[383].

ويعرج بنا المقريزي إلى أحد العلوم التي تأسست في مصر بفضل كنوزها وهو "**علم الكنوز**"، وأن مفاتيح هذا العلم مخبأة في كنيسة القسطنطينية، في إشارة ربما للحث على ضرورة فتح القسطنطينية فيذكر: "... ويقال إن الروم لما خرجت من الشام ومصر اكتنزت كثيرًا من أموالها في مواضع أعدتها لذلك، وكتبت كتبًا بإعلام مواضعها وطرق الوصول إليها، وأودعت هذه الكتب قسطنطينية، ومنها يستفاد معرفة ذلك، وقيل إن الروم لم تكتب، وإنما ظفرت بكتب معالم كنوز من ملك قبلها من اليونانيين، والكلدانيين، والقبط، فلما خرجوا من مصر والشام حملوا تلك الكتب معهم وجعلوها في الكنيسة"[384].

وبهذا يقدم لنا المقريزي مصطلحًا، كما دعاه "**علم الكنوز**"، ووصفه بأنه وثائق كتبت فيها الأماكن التي أودعت الأموال والذخائر فيها، نقلها الروم لما خرجوا من مصر والشام وأودعوها كنيسة القسطنطينية، واختلفت الآراء في أصل تلك الوثائق، فرأيٌ يقول إنها وثائق الروم ورأيٌ يقول إنها آلت إليهم عن ملوك وحكام البلاد التي استعمروها من القبط واليونانيين والكلدانيين، وربما أمكن الربط بين هذا الرأي وبين ما هو معروف عن أمر البرديات، التي عُثر عليها، والتي حملت إلى أديرة أوروبا وكنائسها، وأن هذا الأمر يعود إلى زمن بعيد.

---

(382) الخطط، ج1، ص40- 42.

(383) قاسم عبده قاسم: بين التاريخ والفولكلور، ص59.

(384) المقريزي، المصدر السابق، ص40.

وكان انتشار أخبار تلك الكنوز وظهورها كفيلاً بأن يحاول الخيال الشعبي في مصر لتفسير **أسباب وجودها**، فيقول السيوطي: "إن فرعون كان يدخر من خراج مصر ربعًا، حيث يخرج منه ربع ما يصيب كل قرية من خراجها، فيدفن ذلك فيها لنائبه تنزل أو حائجة بأهل القرية، فكانوا على ذلك، وهذا الربع الذي يدفن هي كنوز فرعون التي يتحدث الناس أنها ستظهر فيطلبها الذين يبتغون الكنوز.."[385]، رآها البعض أنها "كنوز يوسف عليه السلام وكنوز الملوك قبله والملوك بعده، لأنه كان يكنز ما يفضل عن النفقات والمؤن لنوائب الدهر.."[386]، كما ذكر البعض أن "القوم كانوا على دين التناسخ، فاتخذوا الأهرام علامة لعلهم عرفوا مدة ذهابهم ومجيئهم إلى الدنيا بعلامة ذلك..."[387]، ورأى الخيال الشعبي أن سبب وجود تلك الكنوز هو "أن أهل مصر لا يزالون متمسكين بالمذهب الأرضي، ويدفنون أموالهم في الأرض.."[388]، كما أن مصر "من بين الأمصار فما برح نقدها (المنسوب إلى قيم الأعمال وأثمان المبيعات) الذهب خاصة، كل سائر دولها جاهلية وإسلامًا يشهد لذلك بالصحة أن مبلغ خراج مصر في قديم الدهر حديثه أنما هو الذهب"[389].

ما يهمنا هو أن محاولة تفسير وجود الكنوز في مقابر المصريين القدماء أضحى

---

(385) السيوطي: كوكب الروضة، ص136، المقريزي، الخطط، ج1، ص40، ص74.

(386) النواجي (شمس الدين محمد) (ت 888 هـ): حلبة الكميت في الأدب، والنوادر والفكاهات (سلسلة الذخائر، العدد 27، القاهرة 1998م)، ص296، المقريزي: الخطط 1، ج1، ص40.

(387) القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، ص269.

(388) سياحتنا مه مصر، ص238.

(389) المقريزي: إغاثة الأمة بكشف الغمة (سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة 1999م)، ص92.

مرتعًا لخيال المؤرخين والناس في ما سمعوه وما دونوه، معتمدين في ذلك على ما نقلوه من كتب القدماء، وما جمعوه من الموروث الشعبي المتداول، بيد أن بعضهم كاد أن يقترب من الحقيقة، التي ترتبط بعقيدة المصريين القدماء في الموت والحياة الأخرى، وفكرة الخلود، وطقوس الدفن، التي لم يتم التعرف على تفاصيلها سوى منذ فترة قصيرة نسبيًا، حيث فلسفة عقيدة الخلود لدى المصري القديم، التي كانت نتاجًا طبيعيًا لتأثير عوامل سياسة واجتماعية واقتصادية على العقل المصري، بحيث دفعته إلى إبداع تصوراته عن عالم خالد، أثَّر في رؤيته للحياة تأثيرًا عميقًا عاش فيه حتى اليوم.

ظلت كنوز مصر التي ورد ذكرها في القرآن الكريم: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ (الشعراء: 57، 58)، ظلت مرتعًا ومراحًا للخيال الشعبي الشغوف بكنوز السالفين، خصوصًا مع تواتر أخبارها في الكتابات التاريخية وغيرها، وحاول أن يتصور حجم تلك الكنوز ومثال ذلك ما قيل عن أن "في تلك الأهرام فنونًا من الذهب والفضة والكيمياء والزبرجد الرفيعة والجواهر النفيسة ما لا يحصله وصف واصف..."[(390)]، وأن بها الكثير "من التماثيل والعلوم والعجائب، والجواهر والأموال "، وأن "كنوزها لا تُحصى"[(391)]، لدرجة أن أوليا چلبي يقول: "وتحتوي الأراضي المصرية على كنوز عظيمة ودفائن جسيمة، وخبايا كثيرة، ومطالب عزيزة، وقد رُوي أنها ليس فيها موضع يخلو من كنز خفي"[(392)]، إذ إن فيها من "المطالب

---

(390) ابن محشرة: الاستبصار في عجائب الأمصار، ص55، القزويني، المصدر السابق، ص268.

(391) السيوطي، حسن المحاضرة، ج1، ص34، ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، ص69.

(392) سياحتنا مه مصر، ص238.

والكنوز ما لا يُحصى له عدد.."[393]، ولهذا "استخرج أهل مصر والإسكندرية من كنوزها وأموالها شيئًا كثيرًا، وقد استغنى بها بشر كثير هلك أكثرهم..."[394].

يكشف ابن خلدون عن الأصل في وجود ما عُرف بـ"**المطالب**"[395]، فيشير إلى معتقدات المصريين القدماء "القبط" بقوله "... وأما ما وقع في مصر من أمر المطالب والكنوز فسببه أن مصر في ملكة القبط منذ آلاف أو يزيد من السنين، وكان موتاهم يدفنون بموجودهم من الذهب والفضة والجواهر واللآلئ على مذهب من تقدم من أهل الدور، فلما انقضت دولة القبط، وملك الفرس بلادهم نقروا على ذلك في قبورهم، وكشفوا عنه فأخذوا من قبورهم ما لا يُوصف، كالأهرام من قبورهم مظنة لذلك العهد، ويعثر على الدفين فيها في كثير من الأوقات ما يدفنونه من أموالهم أو ما يكرمون به موتاهم في الدفن من أوعية وتوابيت من الذهب والفضة معدة لذلك، فصارت قبور القبط منذ آلاف السنين مظنة لوجود ذلك فيها واستخراجها، حتى إنهم حين ضربت المكوس على الأصناف آخر الدولة، ضربت على أهل المطالب، وصدرت ضريبة على من يشتغل بذلك من الحمقى والمهووسين"[396].

وتحدث ابن عبد الحكم عن الأمر فيقول: "زعم بعض مشايخ أهل مصر أن

---

(393) الزهري (عبد الله محمد بن أبي بكر): كتاب الجعرافية (تحقيق: محمد صادق، الثقافة الدينية، القاهرة 2000م)، ص39.

(394) الزهري: كتاب الجعرافية، ص47.

(395) المطالب واحدها مطلب، كلمة كان المصريون يطلقونها على الكنوز، وأشار المقريزي إلى أنها مستعملة لهذا المعنى إلى عهده. والقوم المطالبية هم الباحثون عن الكنوز.

(396) ابن خلدون: المقدمة (الجزء الثاني، طبعة مكتبة الأسرة، القاهرة 2006م)، ص842.

الذي كان يعمل به مصر على عهد ملوكها، أنهم كانوا يقرون القرى في أيدي أهلها، كل قرية بكراء معلوم، لا ينقص عليهم إلا في كل أربع سنين من أجل الظمأ، وتنقل اليسار، فإذا مضت أربع سنين نقص ذلك، وعدل تعديلاً جديدًا، فيرفق بمن يستحق الرفق، ويزداد على من يحتمل الزيادة، ولا يحمل عليهم من ذلك ما يشق عليهم، فإذا جُبِيَ الخراج وجُمِعَ، وكان للملك من ذلك الربع خالصًا لنفسه يصنع به ما يريد، والربع الثاني لجنده ومن يقوى به على حربه، وجباية خراجه، ودفع عدوه، والربع الثالث في مصلحة الأرض، وما يحتاج إليه من يسورها، وحفر خلْجها وبناء قناطرها، والقوة للمزارعين على زرعهم، وعمارة أرضهم، والربع الرابع يخرج من ربع ما يصيب كل قرى من خراجها، فيدفن ذلك فيها لنائبة تنزل أو جائحة بأهل القرية، فكانوا على ذلك، وهذا الربع الذي يدفن في كل قرية من خراجها هو كنوز فرعون التي تتحدث الناس بها أنها ستظهر، ويتطلبها الذين يتبعون الكنوز..."[397].

ويسترعي الانتباه ما تورده الروايات السابقة من أخبار التماس الناس وشغفهم بكنوز مصر وحرصهم على استخراجها حتى صار ذلك حرفه يحترفها بعض الناس، وانتهى الأمر بأن فُرضت على العاملين في هذا المجال المكوس والضرائب، كما تعطي لنا الروايات إشارات لما تصوره المؤرخون عن أخبار ذلك التنظيم الدقيق لأمور مصر ومرافقها على أيدي ملوك مصر القديمة، كدليل على إحساس المؤرخين بعظمة تلك الحضارة القائمة آثارها، وتصوروا أن وراء تلك الآثار كان لا بد من وجود إدارة حاكمة تراعي الرفق بالرعية والعناية الشديدة بأمر الأرض والبشر، من إصلاح

---

(397) ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب، ص49.

وتسوير، وحفر الترع والخلجان، وما كان يخصص لذلك من أموال، ثم ذلك التحسب والاستعداد لمواجهة الكوارث والنوائب التي قد تقع، وتخصيص الأموال الكافية لذلك، وادخارها في كل موقع على حدة، كما يلاحظ أن ابن عبد الحكم في روايته قد جعل الأصل في وجود الكنوز والمطالب تلك الحصة منذ الأموال التي كانت تُدفن في كل القرى تحسبًا للكوارث والنوائب، بينما اقترب ابن خلدون من بعض الحقائق التاريخية حين أشار إلى أن عقيدة المصريين هي التي دفعتهم إلى دفن كنوزهم معهم، وأشار إلى ذلك ابن ظهيرة في قوله: "كانوا يقولون بالرجعة، فكان إذا مات أحدهم دُفن معه ماله كائنًا من كان وإن كان صانعًا دُفنت معه آلته.."[398].

روايات المؤرخين عن دفن الأموال تحسبًا لنوائب الدهر، تكشف لنا عن التطور التاريخي والاجتماعي في شخصية الشعب المصري، الذي عمد إلى إخفاء ما يراه ذا قيمة لديه بعيدًا عن أعين الناس والولاة والحكام لتتجلى لنا بعض القسمات والملامح التي تبرز شخصية الناس في مصر بكل مقوماتها بين الشخصيات الجماعية الأخرى، وتكشف عن مدى الخوف والكبت، اللذين دفعا الناس إلى عمل الحفر العميقة، لإخفاء أموالهم، لدرجة أثارت انتباه المؤرخين في قول أحدهم: "إن أرض مصر لا يوجد بها ذراع مكية واحدة خالية من كنز من الكنوز القديمة، ويظهر فيه كل سنة حتى الآن دفائن عدة وكنوز ثمينة"[399]، لأن أهلها لا يزالون متمسكين بالمذهب الأرضي ويدفنون أموالهم في الأرض"[400]، والذاكرة الشعبية لم تنس بعد الحكايات

---

(398) ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، ص156.

(399) أوليا چلبي: سياحتنا مه مصر، ص605.

(400) نفسه، ص238.

الكثيرة، عن القدور التي يعثر عليها فجأة، وفيها سكة الذهب والفضة، ضربت في عصر بيننا وبينه قرون وقرون، ولا تزال ألسنتنا تستعمل إلى اليوم عبارات تدل على هذه الصورة، وهي (**إخراج ما تحت البلاطة**)، وكأن هذه الحيلة نتيجة ظروف تاريخية، ووسيلة حماية مقصودة، وتتصل بالتطور التاريخي للبلاد، وهذا ما يزيد من أهميتها بوصفها جزءًا من تطور الظروف السياسية والاجتماعية والثقافية لمصر[401]، وقد لفتت نظر المؤرخ الإسحاقي رواية تؤيد ما ذهبنا إليه، حتى إنه أوردها بالكامل، ليدخل بها إلى صميم التاريخ العربي لمصر من بوابات الأسطورة فيقول: "عندما دخل عمرو بن العاص، قال لقبط مصر من كتم كنزًا عنده لأقتلنَّه، وحدث أن قبطيًّا من أهل الصعيد يقال له بطرس علم عمرو أن عنده كنزًا، فأرسل إليه فسأله عنه، فأنكر وجحد فحبسه، وصار يسأل عن أحد فقالوا له لا ولكن سمعناه يسأل عن راهب في الطور، فأرسل عمرو إلى بطرس، فنزع خاتمه ثم كتب إلى ذلك الراهب أن ابعث لي بما عندك، وختم الكتاب بختم بطرس فجاء المرسل بقلة شامخة مختومة بالرصاص ففتحها عمرو فوجد فيها مكتوبًا: مالكم تحت الفسقية الكبيرة، فأرسل عمرو إلى دار بطرس وحبس الماء عن الفسقية، فوجد فيها اثنين وخمسين إردب ذهب مضروبة، فضرب عمرو رأس بُطْرس، وأخذ المال جميعًا فعند ذلك أَخْرَجت القبط كنوزهم شفقة على

---

(401) كلوت بك: لمحة عامَّة إلى مصر (الجزء الأول، ترجمة/ محمد مسعود، مطبعة أبي الهول، القاهرة، د.ت)، ص521، عبد الحميد يونس: مجتمعنا (سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة 1998م)، ص114، حسين مؤنس: الحضارة، ص374، عمرو عبد العزيز منير: العمران في مصر في القرنين السادس والسابع الهجريين دراسة مقارنة في كتابات الرحالة (رسالة ماجستير غير منشورة كلية الآداب، جامعة الزقازيق 2004م)، ص285، 286.

أنفسهم.."[402]، ولا نسوق هذا النص للتدليل على أن عددًا من أهل الذمة كانوا قد أحرزوا ثروات كبيرة، وإنما لنشير إلى تداخل عناصر عديدة لإخفاء الأموال لدى العامَّة -خصوصًا الفقراء والطبقة المتوسطة- مع العامل السابق، كالخوف من طمع وبطش الحاكم أو الخوف من الحسد وطلب الستر وما إلى ذلك، حتى أصبحت لازمة شعبية تظل باقية رغم اختفاء السبب أحيانًا، وإذا أضفنا تراث التَّقيَة الفاطمي أو الشيعي (التقية بتشديد مع فتح التاء والياء) إلى ذلك اتضح عمق هذا الأسلوب، وتقضي التقية أن يكتم المرء (ذهبه ومذهبه وذهابه)[403]، أي لا يبدي أو لا يظهر أيًّا منها، وربما أسهمت الحركة الديرية المصرية هربًا من الاضطهاد البيزنطي في تعميق ذلك أيضًا، وحسْبُنَا ما أشار إليه موفق الدين بن عثمان في قوله: "قال بعض المؤرخين كان رجلٌ بمصر يسمى عفان بن سليمان المصري، قد وجد في داره مالاً مدفونًا، فصار عفان يتصدق من المال على الفقراء"[404].

وقدمت لنا النصوص التاريخية -دون قصد- وصفًا لهيئة "المطالبية" الذين احترفوا مهنة البحث عن كنوز مصر ودفائنها، يشير إليهم البلوي كاتب سيرة أحمد بن طولون بقوله: "وحدث نسيم الخادم قال: ركب مولاي -أحمد بن طولون- يومًا إلى

---

(402) الإسحاقي المنوفي: أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول، ص105، الحميري: الروض المعطار، ص554.

(403) ميكل ونتر: المجتمع المصري تحت الحكم العثماني (ترجمة إبراهيم محمد إبراهيم، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة 2007م)، ص16.

(404) موفق الدين بن عثمان: مرشد الزوار إلى قبور الأبرار (تحقيق: محمد فتحي، الطبعة الأولى، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة 1995م)، ص182.

الأهرام، فأتاه الحجاب بقوم عليهم ثياب صوف، وفي أيديهم مساح ومعاول، فسألهم عما يعملون، فقالوا: نحن قوم نطلب المطالب، فقال لهم، لا تخرجوا بعد هذا الوقت إلا بمنشور ورجل من قبلي يكون معكم، فقالوا له: سمعًا وطاعة للأمير، أيده الله، فسألهم عما رُفع إليهم من الصفات، فذكروا له أن في سمت الأهرام مطلبًا قد عجزوا عنه، لأنهم يحتاجون في إثارته إلى جمع كبير، ونفقات واسعة، فإن فيه مالاً عظيمًا، فنظر مولاي إلى شيخ من أصحابه يعرف بالرافقي من أهل الثغر فضمه إليهم، وتقدم إلى عامل معونة الجيزة فيدفع جميع ما يحتاجون إليه من الرجال والنفقات"[405].

كان "المطالبية" إذن جماعة من الناس لهم ثيابهم الخاصة، ومعهم أدواتهم التي يستعينون بها على أداء عملهم "المساحي" و"المعاول" يطلبون المطالب، وكانوا قد تجمعوا وكوَّنوا فريقًا يمارس عمله بعيدًا عن أعين الحاكم، إلى أن علم بذلك أحمد بن طولون، فأمرهم أن لا يمارسوا عملهم ذاك إلا بعد أن يأذن لهم، ويعيِّن من رجاله من يراقب عملهم، ويمكن القول: إن هذه أول إشارة إلى ما يمكن اعتباره تنظيمًا رسميًّا لعملية التنقيب عن المطالب "الكنوز والآثار".

وهكذا، أصبح البحث والتنقيب يمارس تحت سمع وبصر الحاكم، إضافة إلى ذلك، فقد كشفت لنا الكتابات التاريخية حجم المحنة التي واجهت الآثار المصرية من جراء ما قام به الناس وشاركهم في ذلك الحكام، وشراهتهم في البحث عن الآثار

---

(405) البلوي (أبو محمد عبد الله بن محمد المديني البلوي): سيرة أحمد بن طولون (تحقيق: محمد كرد علي، سلسلة الذخائر، العدد 55 القاهرة 1999م)، ص194، 195، المقريزي: الخطط، ج1، ص41، ابن سعيد الأندلسي: المغرب في حُلى المغْرِب ص98.

والتنقيب، والعبث بها، لا حبًّا في كنوزها فحسب بل سعيًا وراء أحجار المعابد والمباني الأثرية القديمة، لاستعمالها في بناء مساجدهم وعمائرهم، والحق أن هذا العبث لم يكن جهلاً، منهم بقيمة تلك الآثار ودلالتها العظيمة فحسب، ولكنهم وجدوا فيها مصدرًا للثروة والمال الذي كانوا في أشد الحاجة إليه لتعمير المدن والأمصار، وتشييد العمائر وإعداد الجيوش، بفضل كنوز مصر التي اشتهرت بها، لدرجة أن ابن الوردي يلمح إلى ذلك بقوله: "مصر خلد الله ملك سلطانها، من خصائصها كثرة الذهب والدنانير، وكان يقال في المثل السائر ما معناه: من دخل مصر ولم يستغن فلا غناه الله.."[406]، "فخراج مصر في قديم الدهر وحديثه إنما هو الذهب"[407]، كما كان العبث بدفائن المصريين القدماء إلى جانب الذهب والكنوز، هو الاعتقاد الذي شاع في العصور الوسطى بين عدد من الشعوب، بأن قليلاً من طحين أو مسحوق، مومياء مصرية قديمة كفيل بشفاء جميع الأمراض مهما كانت مستعصية، وقد أشار إلى ذلك "الحميري" في سياق حديثه عن مدينة قوص بقوله: "منحوت في جبال منها قبور الأموات، لا يعلم لها عهد، تستخرج منها المومياء الطبية، وهم يجدونها في رممهم وبين أكفانهم"[408]، وكان الطبيب العربي ابن سينا هو الذي ذكر المومياء ودافع عن استخدامها في علاج عدد من الأمراض، منها "الخرّاج، والطفح الجلدي، والكسور، وارتجاج المخ، والشلل، واضطراب نبض القلب، واضطرابات الطحال والكبد"، وكانت

---

(406) ابن الوردي: خريدة العجائب، ص205.

(407) المقريزي: إغاثة الأمة بكشف الغمة (تحقيق: ياسر سيد، الطبعة الأولى، مكتبة الآداب، القاهرة 1999م)، ص55.

(408) الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص485.

وصفته ينبغي أن تُؤخذ (على فرض جعل طعمها سائغًا) في خلطة من النباتات مثل: البردقوش، والزعتر، والبلسان، والشعير، والعدس، والزعفران، والقرفة الصيني، والبقدونس. ووردت وصفة ابن سينا عن مسحوق المومياء ضمن **de virileus cordis** في قائمة مكتبة سان ماركو في فلورنسا، سنة 1444م، ومنذ القرن الحادي عشر، كان بعض العلماء العرب الكبار يعزون قيمة المومياء العلاجية إلى اللحم المحنط فعلاً، وقد شاع هذا المفهوم عن المومياء في أوروبا في العصور الوسطى، وقد ذكر استخدام المومياوات كعلاج "جاي دي شاڤيللاك" **guy DE CHAVILLAC**، الذي كان جراح البابا كليمنت السادس سنة 1363م. ولقي هذا العلاج شعبية واسعة، وكان مادة قيمة من مواد التجارة، ويباع عبر أسواق المسكنات، وعلاج الجروح. وصارت الجبانات المصرية القديمة مقصدًا جديدًا كان يذهب إليه بعض المسافرين إلى القاهرة، بحثًا عن بضائع القبور والمومياوات قبل وبعد القرن السادس عشر فصاعدًا[409].

وحفلت المصادر التاريخية بالقصص التي تصور اهتمام الولاة والحكام الذين تولوا أمر مصر بتلك المطالب والدفائن، ومشاركتهم في البحث عنها، وما اكتنف ذلك من أخطار وأحداث مثيرة امتزجت فيها الوقائع والحقائق بالخيال في تعانق حميم، وأخذ المطالبية يعبثون في الأرض فسادًا وفي الآثار تخريبًا بحثًا عن الكنوز والدفائن، واتخذوا من تجارتهم حرفة تدرُّ عليهم الرزق من أسهل الطرق وأحقرها، لدرجة أثارت سخط وحنق بعض المؤرخين والرحالة، فقد وصف أحدهم ذلك

(409) آن وولف: كم تبعد القاهرة؟، ص253- 255.

العدوان الجائر بقوله: "وقد كان هذا البيت -المعبد- مُمكنًا على قواعد من حجارة الصوان العظيمة الوثيقة، فحفر تحتها الجهلة والحمقى طمعًا في المطالب فتغير وضعه وفسد هندامه.."[410].

هذا الوعي الحضاري النادر بين علماء ذلك الزمان، الذي أملته على البغدادي نزعته العلمية الغيورة على آثار الحضارات القديمة المجسدة لأسرار التاريخ الإنساني، لم يستمر للأسف، إذ عادت الجهالة والخرافة وضيق الأفق إلى صدارة الوعي التاريخي عند الولاة والحكام وعامة الناس.

ويمكن القول إن من أحد أسباب العدوان الجائر على آثار مصر هو الأخبار الرائجة عن "المطالب"، التي وصلت إلى الناس عبر الأساطير والحكايات الشعبية والأخبار عن حضارات العالم القديم، وكنوزها المخبوءة في باطن الأرض، الذي يمكن لعارفي علوم الأقدمين والسحرة الوصول إليها، ويقف بنا البغدادي على أسباب هوس الناس بهذه الآثار في قوله: "رأوا آثارها الهائلة وراعهم منظرها، وظنوا ظن السوء بمخبرها، وكان جُلُّ انصراف ظنونهم إلى معشوقهم وأجلُّ الأشياء في قلوبهم، وهو الدينار والدرهم..."[411].

وعرض البغدادي لمظاهر الخرافات والأساطير التي سيطرت على ألباب وقلوب الناس في ما يتعلق "بالمطالب" بقوله: "كل شيء رآه ظنه قدحًا، وإن رأى ظل شخص ظنه الساقي، فهم يحسبون كل علم يلوح لهم أنه علم على مطلب، وكل

---

(410) البغدادي: الإنادة والاعتبار، ص101.

(411) البغدادي: المصدر السابق، ص107.

شيء مفطور في جبل أنه يفضي إلى كنز، وكل صنم عظيم أنه حاصل لمال تحت قدميه، وهو مهلك عليه، فصاروا يعملون الحيلة في تخريبه ويبالغون في تهديمه، ويفسدون صور الأصنام إفساد من يرجو عندها المال، ويخاف منها التلف، وينقبون الأحجار نقب من لا يتمارى أنها صناديق مقفلة على ذخائر، ويسربون في فطور الجبال سروب متلصص قد أتى البيوت من غير أبوابها، وانتهز فرصة لم يشعر غيره بها"[412].

نهم الناس وأحلامهم في الثراء السريع بفضل هذه المطالب أدّى إلى أزمة اجتماعية واقتصادية صبت في خانة الخصم من رصيد المجتمع المصري الأخلاقي لا الإضافة إليه، إذ يقول البغدادي: "... مَن كان من هؤلاء له مال أضاعه في ذلك – المطالب– ومن كان فقيرًا قصد بعض المياسر، وقوي طمعه وقرب أمله بأيمان يحلفها له، وعلوم يزعم أنه استأثر بها دونه، وعلامات يدَّعي أنه شاهدها حتى يخسر عقله، وماله، وما أقبح بعد ذلك مآله..."[413].

ويكشف لنا (ابن خلدون) إلى أي حد سيطرت الخرافة والأساطير على عقول الناس في ما يتعلق بالبحث عن الذات من خلال المال والثراء، للخروج من شرنقة الفقر المدقع والقمع الذي يعاني منه الناس من جراء سطوة الولاة والحكام. فيقول: "اعلم أن كثيرًا من ضعفاء العقول في الأمصار يحرصون على استخراج الأموال من تحت الأرض، ويبتغون الكسب من ذلك، ويعتقدون أن أموال الأمم السالفة مختزنة

---

(412) نفسه، ص107.

(413) نفسه، ص108.

كلها تحت الأرض مختوم عليها كلها بطلاسم سحرية، لا يفض ختامها ذلك إلا من عثر على علمه واستحضر ما يحله، من البخور والدعاء والقربان"[414]. ويوضح أن الدافع وراء ذلك أنهم: "يترقبون إلى أهل الدنيا بالأوراق المتخرمة الحواشي إما بخطوط عجمية، أو بما ترجم بزعمهم منها من خطوط أهل الدفائن، بإعطاء الأمارات عليها في أماكنها يبتغون بذلك الرزق بما يبعثونهم على الحفر والطلب ويموهون عليهم بأنهم أنما حملهم على الاستعانة بهم طلب الجاه في مثل هذا حتى يكونوا بمأمن من منال الحكام والعقوبات... فيولع كثير من ضعفاء العقول بجمع الأيدي على الاحتفار، والتستر فيه بظلمات الليل مخافة الرقباء وعيون أهل الدولة، فإذا لم يعثروا على شيء ردوا ذلك إلى الجهل بالطلسم الذي ختم به على ذلك المال ويخادعون به أنفسهم عن إخفاق مطامعهم.."[415]. ويضيف ابن خلدون إلى أسباب هذا السعي وراء ذلك الوهم البعيد إلى أن "الذي يحمل على ذلك في الغالب زيادة على ضعف العقل، إنما هو العجز عن طلب المعاش بالوجوه الطبيعية، للكسب عن التجارة والفلح والصناعة، فيطلبونه بالوجوه المنحرفة.. ولا يعلمون أنهم يوقعون أنفسهم بابتغاء ذلك من غير وجهه في نصب ومتاعب وجهد شديد أشد من الأول، ويعرضون أنفسهم بابتغاء مع ذلك لمنال العقوبات..."[416].

ما يهمنا هنا هو وقوف الرحالة ابن خلدون والبغدادي على مدى انبهار الناس بالحضارة المصرية والقديمة من ناحية، كما تكشف عن العوامل الاقتصادية

---

(414) ابن خلدون: المقدمة، ج2، ص838.

(415) المقدمة، ص839.

(416) ابن خلدون: المصدر السابق، ص839.

والاجتماعية التي دفعت بالناس إلى العبث في ركام الماضي للنجاة من قسوة حاضرهم ومستقبلهم، مستعينين في ذلك بالخرافات والأساطير التي يستحضرونها لملء فراغ الجوع، فيقول ابن خلدون موضحًا أن "من سكان الأمصار الكثيرة الترف المتسعة الأحوال، مثل مصر، وما في معناها فنجد الكثير منهم مغرمين بابتغاء ذلك وتحصيله ومساءلة الركبان عن شواذه، كما يحرصون على الكيمياء، هكذا بلغني عن أهل مصر في مفاوضة من يلقونه من طلبة المغاربة لعلهم يعثرون منه على دفين أو كنز، ويزيدون على ذلك البحث عن تغوير المياه، لما يرونه أن غالب هذه الأموال الدفينة كلها في مجاري النيل، وأنه أعظم ما يسترد دفينًا أو مختزنًا، في تلك الآفاق، ويموه عليهم أصحاب تلك الدفاتر المفتعلة في الاعتذار عن الوصول إليها بجرية النيل، تسترًا بذلك من الكذب حتى يحصل على معاشه، فيحرص بما مع ذلك منهم على نضوب الماء بالأعمال السحرية لتحصيل مبتغاه من هذه كلفًا بشأن السحر متوارثًا، في ذلك القطر عن أوليه، فعلومهم السحرية وآثارها باقٍ بأرضهم في البراري وغيرها وقصة سحرة فرعون شاهدة باختصاصهم بذلك"[417].

بيد أن الفقر الذي كانت تعيش فيه الطبقات الشعبية هو الذي فجّر خيالها في ما يمكن أن يكون مختفيًا تحت الأرض من كنوز، وكانت مصر هي المنبع الواضح لهذا الخيال حول الكنوز، وحول ما تحت الأرض من أشياء فيها الثراء أو قد يكون فيها مغامرات تنتهي إلى الثراء، فالذي لا شك فيه أن المصريين من قدیم كانوا يحفرون في الأرض ويجدون آثار الفراعنة التي تكون كنوزًا حقة، التي تفتح لهم أبواب الثراء

(417) نفسه، ص841.

الملموس، بل إننا إلى اليوم نجد هذا الاعتقاد في الكنوز متفشيًا في جهات مصر التي دلت الحفريات العلمية والأثرية على وجود كنوز حقيقية مدفونة في أرضها، والظاهر أن أهل مصر شهروا بذلك من قدم بين غيرهم من الأمم الإسلامية[418]، فنسبوا إلى مصر السحر، وجعلها ابن النديم في كتابه (الفهرست) بابل السحرة، حيث يتكلم عن كتب السحر فيقول: "وهذا الشأن ببلاد مصر وما والاها ظاهر، والكتب فيه مؤلفة كثيرة موجودة، وبابل [منادل] السحرة بأرض مصر، قال لي من رآها: "بها بقايا ساحرين وساحرات، وزعم الجميع من المعزمين والسحرة أن لهم خواتيم وعزائم ورقيّ وصنادل وجراب ودخن وغير ذلك مما يستعملونه في علومهم"[419]، بل إن ابن النديم ينسب إلى أهل مصر نوعًا خاصًّا من السحر هو الطلسمات فيقول: "والطلسمات بأرض مصر والشام كثيرة ظاهرة الأشخاص، غير أن أفعالها قد بُطلت لتقادم العهد"[420].

والثابت أن مصر شهرت في أول الأمر بالسحرة والساحرات خاصة، وكان ذلك في ما يظهر صدى لقصة موسى وفرعون، ولكن هذه الظاهرة التي ما زالت ترى إلى اليوم، وهي استطاعة الفقراء أن يجدوا تحت الأرض كنوزًا حقة من قبور الفراعنة، قد صبغت هذا الصيت بلون آخر هو وأن الكنوز والطلاسم وما يتعلق بها مما يدل

---

(418) سهير القلماوي: ألف ليلة وليلة (مكتبة الأسرة، القاهرة 1997م)، ص159.

(419) ابن النديم: الفهرست (الجزء الأول تحقيق: محمد عوني، إيمان جلال، سلسلة الذخائر، العدد 149، القاهرة 2006م)، ص309.

(420) الفهرست، ص309.

على ناحية خاصة من القدرة السحرية[421]، وبذلك أفسح سحرة مصر في كتابات المؤرخين مكانًا هامًّا للكنوز لتلعب دورها في المخيلة الشعبية، لينعكس أثر هذا كله على رؤية الناس لتاريخ مصر القديم، غير أن لانتشار الظن برصد الكنوز بواسطة قوى خفية سببًا جوهريًّا غير هذا الذي ذكره ابن خلدون وغيره من المؤرخين، ففي المجتمع الذي لا تتاح فيه الحياة الكريمة، يهرب الناس من مواجهة مشكلاته، ومنها مسألة الحصول على الثروة، إلى تخيلات وأوهام، فما أيسر أن يعيش الوهم باستطاعة الحصول على كنز متى ألقيت التعزيمة المناسبة والبخرَة المطلوبة، وما أيسر هذا بالنسبة إلى إبداء جهد إيجابي في سبيل كفالة الحياة المستقرة الرخّية.

هذا الهرب نجده سائدًا في القصص الشعبية، حيث يرسم القاص البطل وقد حصل على المال بغير جهد، فهو يلقاه كل صباح "تحت سجادة الصلاة" أو الوسادة، شأنه شأن البطل الذي يقطع الآماد على بساط سحري حين كان الانتقال من بلد لآخر مشقة عظيمة، فذلك كله حلم ومنى ليس لهما من الواقع أصل، فكل مجهول لدى العامّة من الناس، وكل عقبة كؤود، في بطن الأرض أو خرابها أو موحشها، وفي تلك الأوضاع الاجتماعية شديدة الوطأة، يتولد الوهم وتُنسج الأسطورة وتغذيها وتقوم الأوضاع الاجتماعية الضاغطة بحماية هذا المعتقد وتعضد فكرة فتح الكنوز بواسطة السحر[422]، خصوصًا أن المصريين القدماء كانوا يدفنون مع موتاهم نفائسهم وكنوزهم، وكانت قبورهم في المخيلة الشعبية محوطة بسوار من

(421) سهير القلماوي: المرجع السابق، ص160.

(422) أحمد رشدي صالح: الأدب الشعبي (سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة 2002م)، ص144، 145.

الأسطورة.وأموالهم كانت (مرصودة)، في ما يظنون، ولكن كثيرًا ما اقتحم أصحاب السلطة هذا السوار واستحلوا النفائس، وفعل مثلهم أصحاب البأس من اللصوص، ولا ريب في أن امتلاك تلك الكنوز بالغصب قد أثار لدى العامَّة المجردين من الحول والسلطة الأمل في الحصول على ما قد يكون خافيًا منها.

التنقيب عن كنوز أهل مصر القدامى، وهدم وتخريب آثارهم، كان مجالاً لتفكير **ولاة وحكام مصر**، حيث غلبت على أكثرهم فكرة وجود كنوز مدفونة فيها، وبحسب رواية الرحالة عبد اللطيف البغدادي، فقد حاول عثمان بن صلاح الدين الأيوبي هدم واحد من الأهرام الصغيرة ليستعمل حجارته في بعض مشاريعه العمرانية، ولكنه اضطر إلى العدول عن هذه المحاولة الصعبة المنال، "لم ينالوا بغية، ولا بلغوا غاية، بل كانت غايتهم أن شوهوا الهرم وأبانوا عن عجز وفشل"[423]، ورأينا الخليفة المأمون يرسل جيوشًا من الحفارين، للبحث والتنقيب حتى استطاع بعضهم دخول الهرم الأكبر في عهده، "فإذا خراج مصر وغيرها من الأرض لا يفي بقلعها وهي من الحجر والرخام.. رغم أن الهدم أيسر من البناء والتفريق أيسر من التأليف"[424]، ولم يقتصر الأمر على ذلك بل أدى إلى هدم مدن بكاملها من جراء ذلك مثل "عين شمس التي يُحمل منذ أول الإسلام حجارتها إلى غيرها من البلاد وما تُفنى"[425].

---

(423) البغدادي:الإفادة والاعتبار، ص94، ص95.

(424) ابن حوقل: صورة الأرض، ص136. ابن محشرة: الاستبصار، ص56. البغدادي: الإفادة والاعتبار، ص92. الإسحاقي المنوفي: أخبار الأول، ص109. ابن خلدون: المقدمة، ج2، ص785. الأقفهسي: أخبار نيل مصر، ص63. أوليا چلبي: سياحتنا مه مصر، ص618.

(425) القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، ج1، ص225.

يورد المؤرخون العديد من القصص والسماعيات حول محنة الآثار المصرية في عهد **عبد العزيز بن مروان** عامل مصر في عهد أخيه عبد الملك بن مروان، فيقول المقريزي: "عندما كان عبد العزيز بن مروان واليًا على مصر في خلافة أخيه عبد الملك بن مروان جاءه رجل وقال له بالمقبرة الفلانية كنز عظيم، وقدم الدليل على صدق كلامه، فأمر عبد العزيز بنفقة لأجرة من يحفر من الرجال، وبدأت تظهر تحت الحفر بلاطات من رخام ومرمر إلى أن ظهر عمود من الذهب، على أعلاه ديك عيناه ياقوتتان تساويان ملك الدنيا، وجناحاه مضرجان بالياقوت والزمرد، ورأسه على صفائح من الذهب على أعلى ذلك العمود، فأمر له عبد العزيز بنفقة لأجرة من يحفر من الرجال في ذلك... ثم انتهوا في حفرهم إلى ظهور رأس الديك فبرق عند ظهوره لمعان عظيم... ولاحت منها تماثيل وصور أشخاص من أنواع الصور الذهب.. فركب عبد العزيز بن مروان حتى أشرف علىٰ الموضع فنظر إلى ما ظهر من ذلك فأسرع بعضهم ووضع قدمه على درجة نحاس ينتهي إلى ما هناك، فلما استقرت قدماه على المرقاة ظهر سيفان عاديان عن يمين الدرجة وشمالها فالتقيا على الرجل فلم يدرك حتى جزآه قطعًا، وهوى جسمه سفلاً فلما استقر جسمه على بعض الدرج، اهتز العمود، وصفر الديك صفيرًا عجيبًا سمع من كان البعد من هناك وحرك جناحيه، وظهرت من تحته أصوات قد عملت بالكواكب والحركات، إذا مال وقع على بعض تلك الدرج شيء أو مسها شيء انقلبت فتهاوى من هناك من الرجال إلى أسفل تلك الحفرة، وكان فيها من يحفر ويعمل، وينقل التراب، وينظر ويحول ويأمر وينهي نحو ألف رجل فهلكوا جميعًا، فخرج عبد العزيز، وقال: هذا ردم عجيب الأمر، ممنوع النيل نعوذ بالله

منه، وأمر جماعة من الناس فطرحوا ما أخرج من هناك من التراب على من هلك من الناس، فكان الموضع قبرًا لهم.."[426].

هذه القصة ربما كانت تحمل ظلاً من الحقيقة، مثل انهيار الحفر أو سقوط بعض العمال داخل إحدى مقابر قدماء المصريين، التي اعتادوا نحتها في أعماق بعيدة تحت سطح الأرض، مثل مقابر وادي الملوك، على الضفة الغربية للنيل بمدينة الأقصر، التي حرص المصريون القدامى على عمل أبواب تمويهية لمقابرهم، وافتعال فخاخ للصوص، وربما كانت تلك الفخاخ وراء حدوث بعض الإصابات، ثم حولتها مبالغات الرواة الشفوية إلى هذا النمط من القصة، التي تتميز بالحبكة الفنية، على الرغم من أن بطلها الأساسي شخص تاريخي حقيقي هو عبد العزيز بن مروان أحد ولاة مصر في العصر الأموي. وعلى أي حال فإن علماء الآثار المصرية الأجانب روجوا خلال القرن الماضي وهذا القرن عددًا من القصص حول ما سموه "لعنة الفراعنة"[427]، التي أولع بها الخيال الشعبي في مصر وروَّج لها وأعادت إلى الأذهان

---

(426) الخطط، ج1، ص40 ص41.

(427) مؤخرًا، رأى العلماء أن "لعنة الفراعنة" ربما تكون بالفعل هي جراثيم الأتربة التي اكتشفها علماء الأحياء الدقيقة في المومياوات المصرية، وهذه الجراثيم يمكنها البقاء آلاف السنوات في مكان مظلم وجاف، معظمها غير مؤذٍ، غير أن بعضها يمكن أن يكون سامًّا وربما تكون هذه الجراثيم خرجت للهواء عندما فتحت المقابر للمرة الأولى، ودخلت أجساد الذين فتحوا المقابر عبر الأنف أو الفم، أو العينين، وربما يؤدي الضرر الذي تحدثه هذه الجراثيم إلى الفشل العضوي والوفاة، خصوصًا بالنسبة إلى هؤلاء الذين يعانون من ضعف أجهزة المناعة لديهم، ويُقال إن هوارد كارتر مكتشف مقبرة "توت عنخ آمون" عام 1922م، لاحظ وجود فطريات بنية اللون تغطي الجدران الداخلية لمقبرة "توت عنخ آمون"، وعقب افتتاح المقبرة بوقت قصير، بدأت قصة تنتشر فحواها أن لعنة أصابت كل من تورط في إقلاق نوم الفرعون، ووفقًا لرواية هوارد كارتر، عثر على لوحة طينية نقش عليها "الموت يأتي على أجنحة من يقلق نوم الملوك"، واللوحة نفسها لم تدرج في قائمة محتويات المقبرة، ولا يوجد بأي حال

الحكايات الشعبية حول الكنوز المرصودة التي تدور في القصص والسِّيَر العربية.

ساعد ما كتبه الرحالة والمؤرخون وما شاع بين الناس طوال العصور الإسلامية على رواج الاعتقاد بقدرات وقوى خفية وطلاسم كائنة في آثار الحضارة المصرية القديمة، وكان من الطبيعي أن يستجيب العامَّة من الناس لهذه القصص الخيالية، وأن ينشغلوا بها وبقائليها انشغالاً عظيمًا، لا سيما في عصور بحث الناس فيها عن العجيب والغريب، وتلبستهم الخرافة وصدقوها وتحولت أُطر قرارات الناس بنصيحة قارئ الكف أو ضاربة الودع، وتبحث عن السعادة في الطالع، وتؤطر حياتها بالسحر والأساطير، التي برع في حياكتها المصريون منذ القدم. وساد الاعتقاد بين الناس –وما زال– عن وجود رابط سحري غامض بين المصريين القدماء والسحر والغموض في ظاهرة عجيبة تختلط فيها الأساطير بالمعتقدات الخاطئة أحيانًا، ولكن ذلك لا ينفي حقيقة أن المصريين القدماء هم الذين خططوا لبقاء هذا الارتباط بمعرفتهم المذهلة لعلم الفلك "فمصر بلد العلم والحكمة من قديم الدهر ومنها خرج العلماء الذين عمروا الدنيا"[428].

والقصص التي تدور حول هذا الموضوع كثيرة، ولكنها تشترك جميعًا في صفة واحدة هي المبالغة التي تعكس الانبهار بالحضارة المصرية القديمة، التي تنسب الكثير من منجزات هذه الحضارة إلى أعمال السحر والخوارق. ونجد عددًا لا بأس به أورده

احتمال إلا في خيال كارتر، ولم يذكر خبراء المصريات والآثار شيئًا عن الدليل على وجود اللوحة، ومع ذلك سارعت التقارير الصحفية إلى التأييد، وروجت لفكرة لعنة المومياء المصرية الأسطورية الجذور. انظر، آنا رويز: روح مصر القديمة (ترجمة/ إكرام يوسف، سلسلة المشروع القومي للترجمة، العدد 965، القاهرة 2005م)، ص209، قاسم عبده قاسم: بين التاريخ والفولكلور، ص60– 61.

(428) ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، ص84.

الرحالة والمؤرخون عن كنوز مصر المرصودة، التي تصيب لعنتها كل من يحاول أن يعبث بها ويؤرق مضاجع أصحابها، ويحكى الرحالة "ابن محشرة" أن "قومًا قصدوا الأهرام، فنزلوا في تلك الآبار، وطلبوا أن يدخلوا في تلك المضايق، التي تخرج منها الرياح واحتملوا معهم سرجًا في أوانٍ رخام، فلما دخلوا في تلك المضايق، خرجت عليهم ريح شديدة، وأخرجتهم منها عنفًا، وأطفأت أكبر سرجهم فأخذوا أحدهم، وكان أقواهم جأشًا وأشدهم عزمًا وأصلبهم قلبًا، فربطوا وسطه بالحبال، وقالوا "ادخل.. فلما دخل.. انقطعت حبالهم.. وبقي الرجل في ذلك الشق وهم لا يعلمون عنه خبرًا، فصعدوا هاربين حتى خرجوا من البئر، واغتموا ما أصاب صاحبهم.. فبينما هم كذلك، إذ انفجرت الأرض فرجة كالكوة، وأثارت لهم ذلك الرجل عريانًا.. مشوه الخلق ميت الدم جامد العينين، وهو يتكلم بكلام عجيب لا يفهم، فلما فرغ من كلامه سقط ميتًا، فاحتملوا صاحبهم، واتصلت أنباؤهم بوالي مصر وهو (ابن المدبر في أيام المتوكل)، فأمر أن يكتب الكلام الذي قال ذلك الرجل الذي مات حسب ما قاله، وأقام ابن المدبر يطلب من يفسره ففسره (هذا جزاء من طلب ما ليس له، وأراد الكشف على ما يخفى فليعتبر من رآه)، قال: فمنع حينئذٍ ابن المدبر أن يتعرض أحد للأهرام.."[429].

وحاول الرحالة أوليا چلبي أن يلح على توكيد مثل تلك الأخبار عن القوى الغامضة الحارسة للأهرام فيقول: "وخلاصة القول: إن الخوف والهلع قد ساورانا وأحاطا بنا من كل الجوانب وقررنا العودة، وبينما نحن نفكر فيما آل إليه أمرنا، إذ

---

(429) ابن محشرة: الاستبصار في عجائب الأمصار، ص59.

بمشاعلنا تنطفئ، إذ برياح شديدة باردة تهب من جانب تلك الطيور -الخفافيش- كادت تقضي علينا وعلى سرجنا الضئيلة أيضا.."، ثم يؤكد بأسلوب لا يقطعه الشك أنه "ليس هناك شك في أن هذا البناء العجيب -الأهرامات- مطلسم، لأننا حينما وصلنا الحوض المذكور بُهتنا كلنا، وتولتنا الحيرة والدهشة وأحاط بنا النصب والأذى من كل جهة فعدنا بأعجوبة، ولكن بكل مشقة وبلاء، وقد كادت أرواحنا تفارق أجسادنا من هول الموقف"[(430)].

رواية أخرى تناقلها الرحالة والمؤرخون تحكي أن "قومًا دخلوا بعض الأسراب التي في الهرم، فانتهوا إلى صنم أخضر على صورة شيخ، وبين يديه أصنام صغار كأنه يعلمهم، ثم صاروا فوجدوا فوارة تحت قبة يقع فيها ماء من أعلى تلك القبة، فيكون له نشيش شديد كأنه يطفئ نارًا، ثم يفيض هناك ولا يتبين ثم داروا فوجدوا بيتًا مسدودًا، لا يظهر له باب غير حجر صلد، وفيه دوي شديد لا يدري ما هو، ووجدوا عنده شبه المطهرة الكبيرة فيها ماء ودنانير منقوش في الوجه الواحد صورة أسد، وفي الوجه الثاني صورة طير فأخذوا من تلك الدنانير شيئًا فلم يقدروا على حركة ولا كلام حتى تركوها في موضعها.."[(431)].

تكشف الروايات السابقة عن اهتمام الولاة والحكام الذين تولوا أمر مصر بتلك المطالب، ومشاركتهم في البحث عنها، وتنظيمهم لها، وما اكتنف ذلك من أخطار وأحداث مثيرة، تمخضت عنها أخبار وحكايات غرائبية تساعدنا على رصد

---

(430) سياحتنا مه مصر، ص620- 621.

(431) ابن مخشرة: المصدر السابق، ص60.

بعض السمات التي اتصفت بها ثقافة المجتمع المصري في طور من أطوار حياته، حيث تعددت فيه هذا النوع من الأساطير والحكايات في تنوع يتسع للعديد من الأفكار المتناقضة أحيانًا، بما يدل على ثراء الفكر والإبداع الشعبي في مصر، كما يشهد على محاولات دائمة لتطوير الفكر الإنساني الباحث عن ماهية الأشياء، ولسد الفراغات النقص الحاد في رصيده المعرفي.

على جانب آخر وجدنا الحكام يحذرون الناس وفي نفس الوقت يقومون هم بعمل منظم للحصول على كنوز المصريين القدماء والاستعانة بها في تعضيد حكمهم وسلطتهم حتى قيل إن أحمد بن طولون قد اكتشف كنزًا عظيمًا، استطاع به أن يشيد جامعه العظيم بالقاهرة[432]. و"أنه قد أصاب فيه من المال [ما] كان مقداره أَلف أَلف دينار، وهو المطلب الذي شاع خبره "[433]، ومنه "أنفق على الجامع مئة ألف دينار وعشرين ألف دينار، وعلى البيمارستان ومستغلّهِ ستين ألف دينار.. وأنفق في بناء الميدان مئة وخمسين ألف دينار"[434]، وضرب دينارا باسمه سمي بـ"الأحمدي"، وصار أجود عيار وكان لا يطلي إلا به[435]، و"كان عيار الدينار منه أجود من عيار السندي بن شاهك ومن عيار المعتصم، ولم يكن يرى أجود منهما"[436]، كما عرف عن أحمد بن طولون أنه "كان مولعًا بمعرفة هذه الآثار القديمة والعجائب"[437].

---

(432) ابن إياس: بدائع الزهور، ص38.

(433) البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص76.

(434) نفسه، ص351.

(435) المقريزي: الخطط، ج1، ص42، البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص196.

(436) البلوي: مصدر سابق، ص196.

(437) ابن محشرة: الاستبصار في عجائب الأمصار، ص102.

ويحكي التاريخ أن أحمد بن طولون استطاع بفضل ثروة مصر وكنوزها أن يناطح الخلافة العباسية في بغداد، وينطلق من مصر بأفكاره الاستقلالية، وينشئ دولة دانت لها الشام وبعض أقطار أخرى، ومن الحكايات التي قيلت في شأن أحمد بن طولون: "إنه دخل جماعة في أيام أحمد بن طولون، الهرم الأكبر، فوجدوا في أحد بيوته جام زجاج غريب اللون والتكوين، فحين خرجوا به فقدوا واحدًا، فدخلوا في طلبه، ورجع هاربًا إلى داخل، فعلموا أن الجن استهوته، وشاع أمرهم، فأحضروا عند أحمد بن طولون، فحكوا له القصة، فمنع الناس من دخول الهرم، وأخذ منهم ذلك الجام الزجاج لنفسه..."[438].

في الوقت نفسه نجد رواية تناقلها المؤرخون تؤكد استباحة أحمد بن طولون كنوز مصر لنفسه، فيقول ابن إياس نقلاً عن وصيف شاه: "... خرج الأمير أحمد بن طولون يومًا على سبيل التنزه إلى نحو الأهرام، فبينما هو يسير إذا غاصت قوائم فرسه في الأرض، فأمر بكشف ذلك المكان، فلما كشفه إذ هو مطلب فيه دنانير يوسفية"[439]، فنقلها إلى خزائنه على ظهور الجمال بالشكاير، واتسع حاله، فأخذ في أسباب بناء الجامع المعروف به..."[440]، ولعبت النبوءة والأحلام دورها الفاعل في رواية عثور ابن طولون على الكنز وكأنه قدر وحق مكتوب يسوغ للحاكم أحمد بن

---

(438) التلمساني: سكردان السلطان، ص460.

(439) دنانير يوسفية: نسبة إلى يوسف عليه السلام، والذي كان يعتقد أنه خزن أموال وكنوز مصر في الأهرام واتخذ منها أهراء لهذا الغرض.

(440) بدائع الزهور، ج1، ص38، السيوطي: حسن المحاضرة، ج2، ص136، ابن محشرة: الاستبصار في عجائب الأمصار، ص102، المقريزي: الخطط، ج1، ص75.

طولون الحق في الاستحواذ عليه، فيقول كاتب سيرة ابن طولون "وأقر أحمد بن طولون.. عبد الله بن دشومة أمينًا عليه.. وكان عبد الله بن دشومة منهم، واسع الحيلة.. وكان قبل إسقاط المرافق بمصر قد شاور عبد الله بن دشومة في ذلك.. فقال: أيها الأمير إن الدنيا والآخرة ضَرَّتان،.. ولسوف يجتمع للأمير أيده الله مما قد عزم إسقاطه من المرافق في السنة بمصر دون غيرها مئة ألف دينار.. فشغل قلبه كلامه، فبات في تلك الليلة بعد أن مضى.. فرأى في منامه رجلاً من إخوانه الزهاد بطرسوس، وهو يقول له: ليس ما أشار به عليك من استشرته في أمر الارتفاق والفسخ برأي تحمد عاقبته فلا تقبله.. فأمضِ ما كنت عزمت عليه.. وركب في غد ذلك اليوم إلى الصيد، فلما أمعن في الصحراء ساخت في الأرض يد فرس بعض غلمانه، وهو رمل، فسقط الغلام.. فنظر فإذا بفتق ففتح، وأصاب فيه من المال "[441].

الحكايات الخرافية والأساطير التي تداولها الموروث الشعبي، التي وصلتنا من مدونات الكتابات التاريخية وأقلام الرحالة، واصلت حديثها عن اللعنة التي تصيب كل من يعبث بآثار مصر فتربط بين موت ابن طولون بتحطيمه تمثالاً مصريًّا كان قائمًا في المطرية، فقد أورد ابن إياس "قال جامع السيرة الطولونية: كان بمدينة عين شمس، وهي المطرية، صنم من الكدان الأبيض على قدر خلقة الرجل المعتدل القامة، وكان ينظر إليه، فنهاه بعض الكهان عن رؤية هذا الصنم، وقال: أيها الأمير لا تنظر إلى هذا الصنم، فما نظر إليه أحد من ولاة مصر إلا عُزل في عامه، فلم يعبأ بهذا الكلام، وركب

(441) البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص76.

وتوجه إلى ذلك الصنم، ورآه، ثم إنه أمر بقطعه قطعًا فلم يبق له أثر، فلما رجع حم من يومه ولزم الفراش، فسلم في المرض نحو عشرة أشهر.. فاستمر حتى مات"[442].

دلالة القصة غير خافية، فهي تحذر من التطاول على الآثار المصرية، وتدعو إلى احترامها وإلى تقدير أصحابها، والاعتراف بسبقهم وفضلهم في تداخل وعناق حميم بين الأسطورة والتاريخ.

أحاط الرحالة والمؤرخون آثار مصر وكنوزها بخرافات مزعجة مخيفة تبعث الرعب في كل من يقترب منها أو يحاول الدخول إليها والعبث بها، ورأينا كيف قالوا إن الهرم الأكبر يحرسه روح شيطانية عبارة عن "غلام" عار أمرد أصفر اللون تطل من فمه أنياب حادة، بل وسجل بعضهم ما ذكره لهم بعض الناس من أنهم قد رأوا هذه الروح بأعينهم، وهي تحوم حول الهرم وقت القيلولة ووقت الغروب وعلى نفس المنوال الذي نسج عليه هؤلاء المؤرخون، نسج مؤرخون وجغرافيون ورحالة عرب آخرون معلومات أكثر تطرفًا في الخرافة وأكبر بعدًا عن منطق الأشياء تساعدنا في التعرف على وجدان وعواطف وأفكار ومواقف واتجاهات المجتمع المصري في أحد أطوار تاريخه، وهذه كلها أمور يمكن رصدها من خلال دراسة النتاج الأسطوري والعجائبي للمجتمع، التي سجلها لنا الرحالة والمؤرخون بين دفات كتبهم ورحلاتهم عن كنوز الحضارة المصرية القديمة، التي كان الولاة والحكام وعامة الناس يطمعون في استخراج تلك الكنوز التي يُشاع أن الفراعنة قد دفنوها معهم بداخل مقابرهم، وبطبيعة الحال فقد تبددت أحلام البعض منهم في العثور على ما كان يتوقعه من كنوز مدفونة، بينما نجح البعض الآخر في الوصول إلى تحقيق أحلامه ولكن على حساب سلامة آثار مصر.

---

(442) بدائع الزهور: ص167.

وينقل إلينا المسعودي رواية تقول: "…. وقد كان جماعة من أهل الدفائن والمطالب ومن قد أُغري بحفر الحفائر، وطلب الكنوز وذخائر الملوك والأمم السالفة المستودعة بطن الأرض ببلاد مصر، وقع إليهم كتاب ببعض الأقلام السالفة وصف موضع ببلاد مصر، وعلى أذرع يسيرة من بعض الأهرام، بأن فيه مطلبًا عجيبًا، فأخبروا (**الإخشيد محمد بن طغج**) بذلك فأذن لهم في حفر، وأباح لهم استعمال الحيلة في إخراجه، فحفروا حفرًا عظيمة إلى أن انتهوا إلى أزج[443]، وأقباء وحجارة مجوفة"[444].

ويبدو من هذا أن أولئك المطالبية، كانوا يدركون أن الأهرام مركز يجتذب إليه المدافن والكنوز، وهو أمر كشف عنه الأثريون، وأوضحوا أن كبار القوم كانوا يعملون على أن يدفنوا بالقرب من الأهرامات لينعموا بما كان يقدم إلى أصحابها من الطقوس والقرابين، كما أن الروايات السابقة تكشف لنا بعض أخبار الحفائر التي قام بها العرب للتنقيب عن الآثار المصرية القديمة، بداية من محاولات عبد الملك بن مروان إلى عبد العزيز بن مروان إلى أحمد بن طولون إلى عصر الإخشيد بن طغج. والصور المشوشة التي نقلها إلينا المؤرخون عن وصف المقابر المكتشفة والدفائن التي كانت بها، صورة تكاد تنطبق على الاكتشافات الأثرية، وما تميزت به القبور المكتشفة من سمات تكاد تكون مشتركة، ولكن الغالب من المؤرخين لم يحدثونا عن مصير هذه الثروة الأثرية، وهل كان وراء اكتشافها جهد علمي حقيقي، أم هو مجرد انسياق مع أحاديث العامَّة

(443) الأَزَجُ: بناء مستطيل مقوس السقف، وجمعها: آزاج، المعجم الوجيز، القاموس، المحيط، ج1، ص184.

(444) المسعودي: مروج الذهب، ج1، ص275.

عن الكنوز المرصودة، والذهب الذي تحرسه الطلسمات ولا يكشف إلا لأصحاب الوقت، والعقائد الشعبية الأخرى التي ملأت الضمير الشعبي المصري في أولى مراحل حسه الحضاري وإدراكه الثروة التراثية الخطيرة التي يعيش فوقها، وإن كنا نحسُّ أن المعنى التاريخي للمكتشفات الفرعونية لم تغب عن أذهان بعض الرحالة والمؤرخين - كالمسعودي مثلاً- حيث استطاع البعض منهم أن يجمع من هذه المقولات المتداولة ما يشكل هيكلاً ما للتاريخ المصري القديم بعد ما يقرب من أربعة آلاف سنة في أعماق التاريخ، وواضح أن تلك الفترة من تاريخ مصر امتلأت بمثل هذه الحفائر التي أضاعت الكثير من الآثار المصرية القديمة، التي أضافت في الوقت ذاته بعض المعلومات إلى الذخيرة التاريخية العربية المليئة بالتشويش حول التاريخ المصري القديم[445].

ورغم أن الزمن قد غدر بالعديد من الآثار التي خلفتها الحضارة المصرية القديمة، فإن كتابات المؤرخين ظلت حافلة بأوصاف العديد من المنشآت المعمارية الضخمة التي شيدها المصريون، من قصور ومعابد وأهرام وتماثيل ومسلات... ومن أعظم تلك الآثار قاطبة "**منار الإسكندرية**"[446].

---

(445) فاروق خورشيد: جولة في التراث، معادن الجوهر (مكتبة الأسرة، القاهرة 1999م)، ص90.

(446) كان منار الإسكندرية منذ إنشائه في عهد بطليموس فيلادلفوس (280 ق.م- 279 ق.م) أحد المعالم البارزة في العمران السكندري، بحيث اعتبر لضخامة بنيته، وارتفاع هامته، ولما كان يؤديه من مهام عظام، إحدى أعاجيب الدنيا السبع، ولهذا شُدَّت إليه الرحال، وأقبل على وصفه عدد كبير من مشاهديه، فتعددت أوصافه في المصادر المختلفة، اليونانية، واللاتينية، والعربية، وقلدت صوره في منارات أخرى، ومن بينها منار قادس الذي كانت صورة مصغرة منه. الزهري: كتاب الجعرافية، ص10، وانظر: السيد عبد العزيز سالم، تأثير منار الإسكندرية

حيث كان منار الإسكندرية بحق هداية للقادمين إليها من البحر، فقد كان المؤشر لنهاية رحلة العذاب التي يجتازها المسافرون في البحر، وقد شاهد الرحالة المغربي ابن بطوطة جانبًا مهدمًا من المنار في أثناء زيارته الأولى للإسكندرية (سنة 725هـ)، ثم شاهده عند زيارته الثانية لها في (سنة 750هـ)، وقد استولى عليه الخراب، بحيث لا يمكن دخوله ولا الصعود إلى بابه"[447]، ولم يبق من المنار -الذي كانت الزلازل سببًا في دماره- زمن النويري السكندري (سنة 775 هـ) سوى أطلال دراسة قائمة على أسسه، التي ظلت قائمة حتى أيام المقريزي[448].

منار الإسكندرية ترك أثره على الموروث الشعبي الذي وصلنا في كتابات المؤرخين وما كان يدور حول المنار من أفكار تتطلع إلى كنوز الحضارة المصرية وإرثها الأثري الضخم، فنجد رواية شعبية تقول: "أرسل صاحب الروم يخدع صاحب مصر، ويقول: إن الإسكندر قد كنز بأعلى المنارة كنزًا عظيمًا من الجواهر واليواقيت والأحجار التي لا قيمة لها خوفًا عليها.. فانخدع لذلك وظنه حقًّا، فهدم القبة فلم يجد شيئًا مما ذكره، فسد طلسم المرآة"[449].

ونسجت الحكايات التي تفسر سر تهدُّم المنار وترجعه إلى احتيال الروم الذين

في عمارة بعض مآذن المغرب والأندلس (صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد، مدريد 1986م، عدد 23)، ص184، سحر السيد عبد العزيز: مدينة قادش ودورها في التاريخ السياسي والحضاري للأندلس في العصر الإسلامي (الإسكندرية، 1990م) ص9، ص40.

(447) ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة (دار صادر، بيروت، 1960)، ص40.

(448) المقريزي: الخطط، ج1، ص277.

(449) ابن الوردي: خريدة العجائب، ص31؛ ابن محشرة: الاستبصار، ص95.

راموا التخلص من مرآتها التي كانت تحول بينهم وبين دخول الإسكندرية والاستيلاء عليها، وأورد المؤرخون حكايات مشابهة تمت فيها الحيلة على "عمرو بن العاص" تارة وعلى "الوليد بن عبد الملك" تارة أخرى[450]. تلك المرآة التي تحدث عنها (الموروث الشعبي) هي التي جعلت من (منار الإسكندرية) إحدى عجائب الدنيا على حد قول الهروي: "إنما ذكروا منارة الإسكندرية من العجائب لما كان بها المرآة"، وإنما المنارة اليوم ليست من العجائب إنما هي على هيئة مثال برج على ساحل البحر على هيئة المرقب.."[451].

إن الآثار المصرية وكنوزها وأسرارها على الرغم من توالي الأزمنة ودورة العصور لا تزال تتوهج بالأساطير التي تركت أثرها على أصحاب الكتابات التاريخية كلما اقتربوا من تلك الآثار المصرية في إحساس يحمل من الجاذبية والسحر قدر ما يحمل من القلق والخوف، فالدخول إلى هذا العالم هو دخول إلى عالم يتمازج فيه الواقع مع الخيال والطبيعة مع ما وراءها والحاضر مع الماضي. كل هذا عبر مشهد سطوة وسحر الآثار المصرية، التي وقف أمامها الرحالة الزهري في (أواسط القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي) قائلاً: "وفيها من الأعاجيب والبنيان والمطالب والكنوز ما لا يُحصى له عدد، فاختصرنا ذكرها لشهرتها، وسنذكر منها لمعًا، فمن ذلك أن فيها مغارات تحت الأرض فيها طلاسم تتحرك بيد بعضها سيوف وأقواس ترمي بها من يدخل عليها، وقد ذُكر أن قومًا دخلوا هذه المطالب فبلغوا إلى باب من حديد قد

---

(450) انظر: ابن إياس بدائع الزهور، ج1، ص106، المسعودي: مروج الذهب، ج1، ص281.

(451) الهروي: الإشارات إلى معرفة الزيارات، ص48، القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، ص146.

طُلي بالذهب ولم تبدله الأيام وعليه طلسم واقف، وبيده سيف مشهور طوله أربع أذرع وفي عرضه ذراع، لو صب على جبل لمزقه، فاحتالوا عليه حتى سقط الطلسم فلما قربوا من الباب إذا بنبال ترشقهم من خلفهم، فصنعوا لذلك واقيًا لظهورهم، فكادت النبال ترشقهم وتنفذهم لشدة رميها، فلما فتحوا الباب إذا هم بقصر تحت الأرض قد دارت بهم مراتب.. فأخرج كل واحد منهم وقره وما قدر عليه من الذخائر، فلما خرجوا من الباب اختلف عليهم الطريق وتلف بعضهم عن بعض، وطفئت مصابيحهم فهلكوا ونجا بعضهم، فمن خرج منهم أخبر بكل ما رآه فما زال الناس يسلكون تلك المغارات ويخرجون منها أنواعًا من هذه الصفات والذخائر، فمنهم من يخرج ومنهم من يُهلك"[452].

وهكذا، بقدر ما بهرت الآثار العظيمة التي خلفتها الحضارة المصرية القديمة، التي لم تخلف مثلها حضارة أخرى من حضارات العالم القديم، بقدر ما بهرت هذه الآثار العالم في العصور القديمة والوسيطة والحديثة، التي عرفت جميعًا ذلك الهوس الجمالي بتلك الآثار، الذي عبَّر عن نفسه في ما كتبه الرحالة والمؤرخون والرحالة والأدباء، طوال تلك العصور، ولا يزالون حتى يومنا هذا يوالون التعبير بالكلمة والصورة عن ذلك الهوس النبيل، بما أبدعه الإنسان المصري القديم، من آيات حضارية شامخة بقدر هذا الإعجاب الإنساني بحضارة مصر القديمة الذي لا يماثله إعجاب بأي من الحضارات الإنسانية الأخرى، بقدر ما تعرضت هذه الآثار المصرية العظيمة من أقدم العصور -أيضًا- إلى يومنا هذا للعدوان والمحو والتشويه والسرقة والاستهانة والتهريب والجهل الغليظ، وشارك

(452) الزهري: كتاب الجعرافية، ص39- 40.

الكثير من الناس والحكام في تلك الجرائم والخطايا التي ارتكبت في حق الآثار المصرية العظيمة. وصدقت نبوءة الحكيم السكندري "**أسكليبيوس**" عن مصير تلك الآثار، التي يقول فيها: "يقترب الوقت الذي لا يعرف فيه أحد ديانة المصريين وسيهجر بلدنا، وستكون القبور والموتى فقط شهودًا عليه. فيا مصر، لن يبقى من مذهبك سوى أساطير، لا يؤمن بها أحد من الأعقاب، ولن يبقى غير الكلام المنقوش على الحجر، الذي يحدّث عن قدماء الآلهة". ولم تتحقق نبوءة رمسيس الثاني المكتوبة على جدران معبده "سيظل هذا بيتًا للرب إلى الأبد"[(453)].

تلك بعض لمحات من تاريخ الآثار المصرية وكنوزها التي لم تكن أسعد حالاً من بُناتها الحقيقيين أهل مصر الذين ظلوا خارج المعادلة طوال العصور، لكنهم مثل آثارهم العظيمة قاوموا –ولا يزالون– كل عوامل الفناء!

وحين اندثرت الحضارة المصرية القديمة، وحلت محلها حضارات أخرى، فإن الآثار المبهرة التي خلفتها تلك الحضارة الزائلة دفينة في الرمال وبطون الجبال وبين طبقات الطمي المتراكمة، ما زالت تكتشف يومًا بعد يوم، وما زالت حتى الآن ذات قدرة سحرية فائقة على بهر الرحّالة والمؤرخين، الذين سجلوا وذكروا قصصًا كثيرة عن **الفراعنة** الذين كانوا يحكمون مصر، وعن حياة وعادات وتقاليد المصريين التي كانوا يعتبرونها غريبة عن تقاليدهم وما اعتادوا عليه، كما ذكروا أيضًا الكثير من الأساطير والخرافات التي لا تصدق عن مصر وحضارتها التي ارتبطت بالفراعنة، وهم ملوكها القدماء، الذين توارت شخصيتهم بين الأسطورة والتاريخ.

---

(453) إميل لودفيغ: النيل حياة نهر (ترجمة: عادل زعيتر، مكتبة الأسرة، القاهرة 2000م)، ص663، ص665.

وكانت كثيرة هي الجهود التي بُذلت من جانب الرحالة والمؤرخين، للتعرف على **فراعنة مصر القديمة**، فكانت جهودهم أقرب إلى الأساطير منها إلى التاريخ في بعض موضوعاتها، التي حفلت بالخيال الواسع الذي زاد من خصوبته أن فرعون لم يعجز في أن يجد حوله من يدافع عنه ويستأنف حكم القصص الديني عليه **أمام الوجدان الشعبي الجمعي الشغوف بصورة البطل المنصف، أو المستبد العادل والمبارك -رغم أن المستبد لم يكن عادلاً أو مباركًا في يوم من الأيام- إنه تمجيد لصورة القوة حتى لو خلت من وجه الإنسان.**

دفع الوجدان الشعبي ببطلان حكم القصص الديني على الفرعون الذي ارتبط اسمه بمصر، مدعمين دفاعاتهم بروايات مختلفة جاء فيها: ".. وقال موسى: يا رب، إن فرعون جحدك مئتي سنة، وادعى أنه أنت مئتي سنة، فكيف أمهلته. فأوحى الله إليه: أمهلته لخلال فيه، إني حببت إليه العدل، والسخاء، وحفظت له تربيتك... إنه عمر بلادي وأحسن إلى عبادي..."[454]، والروايات أظهرت فرعون عادلاً منزهًا عن الظلم حين عنف وزيره هامان عندما جمع مئة ألف ألف دينار للخزينة مقابل أن يجري هامان للناس الماء إلى أرضهم، فعنف فرعون هامان بقوله: "بئس ما صنعت من أخذ هذه الأموال، أما علمت أن السيد المالك ينبغي له أن يعطف على عبيده، ولا يأخذ منهم على إيصال منفعة أجرًا، ولا ينظر إلى ما بأيديهم، اردد المال إلى أربابه ولا تأتي بمثلها..."[455].

(454) ابن زولاق: فضائل مصر، ص21، ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، ص90.

(455) ابن الوردي: خريدة العجائب، ص34، 35.

الموروث الشعبي المتعلق بفرعون مصر -الموسوم بالكفر والطغيان في القرآن- تعاطف كثيرًا معه، فأضفى عليه بعض الصفات المحببة إلى نفوس العامَّة، بحيث يعطي لشخصيته بعدًا دينيًّا محببًا، فالشخصية التاريخية هنا غير الشخصية الأسطورية التي غذَّاها ولا يزال يُغذيها الوجدان الشعبي الشغوف بفضائل مصر، الذي ما لبث يخلع على ملوكها الفراعنة صفات وينسب إليهم أحداثًا مغايرة ليكتب لهم الخلود شعبيًّا، إلى الدرجة التي ينبغي التمييز عند الدراسة بين الشخصية الشعبية، والشخصية التاريخية لنفس الحدث أو الشخص.

فجاءت الشخصية التاريخية لفرعون مصر غير الشخصية الشعبية له، إذ تحكي الروايات أنه خرج من صفوف الفقراء وظهر كمدافع عن حقوقهم، وبرز للناس بريئًا من تجاوزات بطانته الظالمة، ليصبح في الذهنية الشعبية صاحب سلوك مثالي، ولا شك أن إسقاط العيوب عن الشخصية التاريخية لصالح الشخصية الشعبية، يعد تعبيرًا صادقًا وتلقائيًّا عن رأي الناس في الدور المحوري والتاريخي لملوك مصر الفراعنة الذين شيدوا العديد من المباني الضخمة والرائعة في طول البلاد وعرضها، فجاءت تلك الروايات تقديرًا من الناس لهذا الدور بغض النظر عما أثبتته الإشارات القرآنية، أو ما سطَّرته أقلام الرحالة والمؤرخين والمفسرين والفقهاء الملتزمين بالحقائق المجردة.

بيد أن ذلك لم يمنع من أن لفظ (فرعون) قبع في الذاكرة الشعبية للناس رمزًا للجبروت، والقوة والتعالي، فيصفون من يتخذ هذه الصفات بأنه "مُتفَرْعن"، ويفسرون تَفرْعُنه هذا بخنوع الآخرين تجاهه، وعدم رده وصده بقوة أكبر[456]، وهو

---

(456) ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة، ص89، الزمخشري: أساس البلاغة، مادة فرعن،

خلط شاع لدى العامّة بين اسم الفراعنة -مفردها فرعون- واسم قدماء المصريين، مما حيَّر كلاً من المسعودي وابن خلدون، ومن كان في زمانهم في سياق بحثهم عن أصل هذا اللقب، فأوردت المصادر التاريخية الكثير من الروايات، وها هو صاحب النجوم الزاهرة ينقل عن المسعودي قوله "قال المسعودي: سألت جماعة من أقباط مصر بالصعيد وغيره من أهل الخبرة عن تفسير اسم فرعون فلم يخبروني عن معنى ذلك، ولا تحصل لي في لغتهم، فيمكن -والله أعلم- أن هذا الاسم كان سمة ملوك تلك الأمصار وأن تلك اللغة تغيرت"[457].

كشف المسعودي من المسح التحقيقي الذي أجراه بنفسه في أيام زمانه، ومع من وصفهم بـ"أهل الخبرة" من الأقباط، كشف لنا أن أهل مصر لا يفقهون ماهية هذا اللقب الشهير[458]، بل لا يوجد في لغتهم. كما اكتشف المسعودي بنفسه، وأرجع ذلك بما حدث من تغير اللغة المصرية القديمة التي صبغ اللقب فيها، كتغير

سليم عرفات المبيض: ملامح الشخصية الفلسطينية في أمثالها الشعبية (مكتبة الأسرة، القاهرة 2006م)، ص71، ص72.

(457) ابن تغري بردي (جمال الدين أبو المحاسن) "ت 874هـ": النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (الجزء الأول، تحقيق: محمد شلتوت، طبعة دار الكتب، القاهرة)، ص61، المسعودي: مروج الذهب، ج1، ص366.

(458) لقب (فرعون) لم يستعمل هذا اللقب الذي يوحي إلينا بشخصية ذات عظمة ومجد من غابر الأزمنة، إلا في الألف سنة ق.م، كلقب للملك، وعندما أنجزت مصر ما أراده لها القدر، وصيغته المصرية عبارة تعني "البيت العالي" أو "البيت العظيم"، وكانت عبارة أشار المصريون بها منذ عصور الدولة القديمة إلى قصور فراعنتهم، ثم صار يطلق على الملوك أنفسهم، غير أن لقب "فرعون" لم يستعمل في أي وقت من التاريخ كلقب حقيقي رسمي للملك: جورج بوزنر وآخرون: معجم الحضارة المصرية القديمة، ص254، 255، ألن رونر: مصر الفراعنة (ترجمة: نجيب ميخائيل، الطبعة الأولى، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة 1987م)، ص71.

اللغات الأخرى، الأمر الذي نتج عنه جهل أقباط مصر بمعناه القديم، وافترض المسعودي أنه كان سمة لملوك مصر الأقدمين، ويمكن القول إن نظرة المسعودي هذه نظرة علمية تتسم بالدقة وسلامة المنهج.

أما الرحالة ابن خلدون فقال في باب "الخبر عن القبط وأولية ملكهم ودولهم وتصاريف أحوالهم والإلمام بنسبهم: "كانوا يسمون الفراعنة سمة لملوك مصر في اللغة القديمة، ثم تغيرت اللغة وبقي هذا الاسم مجهول المعنى كما تغيرت الحميرية إلى المضرية.."(459)، رغم أن لقب "فرعون" قد ورد في القرآن الكريم بصيغة المفرد لا بصيغة الجمع(460)، فإنه أصبح عَلمًا على أهل مصر في نعتهم بـ"الفراعنة" (فلقب الفرعون يطلق على ملوك مصر.. فإذا أرادوا الجمع في اللفظ قالوا: الفراعنة"(461).

وتناول الرحالة والمؤرخون لقب "فرعون" بالتعريب، حيث أطلقوا أسماء عربية

---

(459) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ج2، ص74.

(460) ورد لفظ "فرعون" في القرآن الكريم بصيغة المفرد في أربعة وسبعين موضعًا، انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص626، ص727. وجاء لفظ فرعون عند المفسرين يشوبه الضبابية وعدم الوضوح، فنجد في كتب التفسير كجامع البيان في تأويل القرآن 213/1، والنيسابوري غرائب القرآن 281/1، والنسفي في مدارك التنزيل 47/1 وغيرها، أن لفظ فرعون اسم كانت ملوك العمالقة تُسمى به، كما كانت ملوك الروم يُسمى بعضهم "قيصر"، وبعضهم "هرقل". ويقول الفخر الرازي في التفسير الكبير 71/2: "إن لفظ فرعون علم لمن ملك مصر من العمالقة"، أما ابن كثير في تفسير القرآن العظيم 91/1: إنه علم على من ملك مصر كافرًا من العماليق وغيرهم. وأشار رشيد رضا في تفسير المنار إلى أنه لقب لمن تولى مصر قبل البطالسة. للمزيد انظر: مصطفى عبد الحليم متولي، قصة موسى في أعمال المفسرين دراسة مقارنة، (رسالة ماجستير -غير منشورة- كلية الآداب، جامعة الزقازيق 1984م)، ص17.

(461) أوليا چلبي: سياحتنا مه مصر، ص41.

على فراعنة مصر وملوكها فيقول المقريزي: ".. ثم وقع غلاء في زمن فرعان بن مسور، وهو التاسع عشر من ملوك مصر قبل الطوفان، وسببه أن الظلم والهرج كثر حتى لم ينكره أحد، فأجدبت الأرض، وفسدت الزروع، وجاء بعقب ذلك الطوفان، فهلك الملك فرعان وهو سكران وهو أول من سُمي باسم فرعان.."[462]. وقيل: سُمي فرعون لأنه أكثر القتل حتى قتل قرابته وأهل بيته وخدمه ونساءه وكثيرًا من الكهنة والحكماء"[463]. أما التلمساني فقال: "فرعون، لقب الوليد بن مصعب ملك مصر وهو عاتٍ، وكل عاتٍ فرعون، والعتاة الفراعنة"[464].

يلفت النظر هنا إلى تأثير فكرة الأنساب العربية في نسبة كل شيء إلى جد أسطوري أعلى يفسرون به معنى الاسم الذي ارتبط بالتكبر، والتجبر، والظلم، ومما يسترعي الانتباه أن الروايات جعلت ممن تلقب به كان رجلاً عربيًّا، يُعرف بـ"الوليد بن مصعب"، كما خلعت أسماء عربية على معظم فراعنة مصر، وهو ما يكشف لنا عن أن الوجدان الشعبي العربي قد شغل بقصص فرعون، حيث كان معروفًا لدى العرب قبل الإسلام، حين كان القصص أحد مكونات التاريخ الشفاهي العربي، وكانت قصص فرعون وعاد وثمود تنتقل بينهم بالتواتر، وعندما لم تشبع روايات الإخباريين حاجات وجدانهم، راحوا يضيفون من تصوراتهم وموروثاتهم إلى هذه الأخبار، متأثرين بالروح العربية ونزوعها لتعريب الكلمات والأسماء والأحداث.

أشار ابن زولاق إلى الارتباط في ما يتعلق باللقب فقال: "واختلف فيه، فقيل:

---

(462) المقريزي: إغاثة الأمة بكشف الغمة، ص6.

(463) ابن محشرة: الاستبصار في عجائب الأمصار، ص71.

(464) التلمساني: سكردان السلطان، ص424.

كان من العماليق، وقيل: كان من القبط ويُكنى أبا مرة، وهو الوليد بن مصعب، وهو أول من خضب بالسواد لما شاب، دله عليه إبليس، ولعظم شأنه وعتوه ذكره الله في خمس وعشرين سورة من القرآن..."[465]. هذا التشويش والارتباك في ما يتعلق بلقب فرعون شمل أيضًا الحديث عن **أصول هؤلاء الفراعنة وعددهم**، وكان ذلك مرتعًا لخيالات الرحالة والمؤرخين وتخميناتهم كقول المسعودي: "والذي اتفقت عليه التواريخ –مع تباين ما فيها– أن عدة ملوك مصر من الفراعنة، وغيرها، اثنان وثلاثون فرعوناً..."[466]، أما صاحب الاستبصار فيشير إلى أن "الفراعنة سبعة، وهو كان أولهم –يقصد فرعون إبراهيم عليه السلام– وقيل إنما سُمي فرعون لأنه أكثر القتل"[467]، واتفق معه الإسحاقي بقوله: "وقد ملك مصر سبعة من الكهنة ولهم الأعمال العجيبة والأمور الغريبة"[468]، وأورد ابن إياس نقلاً عن وهب بن منبه "أن الفراعنة الذين ملكوا مصر كانوا ستة، فأولهم فرعون إبراهيم الخليل عليه السلام، كان اسمه طوطيس"[469].

أما التلمساني فقد اختص الفراعنة من الملوك بالأنبياء فقط، وجعل الفراعنة وقفًا عليهم بقوله: "الفراعنة ثلاثة، أولهم: سنان الأشل صاحب سارة، كان في زمن الخليل بمصر. الثاني: الريان بن الوليد، وهو فرعون يوسف عليه السلام. الثالث: الوليد بن مصعب، وهو فرعون موسى عليه السلام..."[470].

---

(465) ابن زولاق: فضائل مصر وأخبارها، ص22.

(466) المسعودي: مروج الذهب، ص365.

(467) ابن مخشرة: المصدر السابق، ص71.

(468) الإسحاقي المنوفي: أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول، ص6.

(469) ابن إياس: بدائع الزهور، ج1، ص15.

(470) التلمساني: مصدر سابق، ص424.

حاول المؤرخون والرحالة الإيغال في زمن فراعنة الأنبياء، والاعتماد على حقائق ملموسة بشأن تلك الفترة، ولكن كانت تعوزهم الأدلة والحجج، فاعتمد فكرهم على النقل من الأقدمين، ثم على الأخبار المتواترة في المجتمع، فإذا بالأسطورة تتسرب، فتزيد، وتبالغ، وتصور ما تعرض له الأنبياء، وتاريخ نضالهم مع قوى الشر والإنكار، فجاءت صياغة هذا الموروث صياغة قصصية في زمن لم يكن القصص فيه قد انفصل عن التاريخ، فامتزجت الأسطورة بالتاريخ وتوارى فراعنة مصر بين ركام الخرافة.

من هؤلاء الفراعنة الذين شغلوا فكر المؤرخين في سياق حديثهم عن مصر "**فرعون إبراهيم**"، حيث نسج الخيال الشعبي حوله أساطير جمة تصوره في الطور الأول من حياته بالملك العاتي والظالم، ثم تحوله في الطور الثاني من حياته، ملكًا صالحًا عادلاً وواصلاً لرحمه، تقول الروايات: "حُكي أن إبراهيم عليه السلام، كان قادمًا مع (سارة) إلى مصر، حدثت النفس الأمّارة بالسوء، الملك الجبار (طوطيس)، بأن يمد يده إلى (سارة)، ويراودها عن نفسها، فشل الله سبحانه وتعالى يده في الحال. ودعا إبراهيم عليه السلام أخيرًا أن يعيد الحياة إلى يده، فاستجاب الرب دعاءه، ولكن نفسه الأمّارة بالسوء، حملته مرة أخرى على اغتصاب (سارة) ومحاولة التعدي عليها، فشلت يداه مرة أخرى، وقد عفا عنه إبراهيم عليه السلام هذه المرة، ودعا له بالشفاء، فبرئت يداه، وهنا اعترف الملك (طوطيس) بنبوة إبراهيم الخليل، ناطقًا بالشهادة (لا إله إلا الله إبراهيم خليل الله) فصار مسلمًا"[471].

---

(471) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج1، ص244، ابن كثير: قصص الأنبياء (ج1، المكتبة التوفيقية، القاهر 2000م)، ص77، ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص31، أوليا چلبي: سياحتنا مه مصر، ص39.

وتمضي الرواية التاريخية لتقول إن فرعون إبراهيم قد وهب إبراهيم عليه السلام السيدة هاجر، التي ولدت له إسماعيل عليه السلام، وحبًّا في لقاء إبراهيم وسارة "عمد إلى فتح الجبال تجاه بني سويف، وتمهيد الطريق إلى مسافة ثلاثة أيام، حتى بحر السويس، حيث أجرى النيل إليه، وتمكن من إرسال مئات من السفن، والمراكب بالمؤن والذخائر، إلى أهل مكة...."[472].

وذهب ابن كثير في نسب هذا الفرعون إلى أحد العمالقة من نسل سام بن نوح، أو الحميريين من عرب الجنوب، وتخلع عليه اسمًا عربيًّا في قوله: "وذكر بعض أهل التواريخ أن فرعون مصر هذا كان أخا الضحَّاك الملك المشهور بالظلم، وكان عاملاً لأخيه على مصر، ويقال كان اسمه سنان بن علوان بن عويج بن عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح، وذكر ابن هشام في (التيجان) أن الذي أرادها عمرو بن امرئ القيس بن بابليون بن سبأ وكان على مصر..."[473]، ويلاحظ أن هذا الاتجاه الأخير يعتمد أسلوب النسابة في نسبة كل قبيلة أو مدينة إلى جد أعلى، ويلفت النظر هنا استخدام الرواية لاسم **بابليون** (وهو اسم الحصن الذي كانت تقيم به الحامية البيزنطية التي حاصرها جيش عمرو بن العاص في خضم أحداث فتح مصر)[474]،

---

(472) أوليا چلبي: سياحتنا مه مصر، ص39، الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج1، ص244.

(473) ابن كثير: قصص الأنبياء، ج1، ص77.

(474) دارت أساطير عدة حول (بابليون)، فهو اسم استخدمه حجاج العصور الوسطى إلى الأرض المقدسة، وفكرة وجود (بابليون) في مصر، حيث قذف "نبوخذ نصر" شدرخ وميشخ وعبد نغو في الأتون الملتهب (دانيال: 3- 20)، كانت فكرة تتردد غالبًا في كتابات الرحالة الأوائل من أوروبا، وهناك أسباب مختلفة لتفسير هذا الاعتقاد الطريف، وكان يبدو أنه منذ أيام نفي اليهود من بابل (597- 538 ق.م) أنهم عاشوا على ضفاف النيل في موقع ما يُسمى الآن مصر القديمة، وفضلاً عن ذلك، فإن استرابون تحدث عن (بابليون) باعتبارها قلعة عسكرية،

باعتباره اسمًا -سبق الحديث عنه في الفصل الثاني- لواحد من حكام مصر من نسل سبأ الأكبر، ومن الواضح أن الروايات حاولت إرضاء حاجات ثقافية/ اجتماعية لشرائح بعينها في المجتمع المصري آنذاك.

الأمر ذاته تكرر مع (**فرعون موسى**)، حيث "تنازع الناس في أمر فرعون موسى، فمنهم من رأى أنه من العماليق، ومنهم من قال: هو من لخم من الشام، ومنهم من رآه أنه من الفرس من مدينة اصطخر، ومنهم من رأى أنه من القبط من ولد مصرام، والقبط تثبت ذلك، وزعم قوم أنه من الأعاجم من الأندلس من قرمونة، وذكروا أن اسمه الوليد بن مصعب..."(475)، وأشار ابن عبد الحكم إلى أن "فرعون موسى -اسمه طلما- قبطي من قبط مصر، أو من فران بن بلي واسمه الوليد بن مصعب، وكان قصيرًا أبرش يطأ في لحيته.. حدثنا عن هانئ بن المنذر: أنه -فرعون موسى- كان من العماليق، وكان يُكنى بأبي مرة.. كان فرعون أثرم، ويُقال: بل هو رجل من لخم والله أعلم..."(476)، وأمدنا الموروث الشعبي برواية منسوبة إلى عائشة رضي الله عنها "قالت عائشة رضي الله عنها: أقام فرعون بمصر أربعمئة سنة.. ولم يكن من أولاد الملوك وإنما أخذ ملك مصر بحيلة"(477)، وعلى لسان عمرو بن

تأسست قبل الرومان على أيدي اللاجئين من بابل "بابليون" القديمة، وهكذا استمر الربط بين المكانين، على أي حال، فقد كانت مصر في عقلية العصور الوسطى دائمًا أرض العجائب، إذ كانت تُروى عنها حكايات غاية في الغرابة يصدقها السُذج، يضخمها ما بقي من السحر والتخمين: آن وولف، كم تبعد القاهرة؟، ص35.

(475) الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص551، ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص18، ابن محشرة: الاستبصار، ص77، المسعودي: مروج الذهب، ج2، ص397.

(476) ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص44.

(477) ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، ص89، ابن زولاق: فضائل مصر، ص21، الحميري: الروض المعطار،

العاص أورد المؤرخون رواية تقول: "اختلف أولاد الملوك بمصر فيمن يكون الملك، فرضوا بمن يحكم بينهم، وأن يكون من يطلع من الفج، فطلع فرعون راكبًا.. وسألوه الحكم بينهم.. فقال لهم: "قد اخترت نفسي أن أجلس وأوطئ لكم الأمر..."[478]، وقيل إن "فرعون كان عطارًا بأصبهان، فركبه الدَّيْن وأفلسَ، فخرج منها هاربًا.. فأتى مصر.. ثم سار في الناس سيرة سنة، وكان عادلاً سخيًّا، يقضي بالحق ولو على نفسه، فأحبه الناس فتُوفي الملك فولوه عليهم"[479].

ما يهمنا في الروايات السابقة هو أن صعوبة الوصول والإحاطة بحقيقة فرعون مصر وأصله، جعلت المؤرخين والرواة في حيرة دفعتهم إلى الهروب من المأزق، بمقولة "والله أعلم"، واختلق الموروث الشعبي بعض الروايات ونسبوها إلى كبار الصحابة لإضفاء المصداقية على ما يقولونه، كما أوضحت لنا رؤية الناس لفراعنة مصر، وما يجول بخاطرهم، فجاء فرعون في المخيلة الشعبية بصورة مغايرة عما جاء به في النصوص الدينية، حيث وجدناه ملكًا عادلاً جاء بإرادة الناس ولم يكن جبارًا شقيًّا، استعارت بعض الروايات ملامحها من نسيج السيرة النبوية في التلميح إلى قصة احتكام سادة العرب في أمر وضع الحجر الأسود عند بناء الكعبة فاحتكموا إلى الرسول الأكرم ﷺ، كذلك الأمر مع فرعون واحتكام الناس إليه، وكيف أن الخيال الشعبي قد استعار هيكل السيرة النبوية دون المضمون في ما يتعلق بتلك الحادثة، مما يدلنا إلى أي

ص551.

(478) ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة: ص89، الحميري: الروض المعطار، ص552.

(479) ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، ص90.

مدى تأثر الوجدان الجمعي بسيرة النبي ﷺ التي ظلت سيرته ﷺ أبرز شخصية أساسية في الآداب الشعبية العربية لكونه البؤرة النورانية المباركة، التي يلتقي عندها العديد من فنون الأدب الشعبي، والواضح أن الكثير من الروايات التي صاغها الوجدان الشعبي حول فرعون مصر، في بعضها صدى لسيرة وكرامات الأنبياء أو محملة بإشارات من قصصهم التي لم تزدهر وتنمُ وتنضج إلا في ظلال القرآن الكريم.

وحلَّق الخيال الشعبي بعيدًا في ما يتعلق بحادثة غرق فرعون موسى، التي ورد ذكرها في القرآن الكريم، فيقول ابن عبد الحكم نقلاً عن عدة رواه: "أقبل فرعون حتى انتهى إلى الموضع الذي عبر منه موسى عليه السلام وطرقه على حالها.. وكان فرعون يومئذ على حصان وأقبل جبريل عليه السلام على فرس أنثى في ثلاثة وثلاثين من الملائكة، فتفرقوا في الناس، وتقدم جبريل عليه السلام فسار بين يدي فرعون وتبعه فرعون وصاحت الملائكة في الناس الحقوا الملك، حتى إذا دخل آخرهم ولم يخرج أولهم التقى البحر عليهم فغرقوا، فسمع بنو إسرائيل وجبة البحر حين التقى. فقالوا: ما هذا؟ قال موسى: غرق فرعون وأصحابه فرجعوا ينظرون فألقاهم البحر على الساحل"[480]، فحين أشار القرآن الكريم إلى فرعون موسى وقومه وما حاق بهم من عذاب بسبب عصيانهم وإنكارهم للحق أشار إلى ذلك بصفة إجمالية، دون اللجوء إلى تفاصيل حقيقية، كان الهدف من ذلك استخلاص الحكمة والموعظة لتقوية الإيمان وتعميقه في قلوب الناس.

ولكن الرواة تزيَّدوا وأضافوا ولجؤوا إلى تفاصيل لم يشر إليها القرآن ومثال ذلك حين "ألجم فرعون الغرق، قال: آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل،

---

(480) ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص44، 45.

فجعل جبريل عليه السلام يدس في فيه من طين البحر، ويقول: الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين"[481].

وظلت الذهنية الشعبية تبحث عن السطور المفقودة في حياة فرعون موسى وتنقِّب عن الشخصيات الثانوية كي تكتمل الحبكة الفنية لديها، مثال ذلك قولهم إن "من حكمة الله وحسن تقديره، أن كان والد سيدنا موسى عليه السلام هذا بواب قصر فرعون، كما أن والدته كانت من جملة نساء الحرم الخاص"[482].

وهكذا، فإن القراءة الشعبية لتاريخ فراعنة مصر، كانت تحتوي في عناصرها على مسائل أخرى شغلت الضمير الجمعي ووجدتها فرصة لأن تطرحها في إطار رؤيتها الشعبية للأحداث في سياق بحثها المستميت عن العناصر المنسية والناقصة في الحدث التاريخي.

على جانب آخر لعب الحلم دورًا بارزًا في التأريخ لحياة الفراعنة، وما يتعلق بأحداث حاسمة في تاريخ مصر، فالحلم كان ولم يزل منبعًا فياضًا للأسطورة طوال تاريخه، ومصدرًا ثريًّا لإلهاماته المتواترة على مستوى الشرق والغرب، رغم اختلاف منطق استخدامه من قبل كلٍّ منهما، فضلاً عما كان للأحلام من دور -كقوالب فنية- في تشكيل القصص الشعبي المرتبط بفراعنة مصر القدامى مع تفاعل المؤثرات الدينية على الأخبار التاريخية التي وجدت طريقها إلى كتابات المؤرخين بعد تحويرها وإعادة صياغتها.

---

(481) التلمساني: سكردان السلطان، ص428.

(482) أوليا چلبي: سياحتنا مه مصر، ص48.

يقول ابن إياس وغيره من المؤرخين: "إن فرعون رأى ثلاثة أحلام في الليلة الأولى، سمع في الحلم هاتفًا يقول له: (ويلك يا فرعون، قد قرب زوال ملكك، ويكون على يد فتى من بني إسرائيل)، وفي الليلة الثانية، رأى في منامه وكأن شابًّا دخل عليه وهو يركب أسدًا عظيمًا، وبيده عصا يضرب بها رأس فرعون، وفي الليلة الثالثة، رأى نفس حلم الليلة الثانية، ولما جمع الكهنة، أخبروه بولادة مولود لبني إسرائيل، يسلب ملكه، وأشار عليه وزراؤه بأن يحضر إلى قصره كل امرأة أوشكت على الولادة تلد هناك، فإن كان المولود أنثى استحياها، وإن كان ذكرًا قتله.."[483]، وقد ذكر الإخباريون المسلمون هذا الحديث على خلاف طفيف في ما بينهم، ولم تكن تلك الأخبار سوى تنويعات على قصة التوراة، إذ يعد العهد القديم المصدر المبكر الوحيد الذي ورد فيه ذكر موسى وفرعون، أما المأثورات المتأخرة حول شخصية فرعون موسى، التي وردت في أعمال المؤرخين والرحالة، فيبدو أنها لم تكن سوى مجموعة كبيرة من الأساطير التي أعادت كتابة التاريخ الذي قدمه العهد القديم والإشارات الواردة بالقصص الديني، فقد ورد في الأساطير اليهودية -خارج العهد القديم- وتسربت إلى كتب التاريخ "رأى فرعون في منامه أنه بينما كان جالسًا على عرشه دخل عليه كهل، في يده ميزان، فعلقه أمام فرعون، وأتى بكل شيوخ مصر، وأمرائها وكبرائها ووضعهم في كفة الميزان الأولى، ثم أخذ كبشًا أبيض اللون، ووضعه في الكفة الأخرى، فرجحهم الكبش، واندهش فرعون لهذا المشهد، وتساءل عن السبب وعندما استيقظ، دعا جميع عبيده، وقص عليهم حلمه فخافوا، لكن أحد خصيانه

(483) ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج1، ص118، 119، التلمساني: سكردان السلطان، ص424.

أخبره بأن شرًّا عظيمًا يتربص بمصر، حيث يولد في إسرائيل ولد يخرب جميع أرض مصر، وأشار على فرعون بأن يصدر أمرًا بقتل كل مولود ذكر يُولد في بني إسرائيل"[484].

وبالمقارنة بين ما كتبه الرحالة والمؤرخون في ما يخص فرعون موسى نجد أنه قد ورد عنصر النبوءة -كإحدى سمات الأسطورة- في العديد من قصص الإخباريين المسلمين وفي بعض الأساطير الإسرائيلية، وقد اتخذت النبوءة في هذه القصص والأساطير شكلين، إما إخبار الكهنة والسحرة والعرافين فرعون بولادة مولود في بني إسرائيل، وإما الأحلام[485]، فيذكر المسعودي "أن أهل الكهانة والنجوم والسحر أخبروا فرعون أن مولودًا سيُولد في بني إسرائيل ويُزيل ملكه ويحدث ببلاد مصر أمورًا عظيمة.."[486]، ويذكر المقريزي "أيضًا، أنه عندما أخبر العرَّافون فرعون بميلاد ذلك الطفل، منع بني إسرائيل من المناكحة لمدة ثلاث سنين..."[487]، ويذكر ابن كثير "أن فرعون رأى في منامه وكأن نارًا أقبلت من ناحية بيت المقدس فأحرقت دور مصر وأهلها ولم تضر بني إسرائيل.. فأمر فرعون بقتل الغلمان.."[488].

---

(484) ي. ب. ليبنر: كل أساطير إسرائيل (معدة وفقًا للمصادر الأولى، ومكتوبة بلغة المقرا وفق ترتيب زمني)، (القسم الأول، نشر دار "أحيا ساف" و"عيفر" أورشليم 1950م)، عمود 279.

(485) كارم محمود عزيز: النموذج الفولكلوري للبطل في العهد القديم.. دراسة مقارنة (رسالة دكتوراه -غير منشورة- جامعة الزقازيق 1997م)، ص187.

(486) المسعودي: مروج الذهب، ج1، ص48- 49، التلمساني: سكردان السلطان، ص424.

(487) المقريزي: الخطط، ج2، ص466.

(488) ابن كثير (أبو الفداء الحافظ):البداية والنهاية (المجلد الأول، تحقيق أحمد أبو ملحم وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت 1985م)، ص222، 223.

جدير بالذكر أن الخيال الشعبي قد استعار هيكل تلك الروايات ووظفها في سيرة إبراهيم الخليل عليه السلام، حيث كان مولد إبراهيم عليه السلام في عصر الملك النمرود، الذي عُرف بكفره وعصيانه، وحذره المنجمون من أنه سيُولد في بلده هذا العام، غلام يغير دين أهل الأرض، وأن النمرود "رأى في منامه كوكبًا طلع فذهب منه نور الشمس والقمر حتى لم يبق لهما ضوء، فقال الكهنة: هو مولود يُولد في هذه السنة يكون هلاك أهل بيتك على يديه.."[489]، لتستعين الرواية في سرد سيرة إبراهيم عليه السلام بالأحداث التاريخية، التي يدعمها النص الديني، تملأ ما تجده من فراغ تاريخي بروايات خيالية أو قصص تعليلية تكشف عن رؤية الجماعة الإنسانية لتاريخها وذاتها، خصوصًا مع ميل الشعوب عامَّة إلى قصص حكايات المعجزات والاستماع إليها. فلا غرابة أن تنتزع من سِير الأقدمين تلك الأخبار التي تشير إلى المعجزات والنبوءات فينميها القصاص الشعبي ويفرد لها قصصًا مستقلة.

المزج التاريخي المشوق والتداخل بين التصور الديني والتصور الأسطوري لشخصية فرعون مصر استمرا في كتابات المؤرخين المسلمين في إفلات مثير من قيود الزمان والمكان، حيث يبدو هذا واضحًا في ما رواه المؤرخون عن فرعون مصر المدعو "كلكن الجبار، الذي كان يعقد التاج على رأسه، وكانت دار مملكته منف.. وكان نمرودًا جبارًا شديد البأس، وكان ملكه بالعراق، وكان قد أُوتي قوة وبطشًا، فغلب على أكثر الأرض فأراد أن يستوزر كلكن الملك، وبعث إليه في ذلك، فخافه كلكن وأجابه إلى ذلك،

---

(489) انظر: نبيلة إبراهيم سالم: السيرة النبوية بين التاريخ والخيال الشعبي (بجلة "عالم الفكر"، المجلد الثاني عشر، العدد الرابع، الكويت 1982م)، ص345 ص349.

ووجه إليه أنه يريد أن يلقاه منفردًا من أهله وحشمه، ليريه من حكمته وسحره، فسار النمرود إلى موضع يلقاه فيه كلكن، فأقبل كلكن، تحمله أربع أفراس ذوات أجنحة، وقد أحاط به نور كنار، وهو في صورة مهيبة، فدخل بها وهو متوشح تنينًا عظيمًا والتنين فاغر فاه، ومعه قضيب آس، فكلما رفع التنين رأسه ضربه بالقضيب الذي بيده، فلما رأى النمرود هالة ما رآه، واعترف له بجليل حكمته، وسأله أن يكون له ظهيرًا ففعل.."(490).

هذه القصة الخيالية تحمل ظلاً من الفرضية القائلة: إن الحاكم الذي كان يجمع ما بين السلطة الزمنية والسلطة الروحية في المجتمع يمارس السحر، يتراءى لعامة الناس كمتبحر في أسراره وطقوسه، ليخلق حول شخصه أسطورية سحرية تضفي عليها صفات بطولة أو -على الأقل- تجعله شخصية مبرزة مرغوبة ويخشى بأسها(491). ونجد أن شخصية فرعون مصر ظلت تشغل حيزًا لا بأس به في الكتابات التاريخية التي تناولت فضائل وتاريخ مصر القديم. كما أن الرواية السابقة قدمت إلينا الصورة التي شاعت في المجتمع المصري عن فكرة "المخلوقات العجيبة من طير السماء أو وحش الأرض أو الماء"، التي تكشف لنا كيف ربط الخيال الشعبي بين هذه المخلوقات وبين الحاكم الديني والسحر، فالحاكم الديني أو الساحر يستطيعان بحكم قواهما السحرية والدينية أن يستدعيا "التنين الوحش" لتدمير من يريدان، أو لإخافته شخصًا كان أو

---

(490) المقريزي: الخطط، ج1، ص35، ابن محشرة: الاستبصار في عجائب الأمصار، ص70.

(491) شفيق مقار: السحر في التوراة والعهد القديم (طالأولى، دار رياض الريس، بيروت 1990م)، ص312، 161.

ربما مدينة.. وهذا يبدو طبيعيًّا ما دام ربط الخيال الشعبي بين هذه المخلوقات والحاكم الديني الذي يمتلك قوى سحرية ومعجزات أو كرامات يسخّر بها قوى ما فوق الطبيعة أو يسخِّر بها المخلوقات الضارة المدمرة، التي ترعب الإنسان وتذهب بلبه وتنال منه ومن شجاعته ومن وجوده كله، التي تصبح خدمًا لمن يملك الطلسم الذي يتحكم فيهم أو من يعرف الاسم الذي مكن لسيدنا سليمان ﷺ أن يتحكم في قوى الطبيعة من رياح وأمطار، وعلى قوة المعرفة التي جعلته يعرف كل اللغات بما فيها لغات الطير والحيوان والهوام أيضًا، وحين سُرِقَ كتاب السحر من تحت إيوانه تعلم منه السحرة والكهنة الكثير من الأسرار وامتلكوا الكثير من القوى التي أعارتهم في كثير من الحكايات القدرة على التحكم في الطبيعة والجان والحيوان كـ(التنين)، هذا الحيوان الأسطوري بما مثَّلهُ من شخصية هامة في الحكايات الفولكلورية والأساطير التي صاغت فيها الأجيال معتقداتها وصنوف رعبها وتشوفها وتصوراتها عن الكائنات القوية والقوى الخفية الكامنة وراء ظواهر العالم المرئي وغير المرئي، ومن النسيج المتراكب والمتشابك المتداخل من الحكي الفولكلوري، والإبداع الأسطوري الذي ظل يتناقل شفاهًا من جيل إلى جيل.

الفصل السادس..
الأساطير المتعلقة بأصول المدن المصرية

"كلما تضارب مدينتنا بالثراء نفتقر نحن؛ فمدينتنا تخدعنا غالبًا..."

الرحَّالة جناب شهاب الدين

"على طريق الحج / 95"

اختلفت آراء العلماء بشأن ظاهرة التعليل باعتبارها سمة للأسطورة، حيث ذهب فريق إلى أن التعليل ليس هو الخاصية المميِّزة للأسطورة، بينما ذهب فريق آخر -يتزعمه كاسيرر- إلى أن التفكير الأسطوري يتميز عن العالم النظري بفكرته عن السببية. وأيًّا ما كان الأمر، فإنه مما لا شك فيه أن هناك نوعًا من الأساطير يرتكز في أساسه على فكرة التعليل، وهو ما يتمثل في نوع أساطير الأصل، وإن كانت تنتمي إلى نوع آخر من القصص الشعبي يسمَّى الحكايات التعليلية، أكثر من انتمائها إلى نوع الأسطورة[492].

وتبرز فكرة التعليل في عديد من الحكايات التعليلية أو أساطير الأصل التي تؤصِّل لمدن مصر القديمة التي شُيِّد بعضها زمن الفراعنة وشُيِّد بعضها الآخر على امتداد تاريخ مصر الطويل، وحول هذه المدن القديمة دارت موضوعات الموروث الشعبي في إطار خيالي يعكس مدى الانبهار والإعجاب بهذه المدن -وإن احتوت على أخطاء معرفية واضحة- وقد جمع الرحالة والمؤرخون المسلمون والعرب عددًا من الأساطير والروايات الخيالية حول هذه المدن في إطار يجمع بين الأسطورة والتاريخ،

---

(492) أرنست كاسيرر: الدولة والأسطورة (ترجمة: أحمد محمود، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1975م)، صفحات متنوعة؛ كارم محمود: الأسطورة فجر الإبداع، ص422.

والاقتراب من الخيال الشعبي في وصفهم التفصيلي لمدن مصر؛ التي قد يكون لها وجود فعلي ملموس أو مدن لا وجود لها في عالم الواقع مثل مدينة أمسوس المصرية – التي اعتقد الناس والمؤرخون بوجودها قبل الطوفان– وكان ذلك وحده كافيًا لإطلاق خيال الرواة والقصاصين فنسجوا من وحي خيالهم أسطورة أمسوس المفقودة[493]، بفعل الطوفان، مما يفصح لنا عن أفكار كثيرة تبادلت التأثير والتأثر مع حكايات ألف ليلة وليلة.

يقول ابن إياس: "مدينة أمسوس وهي مصر القديمة، وكانت من أعظم المدائن، وبها من العجائب ما لم يُسمع بغيرها، ولكن محا الطوفان رسمها ونسي اسمها..."[494]. فهي عند المقريزي: "أول مدينة عُرِفَ اسمها في أر ض مصر (مدينة أمسوس). وقد محا الطوفان رسمها ولها أخبار معروفة، وبها كان ملك مصر قبل الطوفان، ثم صارت مدينة مصر بعد الطوفان مدينة منف، وكان بها ملك القبط والفراعنة إلى أن خربها بخت نصر، فلما قدم الإسكندر بن فيليبش المقدوني من مملكة الروم، عمَّر مدينة الإسكندرية عمارة جديدة، وصارت دار المملكة بمصر. إلى أن قَدِمَ عمرو بن العاص بجيوش المسلمين، وفتح أرض مصر فاختطَّ الفسطاط، وصارت مدينة مصر إلى أن قدم جوهر القائد بعساكر المعز لدين الله أبي تميم معه وملك مصر واختطَّ القاهرة... وصارت القاهرة مدينة مصر إلى يومنا هذا."[495].

---

(493) فكرة المدينة المفقودة تُعدّ من الأفكار الشائعة في ثقافات عديد من الشعوب.

(494) ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج1، ص9.

(495) المقريزي: الخطط، ج1، ص128؛ القلقشندي: صُبح الأعشى، ج3، ص315.

وبعد أن يُورد المقريزي أسماء عدد من المدن المصرية يُورد حكاية خيالية عن أن "مصر بن بيصر" قسّم الأرض بين أولاده، فأعطى ولده "أشمون" من حدّ بلده إلى رأس البحر إلى دمياط، وأعطى ولده "أنصنا" من حد أنصنا إلى الجنادل، وأعطى لولده "صا" من صا، أسفل الأرض، إلى الإسكندرية، وأعطى لولده "منوف" وسط الأرض السفلى منف وما حولها، وأعطى لولده "قفط" غربي الصعيد إلى الجنادل، وأعطى بناته الثلاث شرقي الأرض إلى البرية (يقصد صحراء الشرق)، وأعطى بناته الثلاث وهن الفرما وسريام وبدورة، بقاعًا من أرض مصر محددة في ما بين إخوتهن..."[496]. وتكمل الروايات التاريخية المتأخرة شجرة النسب لباقي المدن المصرية فتقول: "قد خلفه ابنه مصرايم المولود بالعريش فصار ملكًا مستقلًا عظيمًا ينفذ حكمه في إسنا (أسن)، وأسوان (إشوان) والسودان (سودان)، حتى بلاد الفونج (فوبحستار)، وعمد إلى أقاليم مصر، فوزعها على الإخوة الثلاثين (وهو منهم) ثم بنى كل واحد منهم في البلاد التي يحكمها مدينة عظيمة، لا تزال تسمى بأسماء أولاد (بيطر) بفضل دعاء سيدنا نوح، مثال ذلك أن أحد أبناء (بيطر) كان يدعى (رشيد) فبنى المدينة التي هي الآن بهذا الاسم والآخر كان يدعى (دمياط) وثالث كان (إسكندر) وآخر تينبر (تينه)، وكذا (سيفه) الذي بنى مدينة بني سويف وآخر يدعى (مينه)، وكذا أشمون وأسيوط وجرجه وتنا (قنا) وقوس (قوص) وإسنه وأسوان (أثوان) وإبريم وصياني وحلفا (حلفه) وسنارة وسودان وغيره من أمثال هذه الأسماء التي كان

(496) المقريزي: الخطط، ج1، ص129؛ ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص29؛ السيوطي: حُسن المحاضرة، ج1، ص ص 14-15.

يتسمى بها الأمراء الذين بنى كل واحد منهم مدينة لا تزال باقية على الدهر عامرة آهلة بالسكان في شواطئ النيل حتى الآن..."[497]، وعن نسب مدينة أتريب يقول القلقشندي: "بناها أتريب بن قبطيم بن مصر بن بيصر بن حام بن نوح ﷺ"[498].

يتضح من هذه الروايات الخيالية مدى تأثر الرواة بالأنساب العربية؛ ذلك أن عدم القدرة على معرفة أسباب تسميات المدن المصرية القديمة جعل الخيال يجنح إلى حد تصور أن هذه المدن قد اكتسبت أسماءها من أبناء "مصر بن بيصر بن حام بن نوح ﷺ -الذي تُنسب إليه اسم مصر- الذين قسمت بينهم أرض مصر، بل إنه ينسب بعض الأسماء إلى بنات تلك الشخصية مثل "الفرما" التي تنازع في نسبها -الفرما- الاتجاه المصري القبطي مع الاتجاه الإغريقي في المجتمع المصري إذ تقول إحدى الروايات: "كان للإسكندر أخ يسمى الفرما، فلما بنى الإسكندر الإسكندرية، بنى الفرما، الفرما على نعت الإسكندرية ولم تزل الفرما مُذ بُنيت رثة..."[499]. وفي هذا السياق يشير ابن إياس إلى نسب مدينة تنيس المندثرة بقوله: "قال المسعودي: إن الذي بنى مدينة تنيس كانت امرأة تسمى تنيس وهى بنت صا بن تدارس أحد ملوك القبط فسُمِّيت تلك المدينة بها"[500].

وتكشف الأساطير التي تدور حول المدن المصرية القديمة، بما تحويه من أخبار

---

(497) أولياچلبي: سياحتنا مه مصر، ص36.

(498) القلقشندي: صُبح الأعشى، ج3، ص381.

(499) السيوطي: حُسن المحاضرة، ج1، ص41.

(500) ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج1، ص50.

العجائب والغرائب، عن مدى إعجاب الرواة وانبهارهم بإنجازات الحضارة المصرية القديمة وهو الأمر الذي يبدو واضحًا من خلال تلك القصص الخيالية من الأعمال الإعجازية لملوك مصر القديمة، يقول المقريزي تحت عنوان "ذكر مدينة أمسوس وعجائبها وملوكها".

"... وأول من مَلَك مصر نقراوش الجبار بن مصرايم. ومعنى نقراوش ملك قومه ونقراوش هو الذي بنى مدينة أمسوس وعمل بها عجائب كثيرة؛ منها طائر يصفر كل يوم عند طلوع الشمس مرتين، وعند غروبها مرتين، فيستدلون بصفيره على ما يكون من الحوادث حتى يتهيؤون لها، ومنها صنم من حجر أسود في وسط المدينة تجاهه صنم مثله إذا دخل سارق المدينة لا يقدر أن يزول حتى يسلك بينهما؛ فإذا دخل بينهما أطبقا عليه فيؤخذ. وعمل صورة من نحاس على منار عالٍ لا يزال عليها سحاب يطلع فكل من استمطرها أمطرت عليه ما شاء. وعمل على حد البلاد أصنامًا من نحاس مجوفة وملأها كبريتًا، ووكل بها روحانية النار. فكانت إذا قصدهم قاصد أرسلت تلك الأصنام من أفواهها نارًا أحرقته، وعمل فوق جبل بطرس منارًا يفور بالماء ويسقى ما حوله من المزارع، ولم تزل هذه الآثار حتى أزالها الطوفان..."[501].

رواية ابن إياس عن مدينة أمسوس جاءت على نحو مشابه لرواية المقريزي مع بسط في التفاصيل عن دور ملوك مصر القديمة في تطوير "أمسوس" بقوله: "... مصرايم وهو الذي بنى مدينة مصر، وإليه تنسب وكان عالما بعلم الكهانة

(501) الخطط، ج1، ص129.

والطلسمات.. كتب على أبواب مصر: أنا مصرام بن تبليل قد بنيت هذه المدينة، وأودعت بها الطلسمات الصادقة والصور الناطقة. أما ابنه عرياق فكان عالما بعلم الطلسمات وله أعمال عجيبة، وكان قد عمل قبة عظيمة في وسط مدينة أمسوس وعمل فوقها كالسحابة تمطر مطرًا خفيفًا شتاءً وصيفًا، وعمل تحت تلك القبة مطهرة فيها ماء أخضر يتحصل من ذلك المطر، فإذا استعمله من به عاهة بَرِئَ من وقته ولما هلك تولى من بعده ابنه لوجيم، وكان عالما بعلوم الطلسمات والسحر وله أعمال عجيبة؛ منها كانت الغربان قد كثرت في أيامه، وصارت تفسد الزروع والغلال، فعمل أربع منارات في جوانب مدينة أمسوس، وجعل على كل منارة صورة غراب[502]، وعليه صورة حيَّة قد التوت، فلما عاين الغربان ذلك نفروا عن المدينة ولم يدخلوها بعد ذلك في مدة أيامه، ومنها أنه عمل طلسمًا للريح، فكانت المراكب المقلعة إذا وصلت إليه تقف ولا تسير حتى يجعلوا له على كل مركب ضريبة معلومة، حتى يطلق لهم الريح من الجو، واستمر في الملك حتى هلك..."[503].

وعن ملوك أمسوس المزعومين يتحدث أوليا جلبي عن أحدهم بقوله: "خلفه

---

(502) العقرب: الصورة النموذجية لهذا الكائن العنكبوتي الخطر من أقدم النقوش الهيروغليفية المعروفة. وقد استعمل لكتابة اسم حاكم من عصر ما قبل الأسرات، وهو الملك العقرب وكان العقرب إلهًا عُبِد بأسماء مختلفة كما كانت تعاويذ يستخدمها الناس ضد لدغة أي نوع من الزواحف، ووردت في أساطير مصر القديمة حيث تجرأت العقارب التي هي أعداء البشر وخصوم الآلهة ذات مرة، على أن تلدغ الآلهة ولكن الآلهة كانوا أقوى من السم واستطاع البشر بواسطة السحر أن يجعلوا لحمهم كلحم الآلهة. چورچ بوزنر وآخرون: معجم الحضارة المصرية القديمة، ص234.

(503) ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الزهور، ج1، ص ص 10-11.ح وانظر ابن وصيف شاه: فضائل مصر وأخبارها، ص20.

أخوه مصرايم بن نقراوش في الملك وكان هذا حاكمًا ماهرًا وكاهنًا ساحرًا؛ إذ سخَّر بقوة علمه جميع السباع والحيوانات المفترسة والمرعبة لأمره، بل إنه جعل الشياطين والعفاريت تخضع له وتحمل له عرشه"[504]. ويقول ابن إياس عن إنجازات ملوك أمسوس المزعومة: "بنى أحدهم قلعة وكانت الجن والشياطين تحمل سريره على أعناقهم ويطوفون به في سائر أقاليم الدنيا، ثم يرجعون إلى قلعته التي بناها وسط البحر، فاستمر على ذلك حتى هلك"[505].

ويلاحظ في تلك الروايات الحضور الطاغي للأشكال الحيوانية المصاحبة لأعمال الملوك القدامى الذين كانوا جميعًا على علم بالسحر والطلسمات. وظاهرة هذه الأشكال الحيوانية تكاد تنتشر في روايات المؤرخين والرحالة في سياق حديثهم عن الأعمال الإعجازية لملوك مصر القدامى -كطلاسم سحرية- بزعم قدرتها على تحقيق أغراض متنوعة. ولعل من أكثر الجوانب سحرًا في الثقافة المصرية القديمة، تعدد الحيوانات التي تعبر وتجسِّد ضمن مجموعة الآلهة. فكل حيوان معروف تقريبًا نال قداسة، ورؤي أنه يحمل روح أحد الأسلاف، وخصائص الإله الذي يجسده. وكان كل إله تقريبًا يمثله ويجسده حيوان معين. ومثلها مثل الفراعنة، اعتبرت حيوانات معينة وسيطة بين الإنسان والآلهة. وقدمت الهدايا للحيوانات باعتبارها تجسيدًا للآلهة، في مقابل الحصول على خدمة من الإله المطلوب. من هنا اكتسبت الأشكال الحيوانية قواها السحرية والعقائدية. وجمعت في خلقها بين الغرض الديني والغرض النفعي.

---

(504) المرجع السابق، ص11؛ سياحتنامه مصر، ص30.

(505) ابن إياس: المصدر السابق، ص10.

وقد أشار أحمد أمين إلى هذا المعتقد الذي يقوم على تلاوة عزائم سحرية خاصة على المادة المعدة لذلك لتحقيق المراد منها، ويذكر (الطلسم) الموجود في الأزهر الذي يقال إنه يمنع العصافير من الدخول إلى المسجد من أنه مكان مناسب لذلك، كما يشير إلى الاعتقاد بوجود (طلسم) بالإسكندرية لمنع الحدأة، ولهذا يزعمون أنه السبب في عدم وجود الحدأة في جو الإسكندرية. ومن طرائف الأمور أن الجاحظ في كتابه "الحيوان" ذكر عند زيارته حمص بسوريا، أنه لم يجد بها عقارب، فلما سأل عن ذلك قالوا له: "إن بها طلسمًا يمنعها من البقاء، فلم يرض عن ذلك وعلله بأنه ربما كان جو حمص لا يناسب العقارب، أو أن فيها من الحيوانات التي تهاجمها فهربت منها[506].

وفي مصنفات السحر الشعبي نجد كثيرًا منها يورد وصفات مفصلة لأنواع من الطلاسم السحرية بزعم أنها تحقق أغراضًا معينة. والتي تقوم جميعها على الرسوم الحيوانية والرموز السحرية المرتبطة بها، منها ما يعتقد أنه لنفي العقرب، ويكون بصنع صورة عقرب من ذهب في ساعة معينة وطالع معين يفضل أن يكون الأسد لمخالفة طبعه لطبع العقرب، وتصنع الصورة مجزَّأة (الذنب، الرجلين، اليدين، والرأس) ويهدف هذا الوضع المعكوس إلى النفي[507].

كما نجد تقليدًا مشابهًا يقوم به أصحاب الخيول العربية، حيث يقومون بطقس

---

(506) أحمد أمين: قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية (ط1، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1953م)، ص278.

(507) محمود نصار: غاية الحكيم للمجريطي (343هـ-)، (مكتبة الجمهورية، القاهرة، ب.ت)، ص ص 16-23، وانظر أيضًا سليمان حسن: الرموز التشكيلية، ص37.

مشابه لطرد الهوام والحشرات من مرابط الخيل فمنها: "العقارب: إذا أخذت عقربًا وقتلتها فأحرقها بالنار، فإن جميع العقارب التي في المكان إذا شمّت ريح تلك العقرب هربت من المكان... ومنها ما يعمل لطرد النمل عن مواضع الخيل ومرابطها والدواب... وهو أن تحرق نملتين أو ثلاثًا أو أربعًا، وبَخِّرها في مواضع أحجار النمل واطْلِ رأس الجُحر بقطراتٍ، أو قَطِّرهُ فيه وليكن ذلك قبل خروج النمل من الجُحر.. "(508).

أما الثعبان أو الحيَّة التي طالما ظهرت مع طلسمات فراعنة مصر القديمة لحماية المدن المصرية فهي دون سائر الحيوانات الأخرى لها تاريخ طويل تحفّه الأساطير من جوانبه كافة. وتكاد لا تخلو أمة من أساطير دارت حولها وخلاصة ما قيل عنها؛ أنها تمتلك العشب ذا القوة السحرية، كما نظر إليها كجن أو شيطان له قوة خارقة تلحق الأذى أو الجنون بكل من يحاول إيذاءها، وارتبطت حياة الناس بالحية ارتباطًا وثيقًا لانتمائها إلى عالم آخر، يفوق طاقة الإنسان. أحمد النعيمي: الأسطورة في الشعر العربي قبل الإسلام، ص180، كما أن الأفعى أو الحيَّة لعبت دورًا مهمًّا في الموروث الشعبي حيث قامت بدور الحارسة أو الحامية للإنسان، كما تقوم بمطاردة من يمثلون الدّنس في الجماعة. وتروي الحكايات الشعبية الحكايات عن الحية التي تحرس مسجد البيومي بالحسينية، وأفعى الشيخ هريدي في صعيد مصر، وهو أحد الأولياء في أقاصي الصعيد ويستمد هذا الولي شهرته من امتلاكه أفعى عظيمة تقيم خلف مسجده،

---

(508) بكوت الرماح الخازندار الظاهري: علم الفروسية وسياسة الخيل (تحقيق: محمود عبد الرحيم صالح، مطابع الحرس الوطني، الرياض1986م)، ص124.

شاع عنه أنه يستطيع شفاء الناس من الأمراض والعلل عن طريق تسليط الأفعى على الجزء المريض في جسد الشخص، فتمتص الأفعى ذلك المرض ويبرأ المريض. ولعل أشهر الأولياء الذين ارتبط اسمهم بالحيات هو الشيخ أحمد الرفاعي الذي يقوم مسجده الكبير بمنطقة القلعة في القاهرة[509].

ولعل الخوف والرعب أيضًا هما اللذان دفعا المصريين إلى تقديس كائنات مرعبة أخرى مثل العقرب والحشرة السامة الكبيرة ذات الألف قدم، ثم أخطر الثعابين السامة المعروفة باسم (الناشر) فالعقرب هى الإلهة الكبيرة (سلكت). أما الحشرة ذات الألف قدم فقد عُبدت في هليوبوليس تحت اسم الإله (سبا). أما الثعبان السام فقد عُبد في شكلين مختلفين: أولهما هي الإلهة (بوتو) حامية ملك مصر، والثاني هو (الصلّ) حامي إله الشمس وزميله. وانتشرت الثعابين المقدسة في مصر إلى درجة أنه في العصور القديمة أصبح اسم كل إله يخص برسم ثعبان مثل الصقر الذي اعتبر مخصصًا لكلمة الإله (في الكتابة المصرية القديمة) بل أكثر من ذلك صوّرت الإلهة الصغيرة الطيبة (رنن أوتت) إلهة الحصاد على شكل ثعبان[510].

ثم بعد ذلك أصبحت العادة تحتّم أن يحوي كل معبد نموذجًا حيًّا من هذه الثعابين. وعلى كل حال فقد كانت كل مديرية تحتفظ بعدد كبير من الحيوانات والأشياء التي لم تعتبر آلهة، ولكنها كانت ذات صفة إلهية. ولعل صور هذه الآلهة التي

---

(509) ثناء أنس الوجود: رمز الأفعى في التراث العربي (سلسلة ذاكرة الكتابة، القاهرة 1999م)، ص ص 77-78.

(510) أدولف إرمان: ديانة مصر القديمة، ص56.

ظهرت على جدران المعابد المصرية والآثار القديمة والتي قدسها الناس في شكل أسماك وطيور وفئران وأشجار وثعابين وعقارب وغير ذلك والتي لا نشك أن الجماعة الشعبية وقفت أمامها طويلًا تحاول إيجاد تفسيرات منطقية لوجودها تتفق مع قريحتها الشعبية المشبعة آنذاك بتأثيرات السحر الشعبي الذي كان متغلغلًا بين شرائح عديدة للناس في مصر آنذاك، هى السبب في وصول تلك الحكايات التي تتحدث عن طلاسم الثعابين والغربان والصقور وغيرها والتي نقلها لنا الرحالة والمؤرخون نقلًا عن رواة التاريخ الشفاهي في عصرهم.

والمتتبع لتاريخ وسيرة مدينة أمسوس سيجد أنها كانت مرتعًا لخيالات الرواة وأخبارهم؛ إذ حملت تلك الأخبار رائحة من التاريخ في الوقت الذي يصطبغ فيه بصبغة أسطورية، فقد حرصت أخبار أمسوس على تضمين نصوصها بشرًا من نوع الملوك المحيطين بعلوم الطلسمات والسحر والأعمال العجيبة والخارقة، التي ساعدت على عمران مدينة أمسوس بعجائب وغرائب تحيَّر في وصفها الإنسان إذا رآها بالعيان، على حد قول المؤرخين رغم عدم رؤيتهم إياها.

كما أن الزعم القائل بمحو الطوفان للمدينة شكَّلَ خلفية تتحرك عليها (موتيفات) وأفكار أسطورية مثل: الطلسمات الصادقة، والصور الناطقة، والكنوز المرصودة، وانفتاح العوالم المرئية واللا مرئية بعضها على بعض، ومن ثم فلا بد من اصطباغ تاريخ وأخبار المدينة بنفس الصبغة الأسطورية بالتبعية، أضف إلى ذلك أن تلك الروايات والأخبار الخاصة بمدينة أمسوس وغيرها من مدن مصر، في جانب مهم منها تؤصِّل لنشأة مصر أرضًا وشعبًا وعمرانًا، وذلك الحدث في ذاته إن شئنا التأريخ له فإنه –بلا أدنى شك– سيصبح خارج إطار العصور التاريخية وينتمي بشدة إلى

عصور الأسطورة، مما يجعله يتخطى حدود الزمن الذي انتمت إليه بدايات نشأة وعمران مدن مصر، هذا علاوة على أن فكرة النشأة والتكوين تعد إحدى الموتيفات الأسطورية البارزة والتي يلزمها إطار زمني أسطوري خالص أوجده الرواة في زمن ما قبل الطوفان.

جدير بالذكر أن أخبار مدينة أمسوس وبعض المدن المصرية أضفت على جزء من تاريخها سمات خاصة بها، عند ارتباطها بكائنات لعبت دورًا في حياتها ونشأتها مثل: الجن والعفاريت والشياطين الذين كانوا القاسم المشترك مع ملوك أمسوس في بناء وتشييد المدينة.

ويسلك الرحالة والمؤرخون المسلك نفسه في سياق حديثهم عن مدينة "منف" وملوكها، فيذكر الرحالة التركي أولياچلبي أحداث ما جرى في مصر بعد الطوفان فيقول: "لم يكن هناك شيء ظاهر سوى جبل الهرة الذي كان قد أقيم بإشارة من النبي إدريس ﷺ تجاه النيل ليأووا إليه، ومع ذلك فإن الذين لجؤوا إليه عند الطوفان قد غرقوا بأموالهم وكنوزهم في مياه الطوفان، هذا وقد قام قليمون وصهره بيطر بن حام بجولة في أرض مصر للبحث عن موطن يقيمان به، فلما وصلا أرض (منف / منوف) وجداها طيبة الهواء لطيفة الجو والمناخ ويحيط بها النهر من كل الجوانب وكأنها جزيرة لطيفة... ثم تراءى لهم أن يبنوا بها ويستقروا لما رأوا من كثرة خيرات الأرض وبركات تربتها، فبنوا بلدة مختصرة أطلقوا عليها اسم (منف / منوف) ومعناه باللسان العبري محل الصفاء والانتعاش، ولا يخفى أن أول مدينة بُنيت على وجه الأرض بعد الطوفان هي قرية جودة (الجودي) التي استوت عليها سفينة نوح ﷺ، وثانية المدن هي بلدة

(منف / منوف) وقد أنشأ بها بيطر كثيرًا من المدن والآثار وعمّرها وحوّل مدينة (منف / منوف) إلى قصبة عظيمة.. واتخذها عاصمة لملكه..."[511].

يضيف المقريزي أن هذه المدينة -منف- كانت في غربيّ النيل على مسافة اثنى عشر ميلًا من مدينة الفسطاط ثم يقول: "... وهي أول مدينة عمرت بمصر بعد الطوفان، وصارت دار المملكة بعد مدينة أمسوس التي تقدم ذكرها إلى أن أخربها بخت نصر"[512]. ويضيف (ابن محشرة) أنه كان بمنف: "فرعون موسى ﷺ وكان اتخذ لها سبعين بابًا من حديد وفصل حيطان المدينة بالحديد والصفر، وفيها كانت الأنهار تجري من تحت سريره وكانت أربعة أنهار... رأيت بمنف دار فرعون، وكنت أمشي في شوارعها ومجالسها وغرفها وجميع سقائفها وحجورها فإذا ذلك كله حجر واحد منقور، فإن كان بناء قد أحكم حتى صار في الاستواء كحجر واحد لا يُستبان فيه جمع حجرين ولا ملتقى صخرتين فلذلك عجب، وإن كان جبلا واحدا فنقر الرجال فيه بالمناقير حتى خُرقت فيه تلك المخارق فهو أعجب وأعجب"[513].

يصفها ابن زولاق بقوله: "أبْنيتها -منف- وعجائبها وأصنامها، ودفائنها وكنوزها التي لا تُحصى.. وفيها بيت فرعون قطعة واحدة، سقفة وفرشه وحيطانه حجر أخضر.. وبها آثار الأنبياء والحكماء، وهي منزل يوسف ﷺ، ومن كان قبله، ومنزل

---

(511) أولياجلبي: سياحتنامه مصر، ص ص 35-36.

(512) الخطط، ج1، ص134؛ القلقشندى: صُبح الأعشى، ج3، ص315.

(513) ابن محشرة: كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، ص83؛ قارن. ياقوت: معجم البلدان، ج1، ص97؛ عبد اللطيف البغدادي: الإفادة والاعتبار، ص116، الاصطخري: المسالك والممالك، ص54؛ المقريزي: الخطط، ج1، ص134.

فرعون موسى.. وكان بمنف قبة فيها صور ملوك الأرض متى تحرك منهم ملك يريد مصر بعج الموكل بالقبة بطنه بحربة فيتلف ذلك الملك في موضعه..."[514].

ويسرد (ابن زولاق) رواية تكشف عن ظلال حقيقية تاريخية عن وجود علاقات بين مصر القديمة وبلاد ما بين النهرين[515] في سياق حديثه عن عجائب مدينة منف بقوله: " لما أراد بخت نصر، مصر أرسل رجلا يثق به، أعطاه مئة ألف درهم صلة فاحتال حتى صاهر امرأة من الموكَّلات بحفظ القبة.. داخل القبة وسأل عن الصور ورأى صورة بخت نصر، فقال للمرأة التي تزوجها: ما هذه الصورة؟ فعرَّفته، فقال لها في خلوة: فمتى ينجو صاحب هذه الصورة؟ قالت: يُدهن صدره بدم خنزير، فأخذ دم خنزير وطلا صورة بخت نصر، وهرب وعاد إلى بخت نصر، فأخبره. فسار إلى مصر وكان من أمره ما كان..."[516].

ولعل فكرة النجاة بواسطة دم الخنزير ترجع إلى تقليد شعبي يقوم على عقيدة ذات طابع سحري، وينبئنا هيرودوت أن بعض العرب القدامى في العصر الجاهلي

---

(514) ابن زولاق: فضائل مصر وأخبارها، ص67؛ القزويني: آثار البلاد، ص274؛ ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، ص69؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج5، ص214.

(515) الثابت تاريخيًا أن مصر تعرضت لعديد من محاولات غزوها من الشرق فقد دخل الآشوريون عن طريق حدودها الشمالية الشرقية ووقعت مصر فريسة في يد "آشور آخي الدين" 670 ق.م، ومن بعدهم الفرس سنة 525 ق.م، وقد قدم الآشوريون من شمال العراق إلى مصر غازين؛ وقد أوضح احتكاك هذا الجنس بالمصريين طبيعة الشخصية المصرية فقد قاومت هذا الغزو حتى طردته، وباسم الدين راح كهان وادي النيل يبشرون، ويشجعون الأمراء المصريين حتى تحقق لهم النصر. انظر: عبد العزيز صالح، تاريخ الشرق الأدنى القديم، الجزء الأول، مصر والعراق (القاهرة 1973 م)، ص272.

(516) ابن زولاق: فضائل مصر وأخبارها، ص61.

اعتادوا سكب دمائهم على بعض الأحجار التي كانوا يقدّسونها وتُدعى الأنصاب، مبتهلين في الوقت نفسه إلى الآلهة التي كانوا يقدّسونها وقتذاك. وكان من عادات العرب في الجاهلية أيضًا عندما يريد أحدهم الاحتماء بآخر أن يجرح يده، وعندما تغطيها دماؤه يختم بها على باب من يريد الاحتماء به. وكان حلف الدماء عند بعض الشعوب الإفريقية يقتضي أن يشرب الفريقان المتحالفان من الدماء النازفة من صبي أو فتاة تُختن في هذه المناسبة. وهناك نوع آخر من التحالف كان منتشرًا أيضًا عند الشعوب الإفريقية، ولكنه كان مقصورًا على الملوك؛ حيث يبصق كلٌّ من المتحالفين في فم الآخر، وربما ذكّرنا هذا التحالف بالمثل الشعبي الدارج الذي يقول "تافين في بق بعض"، ويُضرب هذا المثل لمن يردد نفس الكلام الذي يردده زميله[517].

وعند المقريزي تستمر الحكايات لتستعرض ملوك منف حتى تصل إلى من تسميه الرواية "شدات بن عديم" فيقول: "وهو الذي تسميه العامة شداد بن عاد، وكان عالما كاهنًا ساحرًا، يقال إنه هو الذي بنى الأهرام الدهشورية، وعمل أعمالًا عظيمة وطلسمات عجيبة، وبنى في الجانب الشرقي مدائن وفي أيامه بُنيت قوص.. وغزا الحبشة وسباهم[518]، وأقام ملكًا تسعين سنة، وهو أول من اتخذ الجوارح، وصاد

---

(517) سعد الخادم: الفن الشعبي والمعتقدات السحرية، ص35.

(518) الثابت تاريخيًا أن مصر تعرضت لعديد من محاولات غزوها من الجنوب أيضًا؛ فقد دخل الإثيوبيون مصر من الجنوب وتولوا حكمها خلال الأسرة الخامسة والعشرين ما بين 730 و665 ق.م بعد أن طردوا الليبيين، ولم يعتبر الإثيوبيون أنفسهم دخلاء على مصر، بل رددوا في متونهم أنهم أحلاف طيبة، وأتباع الدين الصحيح لآلهة آمون. انظر: عبد العزيز صالح، تاريخ الشرق الأدنى القديم، الجزء الأول، مصر والعراق (القاهرة 1973 م)، ص272.

بها، وولد الكلاب السلوقية، وعمل في بركة أسيوط تماسيح منصوبة تنصبّ إليها التماسيح من النيل انصبابا فيقتلها، ويعلق جلودها في السفن..."[519].

بيد أن أهم ما يسترعي الانتباه في الروايات الخاصة بمنف أنها أقل إغرابا وخيالًا من الحكايات الخاصة بأمسوس، كما أنها من ناحية أخرى تتحدث عن أولئك الملوك الذين استحدثوا ممارسات حضارية جديدة، مثل الملك شداد بن عديم "أول من اتخذ الجوارح في الصيد وصاد بها، وولّد الكلاب السلوقية"، والملك أشمون بن قبطيم أول من لعب بالكرة والصولجان، وأول من عمل النيروز في مصر (عيد شم النسيم – أو عيد الربيع)[520]، والملك "مرقورة أول من ذلل السباع وركبها"[521]. وكذلك نجد أن الملك خصليم الذي كان عالما فاضلًا في السحر والطلسمات هو: "أول من عمل مقياسًا بمصر لزيادة النيل "[522].

---

(519) الخطط، ج1، ص131.

(520) عيد النيروز: هو عيد رأس السنة القبطية في أول شهر توت ويغلب على الظن أن عادة الاحتفال بهذا العيد متوارثة من قدماء المصريين على الرغم من اسمه الفارسي (ومعناه اليوم الجديد) فقد كان المصريون في عصر الفراعنة يحتفلون بهذا اليوم إكراما لنهر النيل، وفي عصر سلاطين المماليك كان الاحتفال بعيد النيروز يأخذ شكل (احتفالات العامة)، إذ اعتبر ذلك اليوم بمثابة عطلة عامة، فكانت الأسواق تغلَق في ذلك اليوم كما كانت المدارس تعطَّل، ويذكر السيوطي وابن تغري بردي: أن هذا العيد أُبطل نهائيًا منذ سنة 702 هـ، انظر: المقريزي: السلوك، ج2، ص926؛ والسيوطي: حُسن الحاضرة، ج2، ص269؛ وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج8، ص202؛ وقاسم عبده قاسم: دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي (ط. الثانية، دار المعارف، القاهرة 1983 م)، ص110.

(521) الخطط، ج1، ص139.

(522) ابن وصيف شاه: جواهر البحور، ص17.

كذلك نجد أن بعض الحكايات عن ملوك منف تحمل نواة من الحقيقة التاريخية؛ ففي أخبار من تسمية الروايات "الملك تدارس" وجدنا أنه حارب بعض عماليق الشام ودخل فلسطين، وغزا السودان من الزنج والحبش، ومن المعلوم تاريخيًّا أن حروبًا قد نشأت بين مصر القديمة والحيثيين في بلاد الشام، كما كانت توجد حروب بين مصر ضد القادمين من الجنوب[523]، كما أشار المقريزي إلى أن الملك قاليقي بن تدراس: "كان موحِّدًا خالف أهل مصر في عبادة الكواكب والبقر"[524]. وهو ما قد يشير إلى إخناتون محاولات التوحيد في عبادة آتون، أو ربما كانت امتدادا لتوحيد إدريس ﷺ. وعلى أية حال فإن حجم الخيال في روايات منف التي بُنيت بعد الطوفان على حد زعمهم، كان أقل كثيرًا من حجم الخيال في الأساطير المتعلقة بمدينة أمسوس التي كانت قائمة حتى دمرها الطوفان، والتي يبدو أن وجودها نفسه كان ضربًا من الخيال.

والحكايات الخيالية حول مدينة منف كثيرة ومتنوعة ولكنها تدور حول سلسلة أخبار الملوك الذين تصورت هذه الحكايات أنهم حكموا مصر حتى الإسكندر[525]. ويعلق المقريزي على ذلك بعبارة تكشف عن مدى الارتباك الناجم عن وصول إشارات من تاريخ البطالمة في ثنايا الروايات كالتي ذكرها المقريزي في ذكره اسم "نافاطانيوش" وهو اسم يبدو محرَّفًا عن اسم بطليموس في لفظه اليوناني "يتوليمايوس"

---

(523) قاسم عبده قاسم: بين التاريخ والفولكلور، ص75.

(524) الخطط، ج1، ص139.

(525) قاسم عبده قاسم: بين التاريخ والفولكلور، ص70.

وقد عبَّر المقريزي عن هذه الحيرة بعبارة نصها: "... وهذه أسماء رومية -أي يونانية- ولعل بعضها متداخل في ما تقدم..."[526].

وقد يحسن بنا الوقوف مع الكم الهائل من الأساطير التي ساقها المؤرخون عن منف وأمسوس وغيرهما.. فنلاحظ أنها لم تتكون دفعة واحدة؛ إنما استمر كل جيل يضيف إليها من خياله ما يوائم تصورات عهده، وما يزيد من تأثيرها في أذهان محبيها، لذلك فإن الروايات والأفكار التي راجت وتكونت عن منف والمدن المصرية، قد تباينت في ما بين الكتابات التاريخية، وفقًا للزمان ووفقًا للمكان أحيانًا، في تناول الأساطير جملة واحدة دون تفاصيل محددة متتابعة، فكأنهم بدؤوا بالنهاية فاختلط الأول بالآخر دون اعتبار للمراحل التطورية، التي يمكن أن تكون المدن المصرية قد مرت بها ودون حساب للعوامل والظروف الموضوعية التي كان محتملًا وجودها وراء كل خطوة انتقالية.

أما الفيوم، فجاذبيتها بالنسبة إلى كثير من المؤرخين والرحالة كانت تنبع من ارتباطها بأشياء أخرى؛ فالخيال الشعبي يربط الفيوم بيوسف ﷺ، وبشخصيات من التوراة والإنجيل والقرآن، ونبض الحديث عنها بالحياة في كتابات المؤرخين المسلمين والتي كانت تلبي حاجة عند جمهرة القراء، الذين ظلوا على شغفهم بكشف مناطق الظل في ما يتعلق بتاريخ مصر القديم الذي ظل محل جدال فيما بينهم.

يقدم أولياجلبي صورة واضحة عما أورده الموروث الشعبي المتخم بالأساطير حول الفيوم فيقول: "لما كانت مصر أرض الجبارين، فقد غادرها إلى وادي الفيوم

---

(526) الخطط، ج1، ص144.

حيث الهواء المنعش والجو اللطيف، فَسُرَّ بها واعتزم الإقامة فيها -يقصد يوسف ﷺ- لذلك بنى مدينة الفيوم في ألف يوم فسميت المدينة "الفيوم" تصحيفا من عبارة "ألف يوم".. وبينما كان يوسفﷺ ينقل التراب المتخلف من حفر الخليج بذيل ثوبه الشريف، أمر سبحانه وتعالى جبريل الأمينﷺ أن ينزل ويقدم المساعدة والمدد لحبيبه يوسف، فنزل جبريل كالبرق الخاطف، وضرب بجناحيه بحيرة الفيوم ضربة قوية، فأطار ترابها، وأنقاضها إلى السماء وأنزلها إلى أسفل الغبراء، وضرب جناحًا آخر جهة الصعيد الأعلى، حيث فتح ترعة من النيل جرى فيها الماء حتى بحيرة الفيوم التي لا تزال بحيرة واسعة عميقة تعيش فيها مئات الألوف من الكائنات والخلائق العجيبة والحشرات البحرية.. في حين أن الترعة اليوسفية هذه لكونها من آثار جبريل الأمين لا يحدث بها جرف أو شق قط إلى انقراض الدوران بل يجري فيها النيل دائمًا.. والنيل إذا دخل البحيرة ينقلب ماؤها مرًّا أجاجًا، وفي جوانب هذه البحيرة تقوم ثلاثمئة وست وستون قرية كل واحدة منها تشبه إرم ذات العماد"[527]. ويذكر ابن إياس أن يوسف ﷺ قد بنى "مدينة الفيوم وقيل إنها بُنيت بالوحي إلى يوسف ﷺ على لسان جبريل ﷺ.. ثم عمَّرها في مدة يسيرة فلما فرغت وتم بناؤها، ركب ونظر إليها الملك الريان وصار يتعجب.. فقال ليوسف هذا كان يعمل في ألف يوم، فسميت من ذلك اليوم: الفيوم"[528].

أما الصفدي فيُحسب له أنه ناقش المعتقدات الخرافية التي كانت مستقرة في عصره حول مدينة الفيوم، وانتهى إلى نقدها بقوله: "إن كثيرًا من الناس سطروا في

---

(527) أوليا‌چلبي: سياحتنامه مصر، ص ص 42-43؛ الهروي: الإشارات إلى معرفة الزيارات، ص44.

(528) ابن إياس: بدائع الزهور، ص16؛ ابن محشرة: الاستبصار في عجائب الأمصار، ص ص 90-91.

كتبهم أن فرعون الذي كان يوسف ﷺ وزيره لما كبر يوسف... قال له امضِ إلى هذه الجوبة (يعني الفيوم) فصِلْ ماءها وعمِّرها وكانت إذّاك بركة مملوءة ماء، وأن يوسف ﷺ وصل إليها وسأل الله عز وجل أن يعينه على تنصيل مائها وعمارتها، وأن الحق تعالى أعانه على ذلك بملائكته، وهداه إلى إجراء مائها وعمارتها. والمسافة من عهد يوسف ﷺ إلى الآن بعيدة، وشروط الموثوق بروايته عزيزة شديدة، ولعمري لو كان هذا الأمر جرى لضرب قصصه الواردة في القرآن بحصة بل بحصص، فإن الله عز وجل قصَّ في كتابه العزيز جملًا من أحواله، سماها أحسن القصص، ومع هذا فتصديق الكذب، وتكذيب الصدق، كلٌّ غيب والله سبحانه وتعالى أعلم بالغيب..."(529).

تكشف لنا الروايات السابقة إلى أي مدى شُغل الوجدان الشعبي العربي بقصص الأنبياء، حيث لم تشبع روايات المؤرخين والإخباريين حاجات هذا الوجدان الروحية، فراح يضيف من تصوراته وموروثاته إلى هذه الروايات، يستهدف منها الاستمتاع بسماعها أو قراءتها، وربما لتأكيد المعجزات النبوية، والاستجابة لدوافع أخلاقية واجتماعية من ناحية والترويج لفضائل المدن والبلدان والتعزيز من مكانتها ورفعتها على باقي المدن والأمصار من ناحية أخرى.

وقد كان حظ مدينة الإسكندرية من الموروث الشعبي كبيرًا في كتابات المؤرخين، حيث كانت عاصمة لمصر حين فتحها العرب المسلمون، وكانت من الروعة والبهاء والفخامة بحيث أثارت دهشتهم وعجبهم، وأغرت الكتاب والمؤرخين بالبحث عن أصولها، وبالطبع عن نسبها وعن سحرها الخلاب، وغرائب وعجائب البنيان،

---

(529) الصفدي: تاريخ الفيوم وبلاده، ص4.

وتزامن هذا مع حكايات إرم ذات العماد الخرافية والروايات الخيالية الرائجة على نطاق واسع عن الإسكندر، والتي تركت أصداءها في الكتابات التاريخية.

يشير إليها ابن الوردي بقوله: "بها من الآبار العجيبة، والرسوم الهائلة التي تشهد لبانيها بالملك والقدرة والحكمة، وهي حصينة الأسوار عامرة الديار.."[530].

ورأى ابن بطوطة أنها: "الثغر المحروس والقطر المأنوس العجيبة الشأن الأصيلة البنيان، بها ما شئت من تحسين وتحصين.. فكل بديعة بها اختلاؤها، وكل طرفه فإليها انتهاؤها، وقد وصفها الناس فأطنبوا، وصنفوا في عجائبها فأغربوا.."[531].

بدأ المقريزي حديثه عنها فقال: "... هذه المدينة من أعظم مدائن الدنيا، وأقدمها وضعا وقد بنيت غير مرة، فأول ما بُنيت بعد كون الطوفان في زمان مصرايم بن بيصر بن نوح ﷺ، وكان يُقال لها إذاك مدينة راقودة، ثم بُنيت بعد ذلك مرتين، فلما كان في أيام اليونانيين جددها الإسكندر بن فيلبش المقدوني الذي قهر دارًا ومَلَك ممالك الفرس بعد تخريب بخت نصر مدينة منف بمئة وعشرين سنة شمسية فعرفت به، ومنذ جددها الإسكندر المذكور انتقل تخت المملكة من مدينة منف إلى الإسكندرية فصارت دار المملكة بديار مصر ولم تزل حتى ظهر دين الإسلام"[532].

هنا نجد اختلاطا بين العناصر الأسطورية والعناصر التاريخية في مزيج حيوي، فقد بنى الإسكندر مدينة الإسكندرية فوق بقايا راقودة حقًّا[533]، كما أنه قهر

---

(530) ابن الوردي: خريدة العجائب، ص30.

(531) ابن بطوطة: الرحلة، ص17.

(532) الخطط، ج2، ص144؛ العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ص492.

(533) صمم الاسكندر على بناء مدينة مقدونية في الأراضي المصرية لتنتزع طرق التجارة من الفينيقيين حلفاء

الفرس[534]، ولكن بقية القصة تحمل بصمات الخيال[535]. وأورد ابن محشرة عددًا من الروايات الخيالية حول بناء راقودة منها أنه: "قيل إنه كان سكان البحر يؤذون الناس ويختطفونهم بالليل فاتخذ الإسكندر الطلسمات مصوَّرة على أعمدة رخام على هيئة شجرة السرو، طول العمود منها 80 ذراعًا وهي باقية إلى هذه الغاية، يقال إنها كانت على أعمدة نحاس قد خرقت الأرض فصورت فيها أشكال وصور تمنع وتدفع"[536]. ويضيف العمري أن: "الإسكندر زاد في بنائها، وأطال في منارتها، وجعل فيها مرآة كان يرى منها مراكب العدو عن بعد، فإذا صارت بإزائها، وصدمت شعاعها أحرقها كما تحرق المهاة في الشمس ما قابلها من الخرق، وإن لم تتصل بها، فسميت الإسكندرية من حينئذ، وكان اسمها قبل ذلك (وقودة) وبذلك يعرفها القبط في كتبهم القديمة"[537].

الفرس إلى أيدي المصريين الأصدقاء؛ ومن ثم جاء اختياره لقرية راقودة المجهولة لكي تتحول إلى أعظم مدينة عرفها التاريخ ووجد في راقودة مكانًا حيريًّا صلبًا يرتفع عن سطح الدلتا وقريب من المياه العذبة. انظر: سيد أحمد الناصري: الإغريق تاريخهم وحضارتهم، ص534.

(534) قهر الإسكندر الفرس في معركة حاسمة كانت بداية النهاية للإمبراطورية الفارسية، وهي معركة (جاوجاميلا) في أول أكتوبر عام 331 ق.م. وقد وفدت العناصر الفارسية إلى مصر مرتين، كانت الأولى على يد قمبيز، واستمر بقاؤهم أكثر من قرن خلال الأسرة السابعة والعشرين. والثانية على يد كسرى الثاني عام 616 ق.م، وقد صبغت مصر بعض الأسرات الفارسية بعاداتها فسموا أبناءهم بأسماء مصرية، واتجهوا بدعوتهم إلى الأرباب المصرية وأسهم بعض ملوكهم في إنجاز معابد مصرية في الدلتا والواحات. انظر: سيد أحمد الناصري، الإغريق تاريخهم وحضارتهم، ص536.

(535) قاسم عبده قاسم: بين التاريخ والفولكلور، ص ص 70-71.

(536) ابن محشرة: الاستبصار في عجائب الأمصار، ص93؛ المقريزي: الخطط، ج1، ص144.

(537) العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ص494؛ الهروي: الإشارات إلى معرفة الزيارات، ص ص

ويعلق السيوطي على المنارة بقوله: "في أعلاها تماثيل من نحاس منها تمثال قد أشار بسبابة يده اليمنى نحو الشمس أينمّا كانت من الفلك يدور منها حينما دارت، ومنها تمثال وجهه إلى البحر إذا صار العدو منهم على نحو من ليلة سُمع له صوت هائل يعلم به أهل المدينة طروق العدو، ومنها تمثال كلما مضت من الليل ساعة صوّت صوتا مطربًا، وكان بأعلاها مرآة ترى منها قسطنطينية، وبينهما عرض البحر، فكلما جهز الروم جيشًا رؤى في المرآة.."[538]. وفي كتاب الطلسمات أنها "بنيت طلسمًا لئلا يغلب ماء البحر على أرض مصر"[539].، فهي "أول عجائب الدنيا الأربع" على حد قول الرازي[540].

تلك الحكايات الخيالية مثال على القَصص الدائر في التراث الشعبي حول مدينة الإسكندرية، والقِصص التي تدور حول هذه المدينة كثيرة ومتنوعة الاتجاهات والنزعات، سواء إغريقية أم مصرية أم عربية، يحاول كل اتجاه منها انتزاع تاريخ المدينة وربطه به.

على جانب آخر؛ نجد أن الإحساس الأسطوري بالزمن –في تلك الروايات التي قيلت في شأن الإسكندرية– يأتي في تناسق كامل مع بقية العناصر الأسطورية،

.48-47

(538) السيوطي: حُسن المحاضرة، ج1، ص39؛ الغرناطي: تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، ص57، القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، ص145.

(539) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص211.

(540) الرازي (عمر بن محمد بن عبد الله) (ت 728 هـ–): مسامرة الندمان ومؤانسة الإخوان (تحقيق: وليد مشوح، الطبعة الأولى، مركز زايد للتراث، الإمارات 2003 م)، ص177.

كالشخصيات والأماكن الأسطورية، والمخلوقات حبيسة الفولكلوز، إلى غير ذلك من عناصر أدت إلى طمس المعالم التاريخية للأحداث والشخصيات والأماكن. وكان من الضروري بعد أن تمت عملية تجريد الشخصيات والأماكن من شكلها التاريخي الواقعي أن يوضع هذا كله داخل إحساس أو إدراك خاص بالزمن يبتعد عن الإحساس التاريخي بالزمن وينقلنا إلى عالم لا مكان فيه للزمن المحدود، ولا اعتراف فيه بالتطور الزمني ولا بالتقسيمات الزمنية الإنسانية، ويعطينا وحدات زمنية مختلفة عما عهدناه من فهم وإدراك للزمن عند الإنسان[541]. من تلك الأماكن والمدن التي ألهبت خيالات الناس وأقلام المؤرخين "إرم ذات العماد[542]" وهي المدينة التي ورد ذكرها في القرآن الكريم[543]، وقد كان ذلك كافيًا لإطلاق عنان الخيال الذي ربط بين مدينة الإسكندرية وبين مدينة (إرم ذات العماد) إذ يقول المؤرخون: "إن إرم ذات العماد هي الإسكندرية، وقال الناظرون في الأعمار في جميع الأقاليم والأمصار: لم تَطُلْ

(541) محمد خليفة حسن: الأسطورة والتاريخ في التراث الشرقي القديم، ص124؛ كارم عزيز: الأسطورة فجر الإبداع، ص106.

(542) "جاء في أساطير العرب أنّ (إرم ذات العماد) مدينة عجيبة بناها شدّاد بن عاد من حجارة الذهب واللؤلؤ والجواهر فكانت فتنة باهرة للعيون لا يقدر القادم إليها من بعيد أن ينظر إليها إذا واجهها في ضوء النهار، ثمّ أقفرت هذه المدينة العجيبة واختفت في الصحراء، فهي في مكان محجوب عامرة بقصورها السحريّة وكنوزها المباحة، ولكن لا وصول إليها، وقد طلبها كثيرون فهلكوا أو ضلّوا وعادوا قانعين من الغنيمة بالإياب. وتعد من المدن المسحورة تلك المدن التي عُرفت في زمن ما واختفت بصورة غامضة، وارتبطت بشكل ما بالغرابة والعجائبيّة نحو إرم ذات العماد"، محمد الصالح: الرحلات الخيالية في الشعر العربي الحديث (منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق 2000 م)، ص177.

(543) "أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (6) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (7) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ(8)" [الفجر].

أعمار الناس في بلد من البلدان كطولها بمريوط ووادي فرغانة، ومريوط قرية من قرى الإسكندرية بالقرب منها وهي كبيرة ولها بساتين كثيرة"(544). ويقول الرحالة البلوي: "ذكر المفسرون عن ابن كعب قوله: إرم ذات العماد: أنها الإسكندرية، فهي أعجب البلدان وفيها بنيان عجيب، ذكر صاحب الجغرافيا أنها بنيت في ثلاثمئة سنة، وأن أهلها مكثوا سبعين سنة لا يمشون فيها بالنهار إلا معصَّبين"(545).

ثمة رواية أخرى تقول: "ذكر جماعة من أهل العلم أن الإسكندر المقدوني انتهى إلى موضع الإسكندرية، فأصاب في موضعها آثار بنيان عظيم عليه مكتوب بالقلم المسند –وهو القلم الأول من أقلام حمير وملوك عاد "أنا شداد بن عاد بن شداد بن عاد، شيدت بساعدي البلاد، وقطعت عظيم العماد من الجبال والأطواد، وأنا بنيت إرم ذات العماد، التي لم يُخلَق مثلها في البلاد، وأردت أن أبني هنا كإرم، وأنقل إليها كل ذي إقدام، وكرم مع جميع العشائر والأمم"(546).

وهكذا، لم تخل الروايات التي تناولت أصل الإسكندرية من تأثير الاتجاهات الثقافية السائدة ومحاولات نسبة أصلها إلى الإغريق أو العرب والمتعربين أو المصريين تماما مثلما حاولت تلك الاتجاهات نسبة مصر إلى أصولهم. كما تكشف لنا الروايات كيف أنها كانت تستمد نواتها من القصص الديني، ثم تأخذ في البناء عليها من

(544) ابن محشرة: الاستبصار في عجائب الأمصار، ص100.

(545) البلوي: تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، ج1، ص198؛ الهروي: الإشارات إلى معرفة الزيارات، ص44؛ إسحاق بن المنجم: آكام المرجان، ص22.

(546) المسعودي: مروج الذهب، ج1، ص370.

الأحداث والشخصيات والأخبار والأزمان التي تلائمها، وتلائم رؤيتها للتاريخ، والأحداث وتحقق الغرض التي ترمي إليه. كما نلحظ في بعض الروايات تبادل التأثر والتأثير بين كتب التراث القديم وألف ليلة.

كما لم تخلُ سيرة مدينة الإسكندرية وأخبارها وبعض المدن الأخرى من فكرة الشخصيات الحارسة والطلسمات التي كانت تلازم بناء المدن المصرية القديمة سواء قبل الطوفان أو بعده. فنجد الروحانيات والجن والشياطين وحكاياتهم المستمَدة من الأساطير لها دور في الروايات الخاصة ببناء المدن المصرية القديمة تخلق نوعًا من الغموض على المستوى الزمني والمكاني للمدن المصرية، تحاول فيه مثل تلك الأخبار خلق صيغة زمنية ومكانية قد يكون لأحداث الرواية فيها نوع من المعقولية بالمعنى العادي، مثال ذلك ما أورده الغرناطي بقوله: "الجن قد عملت لسليمان ﷺ في الإسكندرية مجلسًا من أعمدة الرخام الأحمر الملون، بأنواع الألوان الصافي، كالجذع اليماني المصقول كالمرآة إذا نظر الإنسان فيها يرى من يمشي خلفها لصفائها. وعدد الأعمدة ثلاثمئة أو نحوها، كل عمود ثلاثون ذراعًا على قاعدة من رخام، وعلى رأسه قاعدة أخرى من رخام في غاية الإحكام.... وكان قد قطعت الجن سقف ذلك البيت الذي هو مجلس سليمان ﷺ من حجر واحد أخضر مربع"[547].

الإسكندرية إذن، أضفت على تاريخها خصوصية شديدة عند ارتباط نشأتها بكائنات غيبية وظروف غامضة، فالجن يبني ويعمر، والسحر والطلسم يحمي ويقهر، وبنيان الأعمدة يبهر: "ومن عجائبها أن بالإسكندرية أسطوانة متحركة والناس يقولون

(547) الغرناطي: تحفة الألباب، ص57؛ الأبشيهي: المستظرف في كل فن مستطرف، ج1، ص546.

إنها تتحرك بحركة الشمس، وإنما قالوا ذلك؛ لأنها إذا مالت يُوضع تحتها شيء، فإذا استوت لا يمكن أخذها، وإن كان خزفًا أو زجاجًا يُسمع تقريعه"[548]، فهذه "الأسطوانة من إحدى أعاجيب الدنيا، ويقال إن الجن صنعتها لسليمان بن داوود"[549].

والراجح أن حكايات السحر والطلسمات والكائنات الغيبية هذه شأنها شأن أخبار الخوارق والمعجزات تعكس قدرًا كبيرًا من الانبهار والإعجاب الممزوجَين بالنقص الحاد في المعلومات التاريخية، ولا غرابة في أن تحظى مدينة الإسكندرية بهذا القدر الكبير من اهتمام الموروث الشعبي فقد كانت عاصمة مصر منذ أسسها الإسكندر الأكبر وطوال عصر البطالمة، وظلت هي العاصمة حتى بعد ولاية رومانية في النصف الأخير من القرن الأول قبل الميلاد. وبقيت الإسكندرية عاصمة لمصر طوال ما يقرب من سبعة قرون عندما فتحها عمرو بن العاص مصر تحت راية الإسلام في النصف الأول من القرن السابع الميلادي، ولذلك انعكست أهمية العاصمة المصرية في الحكايات الدائرة حول مدينة الإسكندرية، وهي لا تختلف كثيرًا سواء من حيث بنائها الفني، أم من حيث هدفها، عن الحكايات الخيالية حول المدن المصرية الأخرى[550].

أما القاهرة فقد كانت في زمن سلاطين المماليك بمثابة ستارة المسرح الخلفية

---

(548) القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، ج1، ص145.

(549) ابن محشرة: الاستبصار، ص99.

(550) قاسم عبده قاسم: بين التاريخ والفولكلور، ص72.

التي جرت عليها حكايات ألف ليلة وليلة الخيالية[551]، هذه الخيالات الرومانسية التي كانت تمسك بأيدي السامعين، وتجوب بهم الأسواق والمنازل، ليشاهدوا الحياة المتواضعة والراقية في الشوارع والميادين وساحات الإنشاد الديني، وكل ما يمس نسيج الحياة بين الناس[552]. كما كان للقاهرة ظلالها الواضحة في سيرة بني هلال. وهي ظلال لا تقل عن مثيلاتها في قصص ألف ليلة وليلة. فالقاهرة تبدو في السيرة الهلالية واضحة كل الوضوح بخططها وأسواقها وحماماتها ودكاكينها ومساكنها ونحو ذلك. وكان خط السماء اللا متناهي في تنوعه ما بين المآذن والقِباب التي نراها في العاصمة يستلفت نظر جميع الزوار الذين كانوا يسارعون إلى المقارنة بين القاهرة وبقية المدن المصرية القديمة، ورغم حداثة وجودها نسبيًا فإنها سرعان ما سادت الحياة المصرية

---

(551) اكتسبت القاهرة ومدن المشرق العربي في مخيلة الناس أبعادًا ودلالات اقتربت من الأسطورة والخرافة، وأخذ هذا الشرق يتمتع في تلك المخيلة بصفة تكاد تكون «نمطية» تنطوي على الصدق حينًا، وعلى الكثير من التصورات والأوهام الغامضة في أحيان أخرى، ولعل هذه التصورات، التي راحت تتضخم عبر العصور، جاءت من القصص والروايات التي تروى عن الشرق، ولا شك أن أهم عمل أسهم في صياغة هذه التصورات، وأطلق العنان للمخيلة، هو كتاب «ألف ليلة وليلة» الذي يقدم وبشكل مدهش قصصًا خرافية تتحدث عن الأسفار في الصحراء والبحار، وعن الجن، والأقزام، واللصوص، وعن الليالي الملاح، وعن جمال النساء الشرقيات، وعن الوقائع والحوادث الخارقة... وذلك في سرد يومي متلاحق ترويه شهرزاد لزوجها شهريار تجنبًا لعقوبة الموت التي تنتظرها إن هي أخفقت في خلق التشويق لدى شهريار، فالخدعة قائمة على أن ينتظر بشغف الليلة التالية ليسمع بقية القصة، وبهذا المعنى فإن شهرزاد حافظت على حياتها عبر فضيلة القصّ المباركة على عكس سابقاتها اللواتي قُتلن. فالشرق في هذا العمل وفي غيره من الأعمال هو متحف للأعراق، والإثنيات، والثقافات المختلفة، وهو فضاء تتعدد فيه الآلهة والقديسون، الأشرار والأتقياء، وهو موطن حافل بالخرافة والأساطير القادمة من تاريخ غابر قدم قدم مدن هذا الجزء من العالم.

(552) آن وولف: كم تبعد القاهرة؟ ص ص 171-172.

بصورة طاغية غير عادية، وحازت شهرة واسعة جعلت منها "مدينة عظيمة، آهلة يُجبى إليها من الشرق والغرب والجنوب والشمال، ما لا يحيط بجملته وتفصيله إلا خالق الكل جل وعلا"[553]. فأضحت "حضرة الدنيا، وبستان العالم، مَحْشَر الأمم، مَدْرَج الكثير من البشر"[554].

وكان من الضرورة بمكان؛ أن تحظى القاهرة بقدر أوفر من الأساطير والحكايات الشعبية خصوصا في ما يتعلق بنشأتها وتأسيسها، الأمر الذي جعل من أساطير تأسيس القاهرة تطغى على أسطورة تأسيس الإسكندرية ذات القدم في الزمان والمكان، وتتشابه معها في المضمون، الأمر الذي يفسر أن هذه القصص بأبعادها الأسطورية لم تبد ناتئة أو شاذة عن نسيج القصص الوارد عن تأسيس المدن وفكرة الطالع السعيد هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى قد يرجع تقارب روايات تأسيس القاهرة مع روايات تأسيس الإسكندرية إلى تشابه ولزوجة تركيب الوجدان الشعبي نفسه، أو ربما كانت تلك الاستعارة من باب خلع صفات على القاهرة شبيهة بصفات عراقة تاريخ الإسكندرية، ورغبة الوجدان الشعبي في أن يجعل القاهرة مؤثرة لا متأثرة، مُعِيرَة لا مستعيرة، ناحلة لا منتحلة.

يقول ابن ظهيرة (في محاسنه): "لما قصد جوهر الصقلي بناء السور، جمع

---

(553) ابن سعيد الأندلسي: النجوم الزاهرة في حضرة القاهرة (القسم الخاص بالقاهرة، تحقيق: حسين نصار، مطبعة دار الكتب، القاهرة 1970 م)، ص29.

(554) عبد الرحمن بن خلدون: التعريف بابن خلدون ورحلته شرقًا وغربًا (تحقيق: محمد الطنجي، سلسلة الذخائر، العدد 100، القاهرة 2003 م)، ص246.

المنجمين وأمرهم أن يختاروا طالعًا لحفر الأساس، وطالعًا لرمي حجارته، فجعلوا خشبًا وبين كل قائمتين حبل فيه أجراس، وأعلموا البنائين أنْ ساعة تحريك هذه الأجراس ترمون ما بأيديكم من الطين والحجارة في الأساس، فوقف المنجِّمون لتحرير هذه الساعة، فاتفق من مشيئة الله سبحانه وتعالى أن وقع غراب على خشبة من تلك الأخشاب، فتحركت الأجراس، فظن الموكَّلون بالبناء أن المنجمين قد حركوها، فألقوا ما بأيديهم من الطين والحجارة في الأساس"[555]، "لذلك السبب لا تنقطع الدماء والقتال والنزاع والفتن والفساد عن القاهرة المعِزِّيَّة التي سُمِّيت بهذا الاسم لوضع أساسها في طالع المريخ..."[556].

ومع اتفاق في المعنى واختلاف في الألفاظ يحكي الرحالة المؤرخون عن بناء وتأسيس الإسكندرية: "حكى المسعودي أن الإسكندر وقع له مثل ذلك في بناء الإسكندرية، أنه أحب أن يرمي أساسها دفعة واحدة في سائر أقطارها، في وقت محمود يختاره، وطالع سعيد، فخفق رأس الإسكندر، وكان قد احترز في نفسه في حال ارتقابه الوقت المحمود، فنام فجلس على حبل الجرس الكبير غراب، فحرّكه فصوّت وتحركت الحبال، وخفقا ما عليها من الأجراس الصغار.. فلما سمع الصناع تلك الأصوات وضعوا الأساس دفعة واحدة، وارتفع الضجيج بالتحميد والتقديس، فاستيقظ الإسكندر من رقدته، وسأل عن الخبر، فأُخبر، فتعجب وقال: أردت أمرًا

(555) ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، ص181؛ الإسحاقي: أخبار الأُوَل، ص116؛ السيوطي، حُسن المحاضرة، ج1، ص24.

(556) أوليلجلبي: سياحتنامه مصر، ص393.

وأراد الله غيره، ويأبى الله إلا ما يريد، أردت طول بقائها، وأراد الله سرعة فنائها وخرابها.."[557]. وبهذا تلعب خرافة "الطالع"[558] دورها في بقاء أو بناء المدن، ولعل للسبب نفسه رجع السيوطي سبب بقاء الأهرام إلى "الطالع السعيد" حيث "كان ابتداء بنائها في طالع سعيد"[559].

ونتبين من هذه القصة أنها لا تخلو هى الأخرى من زجر الطير والتنجيم عند بناء المدن، على الرغم من أن الرواية ترجع استقرار الغراب على الحبال إلى محض

---

(557) ابن ظهيرة: المصدر السابق، ص182؛ المسعودي: مروج الذهب، ج2، ص424؛ ابن محشرة: الاستبصار في عجائب الأمصار، ص ص 92-93؛ أوليا‌چلبي: سياحتنامه مصر، ص394.

(558) يعتقد العامة في مصر أن هناك ساعات في النهار بل أيامًا مخصوصة لا يحسن بالمرء أن يأتي فيها عملًا لأنها منحوسة، وهذا الاعتقاد في الأيام، سعدها ونحسها، قديم؛ إذ كان المصريون يعتقدون أن الأيام تكون سعيدة أو منحوسة طبقًا لما وقع فيها من حوادث سعيدة أو كريهة في أساطيرهم الدينية، فاليوم الأول من أمشير الذي رُفعت فيه السماء، وكذا اليوم السابع والعشرون من هاتور الذي عُقد فيه صلح بين الإلهين حورس وسيت وتراضيا فيه على اقتسام العالم كانا يومين كلهما سعد وبركة، كما كانوا يعتبرون شهر توت أقدس شهور السنة لأنه يرمز إلى "تحوت" إله الحكمة، أما اليوم الرابع عشر من طوبة الذي بكت فيه إيزيس ونفتيس على أوزوريس، فقد كان يومًا منحوسًا، وكان هذا الاعتقاد من القوة في العصر الفرعوني حيث إن كثيرًا من الأعمال كالبدء في سفر بعيد أو عقد صفقة تجارية أو ما إليها كان يؤجّل لهذه الأسباب. ويشير أدولف إرمان في كتابه "ديانة مصر القديمة" إلى "أن لدينا من الدولة الوسطى تقويم عن شهر يعيّن ثمانية عشر يومًا طيّبة، وتسعة أيام سيئة، وثلاثة أيام بين بين. ومن الدولة الحديثة لدينا كتاب كبير يزوّدنا ببيانات مماثلة عن جزء كبير من السنة، فاليوم قد يكون سعدًا أو نحسًا تبعًا لهذا الحادث أو ذاك مما جرى فيه من قصص الآلهة، وما زال المصريون يعتقدون في ذلك ويؤجلون أعمالًا لهذا السبب عينه". أدولف إرمان: ديانة مصر القديمة (ترجمة: عبد المنعم أبو بكر، سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة 1997 م)، ص351. محرم كمال: آثار حضارة الفراعنة في حياتنا الحالية (مكتبة الأسرة، القاهرة 1997 م)، ص25؛ وليم نظير: العادات المصرية بين الأمس واليوم (الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1967 م)، ص22.

(559) السيوطي: حُسن المحاضرة، ج1، ص71.

المصادفة، ولكن يحتمل أن يكون المغزى الحقيقي للقصة نوعًا من الزجر للتنبؤ بالفأل الحسن عند إقامة المدينة.

وإذا كان لم يذكر هنا شيء عن إقامة محراب للتنجيم على النحو الذي كان شائعًا قبل الإسلام أو في الحضارات القديمة، فإننا لاشك ندرك صلته بتلك التقاليد الوثنية التي اختفت في صدر الإسلام، لا سيما في العصر الفاطمي، فلم يبقَ منها سوى المظهر البعيد عن الجانب الديني. ويبدو أن هذا التقليد المتَّبع عند بناء المدن كان شائعًا أيضًا عند الفراعنة حيث كان يقتضي بعض الطقوس الدينية عند إقامة نوع من المعابد أن يقوم فرعون بتثبيت أوتادٍ أربعة في الاتجاهات التي تحدد موضع إقامة المعبد ثم تُشد أحبال بين هذه الأوتاد، ولذلك سميت تلك الطقوس بمراسم (شد الحبل)، ثم يبدأ بعد ذلك حرث أرض، المكان الذي حدده بنفسه، أربع مرات، تُشكَّل بعدها قوالب اللبن الأربعة التي ستوضع في زوايا المعبد المزمع إقامته، ولهذا يُخلَط التراب بالماء ويُضرَب أربع مرات قبل صب الطين في قوالب الطوب لتشكيله ويقوم بعد ذلك بنثر حبات البخور على الأوتاد التي عينها للمعبد[560]، وهو الطقس الذي نقلته لنا الكتابات التاريخية عن بناء معبد الملكة حتشبسوت أو معبد الدير البحري على الشاطئ الغربي للنيل في مواجهة طيبة (الأقصر).

"إذ كان اليوم الذي حددوه للطقس المعروف باسم (شد الحبل) ووضع حجر الأساس فرصة لعمل احتفال كبير، وقد سارت حتشبسوت في المقدمة ووراءها وزير الجنوب وجميع مديري الإدارات وكهنة آمون، وحفروا حفرة في كل ركن من الأركان

(560) سعد الخادم: الفن الشعبي والمعتقدات السحرية، ص136.

الأربعة في الأساسات المحفورة وذبحوا ثورًا وقطعوه إلى أجزاء ثم سار الكهنة إلى تلك الحفرة وملؤوها باللحم وغير ذلك من المأكولات ودعوا الآلهة أن لا يتعرض فرعون لأي ألم من آلام الجوع في العالم الآخر.. ولقد عثر رجال الآثار على ودائع الأساس في معبد حتشبسوت بالدير البحري، كما عثروا على أرجل وأضلاع من لحم الثيران وعثروا أيضًا على أرغفة من الخبز مخروطية الشكل وعلى كعكات مستديرة، وعثروا أيضًا على شعير وتين وعنب وعناب وبلح وبعض الخضراوات والسمان ونماذج صغيرة لأواني النبيذ. كما عثروا أيضًا على شيء فريد وهو مجموعة من نماذج أدوات البناء التي ينتظر أن يستخدمها العمال، من بينها قدوم النجار وفأسه ومطرقته وأزميله وبوتقة صاهر المعادن، كما عثروا على قالب صانع الطوب وفأسه الخشبي وغرباله الذي يغربل به الرمال.."[561].

وربما انتقلت هذه التقاليد القديمة إلى اليونان والرومان؛ فتشير الأساطير الرومانية القديمة إلى أن رومولوس زجر الطير عندما أراد إرساء الحجر الأساسي لمدينة روما، وتقول بعض الروايات إنه استخدم في تحديده المدينة عصاه السحرية للإشارة بها. ويصف سيسيرو هذه الأسطورة على نحو آخر فيقول: "إن رومولوس –عندما قام بتشييد مدينة روما– حفر حفرة دائرية على النحو الذي كان متبعًا منذ القدم لجلب الفأل الحسن، وكانت تُقذف في تلك الحفرة حفنة من تراب أرض وطن كل واحد من الذين يشهدون هذا الحفل، وكانت هذه الحفرة بمثابة الطريق إلى العالم الآخر الذي

(561) ونفرد هولز: كانت ملكة على مصر (ترجمة سعد أحمد، سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة 1998 م)، ص58.

يوصل الأحياء بالأموات. وفي أثناء حفر هذه الحفرة كانت تستحضر أرواح الأسلاف لتقطن هذا المكان وتخالط بعدئذ الأهالي، وبهذه الطريقة يدخل الأحياء والأموات المدينة في الوقت نفسه، ثم أقام على هذه الحفرة محرابًا لذكرى الأسلاف، وارتدى بعد ذلك رداءً خاصًّا بالطقوس الدينية وحجب رأسه وأخذ يخطط حدود المدينة الحديثة معتمدًا على محراث ذي سلاح برونزي يجره ثور وبقرة، وقد حمل روملوس المحراث عن الأرض في موضع أبواب المدينة الأربعة التي تنفتح نحو الاتجاهات الرئيسية الأربعة[562].

ولقد تبقى من هذا التقليد عادة دفن بعض المستندات والنقود في أساسات المباني التي تُقام، ونجد بقايا لهذا التقليد في الهند، حيث تُسكب في حفرات على مقربة من المعابد دماء الفديات المقدمة كما يُدفن فيها بعض المعادن النفيسة. ويقال إن روملوس دعا أرواح الأسلاف إلى السكنى تحت أرض مدينته الجديدة ليضمن إقامة الأحياء والأموات فيها. ومن اليسير أن تتضح لنا أهمية زجر الطير في هذه الأسطورة التي قيل إنها حدثت سنة 753 ق.م، وفيها ترتبط عادة زجر الطير بطقوس دينية أخرى، فعلى الرغم من أن الأسطورة لم تفسر الغرض المقصود من إقامة محراب فوق الحفرة الدائرية، فهناك احتمال أن يكون هذا المحراب قد أقيم لغرض التنجيم أو زجر الطير والمعابد القديمة أيًّا كانت حضارتها.

وعلى حد قول سيسرو: "كان عند الرومان أيضًا عادة نصب خيمة أو فساطيط خاصة بالتنجيم، حيث كانت طقوس التنجيم تؤدي بطرق منصوص عليها

(562) نفسه، ص137.

لا تحتمل التعديل أو التغيير خشية جلب الفأل السيئ أو النحس وربما ذكّرنا هذا بتقليد مماثل كان منتشرًا عند عرب الجاهلية، حيث كانت لهم خيام حمراء من الجلد تعلوها قباب تستخدم لغرض التنجيم، وكان يتحتم أن يتم هذا التنجيم على مقربة من الكعبة، حيث كانت تقام حولها تلك الخيام المسماة القباب. وجرت عادة عرب الجاهلية عند تعبدهم بجوار القبة أن يصفقوا ويُصدروا أنواعًا من الصفير، ولا ريب أن في هذا التقليد تشابهًا بين هذا النوع من التعبد الذي يأتي على صورة صفير أو تصفيق مع قصة بناء القاهرة على يد جوهر الصقلي واستخدامه الأجراس لبدء العمل في البناء"[563].

ولعل الربط بين خراب كلٍّ من القاهرة والإسكندرية وبين ظهور الغراب يرجع إلى بقايا الاعتقاد الشعبي في أسطورية الغراب بما يحمله من دلالات وارتباطه بأحداث تاريخية ذات طابع (مأساوي)، فهو طائر تشاءمت به العرب كلها، بل "إن كثيرًا من الشعوب منذ العصور القديمة كانت تحس إزاء هذا الطائر إحساسًا يشوبه التقديس أو الأسطورة"[564]، دون أن يفكر الناس في صيده، ولعل وروده في قصة نوح ﷺ وأسطورة الطوفان البابلية أثّر في ذلك، كما أنه هو الذي دل قابيل كيف يدفن أخاه هابيل، وهو دليل عبد المطلب على موضع "زمزم"، وهذا يعني أنه أشبه بالكاهن والدليل فهو يحمل رسالة من وراء حُجب الغيب، وقد غذّى هذا الشعور الموروث

---

(563) نفسه، ص138 وما بعدها.

(564) جيمس فريزر: الفولكلور في العهد القديم (الجزء الثاني: ترجمة نبيلة إبراهيم، ط الثانية، دار المعارف، القاهرة 1982 م)، ص133.

الشعبي بقوله: "أشأم من غراب البين" وقولهم: "ما هو إلا غراب نوح"[565]، ويبدو أن أحاديث الناس عن الغراب أخذت تتتالى لتزيد التطيُّر منه رسوخًا لا سيما تلك الأحاديث (المنمقة المزخرفة) التي ابتدعها الخيال الشعبي لتدخل في مجال الأساطير من أوسع الأبواب في ما يتعلق بالتأصيل لنشأة وعمران القاهرة والإسكندرية على حد سواء، ولعل الخيال الشعبي قد استصفى من الأساطير القديمة رمزيتها التي تعززها الخبرة الاجتماعية من أن الغراب قد جلب الخراب والشؤم على الإسكندرية والقاهرة بعدما كانتا في أوج ازدهارهما وانحصار ما كانتا عليه من مظاهر الحضارة والفخامة، مثلما كان الحال مع مدينة أمسوس المندثرة، حيث كانت "الغربان قد كثرت في أيام الملك لوجيم، وصارت تفسد الزروع والغلال، فعمل أربع منارات في جوانب مدينة أمسوس، وجعل على كل منارة صورة غراب، وعليه صورة الحية قد التوت، فلما عاين الغربان ذلك، نفروا عن المدينة"[566].

وعمومًا سوف نجد أنه قد ارتبط بالحيوان –الطيور خاصة– نوع من السحر عُرف بالزجر والطِّيَرَة، والزجر هو التفاؤل أو التشاؤم من آخَر، وهو يعني التنبؤ بالمستقبل من خلال حركة الحيوان. وكان هذا النوع من التنبؤ معروفًا عند كثير من الشعوب القديمة، عرفه الكلدانيون والسومريون والحيثيون واليونانيون والرومان، كما كان معروفًا عند العرب وغيرهم من الشعوب.

---

(565) انظر البغدادي (عبد القادر بن عمر): خ--زان--ة الأدب (الجزء الرابع، تحقيق: عبد السلام هارون، الطبعة الأولى، مكتبة الخانكي، القاهرة 1986 م)، ص762؛ الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر): الح--ي--وان، ج2، (تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة البابلي، القاهرة 1940 م)، ص321.

(566) ابن إياس: بدائع الزهور، ج2، ص10.

- وقد تحدث عنه ابن الأثير وذكره ابن خلدون في مقدمته، وقال هو "ما يحدث من بعض الناس من التكلم بالغيب عند سنوح طائر أو حيوان" فربطه بالكهانة الناشئة عن صفاء الروح ربطًا كاملًا. والطيور والثعالب والأرانب من الحيوانات التي استعان بها الزاجر، فكان الرجل يعمد إلى واحد منها فيرميه بحصاه أو يصيح فيه، فإن ولَّاه في طيرانه ميامنه تفاءل، وإن ولَّاه مياسره تشاءم منه وتطيَّر به. وربما لاحظ الزاجر حركة الحيوان فى أثناء ذبحه وهو يرتجف رجفة الموت[567]. وقد توسع أهل الزجر فيه حتى شمل كل المخلوقات، فحركات الإبل والخيل وسكناتها كلها ذات دلالة تنبؤية. وتشير الأساطير القديمة إلى أن (روملوس) زجر الطير عندما أراد إرساء حجر الأساس لمدينة روما، فنبأته الطير بأن الفأل حسن[568]. ويذكر البعض أن الأصل في الطِّيرة هو زجر الطير ثم صار للوحش. وقال أحد شعراء الجاهلية[569]:

عَوَى الذِّئْبُ فَاسْتَأْنَسْتُ لِلذِّئْبِ إِذْ عَوَى وَصَـوَّتَ إِنْسَـانٌ فَكِـدْتُ أَطِيـرُ

وإنا لنجد لزجر الطير بقايا في معتقدات العرب في العصر الجاهلي تذكِّرنا بها هذه الأبيات التي قيلت في صدر الإسلام رغم تلاشي هذا التقليد في هذه الأثناء، فجاء التنويه بالزجر كتقليد ومظهر من الماضي:

وَلَا السَّانِحَـاتُ الْبَارِحَـاتُ عَشِيَّـةً أَمَـرَّ سَلِيـمُ الْقَرْنِ، أَمْ مَرَّ أَغْبَرُ[570]

---

(567) سليمان محمود حسن: الرموز التشكيلية في السحر الشعبي (الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة 1999 م)، ص70.

(568) سعد الخادم: الفن الشعبي والمعتقدات السحرية، ص139.

(569) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (دار العلم للملايين، بيروت 1978 م)، ج2، ص86، ج6، ص ص 787-786.

(570) انظر سعد الخادم: الفن الشعبي، ص140.

كما كانت الآثار المصرية محل اهتمام الكثيرين من مؤرخي العرب والمسلمين، ولكنهم للأسف كانوا قد فقدوا المفتاح الذي يمكن أن يفتح أمامهم أسرار تلك الحضارة العظيمة المغلقة، ولذلك فقد جاءت تفسيراتهم وشروحهم التاريخية مجردة تماما من النظرة العلمية؛ لذلك ادّعوا أن آثار مصر العظيمة من عمل المرَدة والشياطين في الماضي السحيق، وشطَح الخيال بالبعض فظنها تحوي كنوز الفراعين القدامى، ثم استخدموا المعابد كمحاجر باعتبارها موردًا سهلًا للحجارة المطلوبة البناء، وحطموا بعض المعابد والمدن الأثرية للبحث عن كنوز مزعومة، من تلك المدن التي كانت حقلًا خصبًا لهذا المجال مدينة "عين شمس"؛ إذ كان من عجائبها "أن يحمل منذ أول الإسلام حجارتها إلى غيرها من البلاد وما تفنى"[571].

واحتفى الخيال الشعبي بتلك المدينة فجاءت رؤيتها لها مُثقَّلة بالعناصر الأسطورية والخيالية التي لا نجدها أحيانًا إلا في قصص وحكايات ألف ليلة وليلة، حيث يصفها المؤرخون بقولهم: "مدينة قديمة أزلية، هي كانت مدينة فرعون وفيها آثار كثيرة.. وفيها بركة عظيمة، وقد نُقرت في حجر صلد، وحواليها كَراسيّ من رخام، فكان يجلس فرعون عليها، وتُملأ بالخمر، وحواليها أنهار العسل، وأنواع المشروبات، وبالقرب منها صورة من رخام، يخيَّل للناظر أنها تتكلم، ذكر أنها كانت ماشطة فرعون، وبالقرب منها صنمان من حجارة.. أحدهما يبكي والآخر يضحك..."[572].

---

(571) ابن زولاق: فضائل مصر وأخبارها، ص70.

(572) ابن محشرة: الاستبصار في عجائب الأمصار، ص34؛ إسحاق المنجم: آكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة، ص ص 25–26؛ الحميري: الروض المعطار، ص422؛ اليعقوبي، البلدان، ص337؛ الخطط، ج1، ص228؛ ابن الوردي: فريدة العجائب، ص22؛ الإدريسي: نزهة المشتاق، ص145.

حاول المقريزي التأريخ للمدينة فقال: "كان يُقال لها في القديم (رعمساس).. كانت عين شمس هيكلًا يحج الناس إليه، ويقصدونه من أقطار الأرض في جملة ما كان يحج إليه من الهياكل..."[573]، و"بها إحدى نزه الدنيا، يُسار فيها يومين بين بساتين مشتبكة وأشجار ملتفة، وفواكه فاخرة، ورياض ناضرة، وهي حفير هامان وزير فرعون.."[574].

مدينة كهذه كان لا بد للعناصر الأسطورية أن تجد محلًّا بها في أخبار تلك المدينة وأن تمتلئ سيرتها بعديد من سمات الأسطورة الموزَّعة في شتى كتب المؤرخين الذين كتبوا عنها متأثرين بروح الموروث الشعبي المثقَّل بحكايات الجن والعفاريت المساعدة في عمران مدن مصر، فقال القزويني: "... قال أبو حامد الأندلسي: بعين شمس تماثيل عملتها الجن لسليمان ﷺ.."[575]، ويضيف الغرناطي: "كان بها هيكل الشمس فخرب.. وكان قد بقي منها عمودان على رأس كل واحد منهما صورة إنسان على دابة وعلى رأسيهما شبه الصومعتين من نحاس، فإذا جرى النيل، قطر من رأس كل واحد منهما ماء لا يتجاوز نصف العمود الذي هو مركَّب عليه والموضوع الذي يصل إليه الماء لا يزال أخضر رطبا"[576].

ويمكن القول إنه لو كان المؤرخون قادرين على قراءة الكتابة المصرية القديمة، لغيروا تمامًا جميع أقوالهم التي ذكروها عن تاريخ مصر، والتي كادت تكون بأجمعها

(573) الخطط، ج1، ص228.

(574) ابن الوردي: خريدة العجائب، ص34.

(575) القزويني: آثار البلاد، ص225.

(576) الغرناطي: تحفة الألباب، ص52.

تأكيدًا للحكايات والمعلومات الموغلة في الغرابة، والتي تثير خيال كل من يسمعها، وهو ما كان يستهوي الناس ومحبي الاستطلاع والمعرفة عن العالم القديم، ويُحسب للمقدسي أنه رفض كثيرا من الخرافات التي شاعت في عصره حول آثار مدينة عين شمس فقال: "وبعين شمس شبه منارتين طويلتين قطعة واحدة، على رأسهما شبه حربة تسميان المسلتين، وثمّ أيضا على هذا العمل دونهما، وسمعت فيهما أشياء لا يقبلها العقل وقرأت في كتاب الطلسمات أنهما طلسمان للتماسيح، ويجوز هذا..."[577].

أضفى الموروث الشعبي على مدينة عين شمس أبعادًا أسطورية حين تخطى حدود العالم المحسوس ليصل إلى تماثيلها العجائبية التي تتداخل مع العالم اللا مرئي والتي يحتمل اقتباس بنيتها من تراث أقدم. من أمثلة ذلك ما تناقله المؤرخون حول حادثة موت أحمد بن طولون: "قال جامع السيرة الطولونية: كان بعين شمس صنم بمقدار الرجل المعتدل الخلق من كدان أبيض محكم الصنعة يُتخيل من استعراضه أنه ناطق، فوُصف لأحمد بن طولون، فاشتقاق إلى تأمله فنهاه ندوسه عنه، وقال ما رآه والٍ قط إلا عُزل، فركب إليه هذا في سنة ثمانٍ وخمسين ومئتين وتأمله، ثم دعا بالقطّاعين، وأمرهم باجتثاثه من الأرض، ولم يترك منه شيئا"[578]. "فلما رجع حُمَّ من يومه ولزم الفراش فسلسل في المرض نحو عشرة أشهر.. فاستمر الأمير أحمد بعد ذلك في المرض حتى مات به"[579].

---

(577) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص211.

(578) المقريزي: الخطط، ج1، ص230؛ ابن عبد الظاهر: الروضة البهية الزاهرة، ص121.

(579) ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، ص39؛ ابن عبد الظاهر: الروضة البهية الزاهرة، ص121.

ورغم الحقيقة التاريخية التي حملتها الرواية وهي ثبوت اهتمام أحمد بن طولون بالبحث عن كنوز ودفائن المصريين القدماء، فإن الرواية نفسها تحمل ظلًّا يتصل بعقيدة قديمة كانت تعد عنصرًا بارزًا في الحكايات الخرافية؛ ألا وهي العقيدة "الفيتشية" التي يعرّفها تايلور بأنها "الاعتقاد في كائنات روحية متجسدة في الأشياء المادية أو متصلة بها أو تعمل من خلالها..."[580]. وقد ألمح اليعقوبي إلى شيء كهذا في سياق حديثه عن آثار الحضارة المصرية القديمة بقوله: "وكان من قولهم: أن الأرواح قديمة كانت في الفردوس الأعلى.. وكانت عندهم من هذه الأرواح آلهة تنزل، فتصير في الأصنام، فتتكلّم الأصنام لذلك"[581]. ويمكن رصد أفكار متشابهة حول الفكرة "الفيتشية" تنتشر في ربوع إفريقيا السوداء حيث تتجلى هناك فكرة وجود أشياء مادية تتمتع بقوى سحرية، وقد كتب هملهيبر يقول: "إذا كان لدى فرد أي متاعب فهو يتجه إلى ساحر القرية طالبًا النصيحة وهذا الأخير قد ينصحه بالذهاب إلى أحد الفنانين ليحصل منه على شيء سحري afetish، والفيتيش هو دمية أو تمثال. والملاحَظ أن عملية التعيين هى التي تجعل من التمثال شيئًا له فعالية أو قوة سحرية. وتبعًا للفلسفة الإفريقية فإن الكلمة أو (النومو nommo) بما لها من قوة وتركيبة سحرية هى التي تخلق الصورة أو التمثال، وتسمى هذه العملية "designation of the image" أي تعيين الصورة. فشكل التمثال ليس هو الأساس في التعيين، وإنما الكلمة بما لها من قوى سحرية. وعملية التعيين التي يقوم بها النحات الإفريقي تتم بأن يقول

(580) كارم محمود: الأسطورة فجر الإبداع الإنساني، ص366.

(581) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، المجلد الأول، ص188.

للتماثيل واحدًا بعد الآخر، أنت كذا (ملك أوجد..) وكما منحها القوة السحرية عن طريق الكلمة، فهو يستطيع أن يجردها من هذه القوة حين يقول لها إنكِ لا تعنين شيئًا، وتقول حكمة كهنة اليوروبا إن التسمية عملية خلق، وليس من الضروري أن تكون الشخوص المعدَّة للسحر -من أي خامة كانت- مطابقة في شكلها لأصحابها الحقيقيين، فبمجرد أن ينويها الساحر أو الفنان لشخص ما فإنها تكون بديلًا كاملًا لهذا الشخص. فإذا كان الموضوع المطلوب له التمثال أو الصورة هو مرض، فإن ساحر القرية يتحدث بقوة (النومو) -أي الكلمة الخاصة به- إلى المريض من خلال الصورة، وهكذا يكون قريبًا منه، والصورة تكون هي الدواء الفعال بعد خلق فعاليتها عن طريق الكلمة، والشيء السحري the fetish يُطلب عادة لمناسبة خاصة، فإذا ما ثبتت فعاليته في إحدى الحالات فإن المرء يستعين به في مناسبات أخرى مثل شفاء الأمراض[582].

وفي مدينة أنصنا[583] يتحالف السحر مع الأسطورة فيحييها، ولا تعود نتاجًا ميتًا لعصور فائتة، أو سرودًا لا طائل منها إلا الإغراب أو الإمتاع، بل تظل طاقة حية لا تكف عن توليد الاعتقاد بما تحيط سحر من شيَّد تلك المدن، فتعد شهادة متجددة للمصريين القدماء، يقول اليعقوبي عنها: "وأنصنا وهي مدينة قديمة، يقال إن سحرة فرعون كانوا منها، وإن بها بقية من السحر وهي في الجانب الشرقي من النيل..."[584]. آثار هذا السحر يشير إليه ابن رستة في قوله: "أنصنا لا يقربها تمساح

(582) سليمان حسن: الرموز التشكيلية، ص98.

(583) أنصنا: تسمى الآن قرية الشيخ عبادة، وتقع في مركز ملوي بمحافظة المنيا.

(584) اليعقوبي: كتاب البلدان، ص331. الحميري: الروض المعطار، ص40. الدمشقي: نخبة الدهر، ص34.

بتة، والناس منه آمنون، فإن وقع منها إلى ذلك الموضع أيام المد تمساح، بقي منقلبًا على ظهره حتى إن الصبيان يجتمعون عليه، يَغطُّونه في الماء، ويلعبون به، فإذا جاوز هذه القرية عاد ضاريًا على ما لم يزل عليه.."[585]. ويوضح ابن وصيف شاه سبب وجود التماسيح في مصر ويرجعه إلى أعمال السحر التي قام بها البربر تجاه مصر: "وقيل: إن الملك ماليق (أحد ملوك مصر القديمة في الأساطير العربية) لما غزا بلاد البربر، رأى بها مدينة وبها أقوام وجوههم كوجوه الآدميين وأرجلهم كأرجل البقر، وعلى أبدانهم شعر مثل شعر الماعز، ولهم أنياب بارزة مثل أنياب السباع، فلما حصرهم لم يقدر عليهم لشدة سحرهم، فتركهم ومضى، وقيل إنه رأى ببلاد البربر عجائب لم يسمع بمثلها في سائر البلاد... وقيل لما رجع الملك ماليق إلى مصر سحر البربر مدينة مصر فكثير بها التماسيح والثعابين والعقارب والضفادع، وقد فاض النيل حتى غرقت أراضٍ كثيرة في غير أوانه، فلما عاين الملك ذلك لَبسَ المسوح السود وافترش الرماد وسجد عليه، ودعا إلى الله تعالى بكشف النازلة بعد أن عجز عن تبطيل هؤلاء السحرة والكهنة، واستمر الملك ماليق في الملك حتى هلك"[586].

ولعل الصورة التخيلية للبربر التي جمعت بين الصفات الإنسانية والحيوانية صدى للمعتقدات الشعبية التي كانت رائجة عند العرب حول الغيلان التي كانت نوعًا آخر من الجن يزعمون أن رجليها رجلا عنز[587] وكانوا إذا اعترضتهم الغول في

---

(585) ابن رستة (أبي علي أحمد بن عمر): الأعلاق النفيسة (المجلد السابع، مطبعة بريل، ليدن 1891 م)، ص81؛ قارن المسعودي: مروج الذهب، ج2، ص404؛ ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص44؛ ابن محشرة: الاستبصار في عجائب الأمصار، ص85؛ الحميري: الروض المعطار، ص40.

(586) ابن وصيف شاه: جواهر البحور ووقائع الأمور، ص22.

(587) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج3، ص209.

الفيافي يرتجزون، وفي رواية أن الجن خشيت أن يتزوج سليمان بلقيس فتفشى إليه أخبار الجن لأن أمها كانت جنية، فزعمت أنها غير عاقلة ولا مميزة، وأن رجليها كحافر فرس، وقيل كحافر حمار، وأنها شعراء الساقين[588]. وقد توضح لنا تلك الروايات أن نظرة الناس إلى بعض الحيوانات أو الشعوب كانت تتعدى مظهرها الطبيعي. فكانوا يرون فيها قوة خارقة مما حملهم على الاعتقاد بأن الجن أو الأرواح تتقمص أحيانًا أشكال الحيوان. فتظهر تارة في شكل حيوان، وتارة أخرى في شكل إنسان، بعض أجزاء جسمه حيوانية كحافر الحصان أو العنز وما شاكل ذلك. ولهذه الظاهرة امتداد في العقائد الشعبية المصرية حتى القرن التاسع عشر الميلادي، لا سيما في الأحراز والأحجبة التي استُخدمت في ذلك الوقت لأغراض متنوعة، وكانت تُكتب إما على جلد غزال أو جلد ذئب أو خروف، ومنها أن التي يبغضها زوجها كانت تحمل على عضدها أو ساعدها حرزًا كُتب على رق غزال. وقد ورد في قصة سيف بن ذي يزن "أن له بدلة من جلد الغزال ما يسلك فيها مارد ولا شيطان ومن تعرض له من الجان"[589].

وربما تشابه هؤلاء البربر النصف آدميين مع ما كُتبَ في المسخ والتناسخ عند عرب الجاهلية. وكان المسخ والتناسخ عندهم سبيل العقاب والثواب، ففي الأول تنتقل الروح إلى أجساد البهائم المسخَّرة للأعمال الشاقة أو المعدّة للذبح أو المرتطمة في الأقذار، وفي الثاني تنتقل الروح لجسد يغاير نوع الجسد الذي فارقته، لأن النوع الذي أوجب لها طبعها الإشراف عليه والتعلق به لا يجوز أن تتعلق بغيره. والتناسخ

---

(588) سعد الخادم: الفن الشعبي، ص22.

(589) سعد الخادم: الفن الشعبي، ص24.

مذهب قديم قال به أهل الهند والعرب في الجاهلية. فالمسخ تحويل الصورة إلى صورة دونها، وينكر المسخ أكثر الدهرية، وأهل الكتاب لم يقرّوا به، غير أنهم أجمعوا على أن الله جعل امرأة لوط حجرًا، وكانت العرب في الجاهلية تعتقد وقوع المسخ فزعموا أن عشارين مسخ أحدهما ضبعًا والآخر ذئبًا، وزعموا أن سهيلًا كان عشارًا وأن الزهرة كانت امرأة اسمها زاهيد فمُسخا نجمين[590].

أما العريش فقد تأثر اسمها ببعض الأقوال التي تأخذ الألفاظ على ظواهرها، كقول الرحالة ابن حوقل: "إن الجفار بأجمعه كان أيام مصعب بن الوليد فرعون موسى، في غاية العمارة بالمياه والقرى والسكان، وأن قول الله تعالى ﴿ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون﴾ عن هذه المواضع، وأن العمارة كانت متصلة منه إلى اليمن، قال: "ولذلك سُمِّيت العريش عريشًا.."[591].

وقد جُبل الوجدان الشعبي على استعارة بعض التراكيب الفنية من القصص الديني الخاص بالأنبياء وتحميلها على بعض الأخبار الشعبية والتاريخية الخاصة بالمدن؛ لما لسير الأنبياء من دور فاعل في التاريخ الإنساني، كتجسيد للضمير الجمعي للبشرية، وكسجل لمسيرة الأفعال الروحية الإيمانية فنجد الخيال الشعبي الذي نقله لنا الرحالة أولياجلبي يستعير هيكل قصة وضع مريم العذراء تحت الشجرة دون المضمون ويسقطها على ميلاد مصرايم في مدينة العريش فيقول: "بعد الطوفان.. أذن سيدنا نوح ﷺ إلى الكاهن قليمون وصهره المدعو بيطر بالعودة إلى أمسوس التي بناها جده

---

(590) نفسه، ص25.

(591) ابن حوقل: صورة الأرض، ص144؛ النابلسي: الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز (تقديم: أحمد هريدي، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 1986 م)، ص171.

مصرايم، ووصلوا المدينة المسماة العريش، وفي أثناء استراحتهم تحت شجرة سَلمت من الطوفان، جاء المخاض لبنت الكاهن قليمون فولدت من زوجها بيصر بن حام ولدًا ذكرًا أسموه أيضا مصرايم، فكان أول ولد جاء إلى الدنيا بعد الطوفان، وهو مصرايم بن بيطار، وقد أقاموا الاحتفالات والمهرجانات بالعريش مدة، وتبركوا بتلك الشجرة، التي كانوا يتفيؤون ظلالها حيث أخذوا يعلقون بها خرقًا بالية وثيابًا قديمة للذكرى.. وقد أقدم الملك مصرايم على زيارة المحل المسمى العريش، حيث ولدت أمه تحت الشجرة، التي كانت تستظل بها في أثناء الوضع، فجاء إلى هذه الشجرة وأخذ يزيِّنها بأقمشة مزركشة وأحجار قيمة ثم عكف تحتها يعبد الله حق العبادة..."(592)*. وعن تلك الشجرة يعلق القلقشندي: " وما أخال الآن بقاء الشجرتين التي تعلّق فيها العوام الخِرَق، ويقولون هذه مفاتيح الرمل عند الكُثُب المجنبة عن البحر الرومي قريبًا من الزَّعْقَةِ"(593).

أما الواحات سواء أكانت هي التي تحدث عنها الجغرافيون والمؤرخون المسلمون تحتل موقعًا على خريطة العالم الحقيقية، أو كان موقعها على خريطة من صنع الخيال

---

(592) أولياچلبي: سياحتنامه مصر، ص ص 34–37؛ القلقشندى: صُبح الأعشى، ج3، ص312.

* الرواية قد تعكس بعض ملامح تضمنتها أفكار أقدم ترتبط بالعبادات الطوطمية والطقوس الخاصة بها، فلم يكن تقديس الأشجار بين العرب –قبل الإسلام– بأقل من تقديس الأصنام والجبال والآبار، ذلك لاعتقادهم أن هذه الأشجار فيها أيضا "قوى روحية" كامنة فيها وأن لهذه القوى أثرًا خطيرًا في حياتهم، ويبدو أن الاعتقاد بوجود الأرواح أو الحياة في الأشجار كان مقصورًا على أنواع بعينها مردّها إلى ضخامة هذه الأشجار وقوتها وثمرها الكثير أو نفعها. نوري حمودي القيسي: الطبيعة في الشعر الجاهلي (الطبعة الأولى، دار الإرشاد، بيروت 1970 م)، ص69.

(593) القلقشندى: صُبح الأعشى، ج3، ص312.

الإنساني، فإنها -في الحالتين- تحتفظ بقدرتها العالية على الاستجابة للمستويات المختلفة للحلم والواقع، فهي في أحد وجوهها تعبر عن حلم بمجتمع خيالي يطمح الإنسان إلى فك ألغازه التي تحول عوامل طبيعية دون معرفتها معرفة يقينية، فالواحات تمثل هامش عالم حضاري معروف، لذلك تأخذ ملامحها الجغرافية والسيكولوجية من هذين العالمين. هذا هو بعينه ما نلمسه في رواية المؤرخين في أثناء حديثهم عن رحلات الذين قصدوا الواحات المصرية[594] بقولهم: "بلاد الواحات كثيرة التمر والنخل وفيها مدن كثيرة مسوّرة وغير مسوّرة؛ وكل مدينة منها لها اسم يعود إلى ألواح، أريس ألواح، وتنيس ألواح، وألواح الخارج، وألواح صبروا،... وزعموا أنه في أقصى بلاد الواحات بلد يقال له (واح صبروا)، لا يقع عليه إلا من ضَلّ في الصحراء، وفي النادر من الزمان، وأنه بلد عظيم الخيرات من النخل والزرع، وجميع الفواكه ومعادن الذهب، وأنه أخصب بلاد الدنيا.. وقد وقع في هذا البلد رجل من عرب بني قرة وأخبر بما رأى فيه من الخيرات، وبما في أيدي أربابه من الأموال فأهاج ذلك أمير بن قرة وكان اسمه مقرب بن ماض، عزم على النهوض إليهم فنزل في رجوعه ذات ليلة ربوة من الأرض في بهاء تلك الصحراء، فوجد بعض أصحابه في نواحي تلك الربوة بيتًا للأول فبحثوا عليه فإذا هو لبن من نحاس أحمر، فزادوا في البحث فوجدوا أساس سور من نحاس أحمر للأول، فأوقروا جميع ما عندهم من الظهر من تلك العين، وساروا حتى أتوا

---

(594) لقد تميّزت تلك الرحلات الخياليّة عمومًا باختيارها الأماكن الغريبة والمسحورة التي تأوي إليها الشياطين والجنّ مراحًا ربما لتعرض من خلاله نظرتها إلى المجتمع الإنساني المعاصر فتعرّض بمفاسده وتفضح نقائصه، وتدعو من طرف خفي إلى الحياة الإنسانية الكريمة القائمة على الروحانيّة سمةً رابطة بين بني البشر.

مدينة ألواح الخارج فباعوا ذلك النحاس بأموال كثيرة، ثم أرادوا أن يرجعوا إلى الربوة التي وجدوا فيها النحاس، فلم يقدروا عليها وضلوا طريقها..."[595].

وتستمر الرواية في سرد أحداثها فتحكي عن مخلوق يرتاد (الواحات الخارجة) فتم القبض عليه: "فإذا بامرأة سوداء عظيمة الخلقة مفرطة الطول والعرض، لا يُفقَه منها كلمة، فرآها مقرب بن ماض فهاله أمرها، فكلموها بكل لغة علموها من لغات السودان فلم تجاوب بواحدة منها وتكلمت بكلام لا يُفهم، وبقيت عندهم أياما يأتمرون في أمرها، فقال لهم مقرب: نرى أن ترسَل وتركَب الخيل العتاق السوابق والنُّجب العشار في إثرها إلى أن يوقَف على موضعها، ويُعلَم حقيقة أمرها، فلما أُرسلت، فاتت الخيل والنجب وبارت الرياح فلم يقفوا على حقيقة خبرها، ويُذكر أن بين بلاد ألواح وبلاد الجريد جزائر وهي كثيرة النخل والعيون، لا عمران فيها، ولا أنيس بها، ويقال إنه يُسمع فيها أبدًا عزف الجن"[596].

---

(595) لعل مدينة النحاس هذه صدى من أصداء الاعتقاد العام حول خواص النحاس السحرية، وعلاقة النحاس بعالم السحر قوية حتى إن مدينة بأسرها قد حشيت خوارق سميت مدينة النحاس في ليالي ألف ليلة وليلة، وقد عُرفت هذه المدينة العجيبة من قدم، بل عُرفت بهذه الصورة نفسها التي نراها عليها في الليالي محاطة بالسور العجيب، يذكر المسعودي في مروج الذهب فيقول: "وخبر مدينة الصُّفر وقبة الرصاص التي بمفاوز الأندلس، ما كان من أنفسهم أنهم وصلوا إلى نعيم الدنيا والآخرة"، ج4، ص95؛ والملاحظ أن التأريخ ليس غاية "ألف ليلة وليلة"، ولا تقدم أنماط المجتمع وطبقاته ولا قص أخبار علومه وتطورها، ولا الحديث عن العمران والفتوحات، ولا عن الإصلاح وشؤونه، ولا بيان الظلم وألوانه، ولا التطلع إلى العدل والعلوم الجديدة، وإنما هي غاية محصورة في العبرة والاعتبار وأخذ العظة والإفادة من سلوكٍ أو تصرفٍ لشخصية. انظر: سهير القلماوي، "ألف ليلة وليلة"، ص160.

(596) ابن محشرة: الاستبصار، ص146، ص147، ص148؛ الحميري: الروض المعطار، ص600؛ والقلقشندي،

جدير بالذكر أن الأساطير والخرافات التي صاغها الوجدان الشعبي حول أصول المدن المصرية القديمة لم تتسرب إلى كتابات الرحالة والمؤرخين فحسب، بل نجد صداها في السير العربية والشعبية التي إن دلت فإنما تدل على أن وجدان الشعب قادر على طي الزمان والمكان، وفتح المغاليق الموصدة، وحل الطلسمات المجهولة في إطار من الخرافة والخوارق، التي لا تخضع لأبعاد الزمان ومقاييس المكان وطاقة البشر، ومعنى ذلك أن السير العربية والشعبية أصبحت مادة خصبة لدراسة عديد من العناصر الثقافية ذات الجذور الضاربة في القِدم سواء على المستوى المعتقدي أو على مستوى الممارسة الفعلية، أو حتى على مستوى تطور "الحكاية" من ناحية الشكل الأدبي بدءا بالأسطورة ومرورًا بالملحمة والحكاية الخرافية والحكاية الشعبية ووصولًا إلى الصياغات النهائية التي اتخذتها السير الشعبية، والتي تعد الأسطورة من أبرز الأصول الثقافية القديمة التي تمثل مرجعية مهمة لها.

ومن السير الشعبية التي مثّلت الأساطير المرتبطة بالمدن المصرية إحدى المرجعيات الثقافية لها سيرة "سيف بن ذي يزن"؛ والتي تمتلئ بعديد من عناصر وسمات الأسطورة موزّعة في شتى مواضع السيرة، من تلك السمات البارزة في السيرة؛ سمة أسطورية المكان.

والمكان في سيرة "سيف بن ذي يزن" يتسم ببعد أسطوري واضح يقدمه لنا الخيال الشعبي مزجًا بين القياس على الأماكن المحسوسة المألوفة وبين التصوير الذي اصطنعه ذلك الخيال الأسطوري، ومن هنا تأتي "عجائبيتها وغرابتها ومُطْلَقِيَّتِها"

صُبح الأعشى، ج3، ص390؛ البكري: المساك والممالك، ص15؛ ابن حوقل: صورة الأرض، ص154.

وذلك حتى لو تضمن تقديم هذه العوالم ذِكْر بعض المعارف الجغرافية اليسيرة؛ كأسماء البلدان والأنهار والجبال وغيرها، وعلى الرغم من أن السيرة ذكرت أسماء: الحبشة، واليمن، والمغرب، ومصر والشام، والقدس، واليونان، والنيل، والفرات، فإن هذه الأسماء لم تدل على مواقع جغرافية واقعية، وإنما كانت دلالات الأسماء مجرد خلفية لعالم أسطوري بالفعل، ومن ذلك مصر التي وردت في السيرة في طور النشأة والتكوين في زمن يستحيل أن يكون هو زمن النشأة الفعلية لمصر أرضا وشعبا، كما أن أسماء البلدان والمدن المصرية (الجيزة، الروضة، الحسينية، بولاق الدكرور، دمنهور، إسنا، إخميم، ملوي، أسوان، غيرها).. وردت كأسماء أشخاص مصاحبين للبطل وكنوع من التأصيل لأسماء هذه البلدان[597]. لهذا رأى البعض أن سيرة "سيف بن ذي يزن" سيرة مصرية، خلقًا وإبداعًا على الرغم من نواتها التاريخية اليمنية المتمثلة في شخصية بطلها سيف، وهو أساسًا بطل من أبطال التحرير في العصر الجاهلي، وتتجلى مصريتها في محاورها وقضاياها الأساسية: نهر النيل، وإنشاء المدن المصرية على ضفتي النهر، توعمير مصر، وتعريب مصر... إلخ[598].

ولعل عودة عَجْلَى إلى كتابات الرحالة والمؤرخين المسلمين ورواياتهم السابقة عن أصول ونشأة المدن المصرية القديمة تؤكد حقيقة مؤداها أن المخيلة الشعبية –في العصور الإسلامية– لم تكن تختلف كثيرًا عن مخيلة المؤرخين والرحالة والمتعلمين أو

---

(597) كارم محمود عزيز: الأسطورة فجر الإبداع الإنساني، ص ص 369-395.

(598) محمد رجب النجار: الأدب الملحمي في التراث الشعبي العربي (سلسلة الدراسات الشعبية، العدد 110، القاهرة، 2007 م)، ص107.

المخيلة العلمية آنذاك، حيث تتداخل الأساطير التعليلية والشعبية والدينية وتلتقي عند الخطوط العريضة لنشأة مصر، ومدنها. مما يعني أن القاصّ الشعبي كان على معرفة وثيقة بهذا الموروث الفولكلوري التاريخي، الجغرافي المتعلق بمصر، ومدنها، ونيلها، على نحو يسمح له بإعادة إنتاج هذا الموروث (العلمي بمفهوم ذلك الزمان)، وصياغته صياغة أدبية تحكي لنا قصة الصراع الملحمي بين النيل والمصريين أو بين المصريين ومدنهم.

هكذا إذن؛ كان احتفاء الموروث الشعبي الذي حفظته لنا الكتابات التاريخية عظيمًا بالمدن المصرية التي كان تاريخ بعضها يرجع إلى عصور تاريخية سحيقة، كما أن معظمها يحمل من الآثار المادية ما يدل على أن ثمة حضارة تليدة هي التي أفرزت مثل هذه الآثار العظيمة، بيد أن انقطاع أخبار هذه الحضارة القديمة؛ نتيجة للفشل في حل رموز اللغة المصرية القديمة أفسح المجال أمام الخيال لسد الثغرة الناجمة عن نقص المعلومات من ناحية، والتعبير عن الرؤية الشعبية للتاريخ الذي أنتج هذه الحضارة من ناحية أخرى[599].

---

(599) قاسم عبده قاسم: بين التاريخ والفولكلور، ص72.

الفصل السابع..
العمران المصري في أساطير العرب

"أرض مصر.. إقليم العجائب ومعدن الغرائب، وأهله كانوا أهل ملك عظيم، وعز قديم، وكان به القدماء عدة كثيرة، وهم متفننون في سائر العلوم، مع ذكاء مفرط، جبلتهم.. وفيه كنوز وهياكل، وعجائب غريبة".

ابن الوردي

(خريدة العجائب وفريدة

الغرائب/32)

أعمال الرحالة والمؤرخين وكتاباتهم تُعد أحد المصادر المهمة لإلقاء الضوء على الحضارة العربية في عصورها المختلفة، وهذه الأعمال وما قدمت من مادة ثرية دليلٌ بارزٌ على قيمة كتاباتهم، التي أمدتنا بمعلومات وأخبار مستقاة من الملاحظة المباشرة والمعاينة الشخصية أو النقل عن التراث العربي بشطريه -المدون والشفاهي- المتداول عن العمران، الذي يُعد من أحد أهم دلائل الحضارة، ولكون العمران دليلاً بارزًا على وجود الحضارة فارتبطت به وارتبط بها، صنوان متلازمان يسيران جنبًا إلى جنب تؤثر الحضارة في العمران فتطبعه بطابعها، ويعكس العمران ملامح الحضارة فتنطبع عليه ملامحها، فيرى الناظر إليه كيف كانت الحضارة، وإلامَ انتهت، ومن ثَمَّ فقد أضحى العمران وما يماثله من آثار قائمة في مقدمة ما يحرص علماء تاريخ الحضارات على استنطاقه والاستماع إلى ما يبوح به، وعلى الوقوف على ما يخفى وما يُعلن عند تدوينهم تاريخ الأقدمين.

ومصر بحكم تاريخها وموقعها كانت خبرتها طويلة، لأنها خبرة تاريخ وحضارة تنوع بيئي وسكاني وديني، وبالتالي كان لهذا كله دور كبير، وفعال في تشكيل وتلوين

الموروث الشعبي المصري في تعامله مع غير الإنسان من آثار عمرانية أو طير أو حيوان أو نبات أو جماد، نرى رؤيته الخاصة التي تجعل منها عوالم أسطورية تتعانق بحميمية مع حقائق التاريخ، فما من بناء في مصر القديمة إلا وتُروَى حوله الحكايات، في بعضها عناصر حقيقية من التاريخ، ومعظمها نسجته المخيلة الشعبية الثرية، وهذا شأن المكان الذي تتراكم فيه طبقات التاريخ، فالأسطورة بقيت في الضمير الجمعي، وعبرت عن نفسها في مفردات التراث العمراني المصري الثري، الذي لا يستطيع تفسير الكثير من ظاهراته الحاضرة إلا من خلال دراسة عملية التطور التي مر بها ورؤية الناس له، إذ هو المسرح الكبير الذي تجلت فوقه خصائصهم وخصالهم بشكل غير عادي، فهو يكشف عن الناس -في العصور الإسلامية- في أفضل أحوالهم وأسوئها في آن واحد.

كان أول مفردة في منظومة التراث العمراني المصري هو **السور**، إذ كان معلمًا قديمًا قِدَم مدن هذا الجزء من العالم، وما برح الرحالة والمؤرخون من الإشارة إلى وجود سور يحيط بمصر من العريش إلى أسوان. ولتتبلور لدينا الدلالة الحضارية للسور بما يعنيه من أمن وأمان من ناحية كما أنه في الوقت نفسه يعكس دلائل ضعف وخوف من الجماعات الخارجية التي تنظر بعين الحسد، وتتحين أي فرصة لضعف الدولة للانقضاض عليها، إضافة إلى شعور أهلها بأنهم لم يعودوا قادرين على إيقاف الهجوم الذي يهدد بلادهم، وهذا ما نلمسه في طيات الأسطورة التي روج لها المؤرخون في كتاباتهم في سياق حديثهم عما يُسمى بـ"حائط العجوز" في قولهم: "من المباني العجيبة بمصر أيضًا، حائط العجوز، واسمها دلوكا، بملكة مصر، وهذا الحائط من العريش إلى أسوان، شامل بكور مصر من الجانب الشرقي، تزعم الضبط أن سبب

بنائها له خوفها على مصر وأهلها بعد غرق فرعون وقومه، وأن تطمع فيها الملوك فبنته لذلك"[600]. وجعلت فيه محارس ومسالح على كل ثلاثة أميال محرس[601] ومسلحة، وفي ما بين ذلك محارس صغار على كل ميل، وجعلت في كل محرس رجالاً، وأجرت عليهم الأرزاق، وأمرتهم أن يحرسوا بالأجراس، فإذا أتاهم أحد يخافونه ضرب بعضهم إلى بعض بأجراس، فأتاهم الخبر من كل وجه، وكان في ساعة واحدة، فنظروا في ذلك، فمنعت مصر مَنْ أرادها، وفرغت من بنائه في ستة أشهر، وهو الجدار الذي يُقال له جدار العجوز، وقد بقيت بالصعيد منه بقايا كثيرة"[602].

الموروث الشعبي الدائر حول سور الملكة دلوكة يكشف عن حقيقة تاريخية في غاية الأهمية، وهي أن الحدود الشرقية كانت وما زالت مصدر الخطر الدائم عبر التاريخ، ومن هنا كان اهتمام مصر الاستراتيجي الأول متعلقًا بحدودها الشرقية على مر العصور، وقد تعيَّن على حكام مصر الفرعونية ابتداء من عصر بداية الأسرات (منذ أواخر الألف الرابع قبل الميلاد) أن يتيقظوا للحدود الصحراوية الشرقية، وبدأت سياسة السلام المسلح في عهد أمنمحات الأول مؤسس الأسرة الثانية عشرة (1961–1778 ق.م) بإقامة المشاريع الدفاعية التي امتدت على الحدود الشرقية

---

(600) الدمشقي: نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، ص34.

(601) المحارس: ذكرها الرحالة ابن جبير في رحلته في (القرن السادس الهجري) وهي جمع محرس، وتعني عنده مأوى مخصصًا للدارسين والزهاد والمسافرين والفقراء، أو هي النقطة الحصينة في المدينة. انظر: رحلة ابن جبير، ص32.

(602) السيوطي: حسن المحاضرة، ج1، ص47، ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص27، ص28، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج3، ص204، ابن زولاق: فضائل مصر، ص70، ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، ص151، المقريزي: الخطط، ج1، ص199.

والشمالية الشرقية وسُميت في مجملها "أسوار الوالي"[603]. فهذه الروايات أيضًا تحمل ظلاً تاريخيًا يشير إلى ما أثبتته أحداث التاريخ أن حدود مصر الشرقية الطبيعية تبدأ من خارجها عند فلسطين[604].

ولعلنا نتساءل مَن هي الملكة دلوكة التي تردد اسمها في مدونات المؤرخين أكثر من مرة؟ فليست هي حتشبسوت، وليست هي أيضًا كليوباترا، وليس لنا إلا أن نفترض أن الضمير الشعبي المصري قد أخرج اسم هذه الملكة، ليلحق بها من الأعمال ما يعجز عنه الرجال، استمرارًا للحس المصري بتفوق المرأة في أعمال السحر ومكانتها في مجتمع الحكم والسلطة. كما أن المرأة العجوز قد اشتهرت في الأدب الشعبي بأنها رمز للدهاء والمكيدة، فقد عزا الراوي الشعبي حماية مصر -ولو جزئيًا- إلى مكائد ودهاء المرأة العجوز، وصور هذه العجوز كثيرة متعددة في الأدب الشعبي كما هي كذلك في ألف ليلة وليلة[605].

---

(603) عبد العزيز صالح: الشرق الأدنى القديم (الجزء الأول، الهيئة العامة، القاهرة، 1967م)، ص3.

(604) وردَ في بردية (لينتجراد) التي يرجع عهدها إلى عصر تحتمس الثالث (1478-1447 ق.م) في التعاليم الموجهة للملك "مرى كارع" إشارة إلى أهمية الحدود الشرقية لمصر بقوله: "الحد الشرقي للمملكة قد أصبح أمنًا الآن ضد البدو "الآسيويين" انظر: محرم كمال: الحكم والأمثال والنصائح عند المصريين القدماء (مكتبة الأسرة، القاهرة، 1998م)، ص78.

(605) صورة العجوز (دلوكة) نجد لها رديفًا في خصوصًا حكايات ألف ليلة وليلة، حيث تحتل شخصية العجوز المكانة الممتازة في الليالي التي دارت بسببها، وبسبب حِيلها، خصوصًا حوادث احتلت نحو خمس الليالي، فهي "شواهي" بطلة قصة عمر النعمان وولديه، هذه العجوز استعملت دهاءها ومكرها في الكيد السياسي، فقادت جيوشًا هزت ممالك وعصفت بالملوك في سبيل الانتقام السياسي. وفي الحروب تكون العجوز حركة دائمة بين الجيوش، فهي عند المسلمين الناسك الذي يدبر لهم خطة السير، وهي عند النصارى العجوز التي توصلهم إلى

أما **الجامع** فقد كان أحد أعمدة مكونات المدن المصرية بوجه عام، ولكنه لم يعد جامعًا وحيدًا تميزت به المدينة، وإنما زاد عدد الجوامع مع اتساع العمران في مصر الإسلامية، وزيادة عدد المسلمين، ومعهم زادت الأساطير والحكايات الخرافية عن المباني العظمى والجوامع العريقة التي شيَّدها حكامُ مصر، وفي مقدمتها **جامع عمرو بن العاص**، الذي اكتسب شهرة واسعة، وكان سلاطين مصر وملوكها يفضلون صلاة الجمعة اليتيمة به في رمضان، وكان المشايخ والقساوسة والأحبار يصلون فيه صلاة الاستسقاء ليفيض النيل، حاملين القرآن والإنجيل والتوراة، وكان القاضي بجامع عمرو يسمح للقبط واليهود بدخول الجامع لعرض قضاياهم، لأن محاكمهم الخاصة بهم لم تنصفهم، ويعد حُكمه نهائيًا وملزمًا لجميع الأطراف.

جامعٌ له تلك المكانة والتبجيل لدى جميع فئات المجتمع المصري، كان بالضرورة أن يضفي عليه الوجدان الشعبي أخبارًا وحكايات تكرِّس تلك المكانة الدينية، وهنا تنبعث الأسطورة القائلة: ".. في جامع عمرو بن العاص موضع جد عجيب، جدير بالمشاهدة، وذلك أنه يوجد أمام المدخل القبلي عمودان من الرخام، منصوبان جنبًا إلى جنب، ويزعم الناس أن من كان نجسًا أو عاصيًا لا يستطيع المرور بينهما، وإن كان طاهرًا أو بريئًا مر، فمن الناس من هو بدين ضخم، ويمر كالبرق، ومنهم من هو ضعيف نحيل، ولا يقدر على المرور فيخل، ويُحكى أن شاطرًا (لص) ممتازًا من شطار

عدوهم بما عندها من معلومات وبما دبرت من حِيل، وهي ربما كانت العجوز (دلوكة) في الكتابات التاريخية قد استمدها الراوي من خياله ولكنه صبغها بواقعه كثيرًا. أرجع إليها فكرة بناء سور حول مصر للخلاص من الأعداء والمنافسين، انظر: سهير القلماوي: ألف ليلة وليلة، ص314، 315، قاسم عبْده قاسم: بين التاريخ والفولكلور، ص167، 191.

أحد الأمراء دخل بينهما بقصد المرور فعجز عنه، فاجتمع الحاضرون، وأمسكوه من يديه بصخب، وحلبه وأرجعوه القهقرى، وما إن خرج من المسجد حتى أسلم روحه لسبب مجهول، أهو الخجل أم أمر آخر، وغُسِّل الرجل في غمضة عين، وحضر على جنازته ألوف من الناس. إنها لحكمة عجيبة فقد دُفن فيه سبعة آلاف من الصحابة الكرام"[606]، ويبدو أن اعتقاد العوام في أعمدة مسجد (عمرو بن العاص) استمر ردحًا من الزمن، فيذكر بعض الباحثين المحدثين أنه قد اعتقد عوام المصريين في عمودين في جامع عمرو بن العاص الفسطاط، وإن من كان صالحًا وصادقًا أن يمر بينهما حتى ولو كان سمينًا، أما من كان فاسقًا وكاذبًا فلا يستطيع ذلك حتى لو كان نحيفًا، وقد اضطرت الحكومة إلى تسويرهما بعد أن حدثت منهما مضار عديدة، فلا بد أن كثيرًا قد انحصروا بين العمودين في محاولتهم لإثبات صلاحهم وصدقهم[607].

أما **الجامع الأزهر**[608]، فقد حِيكت حوله الخرافات والأخبار، فيقول المؤرخون: "يُقال إن بهذا الجامع طلسمًا، فلا يسكنه عصفور ولا يفرخ به، وكذا سائر الطيور من الحمام واليمام وغيره، وهو صورة ثلاثة طيور منقوشة كل صورة على رأس عمود، فمنهما صورتان في مقدم الجامع بالرواق الخامس، منها صورة في الجهة الغربية في العمود، وصورة في أحد العمودين اللذين على يسار من استقبل سدة المؤذنين،

(606) أوليا چلبي: سياحتنا مه مصر، ص269، 270.

(607) إبراهيم كامل أحمد: النبش في ركام الخرافة (بمجلة "الفنون الشعبية"، عدد62/ 63، القاهرة 2002م.)، ص153.

(608) بناه القائد جوهر بعد دخول مولاه المعز إلى القاهرة، وإقامته بها وفرغ منه سنة إحدى وستين وثلاثمئة.

والصورة الأخرى في الصحن في الأعمدة القبلية مما يلي الشرقية"[609]، ويعلق أحد المؤرخين بقوله: "الطريف وجود من يصدِّق هذا وينقله على الرغم من رؤيته للعصافير تنتقل في أنحائه، وهذا القول وإن كان من قبيل الخرافة، إلا أنه أمكنني حل هذا الطلسم الذي زعموه، إذا هو نسر وعصفور ناشر جناحيه على بعض التيجان في الرواق الكبير وفي الصحن، وقد أمكن إحصاء الثلاثة التي ذكرت، وثلاثة أخرى غيرها، وعدا هذا تم العثور على تيجان بها صلبان كسرت بعض أضلاعها، ولما كان الكثير من عمد المساجد وتيجانها منقولة من البيع والكنائس المتخربة، وهما العنصر الوحيد الدخيل فيها، فيكون العصفور والنسر من الرموز الدينية عند المسيحيين، ومنها الكثير في جامع عمرو وغيره من المساجد"[610].

وألهبت **مدرسة وجامع السلطان حسن**[611] المخيلة الشعبية بشموخ وروعة البناء الذي يدل على العظمة والجبروت وعلى القدرة الفنية، كما يوضح كثرة النفقات فشاع بين الناس أن "السلطان لما حفر أساس هذه المدرسة، وجد في الأرض مالاً

---

(609) الخطط المقريزية: ج4، ص273، ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، ص182، القلقشندي: صبح الأعشى، ج3، ص360، ابن عبد الظاهر: الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة، ص85.

(610) المفضل بن أبي الفضائل: تاريخ سلاطين المماليك، ص50، نقلاً عن حسن إبراهيم حسن وآخرين: الأزهر تاريخه وتطوره (وزارة الأوقاف، القاهرة 1964م)، ص159.

(611) السلطان حسن: هو الملك الناصر حسن بن سلطان الناصر محمد بن السلطان المنصور قلاوون، وُلد (سنة 735هـ- 1334م)، وسُمي أولاً قمارى، ولما وُلي مصر اختار اسم "حسن" فعرف به، مدرسة / مسجد السلطان حسن من مفاخر العمارة الإسلامية، وكان محلها قبل إنشائها قصرين للأمير الطنبغا المارداني، والأمير يلبغا اليحياوي، فأمر بهدمهما وإنشاء هذه المدرسة/ الجامع، وشرع في بنائها (سنة 757هـ- 1356م). حسن عبد الوهاب: جامع السلطان حسن وما حوله (المكتبة الثقافية، العدد 56، القاهرة 1962)، ص8، 9.

مدفونًا فصرفه على عمارة هذه المدرسة فعمرت.. وقيل لما حفروا أساس هذه المدرسة وجدوا هناك مرساة مركب(612)، قِيل كان البحر هناك.."(613)، ولكن قيل مثل هذا عن ابن طولون أيضًا، كقول القلقشندي: "وعلى نظير العشارى الذي على رأسها عُمِل العشارى الذي على رأس قبة الإمام الشافعي ﷺ"(614).

ومسجد ابن طولون(615) يمتد في قلب حي الخليفة (نسبة إلى الخليفة العباسي الذي انتقل مقره إلى القاهرة زمن الظاهر بيبرس، وكانت إقامته قرب القلعة مقر الحكم)، وكان قد "شكا أهل مصر إلى أحمد ضيق المسجد الجامع يوم الجمعة بجنده

---

(612) فكرة وجود المركب نجدها أيضًا موجودة عند الحديث عن قبة تربة الإمام الشافعي بمصر، حيث دُفن الإمام الشافعي في القرافة الصغرى في تربة بني زهرة، وهم أولاد عبد الله بن عبد الرحمن بن عوف الزهري، وعرفت بتربة أولاد بن عبد الحكم، وفيها دُفن الإمام الشافعي ﷺ، وعرفت بعد دفنه بتربة الشافعي إلى وقتنا هذا، وفي سنة 608هـ، ماتت أم الملك الكامل ابن الملك العادل أخي صلاح الدين الأيوبي، فأمر بدفنها بجوار تربة الشافعي، وبنى القبة التي على الشافعي، وكلفها خمسين ألف دينار، وكان يصعد إليها بسلسلة من الحديد لوضع الحبوب فيها طعامًا للطيور ورفقًا بها، وعنها أنشد ابن ملهم قائلاً:

مررت على قبة الشافعي ** فعاين طرفي عليها العشارى

فقلت لصاحبي لا تعجبوا ** فإن المراكب فوق البحارِ

(613) ابن إياس: بدائع الزهور، ج1، ص204، ابن عبد الظاهر: الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة، ص80.

(614) ابن عبد الظاهر: الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة، ص81، القلقشندى: صبح الأعشى، ج3، ص340.

(615) الجامع الطولوني: ابتدأ بناءه الأمير (أحمد بن طولون) سنة ثلاث وستين ومئتين، وفرغ منه سنة خمس وستين ومئتين، وقد بلغت النفقة فيه مئة ألف دينار وعشرين ألف دينار، وجددت فيه أماكن في الدولة المملوكية. راجع: المقريزي: الخطط ج2، ص265– 269، السيوطي: حسن المحاضرة ج2، ص246– 250.

وسودانه، فأمر بابتناء المسجد الجامع بجبل يشكر"[616]، وهذا المسجد هو كل ما تبقى من القطائع عاصمة الدولة الطولونية، وقد اشتهر بتصميمه الفريد المحاط بالبيوت العتيقة القديمة التي تلاصق جدرانه، وهنا تنبعث في الذهنية الشعبية الأسطورة، إذ يُروى أن أحمد بن طولون رأى حلمًا أفاق منه منزعجًا، إذ رأى صاعقة من السماء تنزل فتبيد كل ما يحيط بمسجده، أما المسجد فلم يتأثر بشيء، وقدم إليه المفسرون تحليلاً مطمئنًا لحلمه، فكل ما يحيطه سوف يبيد عدا المسجد الذي سيبقى، ويؤكد المقريزي صحة الرؤيا بقوله: "وقد صح تعبير هذه الرؤيا، فإن جميع ما حول الجامع خرب دهرًا طويلاً، كما تقدم في موضعه من هذا الكتاب، وبقي الجامع عامرًا"[617].

ولأن المسجد بقي عرضة للنقد وإعراض الناس عنه، فأوجدت الأسطورة تعويضًا عن مواطن الضعف التي رآها العامَّة في عمارة المسجد وتعرج بهم إلى الأبواب الروحانية، فتقدمْ الرواية الشعبية تبريرًا لشكل وعمارة المسجد ومحرابه، فتحكي أن "أحمد بن طولون لما سمع بما يقوله الناس في المسجد من عيوب جمع الناس وقال: أما المحراب فإني رأيت رسول الله ﷺ وقد خطَّه لي، فأصبحت فرأيت النمل قد طافت بالمكان الذي خطَّه لي، وأما العمد فإني بنيت هذا الجامع من مال حلال وهو الكنز"[618]، ويضيف ابن إياس أنه "وضع أساس هذا الجامع على مكان يُسمى جبل

---

(616) الكندي (أبوعمرمحمد بن يوسف التجيبي) (ت350هـ): ولاة مصر (تحقيق: حسين نصار، سلسلة الذخائر، العدد 66، القاهرة 2001م)، ص245.

(617) المقريزي: الخطط، ج4، ص266، ابن إياس: بدائع الزهور، ج1، ص38.

(618) المقريزي: الخطط، ج4، ص267، ابن سعيد الأندلسي: المغرب في حُلى المغرب، (القسم الخاص بمصر)،

يشكر، وكان هذا الجبل يشرف على بحر النيل.. وقيل إن جبل يشكر هذا مشهور بإجابة الدعاء، وسبب ذلك أن موسى عليه السلام ناجى ربه عليه بعض الأوقات، وهو مكان مبارك قيل إن النمل دار على محراب هذا الجامع لما وضعوا أساسه فبنوا على ذلك الخط الذي وضعه النمل المحراب، ويسمى محراب النمل إلى الآن، ورُؤي النبي ﷺ في المنام مرارًا يصلي في ذلك المحراب "(619).

ونسجت المخيّلة الشعبية حول مِئذنة جامع أحمد بن طولون حكايات في بعضها عناصر حقيقية من التاريخ، فالمئذنة الملوية المصممة على طراز ملوية سامراء، يقال: إن ابن طولون كان رجلاً صارمًا جادًّا، لا يعرف المزاح، وكان لا يعبس بشيء قط، "فاتفق أنه يومًا أخذ درجًا أبيض بيده وأخرجه ومده كالحلزون، واستيقظ لنفسه فوجد غلمانه قد فطنوا به وأخذ عليه، لأنه لم تكن تلك عادته، فطلب المعمار على الجامع وقال: نبني المنارة هكذا، فبنيت على تلك الصورة"(620).

إنها الرواية الشعبية التي تبرر شكل المئذنة الفريدة بين مآذن القاهرة، ولكن التبرير الأقرب إلى العقل، هو نشأة أحمد بن طولون في مدينة سامراء، وانطباع شكل المئذنة الملوية الشهيرة في عقله حتى أخرج تصوره إلى الواقع، فضلاً عن استقدامه عددًا كبيرًا من الصناع والبنائين من سامراء للعمل في بناء مدينة القطائع ومسجدها الجامع، فكان من الطبيعي نقلهم العديد من التأثير والعناصر المعمارية إلى مصر.

ص98.

(619) ابن إياس: بدائع الزهور، ج1، ص38، القلقشندي، صبح الأعشى، ج3، ص340، ابن عبد الظاهر: الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة، ص81.

(620) ابن عبد الظاهر: الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة، ص80، القلقشندي، صبح الأعشى، ج3، ص340.

إذن، كانت الأحلام وما فيها من رؤى مصدرًا غامضًا تلعب دورًا هامًّا في الموروث الشعبي المرتبط بعمران مصر، إذ كان يتقدم لينبه إلى الأحداث، ويؤثر إلى مكان الخطر أو مكان الانتصار، أو هو كذلك سبب لبناء وتشييد المساجد والقباب وإضفاء صبغة الكرامات عليها، حيث تعتمد في ذلك على الرؤيا أو الأمر القدري الذي يرد في أثناء النوم، وهو ما أكدته الروايات الشعبية التي دارت حول محراب وجامع أحمد بن طولون، كما كان لظهور الخضر عليه السلام في القصص الشعبي المتعلق بآثار مصر، يحمل من الدلالات والرموز التي تكرِّس لفكرة خلود تلك الآثار، التي تكشف عن الرؤية الأولية للإنسان العربي نحو الخلود، وربما كان في تخليد الجامع وسيلة كشف روحي يعينه على تحقيق أدوات وجوده الإنساني، لا سيما أن الجامع قد بُني بمال الفراعنة أصحاب الآثار الخالدة.

وأورد (الإسحاقي المنوفي) في تاريخه حكايات عديدة مصدرها الخيال الشعبي الذي كان متداولاً بين الناس عن آثار مصر الإسلامية، التي لا تزال قائمة حتى الآن في القاهرة القديمة، يقول عن **مسجد الفاكهاني**[621]:

"... وفي أيامه -أيام الخليفة الفاطمي الظافر بأعداء الله- عُمِّر الجامع المعروف بالفكهاني داخل باب زويلة، الموجود الآن، وهو عامر مقام الشعائر الإسلامية، قيل إن السبب في بنائه أن محله كان مجزرة يذبح فيها الأغنام وبوسط

---

(621) هذا الجامع يُسمى بالجامع الظافري تم بناؤه سنة ثلاث وأربعين وخمسمئة، انظر المقريزي: الخطط، ج2، ص290. ويُسمى عند المقريزي "جامع الفاكهيين"، وعند القلقشندي "الفَاكاهين". انظر: القلقشندي: صبح الأعشى، ج3، ص361. ابن عبد الظاهر: الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة، ص74.

المجزرة حفرة يجتمع فيها ماء من غسالة الذبايح، وكان لأمير من أمراء الظافر بيت مجاور للمجزرة المذكورة، وبه محل مشرف على تلك المجزرة، فجاء جزار بخروفين، فذبح الأول وشرع يذبح الثاني، فطرق باب المجزرة، فوضع الجزار سكينه عند الخروف الذي لم يذبح، وتوجه إلى الباب ينظر طارقه، فأخذ الخروف السكين بفمه وألقاها في بركة الماء، فاتفق أن رب البيت المذكور كان جالسًا بالمكان المشرف على المجزرة، وهو ينظر أخذ الخروف السكين وألقاها في الماء، فلما جاء الجزار لم يجد سكينه، فأراد أن يذبح الخروف بسكين كان معه، فقال له الأمير: أمسك يدك ولا تذبح الخروف، فتوجه الأمير إلى الظافر وأخبره بذلك، فتعجب ثم استأذنه في عمارة المجزرة جامعًا فأذن له فعمره"[622].

ولما كان المنبر من أهم ما يميز المسجد الجامع في المدينة الإسلامية فقد دار حول بعض المنابر العديد من الحكايات والخرافات مثل تلك التي يرويها لنا الرحالة ابن بطوطة بقوله: "وقد أخبرني أهل هذه المدينة (منفلوط)[623] أن الملك الناصر (رحمه الله)، أمر بعمل منبر عظيم، محكم الصنعة بديع الإنشاء، برسم المسجد الحرام، زاده الله شرفًا وتعظيمًا، فلما تم عمله أمر أن يصعد به في النيل ليجاز إلى بحر جدة،

---

(622) الإسحاقي المنوفي: أخبار الأول فيمن تصرف في مصر، ص123، المقريزي: الخطط، ج2، ص290، ابن عبد الظاهر: الروضة البهية الزاهرة، ص74، القلقشندى: صبح الأعشى، ج3، ص361.

(623) منفلوط: يقول عنها الرحالة ابن جبير في القرن السادس الهجري: "بمقربة من الشط الغربي ميامنا للصاعد في النيل، فيه الأسواق وسائر ما يحتاج إليه من المرافق، ومَدَرته [المدينة والحاضرة] في نهاية من الطيب، وليس في الصعيد مثلها، وقمحه يجلب إلى مصر، لطيبه ورزانة حبته، قد اشتهر عندهم بذلك. انظر رحلة ابن جبير، ص61.

ثم إلى مكة شرفها الله، فلما وصل المركب الذي احتمله إلى منفلوط، وحاذى مسجدها الجامع وقف، وامتنع من الجري مع مساعدة الريح، فعجب الناس من شأنه أشد العجب، وأقاموا أيامًا لا ينهض بهم المركب، فكتبوا بخبره إلى الملك الناصر (رحمه الله)، فأمر أن يجعل ذلك المنبر بجامع مدينة منفلوط، ففعل ذلك"[624]، ولكن التفسير الأقرب للعقل هو أن أهل منفلوط قد رغبوا في المنبر فأشاعوا تلك الرواية ليستقر المنبر في مسجد مدينتهم بفضل سلطان الأسطورة وسحرها.

أما **المدارس** فقد ارتبط بعضها بالجوامع والمساجد، وقام البعض الآخر منفردًا وقد توافر للمدارس في مصر الإسلامية عدة عوامل داخلية وخارجية ساعدت مجتمعة على ازدهار المدارس كنمط عمراني فريد له دلالته المتعددة، جعلت من مصر "منبع العلم" و"عز الإسلام"[625]، وقد كان

لبعض المدارس المصرية نصيب كبير في المخيلة الشعبية، إذ تقول إحدى الروايات إن "بالمحلة التي بها مدرسة الشافعي في عتبته حجر كبير إذا احتبس بول الدابة تمشي على ذلك الحجر مرارًا، فينفتح بولها"[626]، وربما كان مرجع تلك الخرافة أن هناك العديد من الخرافات الغريبة قد نشأت حول موضوع عتبات الأبواب في كل العصور القديمة والحديثة، التي نلمح لها أثرًا في مدونات التوراة على لسان (يهوه) "وفي ذلك اليوم أعاقب كل الذين يقفزون فوق العتبة، الذين يملؤون بيت سيدهم ظلمًا

---

(624) ابن بطوطة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ص46.

(625) ابن خلدون: رحلته شرقًا وغربًا، ص246، القلقشندي: صبح الأعشى، ج3، ص364.

(626) القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، ج1، ص240.

وغشاء" [سفر صفينا، الإصحاح الأول، آية 9]، ويبدو من هذا التصريح، أن من يتخطى العتبة واثبًا يرتكب إثمًا يستحق عليه غضب الرب، شأنه شأن إثم الخداع والغش[627]، ومن المحتمل أن تلك المعارضة الشديدة للمس الأعتاب -في ما يبدو- أنها ترتكز على اعتقاد ديني أو خرافي في أن هناك خطرًا يستكن في الأعتاب، وربما كان هذا الاعتقاد في حد ذاته كافيًا لتفسير الإحجام عن وطء العتبة بالأقدام أو الجلوس فوقها[628]، وربما نلمح أثر ذلك في الأغاني الشعبية المصرية التي تؤديها الأمهات للطفل عند محاولته الأولى ممارسة الأنشطة الإنسانية المهمة لأول مرة في حياته كالمشي والكلام فتقول: "تاتا خَطِّي العتبة ** تاتا حابه حابه"، وتمسك الأم بيدي طفلها تحاول أن تجعله واقفًا ليخطو خطواته الأولى ممسكًا بها ومعتمدًا عليها كي يتخطى العتبة دون أن يطأ أو [يدوس] عليها[629].

وتعد **الحمامات** مفردة هامَّة في منظومة التراث العمراني المصري الثري ولبنة في صرحه الشامخ، كما أنها كانت دلالة هامة على حياة التحضر والرقي والعمران المصري التي نعمت بها مصر، التي عدَّها الكثيرون من أكثر بلدان العالم الإسلامي

---

(627) جيمس فريزر: الفولكلور في العهد القديم، ج2، ص617.

(628) تعتقد بعض الشعوب أن الأعتاب تسكنها الأرواح، وربما كان هذا الاعتقاد في حد ذاته كافيًا لتفسير الإحجام عن وطء العتبة، وأن الأرواح التي تستقر عند الأعتاب هي أرواح الموتى، وبناء على ذلك فإن الجو السحري الذي أحاط بالأعتاب في الخيال الشعبي جعله يخلق عادة حمل العروس فوق العتبة يوم الزفاف أو إن تخطى العروس العتبة دون أن تمسها قدماها، وهو حذر ينتشر بين كثير من الشعوب. جيمس فريزر: الفولكلور في العهد القديم (التوراة)، ص625.

(629) فتحي الصنفاوي: مدخل إلى دراسة المأثورات الشعبية (الطبعة 1، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة 2001م)، ص79، 80.

اهتمامًا بإنشاء الحمامات، وقد ألمح (ابن دقماق) إلى أن أول من أنشأ الحمامات في مصر بعد الفتح الإسلامي هو (عمرو بن العاص)، وقد أنشأ بالفسطاط حمامًا أطلق عليه الناس بعفويتهم وبروح المداعبة اسم "حمام الفار"، وذلك لصغر مساحته، قياسًا بما كانت عليه الحمامات في مصر في العصر الروماني[630]. وفي سياق تلمسنا للجذور الأسطورية لبناء الآثار والعمائر الإسلامية نجد شغف الناس بتتبع أصول الأشياء وأسباب مسمياتها، والتأصيل لها. فنجد رواية شعبية دارت حول (حمام الكلب بالقاهرة) تقول: "لما شرعوا في حفر أساسه للبناء في الزمن القديم، ظهر تمثال نحاسي لكلبين متعاركين، تبين بعد ذلك أنه طلسم الكلب، فغيَّر صاحب الخيرات أساس الحمام حفظًا للتمثال سليمًا، ولوجوده سليمًا ليس بالقاهرة مرض الكلب، ولا يصيب أحدًا ضرر منه، وهذا هو سبب تسمية الحمام بهذا الاسم"[631].

هذه القصة الخيالية ربما كانت تحمل ظلاً من الحقيقة مثل العثور على دفائن وكنوز المصريين القدماء بالمصادفة في أثناء الحفر، والذاكرة الشعبية لم تنس بعد الحكايات الكثيرة عن القدور التي يعثر عليها فجأة وفيها العديد من الذهب والفضة.

واعتبرت زيادة النيل في كل العصور بمثابة "مؤشر" الثروة القومية، ومن ثم كان طبيعيًّا أن يهتم المصريون منذ فجر تاريخهم **بمقاييس النيل**[632]، التي بُنيت على النهر

---

(630) ابن دقماق (إبراهيم بن محمد بن أيدمر) (ت 809 هـ): الانتصار لواسطة عقد الأمصار (منشورات المكتب التجاري، بيروت، د.ت)، ص105، السيوطي: حسن المحاضرة، ج1، ص135.

(631) أوليا چلبي: سياحتنا مه مصر، ص341.

(632) المقاييس: الغرض منها قياس مستوى النهر في كل مكان هام وبغية العلم بمقدار ما يجري في النهر من ماء في كل جزء من أجزائه، وهو ما اصطلح على تسميته تصرف أو تصريف النهر، لذلك كان وجود مقياس ثابت يسجل مستوى النهر في كل وقت أمرًا لازمًا لقياس تصرف النهر بانتظام، ولا بد أن يكون المقياس مثبتًا إلى

من أسوان حتى القاهرة، وبالنسبة إلى المقاييس التي وجدت قبل الإسلام، فلا نجد في المصادر العربية سوى صورة مضطربة عنها يغلب عليها الجو الأسطوري وتشوبها الخرافات[633].

تقول الروايات العربية إن أول من قاس النيل بمصر هو خصليم السابع (من أبطال الأساطير العربية التي حِيكت حول تاريخ مصر قبل الإسلام). ويقال إنه "صنع بركة لطبقة وركَّب عليها صورتي عقاب من نحاس، ذكر وأنثى، يجتمع عندها كهنتهم وعلماؤهم في يوم مخصوص من السنة، ويتكلمون بكلام فيصفر أحد العقابين، فإن صفر الذكر استبشروا بزيارة النيل وأن صفرت الأنثى استشعروا عدم زيادته فهيؤوا ما يحتاجون إليه من الطعام لتلك السنة"[634]، وينسب المؤرخون مقياس منف إلى يوسف عليه السلام، كذلك ينسبون إلى دلوكة العجوز بناء مقياسين بأنصنا وأخميم من بلاد الصعيد[635].

جانب النهر تثبيتًا متينًا، بحيث لا يتزحزح لأي ظروف طارئة، أيضًا على كل مقياس بيان بالارتفاعات المختلفة، وهذه الارتفاعات تقاس بالنسبة إلى نقطة الصفر المصطلح عليها، ونقطة الصفر في المقاييس الواقعة في مصر من أسوان إلى الدلتا هي مستوى سطح البحر المتوسط. لمزيد من التفاصيل انظر: محمد عوض محمد: نهر النيل، ص253– 256، الأقفهسي: كتاب أخبار نيل مصر، ص67.

(633) قاسم عبده قاسم: النيل والمجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك (الطبعة 1، دار المعارف، القاهرة 1978م)، ص40.

(634) السيوطي: كوكب الروضة من تاريخ النيل وجزيرة الروضة (تحقيق: محمد الششتاوي، دار الآفاق العربية، القاهرة 2002م)، ص146، القلقشندي، صبح الأعشى، ج3، ص293، التلمساني: سكردان السلطان، ص433، الإسحاقي المنوفي: أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول، ص7.

(635) القلقشندي، صبح الأعشى، ج3، ص294، ابن سعيد الأندلسي: النجوم الزاهرة في حُلى حَضْرة القاهرة، القسم الخاص بالقاهرة (تحقيق: حسين نصار، مطبعة دار الكتب، القاهرة 1970م)، ص381.

ولكننا نقفز إلى سماعيات المسعودي، التي تشابهت مع الكثير من المؤرخين فيقول: "وأما المقاييس الموضوعة بمصر لمعرفة زيادة النيل ونقصانه، فإني سمعت جماعة من أهل الخبرة يخبرون أن يوسف النبي عليه السلام حين بنى الأهرام اتخذ مقياسًا لمعرفة زيادة النيل ونقصانه، وأن ذلك كان بمنف... وأن دلوكة الملكة العجوز ووضعت مقياسًا آخر ببلاد أخميم **[من محافظة سوهاج بالصعيد]**"(636)، "كما وضعت العجوز دلوكة صاحبة حائط العجوز مقياسًا بأنصنا وهو صغير الذرع"(637)، ولكن الأسعد بن مماتي ينسب هذين المقياسين إلى ملوك العجم دون تحديد الأسماء، ويضيف إليهما مقياسًا بناه القبط بقصر الشمع(638).

ما يهمنا في الرواية السابقة أن الفكرة القائلة بأن يوسف الصديق عليه السلام هو باني الأهرام تمر كأنها حقيقة لا تحتاج إلى نقاش، كما أن حديثه عن الملكة الفرعونية دلوكة (من ملوك مصر بعد الطوفان وفقًا لروايات الأساطير العربية) يمر أيضًا بلا نقاش، وإن كنا لا ندري من أين جاء بهذا الاسم الذي يكثر في الكتابات التاريخية، إلا أنه لا شك تأثر بما سمعه ممن عايشهم في مصر عما توصلت إليه معلوماتهم عن تاريخها القديم، وهو يأخذ كلامهم أخذ المسلَّم غير المدقق وغير المتشكك، إذ يبدو أنه كان يكفيه أنه كلام صادر عن قوم يزعمون المعرفة (جماعة من أهل الخبرة)، وهم بعد من أهل البلاد، ومن هنا دخلت الكتابات التاريخية الكثير من الأساطير ومتبقياتها من الحكايات الشعبية المتعلقة بعادات مصر، وموروثها القديم مما بقي في

---

(636) المسعودي: مروج الذهب، ج1، ص344، القلقشندى: صبح الأعشى، ج3، ص294.

(637) ابن سعيد الأندلسي: النجوم الزاهرة في حُلى حضرة القاهرة، ص381.

(638) الأسعد بن مماتي: قوانين الدواوين (تحقيق: عزيز سوريال، القاهرة 1943م)، ص75، ص76.

ذاكرة العامَّة، التي نجد وقع حوافرها على العقول ماثلة في إشارات عند الرحالة جون أنتيس في القرن الثامن عشر الميلادي بقوله: "والتماسيح شائعة جدًّا في مصر.. لكنها قلَّما تصل شمالاً أبعد من القاهرة ولا تتعداها، ويدَّعي الأهالي أنه بفضل مقياس النيل لا يمكن لها أن تتوغل شمالاً لأنه مزود بتعويذة تمنع تسللها أبعد من هذا الحد!!"(639).

وفي سماعيات أوليا چلبي عن مقياس الروضة نجده يسلك مسلكًا مختلفًا فيقول: ".. في أفواه الناس أقوال كثيرة عن سبب تسمية (أم القياس) [يقصد مقياس الروضة]، ومنها أن ملكًا كانت له ابنة حسناء تدعى "مقياس"، فبلغ الملك أن تمساحًا خطفها، وهي تستحم في النيل فجعل يصيح، ويولول، ومن حكمة الله أنه كان معه في ذلك الوقت الشيخ أبو بكر البطريني من كبار أولياء الله، فدعا للفتاة، فما لبث أن أعادها التمساح بأمر الله إلى ذلك المكان سالمة معافاة(640)، فابتهج الملك، وبنى ذلك القصر في ذلك الموضع وسماه "أم القياس" ذكرى لنجاة ابنته، ثم أمر الشيخ البطريني بصنع تمثال تمساح من الرخام، وعقد عليه وقفًا أعظم، ودفنه تحت

---

(639) جون أنتيس: مذكرات رحالة عن المصريين وعاداتهم وتقاليدهم في الربع الأخير من القرن الثامن عشر (1770-1782)، (ترجمة سيد الناصري، سلسلة المشروع القومي للترجمة، العدد 22، القاهرة 1997م)، ص110.

(640) من الأساطير التي تتردد إلى يومنا هذا عن أحد الأولياء وهو (الشيخ إبراهيم الدسوقي) ملخصها: "أن تمساحًا ضخمًا ابتلع طفلاً صغيرًا، وقد لجأت أم الطفل إلى ولي الله إبراهيم الدسوقي، وطلبت منه أن يحضر لها طفلاً، فما كان من الوليّ إلا أن خرج إلى البحر (فرع رشيد) الذي تحول في ما بعد عن المسجد، وطلب من التماسيح أن تخرج له التمساح الذي ابتلع الطفل فحضر هذا التمساح، وطلب منه الولي إخراج الطفل، فخرج الطفل من بطن التمساح حيًّا، وقد عاقب الولي التمساح، فقتله، حتى يريح الناس من شروره. للمزيد حول هذا الموضوع انظر: فاروق أحمد مصطفى، الموالد دراسة للعادات والتقاليد الشعبية في مصر (سلسلة الدراسات الشعبية، العدد 96، القاهرة 2004م)، ص180، 181.

حوض أم القياس من النيل، وإن تجاوزه التمساح، فلا يلبث أن ينقلب على ظهره، ويرتمي إلى الساحل فيقتل، فلذا ليس في القاهرة تمساح قط..."[641].

أما القلاع المطلسمة والقصور المرصودة، فقد كانت من العناصر التي امتلأت بها الأساطير والحكايات العربية التي رواها الناس، وحفظها لنا المؤرخون والرحالة في ما كتبوا عن مصر، وعجائبها الخلابة. فقلعة الجبل كان الغرض من إنشائها هو تحصين القاهرة من احتمال تعرضها للهجوم، ولحماية الحاكم في حالة قيام ثورات ضده أو العصيان عليه، وقد استخدم في بناء القلعة أحجار من منطقة أهرام الجيزة، وسخر في نقلها وفي عملية البناء مئات الأسرى من الصليبيين، وهدم ما حولها من المساجد والقبور[642]، فلبست أبهى حُلة تليق "بدار الملك الشريف، التي بها تخت المملكة المعروفة الآن بقلعة الجبل، ليس لها نظير في الاتساع، والزخرفة، والأبهة العلو، تشتمل على سور وخندق وأبراج وعدة أبواب من حديد وهي حصينة جدًّا"[643].

وإن كانت أحجار الأهرام أحد أسباب حصانة القلعة، فلقد تحصنت أيضًا بقوى أخرى مصدرها الخيال الشعبي الخصب الذي رأى أن القلعة محفوظة بطلسمات سحرية غامضة، إذ إن "بالقلعة عقارب ولكنها لا تلسع الإنسان، وإن لسعته فليس للسعتها تأثير، ويزول الوجع بعد بضع ساعات، لأن هناك طلسما، وذلك لأن

---

(641) أوليا چلبي: سياحتنا مه مصر، ص341.

(642) ابن جبير: رحلة ابن جبير، ص47.

(643) الظاهري (غرس الدين خليل بن شاهين): زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك (تحقيق: بولس راويس، المطبعة الجمهورية، باريس 1895م)، ص27.

الديوان العتيق للسلطان قلاوون مبني على أربعة وأربعين عمودًا، لا نظير لها في الربع المسكون إلا في أسوان، وطلسم العقرب، صورة عقرب من النحاس الأصفر، معلق من ذنبها على حلقه من الحديد فوق العمود الأيمن في العقد العظيم الذي يجانب منزل التتر، وهي لا تزال واضحة"[644]. لم يكتف الخيال الشعبي في تحصينه للقلعة بطلسم العقرب فحسب، ولكنه حصنها بطلسمات أخرى "كطلسم للثعابين، ولأم أربع وأربعين، وآخر للحمى والقولنج، وثالث للطاعون والكلاب المسعورة.. فالحمد لله ليست في هذه القلعة من حمى الربع، والحمى المحرقة، وإذا قدم مريض بالحمى من سائر البلاد، فأقام بهذه القلعة ثلاثة أيام، شُفي منها بأمر الله، وذلك لأن العمود الذي بجانب باب وفيق محمد أغا الحلواني مكتوب عليه ثلاثة أسطر من الوقف هو طلسم الحمى!!.."[645].

أما **القصور** فقد حفلت بها المدن المصرية حيث كانت من أبرز مكونات العاصمة المصرية منذ نعومة أظفارها، ولم تقتصر القصور والمساكن البديعة على القاهرة وحدها، بل شملت مدنًا أخرى، كالإسكندرية التي عرفت بجمال واتساع مبانيها، وكما استأثر حكام مصر بتاريخ هذا البلد الأمين فإن قصورهم أيضًا، جذبت عيون وانتباه الرحالة والمؤرخين والأدباء، وفتحت لنا كتاباتهم وأقلامهم أبواب ودهاليز وقاعات تلك القصور الشاهقة، لنرى فيها حدائق وعمد وزخارف وتماثيل وفرش وبسط، تعكس لنا ثراءها المعماري والزخرفي، لدرجة أوحت للخيال الشعبي أن تلك

---

(644) أوليا جلبي: المصدر السابق، ص245.

(645) نفسه، ص246.

القصور قد تحصنت بعدد لا بأس به من الطلاسم، التي منحتها هذا القدر الكبير من الأبهة، والنظافة والرقي، جعلت من القصور وعاء الحياة الاجتماعية للطبقات الأرستقراطية في مصر بما يتبع فيها من تقاليد.

ومن تلك القصور، التي جذبت انتباه أقلام الرحالة والمؤرخين، **قصر العزيز بالله الفاطمي**، الذي بناه سنة (384 هـ/ 994م)، وقيل إن القرآن مكتوب على جدرانه، من خواصه أن لا يدخل النمل إليه لطلسم به، ولما ذكر هذا لصلاح الدين الأيوبي قال هذا يصلح أن يكون بيمارستان[646] لعلاج المرض في هذا المكان النظيف[647]، وقد وصف ابن جبير هذا القصر بعد أن صار بيمارستانًا بقوله: "وما شاهدناه أيضًا من مفاخر هذا السلطان -صلاح الدين- المارستان الذي بمدينة القاهرة، وهو قصر من القصور الرائعة حسنًا واتساعًا..."[648].

وفي تلمسنا للجذور الأسطورية في ما يتعلق بالطلاسم الحافظة لعمران مصر سنرى شواهد ودلائل تشير إلى استمرار وقع حوافرها على العقول كمارد جبار، نتلمس خطاها في بعض أسوارنا وأبوابنا وقصورنا التاريخية حتى في العهد الإسلامي، حين نجد منقوشًا عليه ذلك الرصد السحري لإرهاب العدو، ومنع دخوله، ولا نزال إلى اليوم نجد بعض الناس يتحصنون ضد قوى الشر أو المرض بالحجابات والخرزة الزرقاء المثقوبة.

---

(646) البيمارستان أو المارستان وهو المستشفى، وهي كلمة فارسية الأصل.

(647) المقريزي: الخطط، ج2، ص407، القلقشندي، صبح الأعشى، ج3، ص365.

(648) ابن جبير: رحلة ابن جبير، ص52.

أما "**عجائب مصر**" فقد كان الاهتمام بها قاسمًا مشتركًا بين كتب الجغرافيين والمؤرخين والأدباء في العصور الإسلامية، حيث حرص الرحالة والمؤرخون العرب والمسلمون على إلزام أنفسهم بما توحي إليه مشاعرهم وأحلامهم بالتنقيب عن "العجائب" في أرض الفراعنة والرؤى والماضي العريق، حتى إذا ما رووا ظمأ نفوسهم وخلوا إلى أقلامهم جرت انطباعاتهم خببًا على أفراس الرواية والوصف والملاحظة فتزيد الحكايات الشعبية ثراء.

وفي مقدمة عجائب مصر، **الجبال**، التي طالما كان لها سحرها، ورهبتها في النفوس على مر العصور، بما حظيت به من شهرة تاريخية ودينية أضفت عليها سحرًا من الجلال، وجعلتها تتسم ببُعد أسطوري، لتُظهر لنا في كتابات المؤرخين المسلمين مزجًا بين القياس على الأماكن المحسوسة المألوفة، والتصوير الذي اصطنعه الخيال الأسطوري، ومن هنا تأتي "عجائبيتها وغرابتها"، مثل **جبل الطاهرة**، وهو "بأرض مصر وبهذا الجبل كنيسة، فيها حوض يجري فيه من الجبل ماء عذب، يجتمع في ذلك الحوض، فإذا امتلأ من جميع جوانبه ترده الناس، فإذا ورد الحوض جُنب أو امرأة حائض، وقف الماء وانقطع جريانه، ولا يجري حتى يُنزح جميع ما فيه من الماء، ويُغسل الحوض غسلاً بالغًا فيجري"[(649)]، وجبل آخر نسجت حوله الأساطير، وهو "**جبل طور سيناء**"، وهذا الجبل إذا كسرت حجارته يخرج من وسطها صورة شجرة العوسج على الدوام، وتعظم اليهود شجرة العوسج"[(650)].

---

(649) ابن الوردي: خريدة العجائب، ص160.

(650) المصدر السابق، ص160.

أما جبل **الطير** فهو يسمى "جبل بوقير وفيه طلسم الطير"[651]، وقد سُمي بذلك لأن صنفًا من الطير الأبيض يقال له البوقير يأتي "فيعكف على هذا الجبل، وفيه كوة يأتي كل واحد من هذه الطيور ويدخل رأسه، ثم يخرجه ويلقي نفسه في النيل فيعوم"[652]، "أو يقبض الثقب على طير منها فيبقى معلقًا"[653]، ويتحدث السيوطي في "كوكبه" بإسناد مبهم عن "**جبال بفسطاط مصر**" فيقول عنها: "معمول بها طلسم، وكان التمساح لا يستطيع المرور حوله، بل كان إذا بلغ حدوده انقلب واستلقى على ظهره، فتعبث به الصبيان إلى أن يجاوز المدينة، ثم يعود فيستوي، ويرد إلى طباعه ثم إن هذا الطلسم كُسر وبطل عمله"[654].

وأسهب المؤرخون وكتاب الفضائل الجغرافيون في وصف عجائب جبال مصر وما شاع عنها من حكايات خرافية، ظلت تقوم بدورها في المعتقد الشعبي، مثل جبل بمصر يشرف على النيل وهو "**جبل هامد** يراه أهل تلك الجهة، من انتضى سيفه ثم أولجه فيه وقبض على مقبضه بيده جميعًا، اضطرب السيف في يده، فارتعد ولا يقدر على إمساكه، ولو كان أشد الناس، وإذا أحدَّ بحجارة هذا الجبل سكين أو سيف لا يؤثر فيه حديد أبدًا، وجذب الإبر والمسال أشد جذبًا من المغناطيس، ولا يبطل الثوم عمله، كما يبطل المغناطيس، وحجر الجبل نفسه لا يجذب الحديد، فإن حدَّ عليه الحديد جذب ذلك الحديد وهذا من العجائب..."[655].

---

(651) السيوطي: كتاب التحدث بنعمة الله (سلسلة الذخائر، العدد 106، القاهرة، 2003م)، ص12.

(652) القزويني: عجائب المخلوقات، ص118، آثار البلاد وأخبار العباد، ص271.

(653) الهروي: الإشارات إلى معرفة الزيارات، ص43.

(654) السيوطي: كوكب الروضة، ص140، المقريزي: الخطط، ج1، ص67.

(655) ابن مخشرة: الاستبصار، ص46، 47، القزويني: عجائب المخلوقات، ص172، المسعودي: مروج الذهب،

جبالٌ أخرى تحدث عنها الرحالة والمؤرخون وعن خصائصها مثل أن "بمصر جبل يُكتب بحجارته كما يكتب بالمداد، وجبل يؤخذ منه الحجر فيترك في الزيت، فيقد كما يقد السراج.."[656]، ومن عجائب مصر أيضًا، الجبال التي هي بصعيدها على نيلها، وهي ثلاثة أجبل منها جبل الكهف، ويقال (الكف)، ومنها **الطيلمون**، ومنها جبل **زماجير** الساحرة، يقال إنه فيه حلقة من الجبل ظاهرة مشرقة على النيل، لا يصل إليها أحد، يلوح فيها خط مخلوق باسمك اللهم[657]، كما أوجد الخيال الشعبي جبل يسمى **"جبل الهرة"** قبل الطوفان في مدينة أمسوس الأسطورية، "حيث لم يكن هناك شيء ظاهر سوى جبل الهرة الذي كان قد أقيم بإشارة من النبي إدريس عليه السلام تجاه النيل ليأووا إليه"[658].

ولقد استثمر الوجدان الشعبي ملكة الابتكار، وأطلق لخياله العنان كي يبرز مدى التبجيل والتقديس الذي أحاط **بجبل المقطم**، وقد كان الدافع الروحي هو المحرك لخيال الضمير الشعبي الابتكاري في ما يخص المقطم، إذ إن في سفحه عددًا لا بأس به من قبور الأولياء والصالحين والصحابة والتابعين، أضف إلى ذلك شيوع العديد من الأخبار عن معجزات وكرامات تنسب إلى عدد من المدفونين بسفحه[659]، مما سمح للخيال أن يشكل تاريخ هذا الجبل كما يشاء له فيغير الحقائق،

ج2، ص407

(656) السيوطي: حسن المحاضرة، ج2، ص177.

(657) الخطط المقريزية، ج1، ص31

(658) أوليا چلبي: سياحتنا مه مصر، ص35.

(659) قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك التاريخ السياسي والاجتماعي (الطبعة الأولى، دار عين، القاهرة 1998م)، ص214.

ويقيم بناءه الفني كما يحلو له، مبالغًا في محاولته الوصول إلى قلب المتلقي والتأثير فيه، خصوصًا أن المقطم لم يكن مجرد جبل يلفه الصمت والمهابة، وإنما كان مسرحًا للنشاط اليومي للناس بفضل قرافته التي كانت مكانًا للهو والترويح اعتاد الناس الخروج إليه لا سيما في الليالي المقمرة[660].

وفي أصله يقول (موفق الدين بن عثمان): "هذا الجبل معروف بالمقطم، مأخوذ من القطم وهو القطع، وهو أنه لما كان منقطع الشجر والنبات سُمي بذلك مقطمًا، وقيل: إن المقطم بن بيصر بن مصر بن حام بن نوح عليه السلام كان عبدًا صالحًا، فتعبد في هذا الجبل، فسُمي باسمه، وقيل: لم يكن في ولد نوح عليه السلام من اسمه (مقطم) والله أعلم"[661].

وقد احتاج البحث عن أصل تسمية جبل المقطم بهذا الاسم لدى المقريزي إلى جهد شيق وشاق معًا، لجأ في بحثه إلى أسلوب النسابة الذي اعتاد عليه المؤرخون في نسبة كل شيء في مصر إلى جد أعلى، متكئًا على الفكر الأسطوري كمرجعية فكرية.

وتحت باب "ذكر جبل المقطم"[662] يعرض المقريزي أخبار الجبل الممتلئة

---

(660) المقريزي: الخطط، ج1، ص452، ابن سعيد الأندلسي: المغرب في حلي المغرب (تحقيق: زكي حسن، سلسلة الذخائر، العدد 89، القاهرة 2003م)، ص10.

(661) ابن عفان (موفق الدين أبو محمد) (ت 615 هـ): مرشد الزوار إلى قبور الأبرار المسمى الدر المنظم في زيارة الجبل المقطم (تحقيق: محمد فتحي أبو بكر، الطبعة الأولى، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة 1995م)، ص5، ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة ص108، 109.

(662) المقريزي: الخطط، ج1، ص123، 124.

بالعديد من السمات الأسطورية الموغلة في القدم، التي ربما كانت متداولة بين الناس ثم خلق الرواة منها، ومن التاريخ ما جمع شتاتها، وشكل بناءها، فاختلط الواقع بالخيال، وما غمض أو نقص في تاريخ الجبل أكملوه بخيالهم، ومن هنا وصل الواقع إلينا يحمل مبالغات تصل إلى حد الإغراب والدهشة، مما يحق لنا أن نطلق عليه الأخبار الأسطورية، فيعرض المقريزي للحدود المكانية للمقطم بقوله: "أوله من الشرق من الصين،... ويمر على بلاد (الططر).. ويتصل بجبل الجودي، موقف سفينة نوح عليه السلام، في الطوفان، ولا يزال هذا الجبل مستمرًا من أعمال آمد.. حتى يمر بثغور حلب، فيسمى هناك جبل للكام.. حتى ينتهي إلى بحر القلزم من جهة، ويتصل من الجهة الأخرى ويُسمى المقطم، ثم يتشعب ويتصل أواخر شعبه بنهاية الغرب، ويمضي مغربًا إلى البحر المحيط مسيرة خمسة أشهر..."[(663)].

فحدود جبل المقطم في الرواية تتسم ببعد أسطوري واضح جعل من هذه الأبعاد الجغرافية تتسم بـ"اللا معقولية"، وهي إحدى سمات الأسطورة، التي امتدت آثارها على التأصيل للجبل عند المقريزي وغيره من المؤرخين فيقول بإسناد مبهم: "يقال إنه عُرِفَ بمقطم بن مصر بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام". وقال إبراهيم بن وصيف شاه: وذكر مجيء مصرايم بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام إلى أرض مصر، وكشف أصحاب أقليمون الكاهن عن كنوز مصر.. فجعل مصرايم أمرها إلى رجل من أهل بيته يقال له مقيطام الحكيم، فكان يعمل الكيمياء في الجبل الشرقي، فسُمي به

---

(663) المقريزي: الخطط، ج1، ص124، ابن حوقل: صورة الأرض، ص150، الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص557.

المقطم من أجل أن مقيطام الحكيم كان يعمل فيه الكيمياء، واختصر من اسمه، وبقي ما يدل عليه، فقيل له جبل المقطم، وقال القضاعي: ذكر أبو عبد الله اليمني أن هذا الجبل نسب إلى المقطم بن مصر بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام، وكان عبدًا صالحًا، فانفرد بعبادة الله عز وجل فيه، فسُمي الجبل باسمه، وليس هذا بصحيح، لأنه لا يعرف لمصر ولد اسمه المقطم. الذي ذكره العلماء أن المقطم مأخوذ من القطم، وهو القطع، فكأنه لما كان منقطع الشجر والنبات سُمي مقطمًا..."[664]، ويعلق ابن الوردي أن جبل المقطم "فيه كنوز عظيمة لمقطم الكاهن الذي نسب إليه هذا الجبل ولملوك مصر القديمة أيضًا فيه من الجواهر والذهب والفضة والأواني والآلات النفيسة والتماثيل الهائلة والتبر والإكسير وتراب الصنعة ما لا يعلمه إلا الله تعالى"[665].

ويبدو أن أسطورية جبل المقطم تأثرت بتلك المفاهيم التي سادت العالم حول أسطورية الجبال، وكذلك ربما تأثرت من معطيات عبادة العرب للأصنام التي كانوا يزعمون بشأنها "أن الشياطين تدخل فيها وتخاطبهم منها وتخبرهم ببعض المغيبات"[666]، وإيمانهم بحلول هذه القوى الخفية في كل ما حولهم من مظاهر الطبيعة، ولعل بعض الجبال كان لها النصيب الأوفر من ذلك، حتى غدت ذات أثر في حياة الإنسان، وحسبنا معرفة أن الجبال عدت من الأمكنة الأسطورية في ملحمة "جلجامش" كجبل "الأرز" بوصفه موطن الآلهة، وكان جلجامش وأنكيدو يقدمان له

---

(664) المصدر السابق، ص124، ابن الوردي: خريدة العجائب وفريدة الغرائب، ص32.

(665) ابن الوردي: خريدة العجائب وفريدة الغرائب، ص32، 33.

(666) أحمد النعيمي: الأسطورة في الشعر العربي، ص165، لطفي حسين سليم: الأسطورة والإسرائيليات (سلسلة الدراسات الشعبية، العدد 52، القاهرة 2000م)، ص134.

قربانًا، طالبين أن يواتيهما الجبل بحلم مطمئن كما جاء في نص الملحمة: **وأمام الإله شماس (أي الشمس) حفر بئرًا.. وصعد جلجامش إلى الجبل**(667)**.. وقدم وجهته إلى البئر.. وقال أيها الجبل أرسل حلمًا**(668).

وحرص رواة أخبار جبل المقطم، على إثارة ملكه التخيل لدى المتلقي، واستمرارية عنصر التشويق لديهم في السرد، والوصف والحوار وتطور الأحداث، بأسماء رواة في نسق متسلسل لغرس الإيحاء بمصداقية ما يروى، إلباسه ثوب الحقيقة -على الرغم من اختلاقه، واتجاهه الأسطوري الواضح- فألصقوا بالأنبياء والصحابة أحاديث تحتاج إلى التيقن من صحتها، لتغير المخيلة الشعبية ما تراه من حقائق، وتقرأ تاريخ جبل المقطم كيفما تريد لا كما أراد الواقع -فتقول: "مثَّل الله لآدم الدنيا شرقها وغربها وسهلها وجبلها أنهارها.. ورأى جبلاً من جبالها مكسوًا نورًا لا يخلو من نظر الرب إليه بالرحمة، في سفحه أشجار مثمرة فروعها في الجنة، تُسقى بماء الرحمة، فدعا آدم.. وقال: يا أيُّها الجبلُ المرحوم سفحك جنة، وتربتك مسك، يدفن فيها غراس الجنة، أرض حافظة، مطيعة رحيمة، لا خلتك يا مصر بركة"(669). ونسب الرواة إلى

---

(667) وتتضمن هذه الملحمة رحلتين، الأولى رحلة جلجامش مع أنكيدو إلى جبال الأرز وقتلهما إله الشرّ، ثمّ رحلة جلجامش وحده بعد موت صديقه أنكيدو إلى عالم الموتى وركوبه البحار والمحيطات وعودته بزهرة الخلود ثمّ نزوله إلى البئر والتهام الأفعى تلك الزهرة. وتمثّل الرحلة الأولى صراع الإنسان مع قوى الشرّ كما تمثّل الرحلة الثانية بحث الإنسان عن سرّ الحياة وصراعه مع الموت ذلك المجهول. لقد كانت رحلة جلجامش تعبيراً عن توق الإنسان إلى المعرفة وكشف المجهول ومحاولته معرفة سرّ الحياة والخلود، والقضاء على قوة الموت والفناء.

(668) محمد خليفة حسن: الأسطورة والتاريخ في التراث الشرقي القديم، ص90، 91.

(669) السيوطي: حسن المحاضرة، ج1، ص8، المقريزي: الخطط، ج1، ص124، ابن الزيات: الكواكب السيارة، ص12.

عيسى عليه السلام قوله في إشارة إلى جبل المقطم، "هذه مقبرة أمة محمد ﷺ"[670]، وبالجبل "قبور الأنبياء كيوسف ويعقوب والأسباط"[671].

وتحت باب "في فضل المقطم ومساجده" ينقل إلينا ابن الزيات في "كواكبه" رواية استخدم الضمير الشعبي فيها الأسلوب القصصي، القائم على تطور الحدث وتفاصيله، معتمدًا على الحوار بين الشخصيات، مستوحيًا بنيتها من القصص الديني والإشارات القرآنية التي تناولت حادثة تكليم الله لموسى عليه السلام بصفة إجمالية بهدف العبرة، لا المتعة الفنية فقط، إضافة إلى الغاية لاستخلاص الحكمة والموعظة لتقوية الإيمان وتعميقه في قلوب المسلمين، ولكن الرواة تزيَّدوا، وأضافوا، ولجؤوا إلى تفاصيل لم تشر إليها الآيات الكريمة فقال: "لما كانت الليلة التي كلم الله فيها موسى عليه السلام، أوحى إلى الجبال أني مكلم نبيًّا من أنبيائي على جبل منكم... فأوحى الله تعالى إلى الجبال أن يجود للطور كل جبل بشيء مما عليه، فحاد له كل جبل بشيء مما عليه، إلا المقطم، فإنه جاد له بجميع ما كان عليه من الشجر والنبات والمياه، فصار كما ترونه أقرع، قال فلما علم الله تعالى ذلك منه أوحى إليه لأعوضَّنك عما كان على ظهرك، لأجعلنَّ في سفحك غراس الجنة"[672].

وتحدث الرحالةُ والمؤرخون عن استسرارية جبل المقطم، وعرضوا لنا المعتقدات

---

(670) ابن سعيد الأندلسي: المغرب في حلي المغرب، ص12، ابن زولاق: الفضائل الباهرة، ص13، المقريزي: الخطط، ج1، ص27، القلقشندي: صبح الأعشى، ج3، ص375، الحميري: الروض المعطار، ص557.

(671) الحميري: الروض المعطار، ص558، القلقشندي: صبح الأعشى، ج3، ص375.

(672) ابن الزيات:الكواكب السيارة، ص12، الكندي: فضائل مصر، ص64، المقريزي: الخطط، ج1، ص125، ابن بطوطة: الرحلة، ص35، ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، ص108.

الشعبية التي دارت حوله واتسمت بالمبالغة، لدرجة تثير العجب والدهشة حول الجبل، وما نمقه الناس من روايات وخرافات، دون إبداء رأيهم الخاص إلا في ما ندر، وإنما كان الكثيرون يؤيدون ما ورد بشأن الجبل من أخبار وحكايات، انطلاقًا من خلفيتهم الثقافية والفكرية وموقعهم الزمني، مثل قول (ابن ظهيرة): "وفيه من الخاصية العجيبة التي لا توجد في غيره، وهي حفظ أجساد الموتى بحيث لا تكاد تُبْلى إلا بعد دهر طويل.."[673]، فالميت هناك لا يُبلى، وبه موتى كثيرون بحالهم، ما بلي منهم شيء، وبه قبر روبيل بن يعقوب وقبر اليسع عليه السلام، وقبر عمران بن الحصين صاحب رسول الله ﷺ..."[674]. وجنح الخيال الشعبي في قوله "إن الذين يدفنون تحت جبل المقطم يدخلون الجنة بلا عذاب ولا حساب يوم البعث والنشر، وتدل على ذلك أحاديث الأنبياء، إدريس ودانيال وعزيز"، ثمة رواية أخرى تقول: "إلى اليوم إذا مرض أحد بمصر مرضًا شديدًا، ونام سبعة أيام في ظل جبل المقطم شُفي بإذن الله..."[675].

ويحسب لابن حوقل أنه نقد المعتقدات الخرافية التي استقرت في عصره، وشاعت حول جبل المقطم بقوله: "وعلى رأس جبل المقطم في قُلّته مكان يُعرف بتْنور فرعون يسع خمس مئة كُرّ حنطة وهذا من نوع الخرافة، ويقال إن فرعون كان إذا خرج من أحد المتنزهين أصعد في المكان الآخر من يعادله ليعاين شخصه بالوهم ولا تفقد هيئته"[676].

---

(673) ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، ص191.

(674) القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، ج1، ص270.

(675) أوليا چلبي: سياحتنامه مصر، ص66، ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، ص109.

(676) ابن حوقل: صورة الأرض، ص160، الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج1، ص326.

ولأحجار الجبال أساطيرها الخاصة، وهي متعددة في كتابات الرحالة والمؤرخين، أشهرها حجر مطلسم بجامع مدينة سخا "عليه طلسم بقلم الطير، إذا أُخرِجَ ذلك الحجر من الجامع، دخله العصافير، إذا دخل إليه خرجت العصافير.."[677]، ومن الأحجار ذات الخصائص العجيبة، حجر على باب مدينة (أبسوج) به صورة فأرة "الناس يأخذون طين النيل ويطبعونه على صورة الفأرة التي في الحجر ويحملونه إلى بيوتهم، فتهرب الفأر عن بيوتهم"[678]، وحكى المؤرخون عن أسطوانة حجرية توجد في مسجد ملحق بكنيسة على ساحل البحر الأحمر بمدينة القلزم "يأخذ الرقاصون منها زنة الحبة ونحوها، ويحرز في جلد فلا يؤذيه دابة من دواب البحر، والرقاصون يراعون ذلك مراعاة شديدة ولا يشكون فيه ولا يخلون منه، ويزعمون أن القرش إذا قابل في البحر تلك الأسطوانة انقلب على ظهره وربما هلك فرماه في البحر ميتًا..."[679]. كما يوجد في مصر "حجر يُوضع على حرف التنور، فيساقط خبزه، وكان يوجد بصعيدها حجارة رخوة فتتقد كالمصابيح"[680].

ثمة روايات عديدة دارت حول القوة السحرية لأحجار مصر منها حجر القيء "وهو حجر بأرض مصر، إذا أمسكه الإنسان غلب عليه الغثيان، حتى يلقي ما ببطنه، فإن لم يرمه هلك من القيء.."[681]، والأعجب ما تواتر في الكتابات التاريخية

---

(677) ابن الوردي، خريدة العجائب، ص36، القزويني: آثار البلاد، ج1، ص202.

(678) القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، ج1، ص138.

(679) الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص466.

(680) المقريزي: الخطط، ج1، ص32، السيوطي: حسن المحاضرة، ج2، ص177.

(681) القزويني: عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات (تحقيق: محمد القاضي، مكتبة الأسرة، القاهرة، 2006م)، ص147، ابن الوردي: خريدة العجائب، ص164.

عن أسطورية أحجار في مصر، تشبه "الحصوات مثل الخرز الأبلق، في صحراء سبيل علام الفسيحة الأرجاء، هذه إذا حملت امرأة الواحدة منها في أثناء الوقاع، لا تحمل قط..."، "تجعلها المرأة على حقوها فلا تحبل"[682]، وتحدث المقريزي عن "الحجر المعروف بحجر الخل، يطفو على الخل ويسبح فيه كأنه سمكة"[683]، ويشير (الزهري) إلى أنه يوجد "في الجبال التي على أسوان أحجار من الزمرد الغالي، وهو أغلى الزمرد وأطيبه، وقد أجمعت الفلاسفة على أن من لبس منها حجرًا أمن من اللسع والصرع واختبال العقل..."[684].

إذن، حضور العجائبي في الكتابات التاريخية ليس حضورًا استثنائيًا، وإنما هو عنصر عضوي في نسيج السرد التاريخي، على جانب آخر نجد أن إحدى دعامات العجائبي –في ما يتعلق بمصر– وجود فكرة **المسخ**[685]، التي تطال الإنسان أو الطبيعة بقصد تبيان التغير الذي يدهش ويحيّر من حالة لأخرى، وذلك من أجل هدف معين هو استدعاء مسوخ وقعت في الماضي، وما زالت رؤيتها واستحضارها يؤديان نفس الهدف –العبرة التي وجدت له أول مرة– فالمقريزي يكتب تحت باب "ذكر هلاك أموال أهل مصر"، أنه رأى مجموعة من الحجارة على صورة الآدميين في

---

(682) المقريزي: الخطط، ج1، ص32، أوليا چلبي: سياحتنا مه مصر، ص612.

(683) نفسه، ص36.

(684) الزهري: كتاب الجعرافية، ص44.

(685) تُعرف فكرة المسخ بأنها التغيرات التي تطرأ على طبيعة المخلوقات، مما ينتج عنه تحول في هيئة المخلوق من إنسان إلى حيوان، أو إلى مخلوق يجمع بين الهيئتين الإنسانية والحيوانية، أو التحول إلى طير، أو إلى غير ذلك من الهيئات وفقًا للظروف المحيطة بالعمل أو النص الأسطوري، وبحسب طبيعة العوامل التي أدت إلى وقوع المسخ، كالانتقام أو غيره من الأسباب. محمد خليفة حسن: الأسطورة والتاريخ في التراث الشرقي القديم، ص136.

إحدى مدن مصر، أكثر أهلها من الفراعنة الفساد فمسخوا حجارة فيقول: "صارت أموال أهل مصر ودراهمهم حجارة منقوشة كهيئتها صحاحًا وأثلاثًا وأنصافًا، فلم يبق مدن إلا طمس الله عليه.. ولقد رأيت أناسًا كثيرًا قيامًا وقعودًا في أعمالهم لو رأيتهم ما شككت فيهم قبل أن تدنو منهم أنهم أناس وأنهم حجارة.. وقال محمد بن كعب وكان الرجل منهم يكون مع أهله وفراشه، وقد صارا حجرين..."[686]، والهروي يأتي بخبر ذلك فيقول: "في جبال مصر والصعيد حجارة كأنها الدنانير المصرية المضروبة والرباعيات وعليها شبه السكة، وحجارة كأنها العدس ما لا حد عليه يزعمون أنها أموال فرعون وقومه مُسخت"[687]، وأرجع الخيال الشعبي هذا المسخ الذي حدث لأموال وكنوز مصر إلى دعوة النبي موسى عليه السلام على أهل مصر: "قال موسى ﴿ربنا إنك أتيت فرعون وملأه زينه وأموالاً في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم﴾ (يونس: **87**)، ولهذا صارت أموال أهل مصر ودراهمهم حجارة.. وقيل إن بالوجه القبلي.. مقاتات كثيرة ما بين بطيخ وقثاء وتفاح وكلها حجارة، وكان قد أخبرني قديمًا بعض الأعيان أنه شاهد في سفره إلى البلاد من أرض مصر بطيخًا كثيرًا كله حجارة، وكذلك البطيخ من الصنف الذي يقال له العبدلي"[688].

ولعل تلك الفكرة التي تسربت إلى الكتابات التاريخية عن مصر تعتبر من أبرز الأفكار الأسطورية الشائعة في مثيولوجيات الشرق الأدنى القديم، وتلك الفكرة تقوم

---

(686) المقريزي: المصدر السابق، ج1، ص42.

(687) الهروي: الإشارات إلى معرفة الزيارات، ص43، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج3، ص408.

(688) المقريزي: المصدر السابق، ص42.

أساسًا على انسلاخ كائن أو شيء ما من طبيعته والتحول إلى طبيعة أخرى مغايرة، هذا التحول قد يكون تحولاً كاملاً للكائن إلى كائن آخر، أو تحولاً جزئيًا يمزج بين طبيعتين مختلفتين تبرزان في ذلك الشيء، أو الكائن الجديد المخلق من عملية المسخ، أما أسباب ذلك المسخ فكان في الغالب، يرجع إلى غضبة الرب على الشيء الممسوخ[689]، ومن هنا فتنوع المسوخ كما وردت في الكتابات التاريخية غذت العجائبي في مصر بدم جديد، وملأت شجرة الغيبي وفوق الطبيعي بعناصر غريبة تُحيّر وتُقلق أحيانًا.

تخطى البُعد العجائبي لمصر في مخيلة المؤرخين ليصل إلى عالم النباتات العجيبة والأشجار الغريبة الأطوار ذات القوى السحرية، التي تعتبر من أبرز الأفكار التي انتشرت في العديد من الحكايات الشعبية وغيرها من أنواع القصص الشعبي، التي جمعها لنا المؤرخون عن أشجار مصر التي تحتوي على قدرات غرائبية كالشجرة "التي تعرف بأهليجة في جامع محمود بسطح الجبل المقطم، تقبل النذور من النساء، من يأخذ منها سبع ورقات وينذر لها، يفعل ذلك من الناس من تريد الزواج"[690]، ويطال استحضار العجائبي في الأشجار ما يعرف منها بشجرة العباس وهي "شجرة إذا وضع أحد يديه عليها أو قال يا شجرةَ العباسِ جاءك الناس، تجمع أوراقها وتشرع في الذبول، إذا قال لها عفونا عنك ترجع إلى ما كانت عليه من الحسن والنضارة، وهذه الشجرة تشبه شجرة السنط"[691]، وأشار المنوفي إلى "شجرة بمصر لها أغصان من

---

(689) مجدي محمد: القص بن الحقيقة والخيال (الأسرة، القاهرة 2006م)، ص182، كارم محمود: الأسطورة، ص414.

(690) التلمساني: سكردان السلطان، ص456.

(691) ابن إياس: بدائع الزهور، ص32، ابن الزيات: الكواكب السيارة، ص12، السيوطي: حسن المحاضرة، ج2،

حديد بخطاطيف إذا قرب منها الظالم خطفته وتعلقت به فلا تفارقه حتى يقر بظلمه"(692).

فالانتقال المتخيّل الذي قام به الضمير الشعبي إلى عالم الأشجار العجائبي بعيدًا عن عالمه الواقعي، ربما ليطرح في هذا العالم رؤاه وآلامه وأحلامه التي لم تتحقّق في دنيا الواقع. خرج الضمير الشعبي بتطلعاته الخياليّة بعيدًا عن أرضه بحثًا عن الحياة المثالية التي يئس من وجودها عليها، فبرزت لديه الدعوة إلى القيم المثالية التي يمكنه تحقيق الخلاص للبشر ممّا ألمّ بهم من مفاسد وظلم، ولا يزال الوجدان الشعبي واحدًا من أهم الأصوات الداعية للقيم الإنسانية الفاضلة فهو سبيل الرقي وسلم المعالي.

العالم العجائبي المرتبط بعنصر الأشجار ارتبط كذلك (بالاختفاء) بصفته عنصرًا يؤجج العجائبي ويعمق مساربه خالقًا نفقًا آخر في جسم الكتابات التاريخية المتعلقة بمصر، فيتحدث القزويني عن ".. شجرة تُسمى باليونانية موقيقوس، تراها بالليل ذات شعاع متوهج يغتر برؤيتها كثير من الناس، يحسبها نار الرعاة فإذا قصدها، كلما زاد قربًا زادت خفاء، حتى إذا وصل إليها انقطع ضوؤها.."(693). ويوظف الخيال الشعبي الشخصيات التاريخية الحقيقية ليضفي المصداقية على عجائب الأشجار في مصر، إذ يذكر المقريزي "يُحكَى عن رجل أنه أتى عبد العزيز بن مروان وهو أمير مصر، فعرّفه أنه تاه في صحراء الشرق فوقع على مدينة خراب فيها شجرة تحمل كل صنف من الفاكهة، وأنه أكل منها وتزود، فقال له رجل من القبط: هذه

179، المقريزي، الخطط، ج1، ص32.

(692) الإسحاقي المنوفي: أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول، ص7.

(693) القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، ص266.

إحدى مدينتي هرمس، وفيها كنوز كثيرة فوجه عبد العزيز معه جماعة معهم ماء، وزاد فأقاموا يطوفون تلك الصحاري شهرًا، فلم يقفوا لها على أثر"[694].

ويتمثل العجيب عند ابن إياس بين النبات العادي المتصل بالطبيعة والمألوف، وبين الخارق المتجاوز للحدود والمواصفات المعلومة، وذلك من أجل بناء عجائبيته وإضفاء طابع المبالغة عليها، من زاوية الضخامة والقدرة على الإدهاش، فهو يورد حكاية تقول: "كان في زمن مصرام الذي سميت مصر به، إذا زرعت أرضها وشملها ماء النيل تصير حبة القمح قدر كليَّة البقر، وكان طول القثاء أربعة عشر شبرًا كل واحدة، وكان طول البلحة شبرًا ووزنها نحو عشرين درهمًا، وكان طول الظرف ثلاثين شبرًا، وكان العرجون الموز يطرح ثلاثمئة موزة، وكل موزة منها رطل، وكان عنقود العنب إذا قطف من البستان يحمل على بعير من كبره، وكانت الأترجة تشق نصفين من عظم خلقتها، ويحمل كل نصف منها على بعير، وكانت الكمثرى زنة الواحدة سبعمئة درهم، وكانت الرمانة الواحدة إذا قشرت يقعد في قشرتها ثلاثة نفر من كبرها، وكانت البطيخة الواحدة ثمانين رطلاً، وعلى هذا فقس بقية الأصناف من الفواكه والحبوب وغير ذلك، وكان ذلك بدعوة نوح عليه السلام حين دعا لمصر بالبركة والخصب..."[695].

الرواية هنا تعتمد في عجائبيتها على السند التاريخي والديني كأساس لبناء مسارها وترسيم خطابها، والتضخيم هنا عنصر يولد عناصر أخرى يحركها، كما في

(694) المقريزي: الخطط، ج1، ص34.

(695) ابن إياس: بدائع الزهور، ج1، ص4.

قصة البطيخ التي رآها القزويني وتحدث عنها فيقول: "وبمصر نوع من البطيخ الهندي تحمل اثنتان منه على جمل قوي وهي حلوة طيبة..."[696]، وكذلك كان العجائبي عند أوليا چلبي في ما يتعلق بنباتات مصر في سياق حديثه عن (الشمام) الـ"عبد اللاوي" فيقول "هو على شكل ثعبان، فإذا المرء يفر منه، فقد ورد في كتب الطب أنه خلق بمعجزة محمد ﷺ.. وقد أتى جماعة من كفار قريش وقدموا هدية للرسول ﷺ بها عقارب، أتوا بها من مصر، على أمل أن تقضي على النبي الكريم ﷺ حين يفتحها.. فسألهم الرسول ﷺ عنها فقالوا إنها شمامة من صنف جديد مجهول الاسم فقال الرسول ﷺ فليكن اسم هذا المخلوق (عبد اللاوي)، وكان الرسول ﷺ يحب الشمام، ثم قال: بسم الله ورفع الغطاء في حضور جماعة كبيرة من القريشيين فإذا بالعقارب قد استحالت شمامًا من نوع العبد اللاوي الذي يزرع بمصر اليوم.. هذا هو السر في أن هذه الفاكهة تشبه الثعابين والعقارب وهي خاصة بمصر ولا توجد في غيرها"[697].

وحرصت الحكايات الشعبية المتعلقة بمصر في كتابات الرحالة والمؤرخين على تضمين نصوصها **حيوانات من نوع الكائنات ناقصي الخلقة، لتخرجهم** من دائرة المألوف، ويأتي ذلك في إطار حرص الخيال الشعبي على تأكيد قيمة معينة أو رمزية خاصة، فيلجأ إلى تصوير ذلك الشخص أو الكائن في إطار المبالغة والتضخيم، ويتمظهر ذلك عند أوليا چلبي في إطار حديثه عن حيوانات مصر، الذي كان بدوره يعكس بدقة وإخلاص العصر والوسط اللذين عاش فيهما، وذلك على ضوء الظروف

---

(696) القزويني: آثار البلاد، ج1، ص266.

(697) أوليا چلبي: سياحتنا مه مصر، ص634، البغدادي: الإفادة والاعتبار، ص77.

الحضارية والفكرية السائدة آنذاك، فيتحدث عن فئران مصر بقوله: "فهذه حيوانات تنشأ من الأرض بأمر الله وحكمته، حيث يتكوم التراب على وجه الأرض فيستدل به الصيادون على وجودها، ويعمدون إلى حفر تلك الأكوام ونبشها، ويخرجونها منها، وقد ترى بعضها تامة الخلقة كاملة، والبعض الآخر ناقصة، أعني أن الواحدة منها، نصفها فأر حتى وسطها ونصفها الثاني لا يزال ترابًا، وهذه حكمة بالغة من حكم الله القدير، إذ ترى الدم لا يزال ممزوجًا بالتراب الذي تشكل بهيئته الفأر ولم يتحول بعد إلى اللحم، حتى ينفخ فيه الروح، ومثل هذه الفئران الناقصة التكوين والخلقة إذا خرجت من الأرض تموت حالاً من أثر الهواء والجو لعدم اكتمال خلقها..."[698].

وحاول الرحالة أوليا چلبي أن يلح على تأكيد هذا الخبر، متوهمًا أن العلم والفهم ينفيان الارتياب فيه، بل فيهما الدليل على تصديقه، مدعمًا كلامه بالسند الديني بقوله: "ولكن المعتزلي الذي يقصر عقله عن إدراك صنع الله البديع، ينكر هذا الذي ذكرناه ويستبعد وقوعه، بيد أن كاتب هذه السطور قد شاهد هذا بعينه، إذا أعطى العربان الذين أخرجوها بضع بارات (عملة) ليحضروا له شيئًا منها، كي يشاهدها بنفسه عن قرب، فكانت الواحدة منها نصفها ذا روح ودم، ونصفها الآخر لا يزال طينًا وترابًا، وليس به روح ولا دم، أليس الدليل الكافي والبرهان الظاهر على هذه العجيبة خلق بني آدم من الطين والعدم كما في الآية الكريمة: ﴿ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظامًا فكسونا العظام لحمًا...﴾[699].

ويبدو أن الكاتب هنا قد وقع ضحية روايات شعبية، اعتاد المصريون على

---

(698) أوليا چلبي: سياحتنا مه مصر، ص612.

(699) نفسه، ص613، انظر: القزويني: آثار البلاد، ج1، ص271.

اختلاقها للسائحين في بلادهم، بهدف التربح منها، وما قصه دفع الكاتب بضع بارات لهم ليحضروا له شيئًا من تلك الفئران غير مكتملة النمو سوى أنه تعامل مع بعض أهل القاهرة "البارعون في الاحتيال، والغش، خصوصًا مع الغرباء الذين لا يعرفون عملتهم ولا يعرفون أساليبهم في البيع والشراء.. فهم -أي المصريون- مولعون بغش الغرباء وخداعهم.."[700]، وبالتالي كان من الطبيعي أن يكون مصير الفأر الذي أحضروه (للخواجة أوليا چلبي) هو الموت، وإلا كان مصيرهم أن تنكشف خدعتهم له، وتبور بضاعتهم من الحكايات والخرافات التي روجوها للتكسب من بيع الوهم والخرافة لمن أراد.

وإن كنا نلمح أثرًا لذلك عند القزويني في إطار حديثه عن فئران مصر بقوله: "ومن عجائب مصر عين ينبع الماء منها ويتقاطر على الطين فيصير ذلك الطين فأرًا، قال صاحب (تحفة الغرائب) حكى لي رجل أنّه رأى من ذلك الطين قطعة انقلبت بعضها فأرًا والبعض الآخر طينًا بعد". "رأيت من ذلك الطين قطعة نصفها فأر، والباقي طين"[701]، ويبدو أن التفكير في خواص الحيوان قد شغل أذهان المؤرخين في العصور الإسلامية، وأن النظرة العجائبية لم ترتبط بجمادات الأرض وحسب وإنما تجاوزتها إلى الحيوان، نتلمس ذلك عند (الزهري) في سياق حديثه عن أبقار مصر بقوله: "وهي دواب لهم، وعليها يتصرفون، ومن عجائب هذا البقر من دخل منه شيء في بيت من البيوت فر منه الذباب، ومن عجائبها أنها من حيوان البر وتدخل

(700) جوزيف بتس: رحلة الحاج يوسف إلى مصر، ص38.

(701) القزويني: عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، ص174، آثار البلاد وأخبار العباد، ص270- 271.

في الماء وتلبث فيه اليومين والستة أيام وتخرج..."[702]، ويشير المقريزي إلى بقرة عجيبة في مصر القديمة يقول عنها: "بها بقرة لها ضرعان كبيران إذا انعقد لبن امرأة أتتها ومسحتها بيديها فإنه يدر لبنها"[703].

بيد أن هذه الحكايات وغيرها من الحكايات التي دارت عن عجائب أرض مصر تشي بمدى سلطان مصر على قلوب الرواة، خصوصًا مع تعدد صيغ تقديم هذه العجائب بشكل يوازي غناها، وإن كان (الراوي/ المؤرخ) هو المحور والرؤية التي ترى أو تنقل، ذلك أن العجائبي يرد من طرف (الراوي/ المؤرخ) بصفته مشاركًا فاعلاً أو وسيطًا وفاعلاً، أو بصفته شاهدًا مستمعًا أحيانًا، ويجيء هذا الغنى من انفتاح العجائبي على السجلات الشعبية، والمتخيل بكل مراجعه التاريخية والدينية والثقافية، حيث ارتباطات العجائبي كثيرة، خصوصًا في مصر، ويمكن الجزم بخصوص الكتابات التاريخية المتعلقة بمصر وفضائلها أنها تجميع لعجائب وغرائب مصر، اتساعًا وعمرانًا وتاريخًا، لاعتبارات يلتقطها (الراوي/ المؤرخ) أو ينسجها، فهي شيء -ربما- غير مألوف يوضع دائمًا في المقارنة مع المألوف، فلا غرو إذن أن يبدأ العديد من المؤرخين حديثهم من عجائب مصر بقولهم: عجائب الدنيا ثلاثون أعجوبة، عشرة منها بسائر البلاد والعشرون الباقية بمصر..."[704].

وكان للعيون المائية والآبار في مصر سحرها وعجائبيتها بل ورهبتها في النفوس على مر العصور، وقد حظيت بعض الآبار شهرة تاريخية ودينية (كبئر المطرية

---

(702) الزهري: كتاب الجغرافية، ص46.

(703) المقريزي: الخطط، ج1، ص33.

(704) السيوطي: حسن المحاضرة، ج1، ص65، المقريزي: الخطط، ج1، ص30.

التي اعتقد الناس في قدسيتها التي اكتسبتها، "لأن المسيح عليه السلام اغتسل فيها"[705]، وهي "عذبة وفيها أنواع دهنية لطيفة وليس في جميع الدنيا موضع ينبت شجر البيلسان، وينجع دهنه إلا هناك"[706]، وإذا حاولنا الوصول إلى الجذور الأسطورية لبئر المطرية وما بها من مياه، فسنرى شواهدها ودلائلها تشير إلى أي حد تقدسها شريحة كبيرة من الناس أشاعوا حولها أنها "يدخلها المرضى ويرتادونها، للاستشفاء فينالون ما يبتغون وقد ورد في جميع التواريخ، لا سيما تواريخ اليونان، أن سيدنا عيسى عليه السلام هاجر مع أمه مريم من مدينة نابلس إلى هذه البقعة، وسكن بها، وتزعم النصارى أن بئر المطرية هذه قد حضرها سيدنا عيسى وأمه اغتسلا بمائها، كما أن الحوض الراهن من آثارهما".. ومن خاصية هذا الماء أن المرء إذا تجرع السم ثم تناول منه قيراطًا واحدًا فإنه ينجو من فعل ذلك السم وأثره الفتاك، كما أن العقرب أو الثعبان أو أي دابة سامة إذا لسعت الإنسان ولدغته فإن وضع شيء من البيلسان في مكان اللدغ أو أكل الملدوغ شيئًا منه، فلا شك أنه ينجو من فعل السم وأثره، وخواص هذه البئر معتبرة ومشهورة بين الناس، لا سيما بين قرى النصارى، إذ يعتقد النصراني أنه إذا لم يأكل البيلسان ولم يدهن به ولو مرة في العمر لا يكون نصرانيًا صحيحًا"[707]. ولا يمكن أن نخطئ الروابط بين هذا الحطام الرمزي في المعتقدات الشعبية وما شاع بين الناس عن وجود نبات سحري مجدد للشباب وتجديد للحياة، والذي يساعد على تأجيل وقوع الموت للإنسان، أو للبطل في الملاحم والحكايات

---

(705) القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، ج1، ص271، عبد اللطيف البغدادي: الإفادة والاعتبار، ص66.

(706) نفسه، ص272، القزويني: عجائب المخلوقات، ص180، ابن الوردي: خريدة العجائب، ص150.

(707) المقريزي: الخطط، ج1، ص32، أوليا چلبي: سياحتنا مه مصر، ص601- 602.

والقصص الشعبي، وقد أتت فكرة نبات الشفاء تحولاً عن فكرة أسطورية أقدم، وهي فكرة نبات الحياة أو الخلود أو تجديد الشباب، وهو ما نلمحه في بعض نصوص التوراة وبعض الملاحم الشعبية التي تضمنت أفكارًا أقدم ترتبط بالعبادات الطوطمية[708].

ويعرج بنا الزهري إلى الحديث عن إحدى الآبار العجائبية الموجودة بمصر، التي تُسمى (البئر المعطلة) "ومن عجائب هذه البئر إذا وصل إليها أحد من البعد رأى ماءها قد خرج، وفاض على فم البئر نحو عشرين زراعًا من كل ناحية، فإذا قرب من البئر بنحو عشرين ذراعًا انقبض الماء حتى يصير إلى فم البئر، فإذا بلغ الماشي إليها هبط الماء، فإن أدلى فيها دلوًا هبط الماء إلى قعر البئر، ولو كان الحبل ألفي ذراع لم يبلغ إلى الماء، وكلما طلع الدلو طلع الماء حتى يصل الدلو إلى فم البئر، وكلما تباعد خرج الماء على أثره حتى يصير إلى حده الأول، فإن كان الرجل راكبًا على حصان من عتاق الخيل وهمَّ ليسرع إلى الماء انقبض الماء في أسرع من لمح البصر، لأن الله تعالى ذكرها بالمعطَّلة في كتابه العزيز فقال جلَّ وتعالى:﴿ وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ﴾، وإذا زال الرجل عن فم البئر طلع الماء بقدر العشرين ذراعًا، وهذه البئر إحدى عجائب الأرض"[709].

ويتحدث ابن الوردي عن بئر تُسمى "بئر المعظمة"، وهي تسمى بئر العظائم،

---

(708) راجع سفر التكوين- الإصحاح الثاني والثالث، محمد خليفة حسن: الأسطورة والتاريخ في التراث الشرقي القديم، ص138، كارم محمود عزيز: الأسطورة فجر الإبداع الإنساني، ص421

(709) الزهري: كتاب الجعرافية، ص40.

وهي بالقاهرة، عند الركن المخلق، يقال إنها من آبار موسى عليه السلام، وحُكي أنه طاسة لفقير وقعت في بئر زمزم وعليها منقوش اسم ذلك الفقير، فرجع الفقير مع الركب المصري إلى القاهرة، فجاء إلى البئر المعظمة ليتوضأ منها للتبرك، فطلعت الطاسة بعينها في المستقى، وشهد له جماعة من الحجاج أنهم شاهدوا وقوعها في بئر زمزم"[710]، وهكذا حاول الخيال الشعبي أن يجعل له نصيبًا في معجزات (بئر زمزم) وقدسيتها، في محاولة لإثبات أن مياه بئر زمزم المباركة متصلة بآبار مصر، ولم يكن ينقصه سوى الشهود على ذلك، فلم يجد سوى الفقراء ليكونوا أداته في تلك الخرافة، لأنهم هم الشريحة المعنية الأولى بها.

ويشير القزويني إلى "حوض لعين ماء منقور في حجر عظيم يسيل الماء إلى الحوض من تلك العين بجنب كنيسة، فإذا مس ذلك الماء جُنب أو حائض .انقطع الماء السائل من ساعته، وينتن الماء الذي في الحوض، فيعرف الناس سببه، فينزفون الماء الذي في الحوض وينظفونه، فيعود إليه الماء على حالته الأولى، وهذا الحوض يسمى الطاهر"[711]. ويقول (الزهري) عن إحدى آبار مدينة (قوص): "بها بئر تُسمى بئر الجيش، وماء هذه البئر من أعجب المياه، وذلك أنه إذا شرب منه الشارب سال على فخذيه في الحين"[712].

وتحدث المقريزي عن حوض ماء بمصر "من صوّان أسود مملوء ماء لا ينقص

(710) ابن الوردي: خريدة العجائب وفريدة الغرائب، ص150.

(711) القزويني: آثار البلاد، ج2، ص271.

(712) الزهري: كتاب الجعرافية، ص44، الحميري: الروض المعطار، ص557.

طول الدهر، ولا يتغير ماؤه، وعمل ذلك لبعدهم عن النيل، وذكر بعض كهنة القبط أن ذلك الماء ثم لقربه من البحر الملح فإن الشمس ترفع بحرّها بخار البحر فينحصر من ذلك البخار جزء بالهندسة أو بالسحر، وتجعله ينحط ذلك الموضع بالجوهر مثل الظل وتمده بالهواء، فلا ينقص بذلك ماؤه على الدهر ولو شرب منه العالم"(713).

وتحت باب "في وصف الأعين والمنابع وذكر بقاعها العجيبة وخواصها وما فيها من العجائب"، يسرد لنا الدمشقي ما شاع حول عجائب مياه وادي النطرون، حيث يقول: "إن بركة نطرون بمصر ما ألقي فيها شيء إلا صار نطرونًا حتى العظام والحجارة تصير نطرونًا"(714).

إن موارد المياه عند الإنسان الديني مكان مقدس، فالمكان في مفهومه غير متجانس دنيوي وديني، وإن شعائر دينية معينة تستمر في الحياة، وتقع موارد المياه من ضمنها، تحافظ على قدسية هذه الموارد، كنبع زمزم، وأفضل هدية مباركة يحملها الحاج شيء من ماء هذا النبع، والسبلان في المساجد، وحتى القساطل والأواني تنسج حولها الخرافات إذ يتحدث المقريزي عن آنية بمصر "إذا جُعِلَ فيها الماء صار خمرًا في لونه ورائحته وفعله، وقد وجد من هذه الآنية بأطفيح في إمارة هارون بن خمارويه بن أحمد بن طولون، شربة جزع بعروة زرقاء ببياض، وكان الذي وجدها أبو الحسن الصائغ الخراساني، هو ونفر معه، فأكلوا على شاطئ النيل وشربوا بها الماء فوجدوه خمرًا سكروا منه وقاموا ليرقصوا فوقعت الشربة فانكسرت عدة قطع، فاغتم الرجل وجاء بها

---

(713) المقريزي: الخطط ج1، ص32.

(714) الدمشقي: نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، ص116.

إلى هارون، فأسف عليها وقال لو كانت صحيحة لاشتريتها ببعض ملكي"[715].

ويعلق المقريزي على ذلك بعبارة تكشف مدى الارتباك الناجم عن وصول إشارات من تاريخ البطالمة في ثنايا الرواية الأخيرة فهو يذكر "وأما الآنية النحاسية التي تجعل الماء خمرًا فإنها منسوبة إلى قلوبطرة [كليوباترا] بنت بطلميوس ملكة الإسكندرية"[716]، لنجد اختلاطًا بين العناصر الأسطورية والعناصر التاريخية بشكل مثير، وإن كانت تتحدث دائمًا عن أعمال السحر والعجائب التي كانت تلازم ملوك مصر القديمة، التي من شأنها أيضًا أن تعكس قدرًا كبيرًا من البهر والإعجاب الممزوجين بالنقص الفادح في المعلومات التاريخية.

وكان **سحر مصر** يكمن في أمور أخرى عند بعض الرحالة والمؤرخين والكتّاب، وإن لم تكن مصر جذابة في حد ذاتها، فجاذبيتها بالنسبة إليهم كانت تنبع من ارتباطها بأشياء أخرى، فمثلاً اهتم التلمساني (المتوفى سنة 776هـ) بعجائب مصر من منظور آخر في كتابه "سكردان السلطان"[717]، وهو كتاب أدبي تاريخي، يشتمل على أنواع الجد والهزل، ألفه للسلطان الملك الناصر بن أبي المحاسن في سنة 757هـ، في خواص السبعة التي هي أشرف الأعداد، طبع وحاول أن يشعرنا فيه بأن هناك رابطًا سحريًا غامضًا بين عجائب أرض مصر وبين العدد سبعة، حتى إنه خصص بابًا كاملاً في هذا الشأن تحت عنوان: "في ذكر نبذة مما وقع في إقليم مصر من هذا العدد

(715) المقريزي: الخطط، ج1، ص34.

(716) نفسه، ج1، ص35.

(717) السكردان في الأصل: خوان يوضع فيه الشراب.

على طريق الإجمال"[718]، ومن أطرف الحكايات التي تنسب إلى قدماء المصريين قدرات خارقة مرتبطة بأسرار العدد سبعة، أن أحد ملوك مصر القدامى "عمل مرآة من المعادن السبعة[719]، فينظر فيها إلى الأقاليم السبعة، فيعرف ما أخصب منها وما أجدب، وما حدث فيها من الحوادث، عمل في وسط المدينة صورة امرأة جالسة، في حجرها صبي كأنها ترضعه، فأي امرأة أصابها وجع في جسمها مسحت ذلك الموضع من جسد تلك المرأة فتبرأ من ساعتها، وهذا من العجائب"[720].

فأسطورية الرقم (سبعة) وظهوراته في الكتابات التاريخية المتعلقة بمصر يكاد لا ينتهي، إذ إنها رمزية تندرج في نطاق الرمزية (الكوزمولوجية) ظلت محافظة على قدسيتها واستسراريتها عبر العصور، ولدى أغلب الشعوب، رغم تغير المعتقدات والأديان، شأنها كشأن المكان المقدس الذي يكون معبدًا وثنيًّا ثم يصير كنيسة فجامعًا فمدرسة دينية، فقد مثل الرقم (سبعة) دائمًا رقمًا ملغزًا، سحريًّا، يجسد المعرفة المكثفة، والتنوير، والروحانية، وفي مصر يبرز الرقم (سبعة) دائمًا في ما يتعلق بالعجائب والأساطير، والمعبودات، والفراعنة، والكيانات الروحية، والفلك[721]، كما كان لأرقام معينة في مثيولوجيات الشرق الأدنى القديم "قيمُ سحرية" اعتبرت بالغة الفعالية، إلا أن الأعداد عند اليهود -الذين لم يعرفوا الأرقام- أصبحت حواذًا غلابًا افترش صفحات (العهد

---

(718) التلمساني: سكردان السلطان، ص351.

(719) كان المصريون أول الكيميائيين، وفي عملياتهم التحويلية اشتغلوا بالمعادن السبعة: الذهب، والفضة، والزئبق، والنحاس، والحديد، والزنك، والرصاص، ويتحكم في كل منها الكواكب السبعة على التوالي التي كانت تُعبَد: الشمس، والقمر، وعطارد، والزهرة، والمريخ والمشتري، وزحل. للمزيد انظر: آنا رويز: روح مصر القديمة، ص184.

(720) التلمساني: المصدر السابق، ص433، المقريزي، الخطط، ج1، ص33.

(721) آنا رويز: روح مصر القديمة، ص184.

القديم) كله وسرى في أوصال الديانة، وربما انتقل هذا التأثير إلى كتابات المؤرخين الذين لم يجدوا بين أيديهم تفاصيل يشرحون بها الكثير مما ورد في القرآن الكريم من أخبار مصر القديمة، فالتمسوا المادة في ما وصل إليهم من تفاصيل ما رُوي من هذه الأحداث في الكتب الدينية المتداولة بين اليهود والنصارى[722]، والقصص التي تدور حول هذا الموضوع كثيرة ومتناثرة في بطون الكتب التاريخية، ولكنها تشترك جميعًا في صفة واحدة هي المبالغة التي تعكس الانبهار بمصر، الإنسان، والأرض، والحضارة، التي تنسب الكثير من منجزات هذه الحضارة إلى أعمال السحر والخوارق في خروج من دائرة ما هو مألوف إلى انفتاح على اللا مألوف وتجلياته، مما يعطي القناعة بأن العجيب متجذر في الكتابة التاريخية المتعلقة بمصر تجذرًا، يجعل منه سمة بارزة وشكلاً يحضر مرة بهذه الصفة، ومرة أخرى يحضر باعتباره عنصرًا تحفيزيًّا تاريخيًا حقيقيًّا وفاعلاً في الواقع والوقائع.

---

(722) شفيق مقار: السحر في التوراة والعهد القديم (الطبعة الأولى، مكتبة رياض الريس، بيروت 1990م)، ص463، ص504، حسين مؤنس: الحضارة، ص70.

الفصل الثامن..
النيل في الأساطير العربية

".. النيل مخالف لكل نهر على وجه الأرض.. وفي أصل النيل أقوال، فذهب بعضهم إلى أن مجراه من جبال الثلج وهي بجبل قاق، وأنه يخترق البحر الأخضر المالح بقدرة الله تعالى، ويمر على معادن الذهب والياقوت والزمرد".

النواجي

(حلبة الكميت /296).

ذات ليلة منذ أكثر من نيف ونصف قرن من الزمان، تساءل شوقي مخاطبًا النيل في مجراه: مِنْ أَيِّ عهدٍ في القُرى تَتَدفَّقُ... وبأي كَفٍّ في المدائن تُغْدِقُ... ومِنْ السماءِ نزلْتَ أم فُجِّرت من... علْيا الجِنان جداوِلاً تترقرق...؟! وبأَيِّ عَيْنٍ، أم بأَيَّة مُزْنةٍ... أم أيِّ طوفانٍ تفيض وتَفْهَق؟!

هذه التساؤلات التي أطلقها شوقي تمجيدًا للنيل.. كانت صدى للتساؤلات المماثلة التي ما دامت ترددت في شمال الوادي عبر آلاف السنين، فقد عنى المفكرون في جميع العصور منذ بدء التاريخ بنهر النيل، ووصفه، وتتبع منابعه، وحوضه، ومصبه، وكثرت المحاولات لتفسير أحواله وظواهره المختلفة، وهذه الأمور جميعها هي ما يطلق عليها "جغرافية النيل".

وكان الاهتمام بالنيل راجعًا إلى أن جميع من سَكَنَ مصر أو خالط أهلها أو زارها أو جاورها، يعلم تمام العلم أن النيل هو السبب في ثراء مصر ورخائها، وأنه الركيزة الأولى التي قامت عليها حضارتها المبكرة، تلك الحضارة النبيلة الراقية منذ آلاف السنين، التي كان لها الفضل على العالم كله، حيث نهل أبناؤه من وادي النيل مبادئ

هذه الحضارة والعمران، يوم لم يكن حضارة ولا عمران إلا ما نشأ ونما في أحضان هذا الوادي الخصيب[723].

لذلك كان من الطبيعي أن يصبح نهر النيل محط اهتمام المصريين وغيرهم منذ أقدم العصور حتى يومنا هذا، فلا يوجد نهر في العالم كله له من الفضل على إقليم وساكنيه ما لنهر النيل من الفضل على مصر وساكني مصر، ولذا بدأت محاولات استكشاف النهر منذ بدء المصري القديم يتحول إلى الزراعة، وعلى الرغم من قلة المعلومات المتاحة للمصريين القدماء عن أعالي النيل، فإنهم سرعان ما اتصلوا بغيرهم من الشعوب والبلاد التي تسكن وادي النيل في جنوب مصر، وهم بذلك كانوا مجدين في الاستكشاف والاتصال بالبلاد الأخرى[724].

واستمرت محاولات المصريين القدماء لكشف النهر، ثم جاء اليونان واستمروا في البحث والاستقصاء عن النهر ومنابعه، وكان أشهرهم بطليموس الجغرافي[725]، واستمرت محاولات العرب في القرون الأولى للهجرة، ثم محاولاتهم في العصور الوسطى، والحقيقة أن العرب نقلوا كتاب بطليموس عن النيل إلى لغتهم، وكان مرجعهم الأكبر في كتاباتهم الجغرافية، ولكنهم زادوا على بطليموس أشياء كثيرة إلا في ما يختص بأعالي النيل، فكانت كتاباتهم في ذلك قليلة.

ومن الملاحظ أيضًا أن الزيادات التي أضافها العرب على ما ذكره بطليموس

---

(723) محمد عوض محمد: نهر النيل (سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة 2001م)، ص7.

(724) نفسه، ص13.

(725) محمد عوض محمد: نهر النيل، ص16، 17، أبو اليسر فرح: النيل في المصادر الإغريقية (الطبعة الأولى، دار عين للدراسات، القاهرة 2004م)، ص80، 81.

عن النيل لم تكن صحيحة، بل كانت تشوبها الخرافات والأساطير في أحيان كثيرة، وقد اتضحت هذه الصورة في كتابات الجغرافيين والمؤرخين في العصر المملوكي (648-923هـ/ 1250- 1517م)، الذين نقلوا ما أورده القدماء من العرب وغيرهم عن نهر النيل، ولم تزد معلوماتهم كثيرًا عما أخذوه من القدماء[726].

وخير مثال لذلك اتفاقهم جميعًا على أن نهر النيل ينبع من جبال القمر خلف خط الاستواء من عشر عيون في الأرض -والبعض ذكر أنها اثنتا عشرة عينًا-[727] تجتمع في عشرة روافد، تجتمع كل خمسة منها لتصب في بحيرة، ثم تجتمع هذه المياه مرة أخرى في بحيرة واحدة، حيث يخرج نهر النيل[728]، وسنجد أن رحلة اكتشاف منابع النيل في الكتابات التاريخية قد استوعبت القصص والأساطير الشعبية الإسلامية مع الرواسب الأسطورية الفرعونية والقبطية إلى جانب بعض قصص الإسرائيليات، لتصب كلها في مجرى واحد، غايته -في المخيلة الشعبية- اكتشاف منابع نهر النيل التي ظلت لغزًا محيرًا آلاف السنين.

وقام الوجدان الشعبي برحلة شديدة الحيوية والاستنارة، يلم فيها بمنابع النيل

---

(726) الأقفهسي: أخبار نيل مصر، ص7- 9.

(727) أطل المؤرخون علي النيل من نافذة النبوءات، ومن طاقة الرموز حين جعلوا النيل ينبع من اثنتي عشرة عينًا، وهو العدد الذي استفاد قدسيته من رمزيته الزمانية والمكانية (الكوزمولوجية)، فعدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرًا، والأئمة اثنا عشر، وكان من معجزات موسي عليه السلام العصا التي ضرب بها الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينًا لكل سبط عين. المقريزي: الخطط، ج2، ص394، النواجي: حلبة الكميت، ص296.

(728) التلمساني: سكردان السلطان، ص64، السيوطي: كوكب الروضة، ص126، 127، ابن محشرة: الاستبصار، ص45، المسعودي: مروج الذهب، ج1، ص98، الخوارزمي: كتاب صورة الأرض، ص106- 109، القلقشندي: صبح الأعشى، ج2، ص290، 291، المنوفي: الفيض المديد في أخبار النيل السعيد، ص4، 5.

ويبتدع لغة يتواصل بها مع النيل، واستكشاف مجاهله والوقوف على أسراره وخوافيه، وراح يعمل على تخليق تفسيرات لما يُغمض عليه، ويطلق على الأشياء مسميات ويؤلف لها تاريخًا موضوعيًّا متسقًا، يُجيبُ فيه على ما قد يخطر بباله من تساؤلات حول شريان حياته، ويمكن أن نلمح أثر ذلك في كتب الجغرافيا أو الكتب التي تحدثت عن فضائل مصر، والتي تتفق جميعًا في أنها تنقل المأثور والمتواتر من الأساطير عن منطقة منابع نهر النيل، ولكن وصفهم لمجرى النهر من منطقة الجنادل جنوب أسوان، حتى مصبه في البحر المتوسط تتسم بالدقة، لأنهم شاهدوا النهر في هذه المنطقة وعاينوا مجراه، ونظرًا لأن مجرى النيل في أعاليه كان عقبة كؤودًا في وجه من حاول تتبع مجرى النهر الأعلى حتى منطقة المنابع[729]. فقد تصورت الأساطير والخرافات التي أوردها كُتّابُ ذلك العصر منطقة المنابع أرضًا خيالية تنبتُ فيها قضبان الذهب والفضة والنحاس والحديد، كما يجري فيها بحر من الزفت تنبعثُ منه الروائح الكريهة، التي تقضي على كل من يحاول الاقتراب من المنطقة التي تصوره أنها تعج بأحجار مغناطيسية تجتذب كل من ينظرُ إليها، وتقضي عليه. هذا الموقف الوجداني يعكس بطبيعة الحال مدى الجهل بالطبيعة الجغرافية لمنطقة منابع نهر النيل، ولكنه في الوقت ذاته يكشف عن مدى الرهبة والخوف الكامنين في أعماق اللا شعور تجاه النهر الذي عليه قوام الحياة في مصر.

---

(729) من الشائع أن المصريين كانوا يعتقدون أن منابع النيل تقع عند الشلال الأول جنوبي أسوان، وإن الكبش الذي كان حيواناً مقدسًا لديهم، يحرس هذه المنابع وربما يصور لنا ديودور الصقلي ما كان يُشاع من أمر منابع النيل بقوله: "إن كهنة مصر حدثوه بأن النيل يستمد مياهه من المياه المحيطة بالعالم المسكون"، ولم يقبل ديودور هذه الفكرة لأنه ليس هناك ما يؤيدها، بل إن الكهنة –من وجهة نظر ديودور– يحلون مشكلة غامضة بشكل يحتوى على المزيد من الغموض، أبو اليسر فرح: النيل في المصادر الإغريقية، ص80، 81.

ولما كان المصريون لا يزالون تحت رحمة النهر الكبير، ولم يتمكنوا من تطويعه وضبط مياهه، فإنهم ظلوا يخشونه ويترقبون مواسم فيضانه بمزيج من القلق والرهبة والأمل، فانعكس هذا الموقف العقلي والوجداني في أساطيرهم وتصوراتهم عن نهر النيل، ومنطقة منابعه، ووصل إلينا الواقع يحمل مبالغات تصل إلى حد الإغراب والدهشة، مما يحق لنا أن نطلق عليه الأخبار الأسطورية[730].

هذه الأخبار الأسطورية تعكس لنا بالضرورة شغف الناس بتقصي أصول ومنابع النيل، وما جُبِلَ عليه الناس من حب الاستطلاع واستكشاف المجهول، الذي يُثير فيهم نوازع تدفع بهم إلى تعويض النقص الحاد في معارفهم بالخيال المتخم بالخرافات، التي أدت إلى التشويش والارتباك في تصوراتهم، وقد أشار التلمساني إلى ذلك بقوله: "وفي أصل النيل أقوال للناس حتى ذهب بعضهم إلى أن مجراه من جبال الثلج، وهي بجبل قاق، وأنه يخرق البحر الأخضر، بقدرة الله تعالى، إلى أنه يأتي إلى بحيرة الزنج. قال المالكي لهذا الكلام: ولولا ذلك يعني دخوله في البحر المالح وما يختلط به منه، لما كان يُستطاع أن يشرب منه لشدة حلاوته وقال قوم: مبدؤه من خلق خط الاستواء بإحدى عشرة درجة، وقال قوم مبدؤه من جبل القمر، وإنه ينبع من اثنتي عشرة عينًا، واختلف في سبب زيادته ونقصانه فقال قوم: لا يعلم ذلك إلا

(730) قاسم عبده قاسم، النيل والمجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك (الطبعة الأولى، دار المعارف، القاهرة 1978م)، ص101، قاسم عبده قاسم: بين التاريخ والفولكلور، ص91.

الله عز وجل"[731]، وعده البعض "إحدى عجائب العالم إذ لا يعرف له منبع"[732]، "ولم يعز أصله إلى مكان"[733].

بيد أن هذه الكتابات التي ذكرت أن النيل يخرج من جبل القمر تذكر أيضًا أن مجرى نهر النيل كان من عمل البشر، إذ يذكر المؤرخون: "يُقال -والله أعلم- إن أول من ملك مصر عند قسمة الأرض بين ولد آدم، زمن آنوش، بوصية آدم عليه السلام، ملك يقال له نقراوش بن أضرم، وهو أول من اتخذ المصانع، وعمل الطلسمات، وأقام الأساطين، وزبر عليها التواريخ وبنى في المدن، وهو الذي حضَّر النيل وعمَّقه ووسَّعه، وكان قبل ذلك ينقطع ويستنفع"[734].

ورواية أخرى تقول: "إن مصرام هو الذي بنى مدينة مصر، وإليه تُنسب، وكان عالما بعلم الكهانة، والطلسمات، وكان قد كتب على أبواب مصر، أنا مصرام بن تبليل قد بنيت هذه المدينة، وأودعت بها الطلسمات الصادقة، والصور الناطقة، وهو الذي ساوى الأرض حتى أتى منبع النيل، وبنى به الجسور والقناطر، وأصلح مكان مجراه، قطع منها الجبال التي كانت تعوق جريان النيل.. واستمر سابحًا في الأرض نحوًا

(731) التلمساني: سكردان السلطان، ص364- 365، السيوطي: كوكب الروضة، ص127، الأقفهسي: كتاب أخبار نيل مصر، ص57- 58، المسعودي: مروج الذهب، ج1، ص98، الخطط، ج1، ص53، 54، النواجي: حلبة الكميت، ص296.

(732) الحميري: الروض المعطار، ص586.

(733) ابن حوقل: صورة الأرض، ص173.

(734) ابن محشرة: الاستبصار في عجائب الأمصار، ص50.

من ثلاثين سنة، ثم هلك وتولى من بعده أخوه عيقام، وقد توجه عيقام إلى خلف الاستواء وبنى هناك قلعة من نحاس أصفر في سفح جبل القمر، الذي ينحدر من أعلاه النيل، وصنع هناك خمسة وثلاثين تمثالاً من النحاس، يخرج من حلوقها ماء النيل، ويصب في بطائح هناك، ثم ينحدر إلى أرض مصر بقانون وتدبير بما يكون فيه لأهل مصر المنفعة دون الفساد، وقُدِّر ذلك على ست عشرة ذراعًا تروي أرض مصر جميعها من هذه الستة عشرة، واستمر عيقام ساكنًا في القصر النحاس[735] الذي بناه على سطح جبل القمر حتى هلك"[736].

هكذا تصورت الأساطير أن نهر النيل تم حفره بأيدي البشر، وتمضي الأسطورة عند المقريزي لتضيف عن نهر النيل أنه: "لم يكن قبل ذلك معتدل الجري، بل كان ينبطح ويتفرق في الأرض حتى وجه إلى النوبة الملك نقراوس المهندسين فهندسوه، وساقوا منه أنهارًا إلى مواضع كثيرة من مدنهم، التي بنوها وساقوا منه نهرًا إلى مدينة أمسوس، ثم لما خربت أرض مصر بالطوفان، وكانت أيام (البودشير) بن فقط بن مصر بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام، عدل جانبي النيل تعديلاً ثانيًا بعدما أتلفه الطوفان"[737]. كما يشير القلقشندي إلى أن "نقراوس بن مصريم بن براجيل بن رزائيل بن غرباب بن آدم عليه السلام نزلها في سبعين رجلاً من بني غرباب الجبابرة، فعمروها، وهو

---

(735) وجود النحاس في القصور والمدن والتماثيل يتكرر كثيرًا في ما يتعلق بمنابع النيل وعلاقة النحاس بعالم السحر قوية في الآداب الشعبية، ولعل هذا صدى من أصداء الاعتقاد العام حول خواص النحاس السحرية، وهو كثير الظهور في وصف الأبواب السحرية عادة والقصور والتماثيل العجائبية.

(736) ابن إياس: بدائع الزهور، ج1، ص10، ابن الوردي: خريدة العجائب وفريدة الغرائب، ص154– 155.

(737) المقريزي: الخطط، ج1، ص51، 52.

الذي هندس نيلها وحفره حتى أجراه، ووجه إلى البرية جماعة هندسوه وأصلحوه، وبنى المدن وأثار المعادن وعمل الطلسمات"[738].

وهناك أسطورة أخرى تناقلتها المصادر العربية التي حاولت البحث عن منابع النيل ومنطقة مجراه الأعلى، وهي خليط من المعلومات الجغرافية والخرافات، فقد نقل النويري عن الإدريسي الجغرافي الشهير (ت560هـ) أن اسم البطيحة الكبيرة (البحيرة) التي يخرج منها النيل "كوري" منسوبة إلى طائفة من السودان "يسكن حولها متوحشون، يأكلون من يقع إليه من الناس فإذا خرج منها النيل، يشق بلاد كوري ثم بلاد نمنم وهم طائفة من السودان بين كانم والنوبة"[739]، ويعتقد بعض الجغرافيين أن النيل يغوص في الرمال، ويختص في المنطقة الواقعة ما بين بلاد كانم وبلاد النوبة. ولا يظهر مرة أخرى سوى عند بلاد النوبة مثلما يغوص نهر الفرات الذي ببلاد العراق"[740].

ولعل المسعودي أظهر اهتمامًا بالنيل، يظهر من حين لحين في أكثر من جزء من أجزاء كتابة الموسوم بـ(مروج الذهب)، فذكر مصر في كتابه يأتي طبيعيًّا بعد ذكر ملوك الروم وبعد ظهور الإسلام، إلا أن ذكره النيل لا يرتبط بهذا التسلسل المنطقي لأحداث التاريخ في العالم القديم، فالنيل هنا يستهويه ويستغرق اهتمامه في أكثر من

---

(738) القلقشندى: صبح الأعشى، ج3، ص313.

(739) النويري (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب): نهاية الأرب في فنون الأدب (طبعة دار الكتب المصرية)، ج1، ص262، الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج1، ص28.

(740) الإدريسي: نزهة المشتاق، ج1، ص28، المنوفي: الفيض المديد في النيل السعيد، ورقة 5-6، الخطط، ج1، ص67- 68.

موضع من كتابه، بصرف النظر عن الحديث عن مصر، أو الارتباط بالتسلسل التاريخي أو الجغرافي الذي التزمه في نقلات حديثه وتدوينه تاريخ العالم، فهو يذهب في سياق حديثه عن الإسكندرية إلى بعض الروايات الشعبية التي دارت حول حفر النيل بأيدي البشر في تناسق وتناغم آسرين بين الحقيقية والخرافة بقوله: "وقد كان الإسكندر بن الفيلقوس المقدوني بنى الإسكندرية على هذا الخليج من النيل، وكان يتفجر إليه عظيم ماء النيل ويسقي الإسكندرية، وبلاد مريوط، وكان بلد مريوط هذا في نهاية العمارة، والجبال المتصلة بأرض برقة من بلاد المغرب، وكانت السفن تجري في النيل فتتصل أسوان بالإسكندرية، وقد بلط أرض نيلها في المدينة بالرخام والمرمر، فانقطع الماء لعوارض سدت صفحاتها ومنعت النيل من دخوله، وقيل لعل غير ذلك منعت من تنفسه، وردت الماء إلى كثافة لا يحملها كتابنا هذا، فصار شربهم من الآبار، وصار النيل على نحو يوم منهم"[741].

بيذ أنه ينفرد الجغرافي المصري أبو محمد الأسواني[742] في كتابه "أخبار النوبة" الذي وضع في القرن الرابع الهجري –لمساعدة الفاطميين في الدفاع عن دار الإسلام من جهة النيل الأعلى– ينفرد هذا المؤلف بإيراد معلومات تكاد تكون أقرب الأشياء إلى الدقة عن النيل أكثر من غيره من الجغرافيين، فالنيل عنده يتكون من ثمانية أو تسعة أنهار: نهر عطبرة، النيل الأبيض، النيل الأزرق، الذي يسميه بـ"النيل الأخضر"،

(741) المسعودي:مروج الذهب، ج1، ص83.

(742) أبو محمد الأسواني: من أهم المصادر التي اعتمد عليها المقريزي في كتابه (الخطط)، وذكر أنه أكثر الناس علمًا بالنيل غير أن كتابه لم يصلنا (مفقود).

والذي يأتي من الجنوب الشرقي، وهو صافٍ جدًّا رغم لونه القاتم، حتى إن الأسماك تشاهد في قعره، ويمضي النيلان الأبيض والأزرق بعد لقائهما، ثم يمتزجان في هياج الأمواج وتأتي الأنهار الأربعة الأخرى، وكلها دائمة الجريان ما عدا واحدًا منها من الحبشة وتصب في النيل الأزرق الذي يلتقي في ما بعد بنهر عطبرة، قبل أن يلتقي النيل الأبيض.

ووصف الأسواني للنيل وروافده يكاد يقترب من الواقع، وهو لا يأخذ بالأساطير إلا قليلاً في ما يتصل بأنهار الحبشة الأربعة، لأن أحدها يخرج من بلاد الزنج، وهو يقر مثل غيره من الجغرافيين بأن منابع النيلين، الأبيض والأزرق مجهولة. وحصيلة البحث الجغرافي الإسلامي أن أساطير مصر ونهرها تتمفصل على حجر زاوية مصر الإسلامية، وما قبل الإسلامية في آن واحد[743].

ما يهمنا في الروايات السابقة خصوصية **الزمن** المتصل بالنيل، عندما قررت إحدى الروايات أن مصرايم ظل سابحًا نحو ثلاثين سنة، وهي حسابات زمنية غير مألوفة عند البشر، إذ هو ليس وقتًا عاديًّا بالمفهوم الإنساني، ووفقًا للقدرة الإنسانية على السير، كما أن هذه "اللا معقولية" في زمن الحادثة تجعله زمنًا خاصًّا يخرج عن فهمنا نحن المتلقين للزمن، كما أنه يبعد عن زمن التجربة الواقعية اليومية وتحديداتها مما يضفي عليه سمة "الأسطورية"، فضلاً عن أن تلك الروايات كشفت –بقصد أو دون وعي– عما وقر في أذهان ومخيلة الناس من تصورات مفادها أن نهر النيل تم شقه بأيدي البشر وتقدم لنا تصورًا خياليًّا عن كيفية خروج منابع النهر من تحت جبل

---

(743) سيد خميس: وصل ما انقطع.. قراءات في التراث العربي الإسلامي (سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة 2002م)، ص75– 76.

القمر، ولكن هذه الأساطير لا تكتفي بهذا وإنما تتحدث عن تحكم البشر من ملوك مصر القدامى في مجرى النيل في منطقة المنابع، فقد رأينا كيف جرى الحديث عن أن الذين ملكوا مصر من نسل نوح عليه السلام قد حفروا مجرى النيل، ورتبوا نوعًا من السدود أو القناطر التي اتخذت شكل التماثيل، التي يمكن بواسطتها التحكم في مقدار المياه[744]. كما تتحدث هذه الأساطير عن أعمال جبارة جرت بعد الطوفان لإعادة صيانة ضفتي النهر وتعديل مجراه، ولعل عبارة "بعد الطوفان" هي التي حذت ببعض الرحالة والمؤرخين، إلى قسمة تاريخ مصر إلى ما قبل الطوفان وما بعد الطوفان، وكأن الطوفان فاصلاً بين عهدين -أسطوري وتاريخي- الذي انسحب بدوره على التقسيم التاريخي للمنطقة أيضًا.

كما أن تلك التصورات الأسطورية عن تدخل ملوك مصر القدامى في حفر مجرى النيل، فضلاً عن تداخل التقديرات الزمنية المبالغ فيها، تجعلنا نقف عاجزين عن استخلاص الفيصل بين الحقيقة والخيال، فقد تكون نابعة من تدخل خيال القصاصين فيها أو انبهار المؤرخين والرحالة الذين سطروها بضخامة الآثار المادية، التي تخلَّفَتْ عن عصر المصريين القدماء، كالمعابد الشاهقة، والأهرامات العملاقة والمسلات الشامخة، مما كان لهذا كله أثره البالغ على عاملين لا يخلوان من مبالغات هما: عامل القياس، وعامل الزمن.

فالعامل الأول المتصل بالقياس، فإنه يدور حول القوة الخارقة التي جعلت من مصرايم يحفر النيل بيده، إضافة إلى التصور الشعبي عن وجود أُناسٍ عمالقة "يتمتعون بمثل هذه القوة وطول القامة".

---

(744) قاسم عبده قاسم: بين التاريخ والفولكلور، ص94.

أما العامل الثاني وهو عامل الزمن المتصل بمصرايم الذي حفر النيل وظل سابحًا وراءه لمعرفة منابعه بنحو ثلاثين سنة إلى غير تلك التقديرات الزمنية التي ربما استقاها المؤرخون والجغرافيون من أغوار الذاكرة الشعبية للناس، التي من الممكن تأثرها بالمصادر الإغريقية، خصوصًا أرسطو الذي كان يرى أن منابع النيل تقع عند سلسلة جبال تُسمى جبال الفضة[745].

على أي حال، فإن تلك التصورات الخيالية لجريان النيل، وحفر مجراه، وفروعه، وترعه وخلجانه، ولمنطقة منابع النيل ومجراه الأعلى، تظل شاهدًا حيًّا على ما أنشأهُ الشعبُ لنفسه عن نفسه، وما امتلكه من ملكات ذهنية تصل به إلى حد الموهبة في القدرة على تصوير موقفه الشعبي من شريان حياته وقدرته على التعبير عن ذاتيته العامَّة.

وهناك تصور آخر لمنطقة منابع نهر النيل ساقه الجغرافيون والمؤرخون العرب، فقد زعم البعض بأن نهر النيل ونهر السند ينبعان من أصل واحد، ودليلهم في ذلك "اتفاق زيادتهما وكون التماسيح فيهما"[746]. وأضاف البعض أنه "لا يوجد نهر يشابه النيل غير نهر الملتان بالهند، وهو نهر يخرج أصله من جيحون.. وفيه تماسيح وفرس البحر على هيئة النيل.."[747].

وقد غضب المؤرخ والرحالة (المسعودي) من هذا القول ونقده بشدة فنراه

---

(745) أبو اليسر فرج: النيل في المصادر الإغريقية، ص87.

(746) السيوطي: حسن المحاضرة، ج2، ص186، محمود سليم: النيل في عصر سلاطين المماليك (سلسلة المكتبة الثقافية، العدد 132، ص26.

(747) الهروي: الإشارات إلي معرفة الزيارات، ص41، الحميري: الروض المعطار، ص586.

يقول: "وقد زعم عمر بن بحر الجاحظ أن نهر مهران الذي هو نهر السند من نيل مصر، ويستدل على أنه من النيل بوجود التماسيح فيه، فلست أدري كيف وقع له هذا الدليل، وذكر ذلك في كتابه المترجم بكتاب الأمصار وعجائب البلدان، وهو كتاب في نهاية الغثاثة، لأن الرجل لم يسلك البحار، ولا أكثر الأسفار، ولا يعرف المسالك والأمصار، وإنما كان حاطب ليل ينقل من كتب الورَّاقين، أو لم يعلم أن نهر مهران السند يخرج من أعين مشهورة في أعالي بلاد السند"[748].

وغضبة المسعودي هنا لها ما يبررها، فقد كثر الخطأ الجغرافي والتصور الخرافي في الكتابات التاريخية والجغرافية، نتيجة جهل بأبسط قواعد الجغرافيا من ناحية، ونتيجة القصور عن محاولة استقصاء ما هو قائم وموجود، والاكتفاء بما ورد في الأخبار والكتب، وإن خالف العقل والمنطق، وبسبب ذلك نسب البعض نهر النيل إلى أنهار الجنة الأرضية، التي كان مكانها يقع في أقصى الشرق، وعلى الناحية الأخرى من بحر الظلمات، وفقًا للتصورات الخيالية الشائعة آنذاك، حيث كانت النظرية السائدة في ذلك الوقت تقول: "إن سائر مياه الأرض وأنهارها تخرج من الصخرة بالأرض المقدسة"[749]، وفي قول آخر: "إن أنهار الجنة مكانها في أقصى الشرق وعلى الناحية الأخرى من بحر الظلمات"[750]، وقال ابن زولاق في تاريخ مصر: "إن النيل يجري من

---

(748) المسعودي: مروج الذهب، ج1، ص99، التنبيه والإشراف، ص49، الأقفهسي: كتاب أخبار نيل مصر، ص59.

(749) الأقفهسي: كتاب أخبار النيل، ص39.

(750) بحر الظلمات هو بحر الأقيانوس، وهو المحيط الأطلنطي.

تحت سدرة المنتهى، وإنه لو تفضيَ آثاره لوجد في أول جريانه أوراق الجنة"[751]، وهو في المخيلة الشعبية: "نهر العسل ويرفعه جبريل عند رفع القرآن ومن لم يعرف فليسأل!!"[752].

يُقال: ولذلك يذب إلى كل إلى أكل البلطي من السمك، لأنه يتتبع أوراق الجنة فيرعاها، ويشهد لصحة ما ذكره ما رُوي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال "عليكم بالجيزوم[753] فإنه يرعى من حشيش الجنة"[754].

الراجح، أن هذا التصور الأسطوري للنيل ونسبته إلى أنهار الجنة نوع من التعبير الوجداني الشعبي عن الامتنان والحب للنيل النبيل الذي وهب المصريين بلدًا عاش فيهم، ولم يرضوا عنه بديلاً طوال تاريخهم الممتد إلى فجر الضمير الإنساني. كما أن هذه المحاولات الأسطورية لإلحاق نهر النيل بالجنة نوع من التشريف والتكريم، الذي أسبغته العقلية الشعبية على النهر الذي ارتبطت به حياتهم ارتباطًا كاملاً، سواء في الزراعة والتجارة والصناعة أو في المواصلات أو في الفن والأدب.

ولما كان المصريون قد جعلوا من النيل إلهًا قبل اعتناقهم المسيحية والإسلام، فإنهم ظلوا يحتفظون لهذا النهر بمكانة رفيعة في وجدانهم، بحيث حاولت أساطيرهم أن

---

(751) انظر: تاريخ مصر وفضائلها، ص16، النواجي: حلبة الكميت، ص269.

(752) السيوطي (جلال الدين السيوطي): مقامات جلال الدين السيوطي "مقامة في وصف روضة مصر تسمى بلبل الروضة " (الجزء الأول، تحقيق:سمير الدروبي، سلسلة الذخائر، العدد163، القاهرة 2007 م)، ص288.

(753) الجيزوم: اسم فرس من خيل الملائكة، انظر الجوهرى: الصحاح، ج5، ص1899(تحقيق: أحمد عبد الغفور، دار الكتاب العربي، مصر د.ت)، النهاية في غريب الحديث والأثر، ج1، ص274.

(754) الأقفهسي: مصدر سابق، ص39.

تجعله من أنهار الجنة، وهي محاولة لم تقف عند الاستعانة بالتصور الأسطوري فحسب، بل تعدته إلى السير والملاحم العربية التي أخذها الشعب المصري كما يأخذ الفنان موضوعًا بارزًا من موضوعات التاريخ أو واقعة عظيمة من وقائع الأبطال ولاءم بينهما وبين مطالب حياته الوجدانية، وخير مثال لذلك سيرة **(سيف بن ذي يزن)**[755]، و**(سيرة بني هلال)**[756]، واللتان تردد فيهما سمات بارزة مكتسبة من

---

(755) من المعروف أن سيف بن ذي يزن –في التراث التاريخي العربي- ملك من ملوك التبابعة الحميريين وبطل من أبطال التحرير اليمني، عندما أعلن الثورة سنة 575م للتخلص من نير الاستعمار الحبشي لبلاده بقيادة ملكها اليهودي ذي نواس على نحو ما رواه لنا وهب بن منبه في التيجان، وتعد تلك السيرة تحديدًا من أخصب السير الشعبية العربية والتي امتلأت بالعناصر الأسطورية المتعددة والمتنوعة، وأكثرها لجوءًا إلى الخيال الجامح الذي يشي في الكثير من مواضعها بالاتكاء على الفكر الأسطوري كمرجعية فكرية، وعلى بعض الحوادث الأسطورية المنضفرة داخل بنيتها، ويكاد يتفق عظم الباحثين في مجال الأدب الشعبي العربي على أنه على الرغم من أن الأحداث في السير الشعبية العربية تتحرك على خلفيات تاريخية أو شبه تاريخية، تمثل كل منها حلقة من حلقات الصراع بين الشعب العربي وبين أعدائه، إلا أن تلك الأحداث تنم عن أصول ميثولوجية ومعتقدات دينية وطقوس وممارسات سحرية قديمة عرفتها المجتمعات القديمة التي شكلت في ما مضى حضارات المنطقة العربية. انظر: محمد رجب النجار: الأدب الملحمي في التراث الشعبي العربي، ص205، كارم محمود عزيز: الأسطورة فجر الإبداع الإنساني، ص371، 373.

(756) السيرة الهلالية: من القصص الشعبي الذي شاع في مصر، وقد بدأت هذه السيرة في صورة غنائية، ثم أخذت صورة قصصية منذ القرن السادس الهجري، وتدور أحداث هذه السيرة حول أسرة بني هلال التي انتقلت من نجد إلى البلاد الإسلامية المختلفة، واستقر بعضها بمصر، وتفرق الكثيرون منها في الشمال الإفريقي والأندلسي، وكانت لهم وقائع في تونس، وقد صورت هذه القصة بعض جوانب الشخصية المصرية من خلال السخرية التي عامل بها المصريون حكامهم، كما تبدو في هذه العبارة التي أطلقها أحد المصريين معلقًا على طمع الهلاليين في حكم مصر والاستغلال بها، حيث قال "ولكن العرب لا يملؤون أعين المصريين"، كما أن الشعب المصري قد هذب هذه السيرة وحضَّرها وارتفع بها ومصَّرها رغم نواتها العربية. عبد اللطيف حمزة: الأدب المصري من قيام الدولة الأيوبية حتى مجيء الحملة الفرنسية (الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 2000م)، ص264-

النيل[757]، مما تشكل منهما عناصر لعوالم مائية أسطورية غير محددة في عالم السير، منها تلك المنطقة غير المحددة في سيرة(سيف بن ذي يزن)، حيث تتداخل الأساطير التعليلية والشعبية والدينية وتلتقي عند (القبة)، التي فيها صخرة من الياقوت الأحمر لها لمعان يأخذ البصر، يخرج من جوانبها الأربعة ماء أبيض من اللبن، وأحلى من العسل، ورائحته أزكى من المسك شذئً وعطرًا[758]. إنه الماء الذي ينحدر منه النيل، من تحت القبة فوق الجبل "الثلجي" العالي، هناك حيث "النهران الظاهران والصلاة على ملة الخليل إبراهيم عليه السلام"، وحيث الياقوت ووهج اللمعان والظفر بالوصول إلى منبع النيل

.273

(757) الأدب الشعبي الذي اهتمّ بسير الأبطال مثل (سيف بن ذي يزن) أو(الزير سالم) أو(الهلالية) قد حُجر عليه في المقاهي، والمجالس، ولم يُدون التدوين المعروف لدينا الآن إلا بعد أوقات طويلة من معرفته وانتشاره، ولأن المقاهي يرتادها العامّة فقد ظلّ الأدب الشعبي تابعًا لهذه الطبقة التي لم تنل الرضا من قِبل الطبقات العليا طبقة الحكام، والولاة، والتجار، والقضاة، والعلماء، والمتكلمين. وبسبب عدم التدوين ظلت سِير الأدب الشعبي وأخباره، وحوادثه تستطيل وتمتدّ تبعًا لمواهب الحكواتي وقدرته، وتبعًا لشغف السامعين لما يقصّ عليهم، فإن استمتعوا طالبوه بالمزيد، وعندئذٍ يشتغل ذهن الحكواتي بالتوصيل، والترقيع، ولحم حكاية بأخرى على نحو قد يكون بعيدًا تمامًا في أسلوبه عن أسلوب قصة الأول، لذلك نجد تعدد الأساليب الكتابية في نصوص الأدب الشعبي قبل أن تُصاغ كلها بروح واحدة من قبل كاتب بعينه، وفي عصر محدد أيضًا، ولذلك نجد مجاورة الواقعي للخيالي ومخالطة المؤنس بالغرائبي، والقريب بالبعيد، والصافي بالمزيج. وفي كل الأحوال كان تقويم الأدب الشعبي تقويمًا بعيدًا عن الحقيقة الفنية التي يتمتع بها، وذلك من حيث النظر إليه باعتباره خاليًا من الوظيفة الاجتماعية، وأنه وجد من أجل السلوى، والدعابة، والتندر ليس إلاّ، وهو في أحسن أحواله حوادث وأخبار في الاطلاع عليها عبرة لمن يريد الاعتبار، للنظر إلى الافتتاح الذي استهلت به "ألف ليلة وليلة"، الذي يحدد غايات الليالي كلها، جملةً لا تفصيلاً.. "إن سير الأولين صارت عبرة للآخرين، لكي يرى الإنسان العبر التي حصلت لغيره فيعتبر، ويطالع حديث الأمم السالفة وما جرى لهم فينزجر، فسبحان من جعل حديث الأولين عبرة لقوم آخرين".

(758) قارن ذلك الوصف مع ما ورد عند المسعودي وغيره من المؤرخين حول تلك المنطقة. مروج الذهب، ج1، ص123.

في السيرة[759]، تلك السيرة (سيف بن ذي يزن) هي سيرة مصرية، خلقًا وإبداعًا، على الرغم من نواتها التاريخية اليمنية المتمثلة في شخصية بطلها سيف، وهو أساسًا بطل من أبطال التحرير في العصر الجاهلي وتتجلى مصريتها في التأصيل لنشأة مصر أرضًا وشعبًا وعمرانًا، ولبدء جريان نهر النيل، ذلك الحدث في ذاته إن شئنا التاريخ له، فإنه -بلا أدني شك- سيصبح خارج إطار العصور التاريخية، وينتمي بشدة إلى عصور الأسطورة، مما يجعله يتخطى حدود الزمن الذي تنتمي إليه أحداث السيرة على اتساعها، هذا علاوة على أن فكرة النشأة والتكوين هي إحدى الأفكار الأسطورية البارزة، التي يلزمها إطار زمني أسطوري خالص[760]، ولعل مقارنة السيرة بما جاء في الكتابات التاريخية يجعلنا ندرك حقيقة مؤداها أن المخيلة الشعبية -في العصور الإسلامية- لم تكن تختلف كثيرًا عن مخيلة المتعلمين أو المخيلة العلمية آنذاك في ما يتصل بمنابع النيل ومدى الاختلاف حولها.

وقد أحسن (ابن الوزان الزيَّاتي) حين ناقش هذا الخلاف بقوله: "توجد آراء مختلفة حول موضوع أصل النيل، فالبعض يقولون إنه يأتي من جبل يدعى جبل القمر، ويدعي آخرون أنه ينبع في سهول مهجورة في حضيض هذا الجبل، عن طريق بضعة ينابيع شديدة التباعد بعضها عن بعض، ويؤكد أنصار الرأي الأول أن النهر يهبط من الجبل مع عنفوان شديد، حتى إنه ليدخل تحت الأرض ويخرج بعدئذ بواسطة عيون

---

(759) محمد رجب النجار: الأدب الملحمي في التراث الشعبي العربي، ص115، عبد الحميد يونس: مجتمعنا (سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة 1998م) ص25، 26، كارم محمود: الأسطورة فجر الإبداع، ص396، قاسم عبده قاسم: بين التاريخ والفولكلور، ص89- 105.

(760) كارم محمود: الأسطورة فجر الإبداع الإنساني، ص391.

مختلفة، ولكن هذين الرأيين ليسا أكثر من افتراضين إذ لم ير أحد أبدًا شيئًا من ذلك ولا يزال من غير الممكن رؤية ذلك عيانًا"[761]، ولهذا نجد "أن الأقوال في أول مجرى النيل كثيرة، والشائع أن واحدًا ما وقف على أوله بالمشاهدة، وجعل كل واحد منهم سببًا يبرر به عدم مشاهدة منطقة المنابع"[762].

إلا أن الواضح أن الوجدان الشعبي كان على معرفة وثيقة بهذا الموروث الفولكلوري الجغرافي المتعلق بمصر ونيلها على نحو يسمح له بإعادة إنتاج هذا الموروث العلمي بمفهوم ذلك الزمان، وصياغته صياغة تقدم إلينا القراءة الشعبية لقصة الصراع الملحمي بين النيل والمصريين، وكيف كان النهر في بداية الموقف (العنصر الطبيعي) بل إلهًا يُعبد، وكلها أمور تتفق كثيرًا وقصة (حايد بن أبي شالوم) التي وردت تارة في الأساطير الإسلامية -(الإسرائيليات)- أو الفكر الديني الشعبي وتارة في الفكر الجغرافي القديم، وتضمنت أحداثه مواقف متباينة، بحيث لا يكاد يتضح فيها أي نوع من المنطق، حيث نجد أفعالاً خارقة تقع في مكان مجهول غالبًا أو في لا مكان، كما أنها تقع في زمان معين أو في لا زمان، واشتملت على عوالم غريبة لها فهمها الخاص بفكرة الزمن، فتقول الأسطورة "إن رجلاً من بني العيص يقال له حايد بن أبي شالوم بن العيص بن إسحق بن إبراهيم عليه السلام، وأنه خرج هاربًا من ملك من ملوكهم حتى دخل أرض مصر، فأقام فيها سنين، فلما رأى أعاجيب نيلها، وما يأتي به، نذر لله تعالى أن لا يفارق

---

(761) ابن الوزان الزيَّاتي (جان ليون الإفريقي الحسن بن محمد الوزان الزياتي): وصف إفريقيا (ترجمة: عبد الرحمن حميدة، سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة، 2006م)، ص632.

(762) ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار (الجزء الأول، تحقيق، أحمد تركي، القاهرة 1942م)، ص97- 81، ابن حوقل: صورة الأرض، ص147.

ساحله حتى بلغ منتهاه، ومن حيث يخرج أو يموت قبل ذلك، فسار عليه ثلاثين سنة في العمران، وثلاثين سنة أخرى في الخراب حتى انتهى إلى بحر أخضر، فنظر إلى النيل يشق مقبلاً، فصعد على البحر فإذا رجل قائم يصلي تحت شجرة من تفاح، فلما رآه استأنس به وسلم عليه، فسأله الرجل صاحب الشجرة وقال له: من أنت؟ قال إني حايد ابن أبي شالوم بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام، فمن أنت؟ قال: عمران بن فلان بن العيص[763].

قال: فما الذي جاء بك ها هنا يا عمران؟ قال: جاء بي الذي جاء بك حتى انتهيت إلى هذا الموضع، فأوحى الله تعالى إليَّ أن أقف هنا حتى يأتيني أمره فقال له حايد: أخبرني يا عمران ما انتهى إليك أمر هذا النيل، وهل بلغك في الكتب أن أحدًا من بني آدم يبلغه؟ قال عمران: نعم، قد بلغني أن رجلاً من بني العيص يبلغه، لا أظنه غيرك يا حايد، قال له: يا عمران فأخبرني كيف الطريق إليه؟ فقال له عمران: لست أخبرك بشيء إلا أن تجعل لي ما أسألك، قال وما ذاك يا عمران؟ قال: إذا رجعت إلى وأنا حيٌّ، أقمت عندي حتى يوحي الله إليَّ بأمره أو يتوفاني الله فتدفنني. قال: ذلك لك عليَّ، فقال له: سِر كما أنت على هذا البحر، فإنه ستأتي دابة ترى آخرها ولا ترى أولها، فلا يهولنك أمرها، اركبها فإنها دابة معادية للشمس، إذا طلعت أهوت إليها لتلقمها حتى تحول بينها وبين حجبها، إذا غربت أهوت إليها لتلقمها، فتذهب بك إلى جانب البحر، فسر عليها حتى تنتهي إلى النيل، فسر عليه، فإنك ستبلغ أرضًا من

(763) ورد عند ابن إياس في (بدائع الزهور) أن الرجل صاحب الشجرة هو "أبو إلياس الخضر"، انظر: ابن إياس: بدائع الزهور، ص25.

حديد جبالها، وأشجارها وسهولها من حديد، فإن أنت جزتها وقعت على أرض من نحاس، جبالها وأشجارها وسهولها من نحاس، فإن أنت جزتها وقعت في أرض من فضة، فإن أنت جزتها وقعت في أرض من ذهب جبالها وأشجارها وسهولها من ذهب، فيها ينتهي إليك علم النيل.. فسار حتى انتهى إلى أرض الذهب فإذا فيها قبة من ذهب لها أربعة أبواب، فنظر إلى ما ينحدر من فوق ذلك السور حتى يستقر في القبة، ثم ينصرف في الأبواب الأربعة، فأما ثلاثة فتغيض في الأرض، وأما واحد فيسير على وجه الأرض قال حايد: فيشق على وجه الأرض وهو النيل، فشرب منه واستراح... فقال له: يا حايد إنه سيأتيك من الجنة رزق فلا تؤثر عليه شيئًا من الدنيا، فإنه لا ينبغي لشيء من الجنة أن يؤثر عليه شيء من الدنيا، فإن فعلت بقي منك ما بقي.

فبينما هو كذلك واقف إذ نزل عنقود من عنب فيه ثلاثة أصناف: صنف لونه كالزبرجد الأخضر، وصنف لونه كالياقوت الأحمر، وصنف لونه كاللؤلؤ الأبيض، ثم قال: يا حايد أما أن هذا من حصرم الجنة وليس من طيب عنبها فارجع يا حايد فقد انتهى إليك علم النيل، فقال: هذه الثلاثة التي تفيض في الأرض ما هي؟ قال: أحدها الفرات، والآخر دجلة، والآخر جيحان، فارجع.

"فرجع حتى انتهى إلى الدابة التي ركبها فركبها، فلما أهوت الشمس لتغرب قذفت به من جانب البحر، فأقبل حتى أتى عمران، فوجده ميتًا فدفنه وأقام على قبره ثلاثة أيام، فأقبل عليه شيخ مشبه بالناس أغر من السجود، فسلم عليه وقال: يا حايد، ما انتهى إليك من علم النيل؟ فأخبره فقال له: هكذا نجده في الكتب، ثم أخرج بعض التفاح، وقال وهو ينظر في عينيه: ألا تأكل منه؟ قال معي رزق قد أعطيته من الجنة،

ونبهت أن لا أُؤثر عليه شيئًا من الدنيا، قال: صدقت يا حايد.. وهل رأيت في الدنيا مثل هذا التفاح؟ إنما أنبت لعمران في الأرض وليست في الدنيا وإنما هذه الشجرة من الجنة، أخرجها الله تعالى لعمران يأكل منها تفاحة، فعضها، فلما عضها غض يده قال له: أتعرفه؟ (يقصد التفاح) هو الذي أخرج أباك من الجنة، أما إنك لو سلمت هذا الذي كان معك لأكل منه أهل الدنيا قبل أن ينفد، ثم أقبل حايد حتى دخل مصر، فأخبرهم بهذا الخبر، ثم مات حايد بأرض مصر"(764).

فالزمن -كما رأينا آنفًا- يقترب بشدة من كونه زمنًا أسطوريًّا عندما استخدم الضمير الشعبي وحدات زمنية خاصة للإشارة إلى المسافات بين المواقع الجغرافية اتسمت بـ"اللا معقولية"، فمثلاً (حايد) سار ثلاثين سنة في العامر وثلاثين سنة في الخراب، وهي وحدات زمنية ووقتية غير مألوفة للبشر، فالسنين تأخذ أزمانًا مختلفة عن الأزمان التي نعرفها لهذه المصطلحات في استخدامنا الإنساني، وقد بدا المكان في تلك الرحلة الخيالية ذا طبيعة خاصة له معاييره وخصائصه التي لا تخضع لمقاييس الواقع، فجاء المكان واسعًا لا نهاية لامتداده، فهو في الفضاء وما وراء البحار، وفي رحاب الجنة الإلهية تارة، وضيق محدّد في أودية الجانّ والنحاس والذهب والياقوت والزمرد، أو وراء الشمس آنًا آخر وهو في أغوار النفس الإنسانية الغامضة، أو هو خيالي يقع فيها وراء الحياة الكونية والإنسانية، وتنوّعت الشخصيّات في الرحلة من إنسانية إلى حيوانية إلى

---

(764) ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، ص171- 174، ابن الوردي: خريدة العجائب، ص142، السيوطي: حسن المحاضرة، ج2، ص180، 182، السيوطي: كوكب الروضة، ص132، 133، الإسحاقي المنوفي: أخبار الأول، ص188، 189، المقريزي: الخطط، ج1، ص52، ابن إياس: بدائع الزهور، ص24- 26.

شيطانية، ولعلنا نلمح في القصة السابقة صورة قريبة الملامح جدًّا من فرس البحر الذي كانت تعرفه مياه النيل حتى الصعيد في العصور القديمة.

كما نشهد حيوانًا ضخمًا يشبه الهايشة في سيرة (سيف بن ذي يزن) التي يعلو ظهرها في حذر وهي نائمة، وعند الفجر تتحول بجسدها إلى ناحية الشمس، فتنقله بهذا من شاطئ إلى شاطئ عابرة به عرض البحر الممتد الكبير، فهذه القصة الواردة في سيف بن ذي يزن شبيهة بحكاية عمران الذي عبر البحر متعلقًا بظهر دابة بحرية ضخمة، يوردها المسعودي في مروج الذهب فيقول: "منها خبر عمران [بن جابر] الذي صعد في النيل، فأدرك غايته، وعَبر البحر على ظهر دابة تعلق بشعرها وَهي دابة ينجر منها على الأرض شبر من قوائمها تُغَادي قرن الشمس من مبدأ طلوعها إلى حال غروبها [فاغرة فاها نحوها لتبتلع -عند نفسها- الشمس] فَعَبَرَ - على ما وصفنا من تعلقه بشعرها- البحر، ودار بدورانها طالبًا لعين الشمس، حتى صار إلى ذلك الجانب، فرأى النيل منحدرًا من قصور الذهب من الجنة"[765]، إلا أن المسعودي يحترز في ما يحكي فيعقِّب قائلاً: "إلى غير ذلك من خرافات حشدية عن أصحاب الحديث"[766].. كما استلهم الضمير الشعبي القصص الديني المتعلق بـ(رحلة المعراج)[767] الواردة بالسيرة النبوية في سرد بعض أحداث الأسطورة، لما للمعراج من أثر

(765) المسعودي: مروج الذهب، ج1، ص123.

(766) نفسه، ص123.

(767) كانت الرحلة الخياليّة في الملاحم والسير وسيلة للإنسان للوصول إلى عالم الموتى المجهول تارة، وصفحة يستشرف من خلالها آفاق المستقبل وغامض الغيب تارة أخرى، كما تبدو تلك الرحلة الخياليّة صورة معكوسة للحياة الاجتماعية في عصر صاحبها، ثمّ جاء الإسلام فأعطى المسلمين تصوّرًا غنيًّا وعميقًا عن اليوم الآخر، وهو

في إثارة لخيال الناس وللرواة، فكان نواة لحياكة قصص ذات طابع أسطوري تؤدي وظائفها الاجتماعية/ الثقافية، وتلبي احتياجات الوجدان الشعبي، ويجد فيها مجالاً خصبًا يقدم من خلالها تصوراته الخاصة لسير الأنبياء وما اتصل بهم من موضوعات تخص العالم الآخر، وذكرها الفكر الديني ولم يقدمها له بأبعادها المختلفة، مثل الجنة وأنهارها. كما تحمل قصة أكل حايد من التفاح بعض الشبه في الفكرة دون التفاصيل بقصة الغواية وخروج آدم من الجنة، التي تواترت في القصص الديني، كما وردت في الإصحاح الثالث من سفر التكوين. فالذاكرة الشعبية هنا تدمج في داخلها الموروثات السابقة عليها وتعيد إنتاجها بشكل معدل، يسهم في صياغة وحي المؤمنين، كما أن ظهور الخضر عليه السلام في وصف طريقة معرفة منابع النيل -في بعض الروايات- متعاصرًا مع البطل، لا يعني مثلاً أن أحداثها وقعت في زمن موسى عليه السلام أو بعده بقليل، ذلك لأن الخضر بذاته شخصية تتمتع في التراث العربي بأبعاد أسطورية واضحة، منها اكتسابه الخلود[768]، ومن هنا فإن وجود الخضر في تلك الرواية الأسطورية لا يشير إلى

حقّ وصدق، كما أغنى خيالهم، وأشبع نفوسهم، وأراح أرواحهم بحديث الإسراء والمعراج، وكان الاعتقاد به ركنًا من أركان الإيمان لديهم، ولذلك استقر في نفوسهم وأشبع لديهم الرغبة في معرفة العالم الآخر، ولهذا كلّه لم يظهر نصّ أدبي يتصوّر الرحلة إلى العالم الآخر إلاّ في عصور متأخرة، ولعلّ أول ما ظهر في هذا المجال هو قصة الإسراء والمعراج بأسطوريتها التي توسّعت في حديث الرسول ﷺ عن الإسراء والمعراج، وهي نصّ شعبيّ نسب إلى ابن عباس رضي الله عنهما، ويبدو أنّ تلك الرحلة الخياليّة حاولت استشراف الغيب وساعدت على إرواء ظمأ النفس التوّاقة لمعرفة شيء عن مصائر البشر بعد الموت، وكذلك كان الأمر في رحلة جلجامش تعبيرًا عن توق الإنسان إلى المعرفة وكشف المجهول ومحاولته معرفة سرّ الحياة والخلود، والقضاء على قوة الموت والفناء.

(768) فاز الخضر عليه السلام بالخلود في الموروث الشعبي حتى أصبح رمزًا لاستمرار الحياة، ونجد بقايا ذلك في عادة جرت عليها بعض الأمهات، عندما يشرق الطفل وتخاف على حياته تقول له "خضر" كأنما تطلب له حياة

زمن بعينه ووجوده كذلك في نسيج زمن كهذا يضفي شيئًا من "المطلقية" على زمن الرواية، والمطلقية كما هو معلوم إحدى سمات الزمن الأسطوري.

كما أن الرواية السابقة تعكس التصور الشعبي لمنطقة منابع النيل التي جعلوها جزءًا من الجنة، والحوار المثير بين أبطال هذه القصة يوضح لنا بجلاء أبعاد الحب والاحترام الذي حمله الوجدان الشعبي لنهر النيل قوام الحياة المصرية ومصدر استمرارها، ومن المهم أن نشير إلى أن هذا التراث الأسطوري المتعلق بنهر النيل لم يكن وليد الفترة التي اتخذت فيها مصر ثقافتها العربية واعتنقت الدين الإسلامي، ولكنه استمرار لموروث شعبي تناقلته الأجيال عبر تاريخ مصر وهذا الموروث الشعبي يخلط بين أساطير مصرية قديمة وتصورات شائعة عن الجنة وثمارها، وهكذا فإن التصور الشعبي عن منطقة منابع نهر النيل، كما اتضح من نصوص الأساطير العربية كان في حقيقته نتاجًا لخيال المصريين ووجدانهم بسبب العجز عن معرفة الحقائق الجغرافية حول منطقة أعالي نهر النيل ومنابعه، ومن ناحية أخرى، كانت هذه الأساطير نوعًا من الموروث الشعبي المصري حول النيل، والذي ظل موضوعًا للتداول الشفوي والمكتوب طوال عصور التاريخ المصري، وإن جرت عليه بعض التحويرات والتعديلات، بحيث يتوافق مع التطورات الاجتماعية والثقافية، وبحيث يلبي الحاجة الاجتماعية والثقافية لأبناء هذا المجتمع، وقد حرص الذين كتبوا عن فضائل مصر في المصادر التاريخية والجغرافية العربية

(الخضر عليه السلام)، والخضر في المورونات الشعبية هو الذي قام بدفن آدم عليه السلام، وهو صاحب موسى، ووزير ذي القرنين، وصاحب الظهورات التي تدل على المقامات، وعنه يقول أحد المؤرخين: "سيدنا الخضر النبي رجل مسن ذو تجارب وتدبيرات عظيمة في جيش الإسكندر، وكان معه في رحلاته في أنحاء العالم، ويقال إنه لا يزال حيًّا يُرزق..". أوليا جلبي: سياحتنا مه مصر، ص50.

على أن يجمعوا هذا التراث الشعبي ويدونوه في كتبهم باعتباره نوعًا من الحقائق المسلم بها[769].

وإذا كان المجرى الأعلى لنهر النيل ومنطقة المنابع قد احتلا هذه المكانة في نصوص الأساطير العربية، فإن فيضان النهر السنوي قد أثار اهتمام كل من كتبوا عن فضائل مصر وتاريخها وجغرافيتها من المؤلفين العرب، وكان الفيضان وأسبابه مرتعًا لخيال هؤلاء وأولئك جميعًا ومجالاً لتخمينهم، وقد اعتمدوا في هذا المجال إلى ما نقلوه من كتب القدماء وما جمعوه من الموروث الشعبي المتداول، فقد كان بلوغ الزيادة في نهر النيل عند تمام الست عشرة ذراعًا، يعتبر علامة الوفاء أي وفاء النيل، وعندئذ يستحق تحصيل الخراج الذي للسلطان كاملاً[770]، وتسمى زيادة الست عشرة ذراعًا هذه "بماء السلطان". ويذكر المسعودي أن أتم الزيادات نفعًا للبلاد هي زيادة السبع عشرة ذراعًا، وذلك لأنها تروي جميع البلاد، أما إذا زادت عن ذلك ووصلت إلى ثماني عشرة ذراعًا فإن المياه تغطي رُبع أراضي البلاد حتى يفوق أوان الزرع، وهو ما اصطلح على تسميته استبحار الأراضي، وفي هذه الحالة يعقب انصراف تلك الزيادة حدوث الأوبئة والأمراض بمصر[771].

ومن الملاحظ أيضًا على بعض كتابات المؤرخين المسلمين عن نهر النيل أنهم حاولوا إرجاع زيادة أو نقص مياه النيل إلى حركة الشمس والقمر في البروج السماوية،

---

(769) قاسم عبده قاسم: بين التاريخ والفولكلور، ص99.

(770) المسعودي: مروج الذهب، ج1، ص343

(771) المسعودي: مروج الذهب، ج1، ص342.

وبسبب النور والظلمة، والبدر والمحاق"[772]، فأرجعوا زيادة ماء النيل إلى المد الذي يكون في البحر، فإذا فاض ماء البحر تراجع النيل وفاض على الأراضي، وفسَّروا ذلك بأن حركة البحر التي أُطلق عليها (المد والجذر) تحدث في كل يوم وليلة مرتين، وفي كل شهر قمري مرتين، وفي كل سنة مرتين[773].

بل إن بعض الجغرافيين والمؤرخين ذكروا أنه لمعرفة زيادة النيل أو نقصانه في كل سنة قبل حدوثها، فإن هذا يُستطلع ويُستنتج من حركة القمر والشمس في البروج، وقسَّموا البروج إلى نارية، وترابية، ومائية، وهوائية، وذكروا أن القمر إذا كان في البروج النارية فهذا يدل على قلة الماء ونقصانه، وإن كان القمر في البروج الترابية تكون مياه النيل متوسطة، وإن كان القمر في البروج المائية فهذا يدل على كثرة مياه النيل وتوقع حدوث استبحار الأراضي، أما إذا كان القمر في البروج الهوائية فإن مياه النيل تكون كثيرة المنافع قليلة الضرر[774]. وأضاف صاحب "ذكر ما جاء في النوروز"[775] أنه "إذا صادف النوروز يوم الأحد للشمس، فإن النيل يكون متوسطًا في طلوعه، ويخرج زرعًا جيدًا.. وإذا صادف النوروز يوم الإثنين للقمر، فإن النيل يكون مقبلاً مباركًا لطلوعه، ويحسن الزرع.. وإن صادف النوروز يوم الثلاثاء للمريخ، فإن النيل يجري بلا توقف يكون وسطًا.. وإذا وافق النوروز يوم الجمعة للزهَّرة، فإن النيل يكون مباركًا ولا يغلو

---

(772) المصدر السابق، ص98.

(773) لمزيد من التفاصيل عند المد والجزر اليومي والشهري والسنوي، راجع ما ذكره المقريزي في الخطط، ج1، ص54، 55.

(774) المنوفي: الفيض المديد في أخبار النيل السعيد، ص17، 18، راجع أيضًا الخطط، ج1، ص67، 68.

(775) النيروز: كلمة فارسية معربة، وأصلها في الفارسية نوروز معناها اليوم الجديد.

شيء، ويكثر صيد البر والبحر، ويعدل السلطان، وينجب الزَّررع، ويقل الشر. وإن وافق النوروز يوم السبت لزُحَل، فإن النيل يكون غالبًا يبلغ ثماني عشرة ذراعًا، ويغلو الزيت، ويقع الوباء في العلماءِ وأكابرِ الناس ومتوسِّطي العرب، ويكون آخر السنة خيرًا"[776].

كما أن كتابات أولئك المؤلفين حاولت إكساب النيل طابع القداسة في هذا الصدد أيضًا، فقد ذكر بعضهم أن الله سبحانه وتعالى يأمر كل الأنهار والعيون أن تمد نهر النيل بمياهها وقت الفيضان، فإذا اكتفى الناس بري أراضيهم وزراعاتهم أمر الله النيل أن يعود كما كان[777]. ومن الملاحظ أيضًا أن العلماء المسلمين الذين كتبوا عن نهر النيل في العصور الوسطى لاحظوا أن ماء النيل يخضر مع بداية الزيادة، وقد ذكر المقريزي أن عامَّة أهل مصر كانوا يقولون عن هذا الاخضرار "قد توحَّم النيل"[778]، ويرون أن الشرب منه حينئذٍ مضر.

أما عن سبب هذا الاخضرار في ماء النيل فيرجعونه إلى لجوء الحيوانات – خصوصًا الفيلة– إلى البحيرات التي في أعالي النيل، فترقد فيها بأعدادها الهائلة لمقاومة شدة الحر هناك، ولذلك يتغير لون ماء تلك البحيرات، وعندما تهطل الأمطار في الجنوب وتتكاثر السيول في تلك البحيرات، تدفع هذه المياه الخضراء أمامها فتصل إلى

---

(776) مؤلف مجهول: ذكر ما جاء في النوروز (تحقيق: عبد السلام هارون، نوادر المخطوطات، ج2، سلسلة الذخائر، العدد71، القاهرة 2001م)، ص55.

(777) المقريزي: الخطط، ج1، ص49، 50، ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، ص169.

(778) المقريزي: الخطط، ج1، 56.

مصر بهذا اللون مع الزيادة، ثم يعقب ذلك احمرار المياه وتكورها لاختلاطها بالطين والصخور المتفتتة التي تجرفها الأمطار من منطقة الجبال بالحبشة[779].

ويضيف الأقفهسي في كتابة "أخبار نيل مصر" نقلاً عن مروج الذهب تفسيراً آخر لاخضرار ماء النيل عند بدء الزيادة، فيذكر أن بعض البحيرات في أعالي النيل تنقطه عن النيل في فترة نقص المياه، فتمكث في البحيرات فترة طويلة فيخضرُّ لونها، فلما تأتي الزيادة في المياه نتيجة للأمطار، تصب هذه البحيرات مياهها في النيل فيخضر مادة مع الزيادة[780].

هذا المحصول الوفير من الأساطير عن النهر المعطاء يعبر في الواقع عن توق الإنسان إلى المعرفة ومحاولة فهم الطبيعة من حوله والوقوف على أصولها وأسرارها دون أن يتكئ على أي مرجعية علمية، فاستيقظ فيه النيل الإنساني العظيم الباعث على الرغبة في إماطة اللثام عن أغوار المجهول عن منابع النيل، فخرجت من خيالاته **حملات استكشافية** امتلأ الحديث عنها بالعديد من العناصر الأسطورية من جن وشياطين وقصور مطلسمة وجبال شاهقة ووديان مخيفة ومغارات وكهوف إلى بحيرات، وأنها غامضة وجزر عجيبة ومن عالم البشر إلى عوالم الجن والسحرة والمخلوقات

---

(779) المقريزي، ج1، ص46- 56، النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، ج1، ص624، ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، ص164، السيوطي: حسن المحاضرة، ج2، ص348، يذكر الدكتور محمد عوض محمد "أنه يوجد بعض البحيرات في منطقة منابع النيل الاستوائية أشبه بالمستنقعات لكثرة الأعشاب والنباتات المائية بها، وتقلة عمقها وانخفاض مستواها عن مستوى بحرة فكتوريا، لذلك يتغير لون المياه بها إلى اللون الأخضر"، وهذا الرأي يتفق إلى حد كبير مع ما ذكره المسعودي سابقًا. محمد عوض محمد: نهر النيل، ص49- 63.

(780) مروج الذهب، ج1، ص352، الأقفهسي: أخبار نيل مصر، ص65.

العجيبة وغيرها، ويمكن تنضيد معظم الروايات التي قِيلت في ذلك الشأن في ما يلي: أورد ابن معصوم في رحلته أن "جماعة صعدوا هذا الجبل (جبل القمر) ليحيطوا خبرًا بمبدأ النيل فرأوا وراءه بحرًا عجاجًا أسود كالليل، يشقه نهر أبيض كالنهار وهو النيل"[781].

ويقال: إن "ملكًا من ملوك مصر الأُول، جهَّز أناسًا للوقوف على أول النيل فانتهوا إلى جبال من نحاس، فلما طلعت عليهم الشمس انعكست عليهم أشعة الشمس الواقعة عليها فأحرقتهم، وقيل إنهم انتهوا إلى جبال براقة كالبلور، فلما انعكست عليهم الأشعة الواقعة عليها أحرقتهم"[782].

ثمة روايات عديدة عن **حملات استكشاف قبل الإسلام** تداولتها كتابات المؤرخين منها "كان الوليد بن درمع العمليقي قد خرج في جيش كثيف ينتقل في البلدان، ويقهر ملوكها ليسكن ما يوافقه منها، فلما صار إلى الشام انتهى إله خبر مصر، ثم سنح له أن يخرج ليقف على مصب النيل فيعرف ما بحافتيه من الأمم، فأقام ثلاث سنين يستعد لخروجه، وخرج في جيش عظيم فلم يمر على أمة إلا أبادها، ومر على أمم السودان وجاوزهم ومر على الأرض الذهب، فرأى قضبانًا نابتة من ذهب، ولم يزلْ يسير حتى بلغ البطيحة التي ينصب ماء النيل فيها من الأنهار التي تخرج من

---

(781) ابن معصوم (علي صدر الدين أحمد) (ت 1120هـ)، رحلة ابن معصوم المدني: سلوة الغريب وأسوة الأديب (تحقيق: شاكر هادي، الطبعة الأولى، عالم الكتب، بيروت 1988م)، ص159، السيوطي: حسن المحاضرة، ج2، ص184.

(782) السيوطي: حسن المحاضرة، ج2، ص184.

تحت جبل القمر، سار حتى بلغ هيكل الشمس وتجاوزه حتى بلغ جبل القمر وهو جبل عال"[783].

وعن محاولات **كشف منابع النيل بعد الفتح الإسلامي لمصر**، أورد المؤرخون قصصًا عديدة منها قد حدث "أن سافر أناس إلى منابع النيل عدة مرات في أيام السلطان المؤيد بلغوها بعد ثمانية أشهر وعادوا منها حاملين أمتعة وسلعًا"[784]. ويشير ابن عميرة إلى أن "الملك الصالح نجم الدين أيوب اشتهى أن يعرف أصل النيل فأمر أن يشتري عبيدًا صغارًا زنوجًا أو ما شاكلهم، ثم يستوعبوا، ويسلموا لصيادي السمك والتجار ليعلموهم صنعة البحر، صيد السمك، لتكون قوتهم، فإذا مهروا في ذلك يُصنع لهم مراكب صغار ليركبوا فيها ويأتوه بخبر النيل.."[785]، ويقول "ناصر خسرو": "يُقال أن حقيقة منابع النيل لم تعرف، وسمعت أن سلطان مصر، أرسل بعثة لتتبع شاطئ النيل سنة كاملة، ودرسه، ولكن أحدًا لم يعرف حقيقة منبعه"[786].

كما تحكي رواية أخرى وقائع مثيرة عن "أن بعض خلفاء مصر أمر قومًا بالمسير إلى حيث مجرى النيل، فساروا حتى انتهوا إلى جبل عالٍ، والماء ينزل من أعلاه، وله دوي وهدير لا يكاد يسمع أحدهم كلام صاحبه، ثم أصعدوا واحدًا منهم إلى أعلى الجبل، فلما وصل رقص وصفق وضحك، ثم مضى في الجبل ولم يعد ولم

---

(783) المقريزي: الخطط، ج1، ص52-53.

(784) أوليا چلبي، سياحتنامه مصر، ص430.

(785) الفضائل الباهرة، ص164.

(786) ناصر خسرو علوي: سفرنامة (ترجمة: يحيى الخشاب، سلسلة الألف كتاب الثاني، العدد 122، القاهرة 1993م)، ص96.

يعلم أصحابه ما شأنه، ثم ثانيًا ففعل مثل الأول، فصعد ثالث، وقال: اربطوا وسطي حبلاً فإذا وصلت وفعلت مثل ما فعلا فاجذبوني، ففعلوا، فلما صار في أعلى الجبل فعل كفعلهما، فجذبوه إليهم. فقيل: إنه خُرِسَ ولم يرد جوابًا، ومات من ساعته، فرجع القوم ولم يعلموا غير ذلك والله أعلم..."[787]. ويفسر ابن معصوم سبب ما حدث لهؤلاء الناس بقوله: "إنهم رأوا حجر الباهت وهو نوع من المغناطيس في لون المرقشيشا يتلألأ حسنًا، إذا رآه الإنسان ضحك حتى يموت ولا يمسك عنه ألبتة"[788].

ما يهمنا في الروايات السابقة أن الضمير الشعبي في صياغته لهذا النوع من الحكايات قد استفاد من بعض التفصيلات والأسماء التاريخية في نسج الرواية لكي يضفي على روايته مصداقية زائفة لغرس الإيحاء بمصداقية ما يُروى، وإلباسه ثوب الحقيقة بهتانًا، على الرغم من الاتجاه الأسطوري الواضح، مع حرص الراوي على إثارة ملكه التخيل لدى المتلقي، المهم أن مثل هذا النوع من القصص يوضّح مدى الاهتمام الذي استحوذ على الناس لمعرفة أصل الأشياء، كما يؤكد رفض العقلية الشعبية فكرة الاعتراف بالجهل في ما يتعلق بالنهر الذي ارتبطت به حياة الناس وجودًا وعدمًا.

كما أن نهر النيل أخذ قسطًا موفورًا واهتمامًا ملحوظًا من القصص الديني، من جانب المؤرخين والجغرافيين، خصوصًا في العصر المملوكي سواء أكان ذلك القصص

---

(787) ابن ظهيرة: المصدر السابق، ص164.

(788) ابن معصوم: الرحلة، ص159، السيوطي: حسن المحاضرة، ج2، ص184.

مما ورد في القرآن الكريم، أو في الأحاديث النبوية الشريفة، أو مما أُثر عن الصحابة والسلف الصالح، أو من أقوال المفسرين للقرآن الكريم، وعلماء اللغة، بل إن الكثير من مؤلفات ذلك العصر احتوت على الكثير من الأحاديث المنسوبة إلى الرسول ﷺ، التي تنسب النيل إلى أنهار الجنة، وتصبغه بصبغة القدسية، وتضفي عليه صفة الإيمان[789]، فهو "سيد الأنهار، سخر الله له كل الأنهار والعيون لتمده بمائها وقت زيادته، فإذا وَفَّى زيادته وزُرعت الأراضي، أمر الله النيل أن يعود كما كان"[790].

ويبدو أن هذا الاعتقاد الذي سيطر على أفكار الجغرافيين والمؤرخين المسلمين نتج من حقيقة أن الزيادة تحدث في مياه نهر النيل صيفًا، في حين أن مياه معظم الأنهار المعروفة تنقص في ذلك الفصل من السنة.

ويشير الشوكاني إلى أن "المؤرخين توسعوا في ذكر الأحاديث الباطلة في فضائل البلدان لا سيما بلدانهم، فإنهم يتساهلون في ذلك غاية التساهل، ويذكرون الموضوع ولا ينبهون عليه، والكذب في هذا قد كثر وجاوز الحد، وسببه ما جبلت عليه القلوب من حب الأوطان والشغف بالمنشأ"[791]، واستهدف المؤرخون عند سرد الأحاديث والقصص الديني إثبات أسماء الرواة في تسلسل لغرس الإيحاء بمصداقيته ما يُروى،

---

(789) المقريزي: الخطط، ج1، ص49، السيوطي: حسن المحاضرة، ج2، ص302، 303، السيوطي: الكلام على النيل، ص13- 19، كوكب الروضة، ص49-51، الأقفهسي: أخبار نيل مصر، ص37- 40.

(790) ابن الظهيرة: الفضائل الباهرة، ص169، المقريزي: الخطط، ج1، ص49- 50- 60، السيوطي: بلبل الروضة، ص287.

(791) الشوكاني (محمد بن علي) (ت 1250 هـ): الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة (تحقيق: عبد الرحمن اليماني، الطبعة الأولى، مكتبة السنة المحمدية، القاهرة، 1990م)، ص436.

وإلباسه ثوب الحقيقة في محاولة دائبة للربط بين نهر النيل والقصص الديني والأحاديث المنسوبة إلى النبي ﷺ أو ضمن المأثور عن الصحابة والسلف الصالح، فقد اهتم الُكتَّاب العرب ببيان أنه لم يرد اسم نهر سوى نهر النيل في القرآن الكريم، ويقول السيوطي: "نهر النيل من سادات الأنهار، وأشراف البحار، لأنه يخرج من الجنة على ما ورد به خير صاحب الشريعة ﷺ، وليس في أنهار الدنيا نهر يُسمى بحرًا غير نيل مصر لكبره واستبحاره"[792]، و"العرب تسميه بحرًا"[793]، و"ليس في العالم ما يُسمى بحرًا ونهرًا سواه"[794]، كما لم يسم نهر من الأنهار في القرآن سوى النيل في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلاَ تَخَافِي وَلاَ تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: 7]، قال: "وأجمع المفسرون على أن المراد باليم هنا نيل مصر"[795].

كذلك امتلأت المؤلفات المعاصرة بأحاديث كثيرة منسوبة إلى الرسول ﷺ تنسب نهر النيل إلى أنهار الجنة، وتضفي عليه صفة القدسية، ومن طبيعة الأمور أن النهر الذي كان إلهًا في عصور الوثنية (حابي) لا يمكن أن يحتفظ بإلوهيته في ظل الإسلام دين التوحيد، ولكن أهمية نهر النيل في حياة البلاد وساكنيها جعلت النهر يحتفظ ببعض من صفات القدسية في وجدانهم وفي آدابهم، وقد نسب إلى النبي ﷺ قوله في حديث المعراج: "ثم رفعت إلى سِدرة المنتهى وإذا أربعة أنهار: نهران باطنان،

---

(792) السيوطي: كوكب الروضة، ص104.

(793) ابن محشرة: الاستبصار في عجائب الأمصار، ص47.

(794) ابن معصوم: الرحلة، ص312.

(795) السيوطي: حسن المحاضرة، ج2، ص179.

نهران ظاهران، فقلت ما هذا يا جبريل؟ قال: أما الباطنان فنهران في الجنة، وأما الظاهران فالنيل والفرات"[796]، ويلاحظ أن حديث المعراج نفسه مليء بالمبالغات المثيرة والتصورات الباهرة، ولذلك كان انتشارها الواسع بين عوام الناس الذين تعلقوا بها وأخذوا بما فيها من خيال، خصوصًا أن القصص القرآني لم يذكرها إلا مرورًا عابرًا، فكانت فرصة سانحة كي يلجأ الخيال الشعبي إلى كل الوسائل المتاحة لديه لإثبات موقفه، خصوصًا لما تثيره المعجزة من خيال ومن رغبة في المبالغة والمغالاة.

أسطورية النهر لم تتكون دفعة واحدة، وإنما استمر كل جيل يضيف إليها من خياله ما يوائم تصورات عصره، وما يزيد من تأثيرها في نفوس محبيه، فتباينت أساطير النيل بحسب الزمان والمكان، ولا يوجد مصدر تناول أي جانب من جوانب الحضارة المصرية إلا وللنيل فيه مكان ومكانة، فقد ظلت أسطورية تسيطر على أذهان وعواطف الناس لقرون طويلة، ظن الوجدان الشعبي فيها أن النيل نزل على أجنحة الملائكة، وأن جبريل عليه السلام نزل بالنيل والفرات على جناحيه، "فكان النيل على جناحه الأيسر، والفرات على جناحه الأيمن، وقال بعض الفضلاء: إن هذا يدل على أن ماء النيل أخف من ماء الفرات، لأن الشيء الثقيل من عادته يُحمل على الجانب الأيمن، والخفيف على الجانب الأيسر"[797].

وجاءت رؤية الناس لنيلهم مثقلة بالخيال الذي يكشف عن ماهية القراءة

---

(796) المقريزي: الخطط، ج1، ص50، السيوطي: كوكب الروضة، ص115، النويري: نهاية الأدب، ج1، ص263.

(797) ابن الأخوة (محمد بن أحمد القرشي) (ت 729 هـ): معالم القربة في أحكام الحسبة (طبعة كمبريدج 1937م)، ص239، 240.

الشعبية للتاريخ -وهي قراءة تُعد سندًا لوجودهم الآني ودعمًا لهويتهم تحقيقًا للذات الجماعية التي تصر على إثبات دورها في صياغة التاريخ بشكل مباشر أو غير مباشر- لإزاحة الغبار الذي غطَّى حياة نهر النيل الذي عليه قوام حياتهم، فتضافرت سويًّا عناصر الخيال وعناصر التاريخ بشكل متناغم بات واضحًا في إسهاب المؤرخين والجغرافيين، وكُتَّاب الفضائل في سياق وصفهم **لعجائب النيل**، والتفاعل البشري مع أسماك وحيوانات النيل المائية، التي قدموها إلينا مزجًا بين القياس على الكائنات المحسوسة المألوفة. وبين التصور الذي اصطنعه ذلك الخيال، ومن هنا تأتي عجائبيتها ومطلقيتها، مثل **التمساح** الذي اعتقدوا أنه لا يوجد سوى في نهري النيل والسند، وكان ذلك دليلاً -في رأيهم- على أن النهرين يخرجان من منبع واحد قرب الجنة الأرضية[798].

كما واصلت **الكائنات المائية** التي تعيش في نهر النيل القيام بدورها البارز في المعتقد الشعبي المصري، والتي صبغت صورتها مزجًا بين النموذج المألوف والخيال الأسطوري، ففي "كوكب الروضة" يشير السيوطي إلى أنه يوجد في نهر النيل شيخ البحر، وهو سمكة على صورة آدمي، وله لحية طويلة، ويكون بناحية دمياط، وهو مشؤوم، فإذا رأى في مكان دل على القحط والموت، والفتن، ويقال: إن دمياط تنكب حتى يظهر عندها.."[799].

كما أشار المؤرخون إلى ما أحاط بحيوان "السقنقور" الشبيه بالتمساح من

(798) السيوطي: حسن المحاضرة، ج2، ص186، الهروي: الإشارات، ص41.

(799) السيوطي: كوكب الروضة، ص145، حسن المحاضرة ج2، ص188.

خيال "إذا وضعه خارج الماء فما قصد الماء صار تمساحًا، وما قصد البر صار سقنقورًا"[800]، كما أنه "يعض الإنسان ويطلب الماء فإن وجده دخل فيه، وإن لم يجده بال وتمرغ في بوله، وإذا فعل ذلك مات المعضوض لوقته، وسلم السقنقور، فإن اتفق أن سبق المعضوض إلى الماء فدخله قبل دخول السقنقور الماء وتمرَّغه في بوله مات السقنقور لوقته، وسلم المعضوض"[801].

ورغم النزعة العلمية لدى الرحالة عبد اللطيف البغدادي فإنه وقع تحت تأثير العجيب والغريب في نيل مصر بقوله: "السرب وهي سمك يحدث لآكلها أحلام ردية مفزعة، ولا سيما الغريب، ومن لم يعتدها، والأحدوثات فيها مشهورة"[802]، ويحسب لابن حوقل نقده لتلك الخرافة بقوله: "وأكلتها أنا وجماعة من ذوي التحصيل فشهدوا بكذب هذه الحكاية"[803]، وأشار المقريزي إلى عجائب السمكة المعروفة بـ(سمكة الرعادة) "ونفعها في البرء من الحمى، إذا علقت على المحموم "[804]، ويقول عنها: "قال ابن البيطار عن جالينوس هو الحيوان البحري الذي يحدث الخدر، وزعم قوم أنه

---

(800) السيوطي: كوكب الروضة، ص141، حسن المحاضرة، ج2، ص188، القزويني: عجائب المخلوقات، ص101.

(801) المقريزي: الخطط، ج1، ص66، عبد اللطيف البغدادي: الإفادة والاعتبار، ص85، أوليا چلبي: سياحتنا مه مصر، ص444.

(802) عبد اللطيف البغدادي: الإفادة والاعتبار، ص88، ابن حوقل: صورة الأرض، ص156، المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص208.

(803) ابن حوقل: صورة الأرض، ص157.

(804) المقريزي: الخطط، ج1، ص28، القزويني: عجائب المخلوقات، ص169، المسعودي: مروج الذهب، ج1، ص356.

إذا أدنى من رأس من يشتكي الصداع سكن صداعه، إن أدنى من مقعدته من انقلبت مقعدته أصلحها. وكنت أنا -يقصد المقريزي نفسه- جربت الأمرين جميعًا فلم أجده يفعل ولا واحدًا منهما ففكرت أني أدنيته من رأس المصدوع والحيوان ما هو حيّ، لأنني ظننت أنه على هذه الحال يكون دواء يمكن أن يسكن الصداع بمنزة الأدوية فوجدته ينفع ما دام حيًّا"[805]، وأشار القزويني إلى أن من عجائب أسماك النيل "أن في النيل موضعًا يجتمع فيه السمك في كل سنة يومًا معلومًا، فالإنسان يصيد بيده ما يشاء ثم يتفرق إلى ذلك اليوم من السنة القابلة"[806]، ويبدو أن القزويني يتحدث عن حقيقة ربما مفقودة عن النيل حاليًا، إذ إن الثابت أن فكرة ظهور تجمعات للأسماك في منطقة معينة في يوم معلوم له نظائر في مناطق بحرية أخري من العالم[807].

وربما كان ظهور تلك الكائنات في نهر النيل عند العامَّة يهدف أساسًا إلى

---

(805) المقريزي: الخطط، ج1، ص66، المسعودي: مروج الذهب، ج1، ص356.

(806) القزويني: عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، ص169.

(807) يوجد نظائر لخاصية أسماك النيل التي تحدث عنها القزويني في وقتنا الحاضر، فيظهر سمك يُسمى بـ(سمك الحريد) في سواحل جزيرة فرسان بالبحر الأحمر[إحدى الجزر التابعة لمنطقة جازان السعودية، ومن الغريب أن هذا السمك لايظهر إلا في فترة واحدة من كل عام في الفترة الواقعة بين شهري أبريل ومايو، وظهوره يكون في الصباح، ومن النادر جدًّا خروجه إلى الشاطئ بعد الظهر ويقوم العامَّة بصيده بأيديهم أو بواسطة أسياخ حديدية مدبية، ومن الحكايات الشعبية التي تشاع حول (الحريد) لدى أهل الجزيرة أن هذه الأسماك قادمة من بلاد الهند، وأن أسماكاً أخرى تختلف عن أسماك الحريد تُسمى (الحماميق) ومفردها (حُمَيقة) تظهر عند الهنود في نفس الموسم تهديها شواطئ جزيرتهم إلى الشواطئ الهندية مقابل ما تهديه شواطئ تلك البلاد إلى سكان هذه الجزر. انظر: إبراهيم عبد الله مفتاح: فَرَسان الناس والبحر والتاريخ (الطبعة الثانية، شركة المدينة المنورة للطباعة، جازان 2005م)، ص125- 127.

الحفاظ على المياه من العبث والتعدي، فنسجوا حول شريان حياتهم أساطير حافظة، وصلت إلى حد العبادة والتقديس أحيانا، لا سيما أن تقديس مصادر المياه ما زال معتقدًا لدى كثير من العامَّة إلى اليوم.

والماء هو مصدر الخصب والحياة، وهناك كثير من العادات والتقاليد تحمل هذه الرموز ومنها التعميد بالماء[808] وقطرات الزيت كمصدرين للخصب والنور، وبالتالي لا يمكن أن نغفل الروابط بين هذا الحطام الرمزي في المعتقدات، وبين بروز العنصر المائي في أساطير الخلق في مصر القديمة مع المحيط الأزلي الذي يعد عاملاً مشتركًا في جل أساطير الخليقة في العالم كله، وموارد المياه عند الإنسان مكان مقدس، فالمكان في مفهومه غير متجانس دنيويًّا ودينيًّا، وإن كانت شعائر دينية معينة تستمر في الحياة وتقع موارد المياه من ضمنها، وتحافظ على قدسية هذه الموارد.

وإذا حاولنا الوصول إلى الجذور الأسطورية للمياه فسنرى أنها كانت تلعب دورًا بالغ الأهمية في المعتقدات والديانات القديمة والحديثة، وسنجد شواهده ودلائل تشير إلى أي حد يقدسها الناس منذ حقب موغلة في الزمن، وصلاة الاستسقاء الجاهلية ذات دلالة تاريخية ودينية منذ القدم، وكانت تعد من طقوس العرب الدينية القديمة، وكانت تشير بالمثل إلى تقديس الناس للماء لا بذاتها وإنما بالنظر إلى الأرواح التي تحل

(808) التعميد هو أول الطقوس المسيحية وأهمها على الإطلاق، فدونه لا يمكن أداء باقي الطقوس الأخرى، فهو شرط أساسي للخلاص ودخول ملكوت الرب طبقاً لكلمات عيسى بن مريم عليه السلام: «ما من أحد يمكنه أن يدخل ملكوت الله إلا إذا ولد من الماء والروح» (يوحنا 3:5)، ويجري في أثناء التعميد تجديد روح المولود من خلال غمره في الماء ثلاثًا باسم الأب والابن والروح القدس، وبذلك يكون قد توحَّد مع المسيح وهيئة الكنيسة، ويجب تعميد المواليد في أسرع وقت ممكن بمجرد بلوغهم، ثمانين يومًا للبنات، وأربعين يومًا للغلمان، وبعد غمر المولود في الماء ثلاثًا ترسم شارة الصليب اثنين وثلاثين مرة بالزيت على بشرة المولود ذكرًا كان أم أنثى.

فيها. بيد أن خروج هذه الموارد المائية من دوائر الشعائر الدينية وارتباطها مباشرة بخطة تنظيمية عقلية، تقوم عليها جهات معينة مثل ما قام به المصري من تنظيم للحصول علي مياه النيل بشق الترع، والقنوات والنهوض بإقامة الجسور والسدود عند الفيضان، ومع ظهور شبكات المياه الحديثة تخفف المصري من القلق في تأمينها أو انقطاعها، فابتعدت عن مياه النيل صفة القداسة، كما أننا اليوم نقف أمام نهر النيل وخزانات المياه الرئيسية في قرى ومدن مصر، فلا يثير فينا هذا الوقوف أية مشاعر قدسية!!!

الفصل التاسع..
الموروث الشعبي
المتعلق بالشخصية المصرية

".. مصر هي أم البلاد، وقرارة فرعون ذي الأوتاد، ذات الأقاليم العريضة والبلاد الأريضة، المتناهية في كثرة العمارة، المتناهية بالحسن والنضارة، ومجمع الوارد والصادر، ومحط رحل الضعيف والقادر، وبها ما شئت من عالم وجاهل، وجاد وهازل، وحليم وسفيه، ووضيع ونبيه، وشريف ومشروف، ومنكر ومعروف، تموج موج البحر بسكانها، وتكاد تضيق بهم على سعة مكانها وإمكانها... وأهل مصر ذوو طرب وسرور ولهو".

ابن بطوطة

(تحفة النظار في غرائب الأمصار
وعجائب الأسفار/32).

ظلت الشخصية المصرية عرضة للأخذ والرد وتضارب الآراء في كتابات الرحالة والمؤرخين، ووجدت العديد من التحليلات لها، بدءًا من هيرودوت وإسترابون، وامتدادًا عبر العصور إلى ابن زولاق والكندي والسيوطي وابن جبير، والعبدري، وابن خلدون، والمقريزي وغيرهم العديد من الذين أكدوا أن للمصريين شخصيتهم المتفردة وسماتهم المادية والثقافية المميزة التي تفردهم عن غيرهم من الشعوب، وكانت نظرة التأرجح عند المؤرخين دافعًا، لأن النصوص التاريخية جاءت محملة بسمة (النزوع الأسطوري والخرافي) في سياق حديثهم عن السمات والخصائص المميزة للمصريين.

وقد نهض (المحتسب التنيسي) على تلك النزعة في سياق وصفه أخلاق أهل مصر في مدينة تنيس –المندثرة سنة 624هـ– بقوله: "وطالع تأسيس هذه المدينة برج

الحوت وصاحبه المشتري، السعد الأعظم، وصاحب الشرق الزهرة، لذلك كثر طرب نفوس أهلها، وفرحهم، ورغبتهم في مداومات اللذات واستماع الأغاني ومواصلة المسرات"[809].

وانساق الرحالة والمؤرخون لهذا النزوع الخرافي عندما ربطوا بين طالع السعد وأخلاق أهل القاهرة بقولهم: "ووضع البناؤون الأساس في لمح البصر، فبُهِتَ المنجمون وصاحوا قائلين "القاهرة" والقاهرة اصطلاح للمنجمين يطلق على المريخ جلاد الفلك، فلذلك السبب لا تنقطع الدماء والقتال والنزاع والفتن والفساد عن القاهرة المعزية التي سميت بهذا الاسم لوضع أساسها في طالع المريخ"[810].

ولعبت الأساطير والحكايات الشعبية دورًا في وصف علاقة المرأة بالرجل في مصر[811]، فيقول المقريزي في سياق وصفه أسماك النيل أن به سمكًا يسمى الرعَّاد قيل عنه: "إذا علقت المرأة شيئًا من الرعَّاد عليها لم يطق زوجها البعد عنها"[812]، كما لجأت بعض النساء إلى التحكم فيهم حتى إننا نسمع عن بعض السلاطين والحكام –

---

(809) ابن بسام (محمد بن أحمد التنيسي): أنيس الجليس في أخبار تنيس (تحقيق: جمال الدين الشيال، الطبعة الأولى، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة 2000م)، ص40.

(810) أوليا چلبي: سياحتنا مه مصر، ص393.

(811) لعب سحر الخرافة عند المصريين القدماء دورًا كبيرًا في الحب، فإذا أراد الرجل أن يستميل قلب امرأة كان عليه أن يستعمل تماثيل مصنوعة من شمع العسل، صورت في هيئة المنافس، ويجري عليها أعمالاً سحرية، فإذا حدث من مفعولها الأمل المنشود كتب بعض صيغ سحرية تحدث عند المرأة أحلامًا يظهر فيها العاشق فتخضع لسلطانه وتهيم به (وليم نظير: العادات المصرية بين الأمس واليوم، القاهرة 1967م)، ص27.

(812) المقريزي: الخطط، ج1، ص66، القزويني: عجائب المخلوقات، ص134، المسعودي: مروج الذهب، ج1، ص123.

كالسلطان إينال- أنهم استسلموا لزوجاتهم حتى أصبحت الواحدة منهن على جانب كبير "من نفوذ الكلمة ووفور الحرمة في الدولة وطواعية السلطان لأوامرها"[813]، وفي هذه الحالة يصبح السلطان أو الأمير "لا اختيار له معها"[814].

وعلى الرغم من سمو مكانة المرأة المصرية، ونيلها من حقوقها في مختلف عصورها ما لم تنله امرأة في مجتمع آخر، وعلى الرغم من نشاط المرأة المصرية في مجال السياسة[815] والآداب، فإن أغلب الكتابات الأدبية لم تصور لنا إلا جانبًا واحدًا هو وصف جمالها وما يرتبط به من زينة وفتنة وبواعث الحب أو الجنس ومظاهر إعجاب الرجال بها والتي لعبت فيها الأسطورة والخرافة دورها الفاعل، حيث كانت زينتها أحيانًا وشمًا تدقه على خدها[816]، فترسم بالمسك صورة عقرب أو ثعبان إثارة أو

---

(813) أبو المحاسن (جمال الدين يوسف بن تغري بردي) (ت874هـ): منتخبات من حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور (ج2، نشر وليم بير، كاليفورنيا1931م)، ص54، 55، سعيد عبد الفتاح عاشور: المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك (دار النهضة العربية، القاهرة 1992م)، ص141- 155.

(814) سعيد عبد الفتاح عاشور: المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ص150.

(815) من سيدات مصر اللاتي لعبْن دورًا في حياة مصر السياسية، سيدات القصر الفاطمي، كتدبيرهن مقتل الصالح طلائع بن رزيك، والاستغاثة بجيش نور الدين، ومن ذلك ما قامت به شجرة الدر التي حكمت مصر ثلاثة أشهر. وترجم العماد الأصفهاني في خريدة القصر وجريدة العصر لأديبات مصريات، وذكر نماذج من أشعارهن. وذكر الأدفوي تراجم لأربع نساء، هن تاج النساء ابنة عيسى بن علي بن وهب، وخديجة بنت علي بن وهب، ورقية بنت محمد علي بن وهب، ومظفرية بنت عيسى بن علي بن وهب في مقدمة الطالع السعيد للأدفوي، نقلاً عن أحمد سيد: الشخصية المصرية، ص197.

(816) الوشم الذي يزين به بعض العامّة أيديهم وصدورهم وشفاههم ووجوههم لم يكن في يوم من الأيام ضربًا من العبث، وإنما يعود إلى التاريخ القديم عندما كان الناس يعيشون في حياة بدائية يقدسون فيها بعض الحيوانات ويخشون فيها من بعض مظاهر الطبيعة كالموج والرياح والمطر والرعد، ويدخل الوشم في إطار عقيدة الطوطم Totem أو النظام التوتمي Totemisme، وكلمة طوطم تطلق على كل أصل حيواني أو نباتي تتخذه عشيرة ما رمزًا

إغراء أو معتقد في جذب الرجال إليها، فالمرأة المصرية هنا قد توحي للرجل وتناديه حينما تحذره من الاقتراب أو تخيفه من العقرب أو الثعبان، ومع ذلك فلا بأس بهذا اللدغ، ولا بأس من الاقتراب، فالشاعر ابن عرام يصف حبيبته بالقسوة، ومع ذلك فإنه يقبلها على الرغم من أن العقرب يلدغه:

مَنْ مُعِينِي عَلَى اقْتِنَاصِ غَزَالٍ نَافِـــرٍ عَـــنْ حَبَائِلِـــي رَوَّاغِ
قَلْبُهُ قَسْوةٌ كَجُلْمُـودِ صَخْـرٍ خَـدُّهُ رِقَّـــةٌ كَزَهْـرِ الْبَـــاغِ
كُلَّمَـا رُمْـتُ أَنْ أُقَبِّـلَ فَـــاهُ لَدَغَتْنِـي عَقَـارِبُ الأَصْـدَاغِ(817)

لها ولجميع أفرادها، ولقد مارس المصريون القدماء الوشم في ظل دياناتهم القديمة وربطوه بها ربطًا كبيرًا، كما أنهم فوق ذلك اتخذوا من رسومه وسائل للزخرفة والتجميل، ولم يقتصر أمر الوشم لدى المصريين على التجميل فحسب، إلا أنه كان أيضًا وسيلة علاجية لبعض الأمراض، كما ظن أنه يمنع الحسد، فللوشم دلائل كثيرة تختلف باختلاف الشعوب والحضارات والثقافات المختلفة. وقد يحمل الوشم أحيانًا معنى دينيًّا، فنقش الصليب على معصم اليد اليمنى عند الأقباط المصريين يسمح لهم بالتعارف في ما بينهم داخل الجماعات المسلمة، وظل بشكل عام سمة للتعارف عند أقليات الشرق الأوسط، كما يوجد الوشم العاطفي أو الجنسي الذي يستعمل رقية ضد أعمال السحر، أو تعويذة تقي من الحسد. أشهر الأمثلة على ذلك الوحدة المثلثة الشكل التي لا تزال تستعمل في أيامنا هذه في شكل حجاب، وكذلك ما يسمى الآن خمسة وخميسة ما هي إلا بقية من معتقدات شعبنا في الماضي البعيد، كما أن العدد خمسة وخميسة هذا له دلالة سحرية اتخذه العامة وسيلة وقائية في قولهم "خمسة وخميسة في عين الحسود"، وهي تعني اليد والأصابع الخمسة، حيث يرفعها المرء في وجه العدو أو الشخص الذي يخشاه كأنه يقول: "حوش يا حواش". تلك هي بعض الرموز المصطلح عليها، كما أن هناك وحدات تستعمل إلى الآن في الوشم ويرجع تاريخها إلى المصري القديم، كالنخلة والسمكتين، والأفعى، والعقرب، والعصفور الأخضر. انظر: سوسن عامر: الرسوم التعبيرية في الفن الشعبي (الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1981م)، ص19، عبد الله نور الدين وهبة: الوشم فن وسحر وجمال، مجلة "الفنون الشعبية" العدد 69/68، القاهرة، 2006م)، ص189.

(817) أحمد سيد محمد: الشخصية المصرية، ص200.

فلقد احتل كل من الثعبان والعقرب ركنًا مهمًّا في قائمة الأشكال الحيوانية والنباتية التي كانت المرأة المصرية تقوم بوشمها على بدنها، بما تحمله تلك الأشكال من رموز ودلالات تعكس بالضرورة بعضًا من رواسب أفكار أقدم(818).

الموروث الشعبي الذي يربط بين المرأة المصرية وكلٍّ من العقرب والحيَّة نجد تصويره عند القاضي الفاضل، حيث يعترف بفتنة العقرب(819)، ولكنه اكتشف أن لها رقية تعجزها عن اللدغ وتكف أذاها ألا وهي القبلات:

حَدِّثْنا يَا فَتَى وَأَخْبِرْنَا وَأَيِّمَا شِئْتَ مِنْهُمَا فَقُلِ
عَنْ حَيَّةٍ فِي الْخُدُودِ ظَالِمَةٍ تَمْنَعُ مِنْ شَمٍّ وَرْدِهَا الْخَضِلِ
إِنَّ لَهِا رُقْيَةً مُجَرَّبَةً وَإِنَّ أَلْفَاظَهَا مِنَ الْقُبَلِ

ويصور القاضي الفاضل زينة المرأة المصرية ووشم الحيَّة بخدها(820) فيقول:

---

(818) لم تقتصر عادة الوشم على النساء فقط بل قام بعض الشباب والغلمان بدق الوشم على الأصداغ، فيذكر الإسحاقي المنوفي عن حادثة تعرض أحد الغلمان للتحرش: "إذا كنت للتعنيق والبوس كارهًا، فلا تمش في الأسواق إلا منقبًا، ولا تخرج الأصداغ من من تحت طرة، وتظهر منها فوق خديك عقربًا، فتهتك مستورًا وتتلف عاشقًا"، انظر: الإسحاقي المنوفي: أخبار الأول، ص28.

(819) العقرب: الصورة النموذجية لهذا الكائن العنكبوتي الخطر من أقدم النقوش الهيروغليفية المعروفة، وقد استعمل لكتابة اسم حاكم من عصر ما قبل الأسرات، وهو الملك العقرب، وكان العقرب إلهًا عُبد بأسماء مختلفة، كما كانت تعاويذ يستخدمها الناس ضد لدغة أي نوع من الزواحف، ووردت في أساطير مصر القديمة، حيث تجرأت العقارب التي هي أعداء البشر وخصوم الآلهة ذات مرة على أن تلدغ الآلهة، ولكن الآلهة كانوا أقوى من السم، واستطاع البشر بواسطة السحر أن يجعلوا لحمهم كلحم الآلهة. چورچ بوزنر وآخرون: معجم الحضارة المصرية القديمة، ص234.

(820) للثعبان أو الحيَّة دون سائر الحيوانات الأخرى تاريخ طويل تحفُّه الأساطير من جوانبه كافة، وتكاد لا تخلو أمة من أساطير دارت حولها، وخلاصة ما قيل عنها، إنها تمتلك العشب ذا القوة السحرية، كما نظر إليها كجن أو

من حيَّةٍ في الجمْرِ ما احترقَتْ والجمـرُ فـوق الخـدِّ ما اشتعَـلا

لـو أنهـا تلـك التـي انقلبـتْ يـوم العصا لم يعصِ من جهلا[821]

لعل ذلك ما دفع العديد من الكتابات التاريخية أن تصف المرأة المصرية بالتسلط والسيطرة، وتصف الرجل المصري بقلة الغيرة على امرأته، مستعينة في ذلك كله بشواهد الأساطير والخرافات الممزوجة ببعض القصص الديني، مثال ذلك: ما روَّجه (ابن عبد الحكم) من أساطير حول غرق (فرعون موسى) وجنوده فيقول: "وكان نساء أهل مصر حين غرق من غرق منهم مع فرعون من أشرافهم، ولم يبق إلا العبيد والأجراء لم يصبرن عن الرجال، فطفقت المرأة تعتق عبدها وتتزوجه وتتزوج الأخرى أجيرها، وشرطن على الرجال أن لا يفعلوا شيئًا إلا بإذنهن، فأجابوهن إلى ذلك فكان أمر النساء على الرجال، والقبط على ذلك إلى اليوم أتباعًا لمن مضى منهم لا يبيع

شيطان له قوة خارقة تلحق الأذى أو الجنون في كل من يحاول إيذاءها، وارتبطت حياة الناس بالحية ارتباطًا وثيقًا، لانتمائها إلى عالم آخر يفوق طاقة الإنسان. أحمد النعيمي: الأسطورة في الشعر العربي قبل الإسلام، ص180، كما أن الأفعى أو الحيَّة لعبت دورًا هامًّا في الموروث الشعبي، حيث قامت بدور الحارسة أو الحامية للإنسان، كما تقوم بمطاردة من يمثلون الدنس في الجماعة، وتروي الحكايات الشعبية عن الحية التي تحرس مسجد البيومي بالحسينية وأفعى الشيخ هريدي في صعيد مصر، وهو أحد الأولياء في أقاصي الصعيد، ويستمد هذا الولي شهرته من امتلاكه أفعى عظيمة تقيم خلف مسجده، شاع عنه أنه يستطيع شفاء الناس من الأمراض والعلل عن طريق تسليط الأفعى على الجزء المريض في جسد الشخص، فتمتص الأفعى ذلك المرض ويبرأ المريض، ولعل أشهر الأولياء الذين ارتبط اسمهم بالحيات هو الشيخ أحمد الرفاعي الذي يقوم مسجده الكبير بمنطقة القلعة في القاهرة. ثناء أنس الوجود: رمز الأفعى في التراث العربي (سلسلة ذاكرة الكتابة، القاهرة، 1999م)، ص77، 78.

(821) القاضي الفاضل: الديوان (الجزء الأول، تحقيق أحمد أحمد بدوي، القاهرة 1961م)، ص78، نقلاً عن أحمد سيد: الشخصية المصرية، ص201.

أحدهم ولا يشتري إلا قال: أستأمر امرأتي.."[822]، ويضيف المقريزي: "ولهذا أيضًا صارت ألوان أهل مصر سمرًا من أجل أنهم أولاد العبيد السود الذين نكحوا نساء القبط بعد الغرق واستولدهن"[823]، "فأنسابهم مختلطة لا يكاد يتميز منهم القبطي من الحبشي من النوبي"[824]، وذلك بتدبير من الملكة دلوكة التي استطاعت أن تقود مصر في ظل فراغ سياسي وأمني آنذاك بها قامت به من تدريب، "فلم تزل مصر ممتنعة بتدبير تلك العجوز نحو أربعمئة سنة".[825]

والناظر في الخرافات التي دارت حول قوة وشكيمة المرأة المصرية يدرك أنها تأثرت بالقصص العربية في العصر الجاهلي، فقد أورد لنا ابن فضل الله العمري ما استعاره الوجدان الشعبي من مضمون لقصة (الزباء ملكة الجزيرة)[826]، دون التفاصيل في سياق الحديث عن بناء مدينة الإسكندرية حين سَلكَ مسلكًا مغايرًا فتقول الرواية:

---

(822) ابن الحكم: فتوح مصر، ص48، ص49، المقريزي: الخطط، ج1، ص79.

(823) المقريزي: الخطط، ج1، ص79.

(824) المقريزي: الخطط، ج4، ص492.

(825) الدمشقي: نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، ص34، ابن إياس: بدائع الزهور، ج1، ص18.

(826) تعد قصة (مصرع الزباء) واحدة من نماذج أساطير العرب التي تواتر ذكرها بين الناس، والتي اعتمدت دون ريب على جزء من التاريخ ثم مزجت هذا التاريخ بالخيال، وملخصها أن جذيمة قد ملك ما على شاطئ الفرات، وكانت الزباء ملكة الجزيرة، وكان جذيمة قد وترها بقتل أبيها فكتبت إليه: إنها لم تجد مُلك النساءِ إلا قبحًا في السماع وضعفًا في السلطان، وإنها لم تجد لملكها موضعًا ولا لنفسها كفئًا غيرك، فأقبل إليّ لأجمع ملكي إلى ملكك وأصل بلادي ببلادك، وتتوالى الأحداث وتقتل الزباء جذيمة بطريق الحيلة، وتثأر لمقتل أبيها، وقام (عمرو بن عدي) ابن أخت جذيمة يثأر لمقتل خاله، وحاولت الزباء أن تهرب فأبصرت عمرًا فعرفته فمصت خاتمها وكان فيه سم وقالت (بيدي لا بيد عمرو). انظر إلى عبد الحليم محمود: القصة العربية في العصر الجاهلي، ص149-152.

"إن الذي بنى الإسكندرية أول أمرها: جبير المؤتفكي، وإن الذي دعاه إلى بنائها، أنه غزا بعض النساء اللواتي ملكن مصر، وكان اسمها (حورية بنت البرت) وأنه لما طال بينهما الحرب أنفذت إليه تقول: إني قد رغبت في أن تتزوجني، فيصير ملكنا واحدًا ودارنا واحداً... فأجابها وعقد النكاح على ما كان يعتقدون، والتمس الدخول بها فقالت: إنه يفتح بي وبك أن نجتمع في غير مدينة تبنيها لهذا الأمر في أحسن موضع وأجل مكان، وحيث لم يكن فيه بناء قط غير ما تبنيه، وإنما كان ذلك منها مكرًا به لتنفذ أمواله وتبلغ منه ما تريد في لطف وموادعة، فأجابها وأنفذ مهندسين إليها واختارت موضع الإسكندرية فكان كلما بُني بناء خرجت دواب البحر عبثت به وهدمته فأقام زمانًا، ونفذت الأموال فوضع طلسمات وجعلها في آنية زجاج كالتوابيت، فكانت في الماء حذاء الأبنية، فإذا جاءت دواب البحر فرأت الطلسمات والتوابيت نفرت فثبت البناء وبنيت المدينة، وتمت بعد زمان طويل ثم راسلها في المسير، فسارت بجميع قللها وعساكرها حتى نزلت حذاء عسكره وراسلته: إني قد أحببت أن أحمل عنك مؤونة الأنفاق على العسكريين في أطعمة تصلح وأشربة، وقد أعددت لوجوه الأمراء والقواد خلعًا وتحفًا عنك لكرمك في بناء المدينة... فتلقاهم أصحابها بالخلع المسمومة، فلبسها وجوه العسكر، ولبس الملك جبير خلعته، وكانت أقل سمًّا من غيرها، إبقاء عليه لتبقي فيه بقية لخطأ بها، فما أقاموا إلا ساعةً بالخلع حتى طفئوا، وماتوا ورأى ذلك بقية العسكر فعلموا موضع الحيلة فبادروا مستأمنين فنودي فيهم بالأمان... ودخلت الملكة المدينة وأقامت بها زمانًا وعادت إلى مصر.."[827].

(827) ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، السفر الثالث، ص491- 492.

فالقراءة الأولية للحكاية التي نقلها إلينا الرحالة (ابن فضل الله العمري) عن دهاء المرأة المصرية تؤكد أن عناصر حكاية (مصرع الملكة زباء) سواء عناصرها التحليلية أو الأولية للحكاية لم تغب عن الضمير الشعبي وخياله الخلاَّق، بل استحضرها بشخوصها وأحداثها ووقائعها ورموزها، أو على الأقل في ما يتصل ببعض العناصر التي تقاطعت مع النص المصري للحكاية على نحو ما جاء في الحكاية التي نقلها إلينا (ابن فضل الله العمري) في عنصر السم -على سبيل المثال- وكذلك في مجال اسم الشخوص، وهكذا ينطوي التنَّاص هنا -في ضوء مفهومي الاستدعاء والتحويل- على معنى التداخل والتوالد، والتفاعل المضمر، أو غير المباشر بين النص الجاهلي العربي والنص الشعبي المصري، فقد قام الخيال الشعبي ببراعة بتحويل هذه الاستدعاءات الشعبية أو هذه المرويات السردية التاريخية وصهرها وأذابها في النص الخاص بالحديث عن المرأة المصرية وعلاقتها ببناء مدينة الإسكندرية وتطورها، وقدم لنا مجموعة من آداب السلوك تتلخص في وجوب أعمال الحيلة للخروج من المأزق إذا لم يستطع المرء مواجهته.

وفي تعميم غير منطقي تصف الروايات الشعبية المرأة المصرية بالتسلط والسيطرة وتصف الرجل المصري بقلة الغيرة على امرأته، فيقال: "ومن أخلاق أهل مصر قلة الغيرة، وكفاك ما قصة الله سبحانه وتعالى من خبر يوسف عليه السلام، ومراودة امرأة العزيز له عن نفسه، وشهادة شاهد من أهلها عليها، بما بيَّنَ لزوجها منها السوء، فلم يعاقبها على ذلك سوى قوله: "استغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين"[828].

(828) المقريزي: الخطط، ج1، ص79.

وتعلق الكتابات التاريخية بقولها: "فكما أن عزيز مصر كان مغلوبًا لامرأته زليخا، فإن المصريين لا يزالون مغلوبين لنسائهم وخدمهم، ميالين للطرب واللذة والصفاء والشقاء رغم أنوفهم"[829]، وتذهب الروايات إلى الحد الذي تجعل عنده هذا الأمر سمة من سمات البيئة المصرية، فقد أورد (ابن عبد الحكم): "وأخبرني الأمير الفاضل الثقة (ناصر الدين محمد بن محمد بن الغرابيلي الكركي) رحمه الله أنه منذ سكن مصر يجد في نفسه رياضة في أخلاقه، وترخصًا لأهله، ولينًا ورقة طبع مع قلة الغيرة"[830]. وهو ما أنكره (ابن الحاج) في قوله: "وهذا فيه من المحرمات وجوهٌ كثيرة، وكل من يعاينهم من الناس سكوت، لا يتكلمون، لا يغيرون، ولا يجدون لذلك غيرة إسلامية"[831]. وقد علل ابن ظهيرة هذا السلوك بقوله: "عدم الاعتراض على الناس، فلا ينكرون عليهم ولا يحسدونهم ولا يدافعونهم بل يسلمون لكل أحد حاله، العالم مشغول بعلمه، العابد بعبادته، والعاصي بمعصيته، وكل ذي صنعة بصنعته ولا يلتفت أحد إلى أحد، ولا يلومه بسبب وقوعه في معصية أو نقيصة"[832].

ويتداخل الخيال مع الأسطورة لدى من وصف المصريين سواء كان مؤرخاً أو كاتبًا، فيربط البعض منهم بين الأحوال الفلكية، وسمات أهل مصر، يقول المقريزي: "إن منطقة الجوزاء تسامت رؤوس أهل مصر، فلذلك يتحدثون بالأشياء قبل كونها،

---

(829) المقريزي: الخطط، ج1، ص80، أوليا چلبي: سياحتنا مه مصر، ص566.

(830) ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص42.

(831) ابن الحاج (أبو عبد الله محمد العبدري) (ت 737هـ): المدخل إلى الشرع الشريف (الجزء الأول، الطبعة الأولى، دار التراث، القاهرة، د.ت) ص267.

(832) ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، ص204.

ويخبرون بما يكون وينذرونه بالأمور المستقبلة، ولهم في هذا الباب أخبار مشهورة"[833].

يشير المقريزي إلى تلك الحاسة ويرجعها إلى عوامل بيئية جغرافية تتصل بموقع مصر وعلاقته بالنجوم والأفلاك، ويلحظ المرء بروز الاعتقاد في تأثير النجوم في طبائع الناس وأحوالهم ويشير (أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسي) إلى ذلك فيقول: "المصريون أكثر الناس استعمالاً لأحكام النجوم، وتصديقاً لها وتعويلاً عليها وشغفًا بها، وسكونًا إليها، حتى إنه قد بلغ من زيادة أمرهم في ذلك إلى أن لا يتحرك واحد منهم حركةً من الحركات الجزئية التي لا تحصر فنونها ولا تحصل أجزاؤها وأنحاؤها ولا تضبط جهاتها، ولا تقيد غاياتها ولا تعد ضروبها إلا في طوالع يختارونها ونصب يعتدونها"[834].

ويستشهد صاحب الرسالة المصرية على ما يقول، بحكاية يرويها: "ولقد شهدت يومًا رجلاً من الوقادين في آتون الحمام يسأل رزق الله المذكور -أحد المنجمين- عن ساعة حميدة لقص أظفاره فتعجبت من سمو همته، على خساسة قدره ووضاعة مهنته"[835]، ويضيف إلى ذلك قوله: "ومن الحكايات العجيبة، في فرط استعمالهم لأحكام النجوم، وعنايتهم بها، ما شهدت بالصعيد الأعلى، وذلك أن بعض الولاة حبس رجلاً من بعض أهل تلك الناحية كان ينظر في علم النجوم وشفع إليه فيه من يكرم عليه فشفعه فيه، وأمر بإطلاقه، وكان من الحبس في عذاب واصب،

---

(833) المقريزي: الخطط، ج1، ص49.

(834) أبو الصلت: الرسالة المصرية، ص39.

(835) المصدر نفسه، ص39.

وجهد ناصب، فلما أتوه وقالوا له: انطلق لشأنك، أخرجَ من كمه اصطرلابًا، فنظر فيه فوجده مذمومًا، فسألهم أن يتركوه مكانه إلى أن يتفق وقت يصلح للخروج من السجن، فعادوا إلى الوالي، فأخبروه بخبره فضحك منه، وتعجب من جهله وفساد عقله وأجابه إلى سؤاله وتركه على حاله، وأطال مدة عقابه"[836].

هكذا بلغ الاعتقاد في النجوم والطوالع وتأثيرها في أحوال الناس الحد الذي جعل وقادًا في أحد الحمامات يستشير النجوم قبل أن يقص أظافره، وجعل ذلك المنجم يرفض الخروج من السجن حين أتيح له ذلك بعد شفاعة أحد المتشفعين، لأن الوقت لم يكن مناسبًا حسبما قالت له الأبراج. كانت تلك سمة من سمات ذلك العصر في تلمس كل السبل للتنبؤ بالغيب، حتى انتشرت الوسائل المتعلقة بها وتنوعت تلك الأمور ما بين ضرب الرمل واستنطاق الودع، وفتح المندل والاستخارة بالرؤية وبالقرآن الكريم، حتى أنكر ابن الحاج ذلك على المصريين بقوله: "أما الباطل فهو زعمهم في فتح الختمة والنظر في أول سطر يخرج منها أو غيره"[837].

واضطلع العديد من الناس بهذه المهام ليقدموا للإنسان اللاهث وراء المجهول كل ما يرضيه أو يطمئنه على المستقبل أو ينذره من ويلاته، وحسبنا هنا مشاركة المؤرخ العيني (855هـ)، حيث أشار في حديثه عن (السلطان الظاهر ططر) بقوله: "وكانت توليته في ساعة أجمع عليها أهل الحساب أنها تدل على طول أيام مولانا السلطان خلد الله ملكه مع عافية وأمن وسرور، ثبت الله أركان دولته وأيام سطوته

---

(836) أبو الصلت: الرسالة المصرية، ص40.

(837) ابن الحاج: المدخل، ج1، ص278.

وعزته"[838]. بيد أن "**ساعة السعد**" التي أشار إليها العيني لم تكن كذلك فقد تبوأ السلطان (سيف الدين أبو الفتوح ططر) في يوم (29 من شهر شعبان عام 824هـ) ولم يمهله القدر في حكم مصر أكثر من تسعين يومًا لا غير.

ويُوردُ المقريزي أخبار واقعة تدل على ما ذهب إليه من أن المصريين يتحدثون بالأشياء قبل كونها[839]، ويخبرون بما يكون فيقول: "ومن هذا الباب واقعة ألدمر، ذلك أنه خرج الأمير ألدمر أمير جندار يريد الحج من القاهرة في سنة ثلاث وسبعمئة، وكانت فتنة بمكة قتل فيها ألدمر يوم الجمعة. فأشيع في هذا اليوم بعينه في القاهرة ومصر وقلعة الجبل، بأن واقعة كانت بمكة قتل فيها ألدمر، فطار هذا الخبر في ريف مصر، واشتهر فلم يكترث الملك محمد بن قلاوون بهذا الخبر، فلما قدم المبشرون على المادة أخبروا بالواقعة وقتل الأمير سيف الدين ألدمر في ذلك اليوم، الذي كانت الإشاعة فيه بالقاهرة". وأورد المقريزي أكثر من واقعة مشابهة ثم ينتهي إلى القول "وفي هذا الباب من هذا كثير"[840].

وهكذا ظهر المصريون وكأنهم اطلعوا على علم الغيب، ويخبرون بما يكون

---

(838) العيني (محمد بن أحمد) (ت 855هـ): الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ططر (تحقيق: هانس أرنست، الطبعة الأولى، دار إحياء الكتب، القاهرة، 1962م)، ص40.

(839) يعلق اليعقوبي على مهارة أهل مصر في التنبؤ بالمستقبل فيقول: "يقولون إن أنبياءهم كانت تكلمهم الكواكب، وتعلمهم أن الأرواح تنزل إلى الأصنام، فتسكن فيها، وتخبر بالحادث قبل أن يحدث.. وكانت لهم فطنة عجيبة ودقيقة يوهمون بها العوام أنهم يكلمون الكواكب، وأنها تنبئهم بما يحدث، ولم يكن ذلك إلا لجودة علمهم بالأسرار التي للطوالع، وصحة الفراسة، فلم يكونوا يخطئون إلا القليل، وادَّعوا علم ذلك عن الكواكب، وأنها تنبئهم بما يحدث، وهذا باطل وغير معقول". اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، المجلد الأول، ص188.

(840) المقريزي: الخطط، ج1، ص49.

وينذرون بالأمور المستقبلية، وكأنهم استلقوا السمع، ولم يتبعهم شهاب ثاقب، وكأنها سمة اتسم بها المصريون منذ أقدم العصور، حيث تنبؤوا بطوفان نوح بعد أن "نظروا في ما تدل عليه الكواكب مما يحدث في العالم وعلموا أن تلك الآفة تكون ماء يغرق الأرض ومن عليها فأمر الملك ببناء الأهرام"[841]، كما تنبؤوا بالمجاعات التي سوف تلم بمصر كقول المقريزي: "ثم وقع الغلاء في زمن أتريب بن مصريم، ثالث عشر ملوك مصر بعد الطوفان، وكان سببه أن ماء النيل توقف جريه مدة مئة وأربعين سنة، فأكل الناس البهائم حتى فنيت كلها... فأوحى الله سبحانه وتعالى إلى هود عليه السلام، أن ابعث إلى أتريب بمصر أن يأتي لحف جبلها، وليحفر بمكان كذا... فإذا عقود قد عقدت بالرصاص، وتحتها غلال كأنها وضعت حينئذ، وهي باقية في سنبلها لم تدرس، فمكثوا ثمانية شهور في نقلها، وزرعوا منها وتقوتوا نحو خمس سنين، فأخبره أخوه صابر بن مصريم أن أولاد قابيل بن آدم عليه السلام لما انتشروا فى الأرض وملكوها، علموا أن حادثة ستحدث في الأرض، فبنوا هذا البناء، ووضعوا فيه الغلال، فزرعت مصر وأخصبت"[842].

ويكشف لنا صاحب الرسالة المصرية عن بعض الجوانب المتعلقة بفكر المصريين وتاريخهم فيقول: "وحكى الوصيفي في كتابه الذي ألفه في أخبار مصر أن أهلها في الزمن السابق كانوا يعتقدون أن هذا العالم، الذي هو عالمُ الكون والفساد أقام برهةً من الدهر خاليًا من نوع الإنسان، وعامرًا بأنواع أُخَر غير الإنسان، وأن تلك الأنواعَ مختلفة على خِلق فاذَّة وهيئات شاذَّة ثم حدث نوع الإنسان فنازعَ تلك الأنواع فغلبها

(841) ابن محشرة: الاستبصار في عجائب الأمصار، ص53.

(842) المقريزي: إغاثة الأمة بكشف الغمة (سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة، 1999م)، ص39.

واستولى عليها، وأفنى أكثرها قتلاً وشرَّد ما بقي منها إلى القفار، وأن تلك المشَّردة هي الغيلان والسعالي وغير ذلك، مما حكاه من اعتقاداتهم المستحيلة، وتصوراتهم الفاسدة، وتوهماتهم النافرة"[843].

وعلى الرغم من رأي أبي الصلت الذي حسب في ما أورد من رأي ذاع عن المصريين القدماء أنه يؤكد رأيه في عقلهم واعتقاداتهم، إلا أنه في الحقيقة أورد -ربما دون أن يقصد- ما يعني أن المصريين القدماء قد اقتربوا من فكرة نظرية النشوء والارتقاء، فلا شك أن عبارة أبي الصلت هي من المتلقيات العامَّة والمتيسرة عن معرفة ما تبقى في الأذهان من أفكار كاملة شاعت عند المصريين وذاع أمرها، حتى تناقلها العوام بهذه الصورة المحرفة والمشوشة والمشوهة، شأنهم في ذلك شأن العوام في كل مكان وعصر. كما نلمس أن معلومات أبي الصلت عن فكر المصريين وتاريخهم ورجالهم تختلط فيها بقايا معرفة حقيقية لها أصولها الأولى الحقيقية، بحكايات خرافية، في نسيج متنافر من بقايا العلوم والثقافات[844].

ويبدو أن ظروف العصر قد ساعدت الخرافات والأساطير على التغلغل والتسرب إلى نسيج المجتمع، إضافة إلى ما كان يحدث فيه من ضربات موجعة للمسلمين لأول مرة في تاريخهم تحت وطأة الحروب الصليبية واقتطاع أجزاء من المنطقة، الأمر الذي كانت له انعكاسات واضحة على النظام القيمي والأخلاقي في العالم العربي، فامتلأت النفوس بالغضب ومشاعر الإحباط والمرارة التي زادت من

---

(843) أبو الصلت: الرسالة المصرية، ص24.

(844) فاروق خورشيد: معادن الجوهر، ص118.

حدتها أعداد اللاجئين الهاربين من وحشية الصليبيين عند كل هجوم جديد، فشعر الناس في المنطقة العربية بمدى عجز الحكام، وامتلأت النفوس في كل مكان بروح العجز، وشاعت روح من التقوى السلبية، والتدين العاطفي الهروبي، وقد تجسد هذا كله في التفاف عامَّة الناس حول نمط المتصوفة -الدراويش- والمجاذيب كأحد مظاهر التعبير عن روح اليأس، والهروب إلى المجهول، والتي سيطرت على قطاعات كبيرة من سكان المنطقة العربية[845]، والتي تركت أيضًا العديد من الأفكار المحملة برواسب الرؤى والأحلام التي يرى فيها النائم النبي ﷺ أو الاجتماع بسيدنا الخضر عليه السلام. كتعبير عن الآمال التي تجيش في نفوس الناس حيال الواقع المرير الذي يعيشونه، فأصبح معتادًا أن يتكلم المتعلمون عن القيامة وأحاديث آخر الزمان[846]، وبالخرافات التي شاعت حول عذاب القبر ونعيمه، والاعتقاد والتسليم بالخوارق والمعجزات، والتي

---

(845) قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية (دار عين للدراسات والبحوث، القاهرة، 1993م)، ص202، 203.

(846) يذكر ابن إياس في (حوادث سنة 758هـ): "في شهر رجب هبت رياح عاصفة من جهة الغرب حتى أظلم الجو ظلمة شديدة... حتى ظن الناس أن القيامة قد قامت، وصار يودع بعضهم بعضًا"، وفي (حوادث سنة 928) يشير ابن إياس إلى "أن شخصًا ادعى أن في يوم الجمعة من شهر ربيع الآخر سنة 928 تثور على الناس رياح عاصفة وتقع زلزلة عظيمة حتى تسقط منها الدور وتقبض الناس وهم في صلاة الجمعة، فانتشرت هذه الشائعة في القاهرة وانطلقت ألسن الناس بذلك قاطبة، فاضطربت القاهرة لهذه الشائعة وصار الناس يودع بعضهم بعضًا". انظر ابن إياس: بدائع الزهور، ج5، ص440. ويعلق (ستانلي لينبول) بقوله: "إنه من الواضح أن أهل القاهرة كانوا يؤمنون بالخرافات، فقد حدث في سنة 1735م أن انتشرت إشاعة فحواها أن يوم البعث سوف يكون يوم الجمعة التالي، ومن ثم وجدنا الناس يودعون بعضهم.. وأخذ أهل الجيزة بعد أن حركتهم خرافة قديمة يستحمون في النيل بعصبية ظاهرة، الرجال والنساء على حد سواء". ستانلي لينبول: سيرة القاهرة (ترجمة حسن إبراهيم وآخرين، مكتبة الأسرة، القاهرة، 1997م)، ص242.

عكست أثر الشخصية المصرية على هذا النوع من الأخبار والقصص في التعبير عن اعتقاد الناس في كرامات الأولياء وشفافية النفس المصرية في تقبلها تلك الأمور الغيبية عن إيمان وصدق. ومن أمثال هذه القصص ما رواه أبو الفتح رضوان –فتح الله بن سعد الله التميمي المنفلوطي ﷺ– يقول: "كنت يومًا مع شيخنا أبي الحسن الصباغ ﷺ على ساحل البحر، ومعه إبريق يتوضأ منه، فسمع بالقرب منه صياح الناس، فسأل الشيخ عن ذلك فقيل له قد أخذ التمساح رجلاً من الساحل فترك الشيخ الوضوء وأسرع إلى المكان الذي فيه الناس مجتمعين، فرأى التمساح قد قبض على الرجل وقد توسط به لجة البحر، فصاح الشيخ بالتمساح أن يقف فوقف مكانه لا يتحرك يمينًا ولا شمالاً، فعبر الشيخ على متن الماء، وهو يقول بسم الله الرحمن الرحيم، وكأنه يمر على وجه الأرض، وكان البحر في نهاية زيادته حتى انتهى إلى التمساح، فقال له: ألق الرجل، فألقاه من فيه.. وقد هلك الرجل فخذه من مسكة التمساح، فوضع الشيخ يده على التمساح وقال له: مت فمات موضعه.. وقال الشيخ للرجل قم إلى البر فقال: يا سيدي لا أستطيع من فخذي وأنا لا أحسن العوم، فقال: اذهب فهذه سبيل النجاة، وأشار إلى طريق البر فإذا البحر من الموضع الذي فيه الشيخ والرجل صلب قوي كالحجارة، فمشى الشيخ والرجل حتى وصلا إلى البر والناس ينظرون، ثم عاد البحر إلى حالته المعتادة، وجر الناس ذلك التمساح ميتًا"(847).

---

(847) علي صافي حسين: الأدب الصوفي في مصر – ابن الصباغ القوصي، شيخ التصوف الإسلامي في القرن السابع الهجري (مكتبة المتنبي، القاهرة 1971م)، ص121، 172 نقلاً عن أحمد سيد محمّد: الشخصية المصرية في الأدبين الفاطمي والأيوبي، ص314.

فالشخصية المصرية بارزة في هذا النوع من الحكايات والكرامات، والتي تسربت إلينا عبر الحركة الصوفية التي نشأت بمصر في مرحلة النضج عن ظاهرة جديدة في المجتمع المصري ذات صلة بتكوينه الجغرافي والبشري والنفسي، لا سيما أن "الخرافات والأسمار كانت مرغوبًا فيها مشتهاة"[848]، ولا تزال رواسبها متغلغلة في الموروث الشعبي المتغلق بالحياة اليومية للمصريين، والتي حفظها لنا المؤرخون في كتاباتهم في سياق حديثهم عن أعياد أهل مصر، والتي كان يحتفي بها كل أهل مصر على حد سواء مثل عيد الشهيد: "وعيد الشهيد يكون في اليوم الثامن من شهر بشنس، واعتاد النصارى أن يحتفلوا بذلك اليوم بإلقاء تابوت في نهر النيل به أحد أصابع أسلافهم من الحواريين، ويزعمون أنهم إذا لم يفعلوا ذلك فإن النيل لن يزيد"[849]، وربما كان ذلك الطقس صدى للأسطورة التي راجت في كتابات المؤرخين حول (صندوق/ تابوت) النبي يوسف عليه السلام وما دار حوله من روايات مفادها أن يوسف عليه السلام: "لما حضرته الوفاة قال: إنكم ستخرجون من أرض مصر إلى أرض آبائكم فاحملوا عظامي معكم. فمات فجعلوه في تابوت، ودفن في أحد جانبي النيل فأخصب الجانب الذي كان فيه وأجدب الآخر، فحوَّلوه إلى الجانب الآخر فأخصب الجانب الذي حولوه إليه وأجدب الآخر، فلما رأوا ذلك جمعوا عظامه فجعلوها في صندوق من حديد، وأقاموا عمودًا على شاطئ النيل، وجعلوا في أصله سكّة من حديد، وجعلوا في

---

(848) ابن النديم: الفهرست (تحقيق: محمد عوني بالاشتراك، سلسلة الذخائر، العدد 149، القاهرة 2006م)، ص308.

(849) التلمساني: سكردان السلطان، ص364، المقريزي: الخطط، ج1، ص110.

الصندوق سلسلة أثبتوها في السكة، وألقوا الصندوق في وسط النيل، فأخصب الجانبان جميعًا"[850].

وهذا الصندوق وما أحاط به من طقوس تتفق كثيرًا مع بعض التفاصيل في سيرة "سيف بن ذي يزن"، والتي تحدث فيها الراوي عن (كتاب النيل) الموضوع في صندوق من خشب الأبنوس الأسود مصفح عليه بصفائح الذهب الأحمر، فعيد الشهيد هنا يحمل ظلالاً وإمدادات كثيرة من الماضي في تداخل مع الرواسب الفرعونية والقبطية لتصنع كتاب النيل.

على أن كلمة (كتاب) هنا تذكرنا بكتاب (عمر بن الخطاب) الذي أرسله ردًّا على كتاب (عمرو بن العاص) إليه بشأن العروس (أسطورة عروس النيل التي كانت تُلقى في النيل سنويًّا). فعمر ﷺ لم يكتف بالزجر والمنع بل كتب كتابًا ليلقي به في النيل على نحو ما هو معروف ونقله إلينا ابن عبد الحكم المسؤول الأول عن نص الخرافة التي وصلتنا في قوله: "لما فتح عمرو بن العاص مصر، أتى أهلها إلى عمر حين دخل شهر بؤنة، فقالوا له: أيها الأمير إن لنيلنا هذا سُنّة لا يجري إلا بها فقال لهم: وما ذاك؟ قالوا: إنه كلما جاءت الليلة الثانية عشرة من هذا الشهر، عمدنا إلى جارية بكر من أبويها فأرضينا أبويها، وجعلنا عليها من الحُلى والثياب أفضل ما يكون ثم ألقيناها في النيل... فقال لهم عمرو: هذا لا يكون في الإسلام، إن الإسلام يهدم ما قبله، فأقاموا شهور بؤنة وأبيب ومسرى. والنيل لا يجري قليلاً ولا كثيرًا حتى هموا بالجلاء.. فلما رأى عمرو ذلك كتب إلى عمر بن الخطاب ﷺ بذلك فكتب إليه

(850) ابن سعيد الأندلسي: النجوم الزاهرة في حُلى حضرة القاهرة، ص384.

عمر أن قد أصبت أن الإسلام يهدم ما كان قبله، وقد بعثت إليك ببطاقة، فألقها في النيل إذا أتاك كتابي، فلما قدم الكتاب على عمرو فتح البطاقة فإذا بها:

"من عبد الله أمير المؤمنين إلى نيل مصر، أما بعد فإن كنت تجري من قبلك فلا تجر وإن كان الله الواحد القهار هو الذي يجريك فنسأل الله الواحد القهار أن يجريك".

فألقى عمرو البطاقة في النيل، وكان أهل مصر قد تهيؤوا للجلاء والخروج منها، لأنه لا يقوم بمصلحتهم فيها إلا النيل وأصبحوا وقد أجراه الله تعالى ست عشرة ذراعًا في ليلة واحدة"[851]، ويعلق الإسحاقي قائلاً: "وقطع الله تلك السنة السيئة عن أهل مصر وصار يعمل في ليلة وفاء النيل المبارك في كل سنة إشارة عظيمة كبيرة، ينصب بها قناديل تعلق بحبال كثيرة على أخشاب مرتفعة توضع بمركب وتوقد القناديل وتسير في البحر يمينًا وشمالاً وتزف بالطبول وتُسمى عروسة البحر، وذلك مستمر إلى تاريخه"[852].

والراجح في ما يتعلق بتلك الخرافة التي نقلها إلينا ابن عبد الحكم قد جانبه التوفيق فنقل تلك الأسطورة على أنها حقيقة واقعة، كما أن جميع المؤرخين الذين جاؤوا بعد ابن عبد الحكم وتناولوا بعض الموضوعات المتعلقة بالواقعة التي حفظها لنا ابن عبد الحكم قبلهم، فقد ذكروا هذه الخرافة وكرروها على أنها معلومة تاريخية، نقلاً

---

(851) ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب، ص176- 177، المقريزي: الخطط، ج1، ص58، القلقشندي: صبح الأعشى، ج3، ص291، القزويني: عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، ص168-169، الإسحاقي المنوفي: أخبار الأول، ص30.

(852) الإسحاقي المنوفي: أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول، ص31.

عما كتبه ابن عبد الحكم سواء بإسنادها إليه مباشرةً أو بذكرها دون إسناد كما لو كانت حقيقة واقعة، حيث كانت تلك الأسطورة هي غاية علمهم آنذاك ولم يعرفوا أنها أساطير، كالمقريزي، والكندي، وابن تغري بردي، وابن دقماق، والسيوطي، وياقوت، وابن إياس، وغيرهم[853].

ولعلنا نتساءل كيف تمر ثلاثة أشهر هي "بؤنة وأبيب ومسرى" والنيل لا يجري قليلاً ولا كثيراً"! إن ذلك لو كان حدث لكانت هناك كارثة تزول فيها الحياة تمامًا، ولا يبقى بعدها إنسان أو حيوان أو نبات، وكيف يرتفع النيل 16 ذراعًا ليلة واحدة!! كما أن الفتح الإسلامي كان سنة 641 ميلادية، وكان المصريون آنئذٍ قد اعتنقوا المسيحية وهي دين سماوي، ولا يمكن أن يقبل أو يقر حكاية إلقاء عروسة بكر حية

---

(853) ظلت هذه الخرافة تُروى على مدى أكثر من ألف سنة، والعديد من الشواهد حاليًا يؤكد أن هذه الرواية لا تستند إلى أي أساس، وأنما مجرد أسطورة من الأساطير التي أطلقها بعض المؤرخين عن الحضارة المصرية القديمة، فقبل أن يدوّن ابن عبد الحكم هذه الحكاية قام العديد من المؤرخين اليونانيين والرومان بزيارة مصر، وكتبوا عن كل ما شاهدوه بأنفسهم، وكل ما حُكي لهم عن تاريخ مصر والمصريين، وكان أشهر هؤلاء المؤرخين القدامى: هيرودوت وإسترابون وديودور الصقلي وغيرهم، وقد سجل هؤلاء المؤرخون القدامى التاريخ المصري وذكروا قصصًا كثيرةً عن المصريين القدماء، وعن حياة وعادات وتقاليد أهل مصر، كما ذكروا الكثير من الخرافات والأساطير التي لا تصدق عن مصر والمصريين، ومع ذلك لم يذكر أحد من هؤلاء المؤرخين أن المصريين كانوا يزفون للنيل في كل عام عروسة حية، ولو أن ذلك قد حدث ولو مرة واحدة عبر آلاف السنين لكانت فرصة أمام هؤلاء المؤرخين، ليكتبوا لقرائهم المزيد من عجائب وغرائب المصريين، أضف إلى ذلك أن المؤرخ ابن عبد الحكم قد كتب هذه الحكاية بعد فتح مصر علي يد عمرو بن العاص بأكثر من قرنين من الزمان، أي أنه كان غير معاصر للحكاية على فرض حدوثها، إن كانت قد حدثت فعلاً، وعلى هذا فإما أن تكون هذه الحكاية قد رُويت له بمعرفة أحد رواة التاريخ الشعبي فغلفتها الخرافة وساقها لنا الخيال.

لتموت غريقة في النيل، فالأديان السماوية الثلاث لا تقر ولا تعرف تقديم ضحية بشرية كقربان لله[854].

كما أن الثابت تاريخيًا عن المصريين القدماء، أنه لم يعرف عن تاريخهم المعروف والمدون أنهم كانوا يقدمون ضحيةً بشريةً إلى أي إله أو معبود مهما علا شأنه، لأنهم كانوا على يقين من أن البشر هم الثروة الحقيقية لحضارتهم ووقودها الفاعل والدافع.

فالثقافة المصرية وما أنتجته من العادات والتقاليد، عبرت عن نفسها في عدد من الأعياد والاحتفالات التي اهتم المصريون بإحيائها والاحتفال بها، ومن الطبيعي أن عددًا من هذه الأعياد كان يتمثل بعقائد المصريين ودياناتهم، بل هناك من الأعياد ما

---

(854) تضاربت الآراء في أصل فكرة "عروس النيل"، فزعم بعض المؤرخين العرب أن المصريين كانوا يقدمون في كل عام عروسًا من أجمل النساء إلى النيل في يوم وفائه "فيضانه"، ويزفونها في مهرجان شعبي، وتركب العروس سفينة مزينة بالزهور والأعلام، وتسير على صفحة النهر ويدفعون لأهلها تعويضًا، اعتقادًا منهم أن هذا القربان يرضي النيل، فلا يحرمهم من خيره وبركاته، ولم يقلعوا عن هذه العادة في زعم هؤلاء المؤرخين إلا في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ، حسب ما نقله إلينا المؤرخ العربي ابن عبد الحكم، ويقول فريق آخر: إن الأصل في فكرة عروس النيل هو أن المصريين القدماء كانوا يقدسون النيل ويقيمون له تماثيل مختلفة، وكان يوجد في جزيرة فيلة بأسوان هيكل لا تزال آثاره باقية يحتفل القوم فيه كل عام بهذا العيد، وذلك بإلقاء الحلي والقطع الذهبية تكريمًا لهذا النهر، بينما يقول البعض الآخر: كان المصريون يلقون في كل عام عروسًا من الذهب أو البرونز أو الفخار وقت الفيضان حتى تكثر خيراته، والواقع أن تلك الأسطورة ليس لها نصيب من الصحة، وذلك أن المصريين القدماء كانوا يقصدون بهذه العروس "أرض مصر"، أي أن النيل متى فاض دخل على أرض مصر تشبهًا بالرجل عندما يلتقي بعروسه يوم الزفاف، يؤكد ذلك أنهم لم يشيروا في ما تركوه لنا من آثار ونقوش وبرديات إلى عروس النيل هذه. انظر وليم نظير: العادات المصرية بين الأمس واليوم (القاهرة 1967م)، ص49- 51، محمد لطفي جمعة: مباحث في الفولكلور (سلسلة الدراسات الشعبية، العدد 34، القاهرة، 1999م)، ص70.

كان يأخذ شكل الاحتفال القومي، وذلك لارتباطه بحياة المصريين جميعًا مثل الاحتفال بوفاء النيل الذي ارتبط بالتراث المصري القديم(855).

ومن الأعياد التي كان المصريون يحتفلون بها قبل الإسلام وبعده عيد "الغطاس"، إذ يقول المسعودي عن احتفالات المصريين بذلك العيد: "ولليلة الغطاس بمصر شأن عظيم عند أهلها لا ينام الناس فيها، وهي ليلة إحدى عشرة تمضي من طوبة، وستة من كانون الثاني، ويصف المسعودي ما ارتبط بهذا العيد من اعتقادات خرافية بقوله: "وهي أحسن ليلة تكون بمصر وأشملها سرورًا ولا تغلق فيها الدروب ويغطس أكثرهم في النيل، ويزعمون أن ذلك أمان من المرض ومبرئ من الداء"(856).

فقد كان المصريون يحتفلون بـ"ليلة الغطاس"، مسيحيون ومسلمون يتجمعون على شاطئ النيل ويشعلون المشاعل والشموع، يأكلون ويشربون ويمرحون ويغطسون في ماء النيل، حتى يبرؤوا من كل داء -بحسب اعتقادهم- وهو اعتقاد مرتبط بالتراث المصري القديم، الأمر الذي يؤكد صدق تواصل أجيال الشعب المصري وامتداد المعتقدات والممارسات الشعبية المصرية التي تبرز القسمات الواضحة للشخصية المصرية.

وربما كانت كثرة الاحتفالات والأعياد المصرية وراء تلك الملاحظة التي سجلها أحد الرحالة بقوله: "أصل كثرة السرور والأفراح بمصر ناشئ عن كونها إقليمًا آخر،

---

(855) قاسم عبده قاسم: التكوين الحضاري للمصريين من الفتح الإسلامي حتى الغزو العثماني (الطبعة الأولى، سلسلة مطبوعات الهيئة العامة لقصور الثقافة، العدد 36، القاهرة، 1999م)، ص210.

(856) المسعودي: مروج الذهب، ج1، ص344.

لأن طبع مصر زهري، فلذا يميل أهلها إلى الموسيقى والغناء واللهو واللعب، ثم أن شعبها كبير العدد كثير المال مما يساعده على الإنفاق في الطرب والذوق والصفا"[857]، ويقال إن بين مباهج الأعياد ومباهج بعض أعياد الفراعنة قرابة وصلة، ومن تلك الأعياد عيد بوباسطيس (تل بسطة بالزقازيق[858])، وقد وصف لنا هيرودوت[859] كيف أن الرجال والنساء كانوا يركبون قوارب تسير بهم في النيل، وهم يرقصون ويغنون، ويسرفون في تناول الطعام والشراب.

هذه الاحتفالات التي كانت سمة بارزة من سمات الحياة الاجتماعية المصرية كانت تعبيراً عن ثقافة شعب متجانس، تكشف عن أن المجتمع المصري عاش حياته الاجتماعية بالشكل الذي يوافق موروثه الثقافي الموغل في أعماق الزمن، والذي يحمل العديد من الممارسات التي تداخل فيها الموروث الشعبي بكل ما يحمله من أساطير

---

(857) أوليا چلبي: سياحتنا مه مصر، ص566.

(858) الزقازيق: من المدن الكبيرة في مصر الواقعة على (ترعة) مويس بمحافظة الشرقية، والتي يسميها الناس ب(بحر مويس). وقد شهد الوالي محمد علي بكرم أهل الزقازيق، وأعجب به حين زار المدينة في أعقاب بناء قناطر الزقازيق (عام 1248هـ/ 1832م)، والتي أصبح من الضروري تسمية هذه القناطر باسم معين تعرف به بين رجال الري، وتذكر به في مكاتباتهم، فاختاروا لها اسم قناطر الزقازيق نسبة إلى نزلة الزقازيق المنسوبة إلى أفراد عائلة زقزوق وعلى كفر الزقازيق موطنهم الأصلي الواقع في شمال مكان القناطر على بُعد 400 متر، وقد أقام أفراد عائلة زقزوق مساكن لهم وللباعة بجوار مكان القناطر لإقامتهم، عرفت بين العمال وغيرهم باسم نزلة الزقازيق، ولما تم بناء القناطر (1827م- 1832م) زارها محمد علي وأعدت له وليمة فاخرة، وقدموا إليه الشيخ (إبراهيم زقزوق) كبير العمال فشكره على المجهود الذي بذله هو ورجاله وأفراد عائلته في بناء القناطر، ولما علم الوالي أنها سميت قناطر الزقازيق نسبة إلى أسرة الشيخ (إبراهيم زقزوق) قال محمد علي: (فلتكن الزقازيق على بركة الله). انظر: عمرو عبد العزيز منير: الشرقية بين التاريخ والفولكلور (دار الإسلام، القاهرة، 2004م)، ص107.

(859) هيرودوت يتحدث عن مصر، فقرة 60، ص160.

ورموز وحكايات وأشعار وخير مثال لذلك، احتفالهم (بسبت النور)، حيث: "اعتاد أهل مصر على أن يتكحلوا اعتقادًا أن من يتكحل في ذلك اليوم يقوى بصره، وأن من يشرب الدواء في هذا اليوم أيضًا يكون ذا فائدة عظيمة في الشفاء، كذلك يخرج إلى شاطئ النيل من يعاني من أمراض جلدية ويدهنون أجسامهم بالكبريت ويستلقون طوال اليوم تحت أشعة الشمس"[860]، ويهمنا أن نلاحظ تلك الصلة بين المعتقد الشعبي والعادات الجارية، وإذا كان قد نُسي هذا المعتقد، إلا أننا نستطيع أن نتعرف عليه من هذه العادات ذاتها، فعادة الاستحمام وتدليك الجسم بالكبريت تذكرنا بالمعتقدات الخاصة بشفاء أيوب في بلواه.

وأما أيوب نفسه، الذي تحول في القصص الشعري الغنائي الشعبي، إلى أنموذج لصفة الصبر، فنحن نعرف قصته الأصلية الواردة في سفر التكوين (الإصحاح الأول إلى الإصحاح الثاني والأربعين من سفر التكوين)، وكيف كان رجلاً على قدر كبير من التقوى ووفرة المال وطيب النفس، ثم امتحنه ربه في ماله فصبر، وامتحنه في جسمه "وضرب أيوب بقرح رديء في باطن قدمه إلى هامته، فأخذ أيوب لنفسه شقفة ليحتك بها وهو جالس في وسط الرماد، فقالت له امرأته: أنت متمسك بعد بكمالك بارك الله ومت، فقال لها (أألخير نقبله من عند الله، والشر لا نقبل)، وتنتهي القصة المقدسة بأن "بارك الله آخرة أيوب أكثر من أولاده"، وضاعف له الراحة ومد في عمره عشر سنين ومئة، ورأى أربعة أجيال من ذريته، وماله يزيد ويثرو. ويعزو الذهن الشعبي إلى أيوب أنه دهن جسمه بدهان معين فشُفي، أما عادة الاكتحال في تلك الفترة

(860) ابن الحاج: المدخل، ج2، ص57.

التي يقع فيها شم النسيم، فتتصل باتقاء أمراض العين (الرمد) الذي كان كثيرًا ما يصيب الناس عند انقلاب الجو وتكاثر الذباب، وأتربة الخماسين[861]، وهو الأمر الذي لاحظه الرحالة چوزيف بتس بقوله: "الناس هنا ذوو عيون متقرحة وسيقان متورمة"[862].

كما اعتاد المصريون على شراء السلاحف، اعتقادًا منهم أنها تطرد الشياطين من البيت الذي تكون فيه[863]. كما اعتقدوا أن المرء "إذا علق منقار الغراب على إنسان حفظ من العين، وإذا غمس الغراب الأسود جميعه في الخل بريشه وطلي به الشعر سوَّده.. وإذا صر في خرقة وعلق على الصبي الذي لم يبلغ الحلم نفعه من السعال المزمن وقطعه"[864].

أضف إلى تلك الممارسات والعادات حرص الناس على تخصيص أيام معلومة لزيارة الأولياء والتبرك بهم "فجعلوا يوم الخميس والجمعة للقرافة ولزيارة الإمام الشافعي"[865]. وأورد المقريزي حكايةً عجيبةً عن القرافة (أي مدافن القاهرة) نصها: "وفي سنة ثلاث وثلاثين وأربعمئة ظهر شيء يقال له القطرية تنزل من جبل المقطم فاختطفت جماعة من أولاد سكانها، حتى رحل أكثرهم خوفًا منها، وكان شخص من أهل كبارة مصر يعرف (بحميد الفوال)، خرج من أطفيح على حماره، فلما وصل

---

(861) أحمد رشدي صالح: الأدب الشعبي (سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة، 2002م)، ص137، 138.

(862) چوزيف بتس: رحلة الحاج يوسف إلى مصر ومكة والمدينة، ص39.

(863) ابن الحاج: المدخل، ج2، ص55.

(864) الإسحاقي المنوفي: أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول، ص32.

(865) نفسه، ج1، ص269.

حلوان عشاءً رأى امرأةً جالسةً على الطريق فشكت إليه ضعفًا وعجزًا، فحملها خلفه، فلم يشعر بالحمار إلا وقد سقط، فنظر إلى المرأة فإذا بها أخرجت جوف الحمار بمخالبها، ففر وهو يعدو إلى والي مصر، وذكر له الخبر فخرج بجماعته إلى الموضع فوجد الدابة قد أكل جوفها، ثم صارت تتبع الموتى بالقرافة وتنبش قبورهم وتأكل أجوافهم وتتركهم مطروحين، فامتنع الناس من الدفن في القرافة زمناً حتى انقطعت تلك الصورة"[866]. أضف إلى هذه الحكاية العديد من الخرافات، التي شاعت ولا تزال في المجتمع المصري عن عالم القبور والموتى فيذكر الإسحاقي "أن رجلاً من البهنسا أخبرني شفاهًا أن بها شخصًا مشهورًا بابن الميتة قال وذلك أن أمه ماتت وهي حامل به، فلما مضى مدة من دفنها ماتت امرأة من أقاربها ففتحوا قبرها لدفن تلك الميتة فأحس الحفار بشيء يدور حول الميتة، فطلع الحفار وهو مرعوب وأخبر من حضر بما شاهده في القبر فظنوه وحشًا، ثم أوقدوا نارًا وأشرفوا على داخل القبر، فوجدوا ولدًا معلقًا بالميتة ملتقمًا ثديها، وقد أجرى الله فيه اللبن لرضاعه، فأخذ الحفار الولد، وضمه إلى صدره وعصب عينيه، خوفًا من مفاجأة النور، وأطلعه من القبر وعاش وتزوج ورُزق الأولاد"[867].

وهكذا كانت عناصر الموروث الشعبي التي تتناول شخصية المصري وحياته مرآة تضيء الخبر التاريخي عن جوانب الحياة في مصر اقتصاديًا وسياسيًا واجتماعيًا وفكريًا، وهذه القصة التي أوردناها عن القرافة مثالاً جيدًا على نوعية قصص الرعب التي كان

---

(866) المقريزي: الخطط، ج1، ص445.

(867) الإسحاقي المنوفي: أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول، ص32.

أهل مصر يتداولونها حول المقابر والرهبة التي أحاطت بالموتى والقبور، وهي تذكرنا بتلك القصص المرعبة التي سمعناها كثيرًا في طفولتنا عن النداهة والعفاريت والمارد، بيد أن أهم ما تدل عليه هو مدى سيطرة الخيال والخرافة على حكي القصص آنذاك.

الخاتمة

لقد آن لنا أن نضع رحلنا، بعد تلك السفرة الخلابة التي قمنا بها إلى مصر في عالم الأسطورة ومدونات الرحالة والمؤرخين المسلمين، مع الأخذ بأن الدراسة لا تدعي أنها قد وصلت إلى نتائج هامة، أو أحكام مقررة في الموضوع، فقد شغلت الدراسة بالبحث نفسه في أكثر الأحيان عن النظر إلى غاية أخرى غير الاستمرار فيه، على أمل أن تصل الدراسة إلى غايتين: الأولى، أن نقف على بعض سمات الكتابة التاريخية، وروحها لدى الرحالة والمؤرخين المسلمين، وأنماط التفكير السائد آنذاك. وأما الغاية الثانية، فهي محاولة الوصول إلى تفهُّم نفسية هذا الشعب، لأنها أصدق مما قد توصلت إليه دراسات أخرى، أدق وأعمق، ومرجع ذلك ما حمله الموروث الشعبي لرؤية الشعب لتاريخه، وتفسيره لمسيرته الحضارية، كما تشي بكل ما كان يحركه من قيم، أو مثل عليا، في إطار من النظام الأخلاقي الذي حكم حركته في الزمان والمكان، ومما يعبر به الناس عن أنفسهم بشكل تلقائي.

والتاريخ كثيرًا ما يمحو فواصله بين الحقيقة الموضوعية والحقيقة المتخيلة، وقد يحتاج في بحثه عن الحقيقة إلى ترميمات، لا يقربها منه إلا الأسطورة، التي ترتكز على القرابة مع التاريخ، بل إن التاريخ – عبر مراحله المختلفة– قد رافق الأسطورة طوال حقب زمنية عدة ولا عجب –بعدئذٍ– أن أصبح التاريخ والأسطورة شيئًا واحدًا خلال أحد أطوار حياتهما، قبل أن يحدث ذلك الانفصال غير التام بينهما –في ما بعد– إذ تبين لنا من خلال كتابات المؤرخين أن التاريخ بعد دخول أجواء المرحلة الواقعية بنضجه المنهجي أيضًا يرقد إلى أجواء الأساطير والحكايات الشعبية في رحلة البحث المستميتة، والصعبة في العناصر المنسية، والقلقة لمسيرته، التي تفصح عنها الإشارات، والإيحاءات، والرموز، والعلامات التي كان قد اختزنها "اللا شعور الجمعي"

لدى الجماعات بعامة، والمؤرخين بخاصة، ملتمسين انعكاساتها على كتاباتهم، ولتقيم القناعة بوجود "اللُحمة" بين التاريخ والأسطورة. وإن بدت -تلك الرموز- مستغلقة، أحيانًا لطول العهد، وانقطاع بعض الخيوط، وإعادة صياغتها على يد المؤرخين والرواة.

ولكن دخول هذه الصياغات في كتب التاريخ التي كتبها المسلمون لا ينفي أن علم التاريخ عندهم وُلد علمًا أصيلاً، قائمًا على نفس الأصول التي قام عليها علم الحديث وهي الضبط والدقة، والأمانة، وتحري الصدق، لأن هذه التفاصيل الأسطورية لا تدخل إلا في ما يتعلق بأخبار الأمم الغابرة، أو الأمم البعيدة في العصور الماضية -كمصر القديمة- أما صلب تاريخ الإسلام نفسه فقد ظل -إلى حد ما- سليمًا في جملته.

كما اتضح أن الأساطير في الدرس العربي نالت الكثير من أصناف التجني، فلتلك الأساطير خصوصية، ينبغي أن تُبحث وتُدرس بمعزل عن أساطير الشعوب الأخرى، لكي لا تختلط علينا الأمور فنستطيع التعرف على سبب نشأتها، ونتمكن من الوصول إلى مراميها لأنها تنطوي على حقائق دينية، وعلوم سماوية، لا على إكثار خيالي خرافي، مما أضحى الأمر في حاجة ماسة إلى إعادة قراءة الكتابات التاريخية مع ضرورة أن ندقق في روايات كتابنا القدامى، وأن نكون حذرين في قراءة أصولنا، وهذه قاعدة أساسية ينبغي أن نسير عليها، حتى نطمئن على صحة نصوصنا، ولا أقصد بذلك أن نتدخل في النصوص فإن النصوص تراث والتراث لا يمس، ولكن يكفي أن ننبه إلى مواضع الخرافة والأسطورة وتحليل فحواها، والبحث في أصولها ومدلولاتها، مع الحفاظ على خصوصيتها العربية، وضرورة عدم تبني المنظور الغربي لها -بشكل مطلق- حيث إن تبني هذا المنظور عادة ما ينتهي بالباحث إلى حالة من التشكك في

بعض الأحيان، أو التشويش في أحيان أخرى. أما مجرد ترديد هذا الاصطلاح والترويج لمفاهيمه في تراثنا العربي والإسلامي، فإنه يفضي إلى حالة من التشتت التي تفتقد إلى أي مدلول.

كما لا يمكن القول: إن مفهوم الأسطورة اصطلاحًا ينتمي إلى الغرب أو الشرق على حد سواء، لاختلاف مفهومها في تراث كل منهما، غير أن القرينة التي تجمع بينهما هي مفردة "الأباطيل"، بوصفها معنى الأسطورة في جانبها اللغوي، الذي يمكن إسقاطه على الرؤية غير العربية للأسطورة، فحواها أن الأسطورة حكاية مقدسة حول الآلهة وأشباه الآلهة، والقوى الخفية والبشر المتفوقين، لأن هذه الحكاية تغدو محض "أباطيل" أيضًا، من وجهة نظر دينية سماوية حقة وعلمية صرف.

واتخذت الدراسة من النصوص التاريخية المتعلقة بمصر في كتابات المؤرخين موضع اختبار حقيقي للنهج الذي رسمناه، في استقصاء ملامح الأسطورة من خلال المحاور داخل إطار النص التاريخي ليغدو وسيلتنا وغايتنا، في آن واحد، لأن ما شجعنا على السير في هذا الاتجاه هو أن الخط الفارق بين التاريخ والقصص ظل غير واضح طوال العصور القديمة والوسطى، فظل المؤرخون –حتى كبارهم– رواة أساطير في نفس الوقت.

تلك الأساطير والخرافات التي تسربت إلى علم التاريخ عند المسلمين قد أتى معظمها من مصدر آخر غير الحديث وهو التفسير، ذلك أن أوائل من تعرضوا لتفسير القرآن الكريم لم يجدوا بين أيديهم تفاصيل يشرحون بها الكثير مما ورد في النص القرآني من أخبار الأمم الماضية، فالتمسوا المادة في ما وصل إليهم من تفاصيل

ما رُوي من هذه الأحداث في الكتب الدينية المتداولة بين اليهود والنصارى وغيرهم. كما أن الأسطورة لم تكن مجرد موروث ثقافي أودع في نص تاريخي، يؤشر سعة اطلاع المؤرخ، ومقدار ثقافته، بل غدت وسيلة لدى المؤرخ لمعالجة النقص الحاد في العناصر المنسية من الماضي، بما يحويه من أصول الكون، والظواهر والأشياء، الماثلة أمام ناظريه في الطبيعة، أو لتفسير العقائد، والعادات، والتقاليد، والممارسات الاجتماعية. ولم يكن ثمة بديل عن الأسطورة، التي قامت بتلك الوظيفة الاجتماعية/ الثقافية الضرورية.

فضلاً عن تلقي المؤرخ الاستجابة من جمهوره، الذي كان توّاقًا إلى معرفة الجديد، ويسره جدًّا أن يسمع عن الأعاجيب وهو يميل إلى تصديق كل ما يمكن أن يحسن المؤرخ تصويره له، ولقد أشبع المؤرخون في الناس هذه الرغبة، بما يمكن أن يتقبلوه، فأتوا بقصص وحكايات، كالقصص المرتبطة بأصل اسم مصر، وأصول المصريين أنفسهم، في مزيج من الخيال، وبين المعلومات الصحيحة المشوهة، بما حملته من دلالات عن اعتزاز المصريين ببلادهم، وعن تنازع نسبة أصولهم إلى الحاميين، تأكيدًا لتميزهم عن غيرهم من أهل البلاد المجاورة، أو اليونانيين، تحت تأثير التراث الثقافي السائد، بتأثيراته المختلفة أو العرب، بفعل الواقع الجديد الناتج عن فتح مصر، مما يشير إلى أن تلك الاتجاهات كانت ترضي حاجة ثقافية/ اجتماعية لشرائح بعينها في المجتمع المصري آنذاك، واستطاع المؤرخ –من خلال الموروث الشعبي– أن يحل أكثر المشكلات تعقيدًا، لا سيما هاجس الأصل والنشأة والجذور.

وعالج المؤرخون قضية فضائل مصر بنظرة شيفونية يغلب فيها حب الوطن على التحليل الموضوعي، وأودعوها إطارًا تاريخيًّا، محملاً بالخرافات والأساطير والحكايات

الشعبية، أيضًا بعد أن أصبحت النظرة إلى مصر مشدودة بمعتقد ديني ومتشحة بإطار من التأليف، جمع بين التاريخ والأساطير، والموروث الشعبي، فضلاً عن الأدب، والدين، كإفراز طبيعي نتيجة التفاعل بين ما جاء به الإسلام، واللغة العربية، والموروثات الثقافية المحلية، في كل مصر من أمصار دار الإسلام، إضافة إلى رواسب باقية في النفس، ترجع إلى آلاف السنين، احتفظت بها الذاكرة الجماعية بشكل رموز عن طريق "اللا شعور"، وأدرجتها في الموروث الشعبي، وكان ذلك وحده كافيًا لتفسير ورصد ما احتوته الذاكرة الشعبية عن رمزية العدد سبعة وارتباطه بمصر من خلال رمزية تندرج في نطاق الرمزية الكوزمولوچية، والتي ظلت محافظة على قدسيتها، واستسراريتها عبر العصور، رغم تغير الأديان، والمعتقدات، ومنها يدخل أثر المعتقدات التي حامت حول طوفان نوح، وعلاقته بتاريخ مصر، وما اكتنفه من الغموض والخرافة، في آراء المؤرخين الذين قالوا بعالميته، رغم عدم تصريح النصوص الدينية بذلك، فلم يكن الطوفان عالميًا، ولم يكن الناجون هم نوحًا وأبناءه وزوجاتهم فقط، ولم يكن المغرقون كل من على وجه الأرض، بما في ذلك مصر، بيد أن طوفان نوح كان الباب الذي دخل منه المؤرخون إلى الأساطير، والخرافات التي شاعت عن تاريخ مصر القديمة، والتي تكشف عن مدى انبهار الناس بالحضارة المصرية القديمة، كما تكشف عن عجزهم في الوقوف على إجابات تاريخية حقيقية، ليبدأ ترقيع هذا النقص عن طريق الخيال المشبع بالمعتقدات الدينية المشوشة. بيد أن بعض تلك الحكايات عن آثار مصر ما برحت تحمل ظلاً أو نواة من الحقيقة التاريخية في غالب الأحوال، خصوصًا في ما يتعلق بالقصص والحكايات التي دارت في المجتمع المصري، عن كنوز قدماء المصريين، التي كانت مخبأة في مقابرهم ومعابدهم، والتي لا تزال تكتشف كل حين إلى الآن، فقد كان بعضها حقيقيًا على حين حمل الآخر رائحة المبالغة والشطط.

ولكون الخيال ميدانه طلق تختلط فيه الصور وتتوالد كما تشاء دون قيد حتى ليصعب إيجاد الفواصل أحيانًا عندما نؤصل لنشأة مصر أرضًا وشعبًا وعمرانًا، فذلك الحدث في ذاته إن شئنا التأريخ له، فإنه بلا أدنى شك سيصبح خارج إطار العصور التاريخية وينتمي بشدة إلى عصور الأسطورة، مما يجعله يتخطى حدود الزمن، وهو ما نتلمسه في كتابات المؤرخين في سياق محاولاتهم للتأصيل لنشأة المدن المصرية وتسجيلهم لتجاربهم ومشاهداتهم الواقعية، متعدين منطق العقل أحيانًا، ومقتربين من الخيال الشعبي والانغماس في عالم الأساطير في وصفهم التفصيلي لمدن مصر التي قد يكون لها وجود فعلي ملموس أو مدن لا وجود لها في عالم الواقع التي كثيرًا ما كانت مرتعًا خصبًا للخيال تلعب فيه الملائكة وبعض المخلوقات الأسطورية دورًا لا بأس به، لا سيما المعالم العمرانية والآثار الإسلامية في مصر التي لفتت انتباه المؤرخين والرحالة مثلما لفتت أنظارهم طبيعة الأرض والنباتات والثروات الطبيعية والآثار المصرية واختلطت الخرافات والعجائب التي سمعوها من أهل مصر، بالحقائق التي عاينوها وشاهدوها بأنفسهم أو نقلوها عن الكتب والروايات الموثوقة وخلفوا لنا تفاصيل عديدة عن المباني العظمى التي شيدها حكام مصر، وما دار حولها من غرائب وحكايات خيالية، منبعها الموروث الشعبي.

وتنوع المكان عندهم تنوعًا كبيرًا، فمن المدن والآثار والأصنام التي تسكنها الروحانيات، والكنوز المرصودة، والجبال الشاهقة، والمقدسة والأحجار السحرية، إلى العيون والآبار، والبرك الغامضة، والقصور المطلسمة، ومن عالم الجن والشياطين والسحرة إلى الحيوانات والطيور، والنباتات العجيبة، في إطار غرائبي أبدعه المعتقد الشعبي المصري، ونقله إلينا المؤرخون في كتاباتهم، مستعيرين هيكل الأساطير

والحكايات الشعبية، دون المضمون، فلم يستعينوا بشكل الأساطير، والحكايات الشعبية الرائجة، آنذاك، بل اكتفوا. فقط بروحها، وصبوه في شكل جيد ممزوج بالحقائق التاريخية.

وفي المصادر العربية اجتمع الخيال بالواقع، فأخرجا لنا صورة نادرة عن نهر النيل، لم تخل دون وجود روايات وتقارير "جغرافية" اقتربت من الحقيقة، إلى حد ما خلت من المساحة الأسطورية، وإن لم تخل من الخيال الذي عوض الجهل بالحقائق الجغرافية بطبيعة الحال. وإذا تتبعنا سيرة النيل في الكتابات التاريخية لوجدنا أن الخيال يسبق الواقع في وجوده لديها، خصوصًا في ما يتعلق بمنطقة منابع النيل. بيد أن وصفهم مجرى النهر من منطقة الجنادل جنوب أسوان حتى مصبه في البحر المتوسط تتسم بالدقة، لأنهم شاهدوا النهر في هذه المنطقة وعاينوا مجراه، وربما كان لهذا الخيال الأسطوري عن تاريخ النيل يد في تقديس واحترام الناس للنيل، وحين أُبعد النيل عن الأساطير والخيال ازداد بُعد العامّة عن تقديسه، واحترامه وزادوا في جفائهم له.

وعلى الرغم من أن أعمال المؤرخين قد كتبت بغرض التأريخ أو وصف الأحداث أو حتى بغرض الإرشاد الديني (كما في حالة ابن الحاج)، إلا أنها تحوي الكثير من عادات المصريين، وتراثهم وأساليب حياتهم في تقييم للشخصية المصرية، التي ظلت عرضة للأخذ والرد وتضارب الآراء، ووجدت العديد من التحليلات لها، بدءًا من هيرودوت، وإسترابون، وامتدادًا عبر العصور والأزمنة إلى ابن زولاق، والكندي، والمقدسي، والسيوطي، وابن جبير، والعبدري، وابن خلدون، والمقريزي، وابن إياس، وغيرهم العديد، من الذين أكدوا أن للمصريين شخصيتهم المتفردة، وسماتهم المادية والثقافية المميزة، التي تفردهم عن غيرهم من الشعوب، وكانت نظرة

التأريخ هذه دافعًا لأن جاءت النصوص التاريخية محملة بسمة النزوع الأسطوري والخرافي. تلك الدراسات وإن كانت غير متعمقة وانطباعية، إلا أنها ظلت مشبعة بالخيال والحقيقة في آن واحد.

وختامًا... فما من خاتمة فنحن لم نبدأ بعد في دراسة وتحليل المصادر التاريخية المتعلقة بمصر، على الوجه الأمثل، ولم نبرز دلالات ما حملته من أخبار وحكايات شعبية لا نزال نرفضها في البحث، ولا نعتمد عليها على الرغم من أنها كانت هي التاريخ الذي يصدِّقه آلاف وآلاف من الناس -عامة وخاصة- والتي كانت هي التاريخ الذي عاش ولا يزال يعيش عليه الكثير ممن يفوقون قرَّاء الكتب العلمية عددًا وإيمانًا بصدق التاريخ.. فلنبدأ.

اللهم هبنا القوة لنغيِّر بها ما يمكن أن يتغير، والصبر على أن نتحمل ما لا يتغير، والحكمة لنميِّز بها بين ما يمكن وما لا يمكن أن يتغير، والقدرة على أن نفتح في حائط الجهل شقًّا يسيرًا، يدخل منه شعاع من النور، كهذا الذي صنعه الحسن بن الهيثم في حجرة السجن، الذي كان فيه فأنشأ بهذا الشعاع المفرد علمًا خالدًا، هو علم البصريات. التماسًا لنيل أجريْ المجتهد المصيب، أو أجر المجتهد المخطئ، ممن علمنا هذه الفضائل، وزرعها في نفوسنا وكان لنا عونًا في كل دروب العلم، وحسبنا أن نبقى مدينين لهم بذلك ما حيينا، فهم خير الأهل والأحبة والمربين.

ربنا زدنا علمًا وتواضعًا ﴿ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنْ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾.

ثبت المصادر والمراجع

أولاً: المصـادر:

- الأبشيهي: (شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتحي الأبشيهي المحلي) (790-850هـ): المستطرف في كل فن مستظرف، جزآن، الطبعة الأخيرة، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة 1952م.
- ابن الأخوة: (محمد بن محمد بن أحمد القرشي) (ت 729هـ): معالم القربة في أحكام الحسبة، طبعة كمبردج 1937م.
- الإدريسي: (أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله الشريف الحمودي) (ت 560هـ: 1165م): نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مجلدان، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة 1994م.
- الأدفوي: (كمال الدين أبو الفضل جعفر بن ثعلب بن جعفر بن على) (ت 748هـ: 1347م) الطالع السعيد الجامع أسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد، نشر عبد الرحمن على قريط، طبع بمطبعة الجمالية بمصر، القاهرة 1914م.
- الأزهري: (أبو منصور محمد بن أحمد) (ت 370هـ): تهذيب اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، الدار القومية للطباعة، القاهرة 1384هـ.
- الإسحاقي: (محمد بن عبد المعطي بن أبي الفتح بن أحمد بن عبد الغني بن علي المنوفي): أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول، سلسلة الذخائر، العدد 35، القاهرة 1998م.
- إسحاق بن حسين المنجم (أحد علماء القرن الخامس الهجري): آكام

المرجان في ذكر المدائن المشهورة في كل مكان، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1978م.

- الإصطخري: (أبو إسحاق إبراهيم محمد الفارسي): المسالك والممالك، تحقيق: محمد عبد العال، سلسلة الذخائر، العدد 119، القاهرة 2004م.

- أوليا چلبي: سياحتنامه مصر، ترجمة محمد علي عونة، تحقيق: عبد الوهاب عزام، وأحمد السعيد سليمان، مراجعة: أحمد فؤاد متولي، الطبعة الأولى، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة 2005م.

ـ: الرحلة الحجازية، ترجمة: الصفصافي أحمد المرسي، الطبعة الأولى، دار الآفاق العربية، القاهرة 1999م.

- ابن إياس: (أبو البركات محمد بن أحمد) (ت 930هـ): كتاب تاريخ مصر المسمى بدائع الزهور في وقائع الدهور، الجزء الأول، الطبعة الأولى، المطبعة الأميرية الكبرى ببولاق، مصر المحمية، القاهرة 1311هـ.

- ابن إياس: كتاب تاريخ مصر المسمى بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، الجزء الخامس، الهيئة المصرية العامّة للكتاب، القاهرة 1985م.

ـ: بدائع الزهور في وقائع الدهور (مختصر)، طبعة مكتبة الفجر الجديد، القاهرة 2005م.

- ابن بسام: (محمد بن أحمد بن بسام التنيسي) (عاش أواخر القرن السادس الهجري): أنيس الجليس في أخبار تنيس، تحقيق: جمال الدين الشيال، الطبعة الأولى، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة 2000م.

- ابن بطوطة: (عبد الله بن محمد اللواتي): (732- 808هـ): رحلة ابن بطوطة، تقديم: كرم البستاني، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت 1960م.
-: رحلة ابن بطوطة، تحقيق: محمد السعيد محمد الزيني، طبعة المكتبة التوفيقية بالحسين، القاهرة، من دون تاريخ.
- بطرس البستاني: كتاب قطر المحيط، القاهرة، من دون تاريخ.
- البغدادي: (عبد القادر بن عمر) (ت 1093هـ): خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الكتاب العربي، القاهرة 1967م.
- البغدادي: (موفق الدين أبو محمد عبد اللطيف بن يوسف بن محمد بن علي بن أبي سعد ابن اللباد البغدادي) (القرن السادس الهجري): الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر: ضمن كتاب عبد اللطيف البغدادي، طبيب القرن السادس الهجري، بول غليونجي، سلسلة أعلام العرب، العدد 114، القاهرة 1985م.
ـــــ: رحلة عبد اللطيف البغدادي في مصر، سلسلة الألف كتاب الثاني، العدد 314، تقديم: عبد الرحمن الشيخ، الطبعة الثانية، القاهرة 1998م.
- البكري: (محمد بن أبي السرور البكري) (ت1087هـ): الروضة المأنوسة في أخبار مصر المحروسة، تحقيق وتعليق: عبد الرازق عيسى، الطبعة الأولى، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة 1997م.
- البلوي: (خالد بن عيسى) (ت 765هـ): تاج المفرق في تحلية علماء

المشرق، الجزء الأول، تحقيق: الحسن السائح، صندوق إحياء التراث الإسلامي، الإمارات، من دون تاريخ.

- البلوي (أبو محمد عبد الله بن محمد المديني البلوي): سيرة أحمد بن طولون (تحقيق: محمد كرد علي)، سلسلة الذخائر، العدد 55 القاهرة 1999م.
- بنيامين: (ابن يونة التطيلي النباري الأندلسي) (561- 569هـ): رحلة بنيامين التطيلي، ترجمة: عزرا حداد، دراسة: عبد الرحمن الشيخ، الطبعة الأولى، المجمع الثقافي، أبو ظبي 2002م.
- البيروني: (أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني) (ت 442: 1050م): الآثار الباقية عن القرون الخالية، تحقيق: إدوارد ساخو (ليبزج 1923م).
- التجيبي: (أبو القاسم بن يوسف السبتي) (ت730هـ): مستفاد الرحلة والاغتراب، تحقيق: عبد الحفيظ منصور، الدار العربية للكتاب، تونس، ليبيا، 1975م.
- ابن تغري بردي: (جمال الدين يوسف أبو المحاسن) (ت 874هـ): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، الطبعة الأولى، القاهرة 1942م.
- الجبرتي: (عبد الرحمن بن حسن): عجائب الآثار في التراجم والأخبار، مجموعة أجزاء، تحقيق: عبد الرحيم عبد الرحمن، سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة 2003م.
- ابن جبير: (أبو الحسين محمد بن أحمد الكناني) (1145م: 539هـ- 1217م: 614هـ): رحلة ابن جبير، تحقيق: حسين نصار، مكتبة مصر، القاهرة، 1992م.

- الجزيري: (عبد القادر بن محمد الأنصاري) (ت 977هـ): درر الفوائد المنظمة في أخبار الحج وطريق مكة المعظمة، المطبعة السلفية، القاهرة، 1384هـ.
- جوزيف بتس: (رحلة الحاج يوسف إلى مصر ومكة والمدينة)، سلسلة الألف كتاب الثاني، العدد 189، ترجمة: عبد الرحمن عبد الله الشيخ، الهيئة المصرية العامَّة للكتاب، القاهرة، 1995م.
- ابن الحاج: (أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري الفاسي المالكي) (ت737هـ): المدخل إلى الشرع الشريف، أربعة أجزاء، ط1، دار التراث، القاهرة، من دون تاريخ.
- أبو حامد: (محمد بن عبد الرحمن الغرناطي الأندلسي) (ت 565هـ): تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، تحقيق: علي عمر، الطبعة الأولى، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2003م.
- الحميري: (محمد بن عبد المنعم) (ت900هـ): الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، 1979م.
- ابن حوقل: (أبو القاسم النصيبي): صورة الأرض، مكتبة الحياة، بيروت، 1979م
- الخزرجي: (ابن أبي أصيبة موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم بن يونس): عيون الأنباء في طبقات الأطباء، الجزء الثاني، ط1، المطبعة الوهابية، القاهرة، 1299هـ.

- ابن خرداذبة: (أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله) (ت 300هـ): كتاب المسالك والممالك، طبعة بريل 1889م، وطبعة ليدن 1883م.
- ابن خلدون: (عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي) (ت 808هـ): مقدمة ابن خلدون، دار الأمين للنشر، القاهرة، 1996م.
- ابن خلدون: التعريف بابن خلدون ورحلته غربًا وشرقًا، تحقيق: محمد بن تاويت الطنجي، تقديم: عبادة كحيلة، سلسلة الذخائر، العدد 100، الهيئة العامَّة لقصور الثقافة، القاهرة 2003م.
-: مقدمة ابن خلدون، ثلاثة أجزاء، تحقيق: علي عبد الواحد، سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة 2006م.
-: تاريخ ابن خلدون كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، سبعة أجزاء، تقديم: عبادة كحيلة، سلسلة الذخائر، الأعداد153- 159، القاهرة، 2007م.
- ابن خلكان: (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد) (ت681هـ): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، الجزء 3، تحقيق: محمد محيي الدين، ط1، القاهرة، 1948م.
-: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: يوسف علي الطويل، مريم قاسم، المجلد الأول، الجزء 3، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998م.
- ابن دقماق: (إبراهيم بن محمد بن أيدمر) (ت 809هـ): الانتصار بواسطة عقد الأمصار، منشورات المكتب التجاري، بيروت، دون تاريخ.
- ابن دريد: (أبو بكر محمد بن الحسين) (ت 321هـ): جمهرة اللغة، نسخة

مصورة عن طبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الدكن 1345هـ، دار صادر، بيروت، د.ت.

- الدمشقي: (شمس الدين أبي عبد الله محمد أبي طالب الأنصاري الصوفي) (ت 727هـ): نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، طبعة بطربورغ المحروسة، مطبعة الأكاديمية الإمبراطورية، 1865م.
- الرازي: (أبو بكر عبد الله بن شاهاور) (ت654هـ): منارات السائرين ومقامات الطائرين، تحقيق: سعيد عبد الفتاح، القاهرة 1999م.
- الرازي: (محمد بن أبي بكر بن عبد القادر): مختار الصحاح، ترتيب محمود خاطر، الطبعة العاشرة، الهيئة العامَّة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، 1964م.
- ابن رستة: (أبو علي أحمد بن عمر بن رستة): الأعلاق النفسية، المجلد السابع، طبعة ليدن، 1891م.
- الزبيدي: (محمد مرتضى الحسيني) (ت 1205هـ): تاج العروس من جواهر القاموس، منشورات دار الحياة، بيروت، دون تاريخ.
- الزمخشري: (جار الله أبي القاسم محمود بن عمر): أساس البلاغة، الجزء الأول، الطبعة الثالثة، القاهرة، 1985م.
- الزهري: (عبد الله محمد بن أبي بكر) (ت أواسط القرن السادس الهجري): كتاب الجعرافية، تحقيق: محمد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة 2000م.

- ابن زولاق: (الحسن إبراهيم بن الحسين الليثي) (306: 387هـ): فضائل مصر وأخبارها وخواصها، تحقيق: علي عمر، س. مكتبة الأسرة، القاهرة، 1999م.

- ابن الزيات: (شمس الدين محمد بن الزيات): الكواكب السيارة في ترتيب الزيارة في القرافتين الكبرى والصغرى، المطبعة الأميرية بمصر، القاهرة، 1907م.

- السبكي: (تاج الدين أبي نصر عبد الوهاب) (ت 771هـ): معيد النعم ومبيد النقم، تحقيق: محمد علي النجار وآخرين، الطبعة الأولى، دار الكتاب العربي، القاهرة، 1367هـ/ 1948م.

- السخاوي: (شمس الدين محمد عبد الرحمن) (ت 902هـ): الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، تحقيق: محمد الخشت، الطبعة الأولى، دار ابن سينا، القاهرة، 1989م.

- ابن سعيد الأندلسي: (أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد المغربي) (ت 562هـ): كتاب الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربي، الطبعة الأولى، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1970م.

- ـ: المغرب في حُلى المغرب، تحقيق: شوقي ضيف، الجزء الأول، الطبعة الثالثة، دار المعارف، القاهرة 1978م.

ـ: المغرب في حُلى المغرب، الجزء الأول من القسم الخاص بمصر، تحقيق: زكي حسن وآخرين، سلسلة الذخائر، العدد 89، القاهرة 2003م.

- السيوطي: (جلال الدين عبد الرحمن أبي بكر الشافعي) (ت 911هـ): حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، جزآن، المكتبة التجارية بمصر، القاهرة، 1908م.

ـ: (جلال الدين عبد الرحمن أبي بكر الشافعي) (ت 911هـ): حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، الجزء الأول، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى، دار عيسى البابي الحلبي، القاهرة، 1967م.

ـ: كوكب الروضة في تاريخ النيل وجزيرة الروضة، تحقيق: محمد الششتاوي، الطبعة الأولى، دار الآفاق العربية، القاهرة، 1997م.

ـ: كتاب التحدث بنعمة الله، تحقيق: إليزابث ماري سارتين، تقديم: عوض الغباري، سلسلة الذخائر، العدد 106، الهيئة العامَّة لقصور الثقافة، القاهرة 2003م.

ـ: مقامات جلال الدين السيوطي "مقامة في وصف روضة مصر تسمى بلبل الروضة " (الجزء الأول، تحقيق: سمير الدروبي، سلسلة الذخائر، العدد 163)، القاهرة 2007م.

- الشافعي: (محمد بن أبي السرور الصديق) (ت 1087هـ): القول المقتضب في ما وافق لغة أهل مصر من لغات العرب، تحقيق: السيد إبراهيم سالم، مراجعة: إبراهيم الإبياري، الطبعة الأولى، دار الفكر العربي، القاهرة، 1962.

- الشرقاوي: (عبد الله بن حجازي بن إبراهيم الشافعي الفاقوسي): تحفة

الناظرين فيمن وُلي مصر من الولاة والسلاطين، الطبعة الأولى، المطبعة الأزهرية المصرية، القاهرة، 1311هـ.

- الشوكاني: (محمد بن علي) (ت 1250هـ): الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة، تحقيق: عبد الرحمن اليماني، تصحيح: عبد الوهاب عبد اللطيف، الطبعة الأولى، مكتبة السنة المحمدية، القاهرة، 1960م.

- أبو الصلت: (أمية بن عبد العزيز الأندلسي) (ت 528هـ): الرسالة المصرية، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ضمن نوادر المخطوطات، الجزء الأول، الطبعة الثانية، القاهرة، 1982م.

- طافور: (بيرو طافور): رحلة طافور في عالم القرن الخامس عشر الميلادي، ترجمة: حسن حبشي، دار المعارف، القاهرة، 1968م، وطبعة مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2003م.

- الطاهر: (أحمد الزاوي): ترتيب القاموس المحيط على طريقة المصباح المنير وأساس البلاغة، الجزء الرابع، الطبعة الثانية، مطبعة عيسى البابي الحلبي، دون تاريخ.

- الطبري: (أبو جعفر محمد بن جرير) (ت 310هـ): تاريخ الأمم والملوك، الجزء الثالث، الطبعة الأولى، المطبعة الحسينية بمصر، القاهرة، 1939م.

- الظاهري: (غرس الدين خليل بن شاهين): كتاب زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، تصحيح: بولس راويس، المطبعة الجمهورية، باريس، 1895م.

- ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة، تحقيق: مصطفى السقا وكامل المهندس، مركز تحقيق التراث، دار الكتب، القاهرة، 1969م.
- ابن عبد الحكم: (عبد الرحمن بن عبد الله بن أبي عثمان عبد الحكم بن أعين بن الليث بن رافع) (ت257هـ): فتوح مصر والمغرب، تحقيق: علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2004م.
- ابن عبد الظاهر: (محيي الدين أبو الفضل عبد الله بن عبد الظاهر المصري) (ت 692هـ): الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة، تحقيق: أيمن سيد، الطبعة الأولى، الدار العربية للكتاب، القاهرة، 1996م.
- العبدري: (أبو عبد الله محمد بن سعود العبدري) (ت 700هـ): رحلة العبدري، تحقيق: علي إبراهيم كردي، تقديم: شاكر الفحام، الطبعة الأولى، دار سعد الدين للطباعة والنشر، دمشق 1999م.
- العسقلاني: (أحمد بن علي بن حجر): فتح الباري بشرح صحيح الإمام أبو عبد الله بن محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: محب الدين الخطيب، دار الريان للتراث، الطبعة الثالثة، الجزء السابع، القاهرة، 1987م.
- العمري: (شهاب الدين أحمد بن فضل) (ت 742هـ): مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، الجزء الأول، تحقيق: أحمد زكي، القاهرة، 1942م.
ـ: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، السفر الثالث، تحقيق: أحمد الشاذلي، المجمع الثقافي، أبو ظبي، 2003م.
- ابن فارس: (أبو الحسين أحمد بن زكريا) (ت 395هـ): مجمل اللغة، الجزء الثاني، الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1984م.
- أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، الجزء 3، المطبعة الحسينية بمصر، القاهرة، د.ت.

- الفراهيدي: (الخيل بن أحمد) (ت 175هـ): العين، تحقيق: مهدي المخزومي، إبراهيم السامرائي، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1984م.

- الفيروز آبادي: (أبو طاهر محمد الدين بن يعقوب) (ت817هـ): القاموس المحيط، مطبعة السعادة بمصر، د.ت.

- القزويني: (زكريا بن محمد بن محمود) (ت 682هـ): عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، الطبعة الخامسة، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، 1980م

ـ: آثار البلاد وأخبار العباد، جزآن، الطبعة الأولى، سلسلة الدراسات الشعبية، العددان 77، 78، القاهرة 2003م.

ـ: عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، تقديم وتحقيق: محمد بن يوسف القاضي، سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة، 2006م.

- القلصادي: (أبو الحسن على القلصادي الأندلسي) (ت 891هـ): رحلة القلصادي، تحقيق: محمد أبو الأجفان، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1978م.

- القلقشندى: (شهاب الدين أبي العباس أحمد بن علي) (ت 821هـ): صبح الأعشى في صناعة الإنشا، 14 جزءًا، القاهرة، 1913م.

- الكتبي: (محمد بن شاكر بن أحمد) (ت 764هـ): فوات الوفيات، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مكتبة النهضة المصرية، مطبعة السعادة، القاهرة، 1951م.

- ابن كثير: (الحافظ أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي) (ت 774هـ): البداية والنهاية، الطبعة السادسة، دار المعرفة، بيروت، 2001م.
- الكندي (أبو عمر محمد بن يوسف التجيبي) (ت 350هـ): ولاة مصر (تحقيق: حسين نصار، سلسلة الذخائر، العدد 66)، القاهرة، 2001م.
- الكندي: (عمر بن محمد بن يوسف): فضائل مصر، تحقيق: إبراهيم العدوي، علي عمر، مكتبة وهبة، القاهرة 1971م.
-: فضائل مصر المحروسة، تحقيق: علي محمد عمر، مكتبة الأسرة، القاهرة، 1997م.
- أبو المحاسن: (جمال الدين يوسف بن تغري بردي) (ت 874هـ): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، الجزء الخامس، القاهرة، 1935م.
-: منتخبات من حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور، الجزء الثالث، تحقيق: فهيم محمد شلتوت، طبعة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة 1990م.
- ابن محشرة: (كاتب مراكشي مجهول) (ت 598هـ تقريبًا): الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتحقيق: سعد زغلول عبدالحميد، الإسكندرية، 1958م.
- المسعودي: (أبو الحسن علي بن الحسين) (ت 346هـ): مروج الذهب ومعادن الجوهر، أربعة أجزاء، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الطبعة الخامسة، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض، 1973م.

ـ: أخبار الزمان ومن إبادة الحدثان من الأمم الماضية والأجيال الخالية والممالك الدائرة، الطبعة الأولى، الرياض، 1415هـ.

– ابن معصوم: (علي صدر الدين أحمد نظام الدين بن محمد) (ت 1120هـ): رحلة ابن معصوم المدني سلوة الغريب وأسوة الأريب، تحقيق: شاكر هادي، الطبعة الأولى، عالم الكتب، بيروت، 1988م.

– المقدسي: (شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر): أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، الطبعة الثانية، مطبعة ليدن، 1909م.

– المقريزي: (تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد) (ت 845هـ): ضوء الساري لمعرفة خبر تميم الداري، (مخطوط مطبوع غير محقق)، تقديم: ناصر السكران، الطبعة1، الرياض، 1423هـ.

ـ: الخطط المقريزية المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، أربعة أجزاء، مطبعة النيل، القاهرة، 1325هـ.

ـ: الخطط المقريزية المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، أربعة أجزاء، طبعة سلسلة الذخائر من طبعة بولاق، الأعداد 51- 54، القاهرة، 1999م.

ـ: السلوك لمعرفة دول الملوك، الجزء الأول، نشر: محمد مصطفى زيادة، دار الكتب المصرية، القاهرة 1936م.

– المقريزي: إغاثة الأمة بكشف الغمة، تحقيق: ياسر سيد، الطبعة الأولى، مكتبة الآداب، القاهرة، 1999م.

– ابن مماتي: (الأسعد بن مماتي الوزير الأيوبي) (ت 606هـ): قوانين الدواوين، تحقيق: عزيز سوريال عطية، القاهرة، 1943م.

- موفق الدين: (موفق الدين بن عثمان) (ت 615): مرشد الزوار إلى قبور الأبرار المسمى الدر المنظم في زيارة الجبل المقطم، تحقيق: محمد فتحي أبو بكر، الطبعة الأولى، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 1995م.
- ابن منظور: (جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري) (ت 771هـ): لسان العرب، طبعة مصورة عن طبعة بولاق، 1891م.
- النابلسي: (عبد الغني بن إسماعيل النابلسي النقشبندي) (ت 1143هـ): الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام ومصر الحجاز، تقديم وإعداد: أحمد هريدي، الهيئة المصرية العامَّة للكتاب، القاهرة، 1986م.
- النابلسي: (أبو عثمان النابلسي الصفدي الشافعي) (ت 660هـ): تاريخ الفيوم وبلاده، دار الجيل، بيروت، 1974م.
- ناصر خسرو علوي: سفرنامة، ترجمة: يحيى الخشاب، تقديم: عبد الوهاب عزام، الهيئة العامَّة للكتاب، القاهرة، 1993م.
- ابن النديم: (محمد بن إسحاق الوراق) (ت 380هـ): الفهرست، جزآن، تحقيق: محمد عوني وإيمان السعيد، سلسلة الذخائر، العددان 149، 150، القاهرة، 2006م.
- النواجي (شمس الدين محمد بن الحسن) (ت 859هـ): حلبة الكميت في الأدب والنوادر والفكاهات المتعلقة بالخمريات، سلسلة الذخائر، العدد 27، القاهرة، 1998م.
- النويري: (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري) (ت 677هـ): نهاية الأرب في فنون الأدب، السفر الأول، سلسلة تراثنا، وزارة الثقافة، القاهرة، 1979م.

- الهروي: (أبو الحسن علي بن أبي بكر الهروي) (ت 611هـ): الإشارات إلى معرفة الزيارات، تحقيق: علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2002م.

- هيردوت: هيردوت يتحدث عن مصر، ترجمة: محمد خفاقة، دار القلم، القاهرة، 1966م.

- ابن الوزان: (الحسن بن محمد الوزان الزياتي المعروف بجان ليون الإفريقي) (ت 957هـ): وصف إفريقيا، ترجمة: عبد الرحمن حميدة، مراجعة: علي عبد الواحد، سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة، 2005م.

- ابن الوردي: (سراج الدين أبي حفص عمر): خريدة العجائب وفريدة الغرائب، الطبعة الأخيرة، مكتبة عبد السلام شقرون، دون تاريخ.

- ابن الوكيل: (أبو الحجاج يوسف بن محمد الملواني) (ت 1131هـ): تحفة الأحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب، تحقيق: محمد الششتاوي، الطبعة الأولى، دار الآفاق العربية، القاهرة، 1999م.

- ياقوت الحموي: (شهاب الدين أبي عبد الله الحموي الرومي) (ت 626هـ): معجم البلدان، 5 مجلدات، طبعة بيروت، 1955م.

- اليعقوبي: (أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح) (ت 284هـ): كتاب البلدان، ليدن 1792م.

ـ: تاريخ اليعقوبي، المجلد الأول، الطبعة الأولى، دار صادر، بيروت، 1960م.

ثانيا: المراجع العربية:

- إبراهيم أحمد شعلان: **موسوعة الأمثال الشعبية**، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة 1992م.
ـــــ: **الشعب المصري في أمثاله العامية**، الدراسات الشعبية، العدد 87-88، القاهرة، 2004م.
- إبراهيم حلمي: **كسوة الكعبة المشرفة وفنون الحجاج**، سلسلة كتابك اليوم، العدد 320، القاهرة، 1991م.
- إبراهيم خليفة شعلان: **النحو بين العرب واليونان**، ط1، الدار الأندلسية، الإسكندرية، 1991م.
ـــــ: **ثنائية الألفاظ في العربية أسبابها وأصولها**، ط1، الزقازيق 1998م.
- إبراهيم العدوي: **ابن عبد الحكم رائد المؤرخين العرب**، الأنجلو المصرية، القاهرة 1963م.
- إبراهيم كامل أحمد: **النبش في ركام الخرافة**، مجلة "الفنون الشعبية"، عدد62/ 63، القاهرة، 2002م.
- أبو اليسر فرح: **النيل في المصادر الإغريقية**، عين للدراسات والبحوث، القاهرة، 2004م.
- أبو عبد الفتاح علي بن حاج: **فصل الكلام في مواجهة ظلم الحكام**، الطبعة الأولى، دار العقاب، بيروت، 1994م.
- أحمد أحمد بدوي: **الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر**

والشام، الطبعة الأولى، مكتبة النهضة، دون تاريخ.

- أحمد أبو زيد: **الرمز والأسطورة والبناء الاجتماعي**، مجلة "عالم الفكر"، المجلد السادس عشر، العدد الثالث، الكويت، 1985م.

- ــــ: **فريزر والغصن الذهبي.. مقدمة كتاب الغصن الذهبي**، الجزء الأول، الهيئة العامّة لقصور الثقافة، القاهرة، 1998م.

- أحمد إسماعيل النعيمي: **الأسطورة في الشعر العربي قبل الإسلام**، الطبعة الأولى، دار سيناء للنشر، القاهرة، 1995م.

- أحمد عبد الرازق: **الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى**، مكتبة وهبة، القاهرة، 1983م.

- أحمد عبد الغفور عطار: **الكعبة والكسوة منذ أربعة آلاف سنة حتى اليوم**، بيروت 1977م.

- أحمد شمس الدين الحجاجي: **مولد البطل في السيرة الشعبية**، دار الهلال، القاهرة، 1991م.

- أحمد صبحي منصور: **العقائد الدينية في مصر المملوكية بين الإسلام والتصوف**، سلسلة تاريخ المصريين، العدد 186، القاهرة، 2000م.

- أحمد عثمان: **تاريخ اليهود**، الجزء الثالث، مكتبة الشروق، القاهرة، 1994م.

- أحمد علي مرسي: الثقافة الشعبية والحداثة، مجلة "فصول"، العدد 60، القاهرة، 2002م.

- أحمد فؤاد متولي: مقدمة رحلة أوليا چلبي، تحقيق عبد الوهاب عزام وآخرين، الطبعة الأولى، دار الكتب، القاهرة، 2005م

- أحمد كمال ذكي: الأساطير دراسة حضارية مقارنة، الطبعة الثانية، قصور الثقافة، القاهرة، 2000م.

- آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة: محمد عبد الهادي أبو ريدة، الجزء الثاني، الألف كتاب الثاني، الطبعة الثالثة، القاهرة، 2003م.

- أرنست كاسيرر: الدولة والأسطورة، ترجمة: أحمد حمدي محمود، الهيئة المصرية العامّة للكتاب، القاهرة، 1975م.

- إسماعيل عبدالمنعم قاسم: الأمراض الاجتماعية بين الطبقة الأرستقراطية المملوكية في مصر زمن المماليك البحرية، رسالة ماجستير –غير منشورة– كلية الآداب، جامعة عين شمس، 1988م.

- ألفرد.ج.بتلر: فتح العرب لمصر، ترجمة: محمد فريد أبو حديد، الطبعة الثانية، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1946م.

- أليكسي لوسيف: فلسفة الأسطورة، ترجمة: منذر حلوم، الطبعة الأولى، دار الحوار للنشر، دمشق، 2000م.

- إميل لودفيغ: النيل حياة نهر، ترجمة: عادل زعيتر، سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة، 2000م.

- آن وولف: **كم تبعد القاهرة؟**، ترجمة: قاسم عبده قاسم، سلسلة المشروع القومي للترجمة، العدد 1053، القاهرة، 2006م.

- آنار رويز: **روح مصر القديمة**، ترجمة: إكرام يوسفِ، سلسلة المشروع القومي للترجمة، العدد 965، الطبعة الأولى، القاهرة، 2005.
- أنطوان ثورلبي: **اللغة والأسطورة**، ترجمة: منيرة كروان، سلسلة دار عين للدراسات، العدد 8، الطبعة الأولى، دار عين، القاهرة، 1997م.
- بريان. م. فاجان: **نهب آثار وادي النيل ودور لصوص المقابر**، ترجمة: أحمد زهير أمين، مكتبة الأسرة، 2003م.
- بيريل سمالي: **المؤرخون في العصور الوسطى**، ترجمة: قاسم عبده قاسم، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة، 1984م.
- توفيق الطويل: **التصوف في مصر إبان العصر العثماني**، الجزء الثاني، سلسلة تاريخ المصريين، العدد 23، القاهرة، 1988م.
- ثناء أنس الوجود: **رمز الماء في الأدب الجاهلي**، ط الأولى، مكتبة الشباب، القاهرة 1986م.
-: **تجليات الطبيعة والحيوان في الشعر الأموي**، طبعة الشركة المصرية العالمية للنشر، القاهرة، 1998م.
-: **رمز الأفعى في التراث العربي**، سلسلة ذاكرة الكتابة، العدد 11، القاهرة، 1999م.
- جمال عبد الهادي، وآخرون: **تاريخ وحضارة مصر والعراق وبلاد الشام وإيران وتركيا منذ أقدم العصور**، دار الشروق، جدة، د.ت.

- چورج بوزنر وآخرون: **معجم الحضارة المصرية القديمة**، ترجمة: أمين سلامة، سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة، 2001م.

- چون أنتيس: **مذكرات رحالة عن المصريين وعاداتهم وتقاليدهم في الربع الأخير من القرن الثامن عشر (1770–1782)**، (ترجمة سيد الناصري، سلسلة المشروع القومي للترجمة، العدد22، القاهرة، 1997م.

- چيمس فريزر: **الغصن الذهبي.. دراسة في السحر والدين**، ترجمة: أحمد أبو زيد، الهيئة المصرية العامَّة للتأليف، القاهرة، 1971م.

ـــ: **الفولكلور في العهد القديم (التوراة)**، جزآن، ترجمة: نبيلة إبراهيم، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة، 1982م.

- چيمس هنري برستد: **فجر الضمير**، ترجمة: سليم حسن، مكتبة الأسرة، القاهرة، 2000م.

- حسن إبراهيم حسن: **الأزهر تاريخه وتطوره**، ط وزارة الأوقاف، القاهرة، 1964م.

- حسني محمود حسين: **أدب الرحلة عند العرب**، الهيئة المصرية العامَّة، القاهرة، 1976م.

- حسين مؤنس: **نشأة التدوين التاريخي عند العرب**، النهضة المصرية، القاهرة، د.ت.

ـــ: **ابن بطوطة ورحلاته تحقيق ودراسة وتحليل**، دار المعارف، القاهرة، 1980م

ـــــ: **التاريخ والمؤرخون دراسة في علم التاريخ**، دار المعارف، القاهرة، 1984م.

ـــــ: **الحضارة دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها**، الطبعة الثانية، سلسلة عالم المعرفه، العدد 237، الكويت، 1998م.

ـــــ: **تنقية أصول التاريخ الإسلامي**، القاهرة، 2005م.

- حسين محمد فهيم: **أدب الرحلات**، سلسلة عالم المعرفة، العدد 138، الكويت، 1989م.
- دونالد مالكولم ريد: **فراعنة من؟**، ترجمة: رؤف عباس، سلسلة المشروع القومي للترجمة، العدد 708، القاهرة،. 2005م.
- رمضان عبد التواب: **المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي**، الطبعة الثانية، مكتبة الخانكي، القاهرة، 1985م.
- سامي عبد الوهاب بطة: **الحكاية الشعبية دراسة في الأصول والقوانين الشكلية**، سلسلة الدراسات الشعبية، العدد 86، القاهرة، 2004م.
- ستانلي لينبول: **سيرة القاهرة**، ترجمة: حسن إبراهيم وآخرين، مكتبة الأسرة، 1977م.
- سعيد عبد الفتاح عاشور: **الحركة الصليبية صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي** في العصور الوسطى، جزآن، ط1، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1963م.

ـ: المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، النهضة العربية، القاهرة، 1992م.

ـــ: السيد البدوي شيخ وطريقة، سلسلة تاريخ المصريين، ع 123، القاهرة، 1998م.
ـــ: الظاهر بيبرس، سلسلة تاريخ المصريين، العدد 207، القاهرة، 2001م.
- سليم حسن: أبو الهول تاريخه في ضوء الكشوف الحديثة، ترجمة: جمال الدين سالم، مراجعة: أحمد بدوي، سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة، 1999م.
- سليم عرفات المبيض: ملامح الشخصية الفلسطينية في أمثالها الشعبية، سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة، 2006م.
- سَهير القلماوي: القصص الشعبي، مجلة "عالم الفكر"، المجلد3، العدد الأول، الكويت 1972م.
ـــ: ألف ليلة ولية، تقديم: جابر عصفور، مكتبة الأسرة، القاهرة، 1997م.
- سيد أحمد الناصري: الإغريق تاريخهم وحضارتهم، الطبعة2، النهضة العربية، القاهرة، 1977م.
- سيد خميس: القصص الديني بين التراث والتاريخ، مكتبة الأسرة، 2001م.
ـــ: **وصل ما انقطع قراءات في التراث العربي**، مكتبة الأسرة، القاهرة، 2002م.
- سيدة إسماعيل كاشف: دراسة نقدية لكتاب حسن المحاضرة للسيوطي، ضمن كتاب "جلال الدين السيوطي"، الأولى، الهيئة العامَّة، القاهرة، 1997م.
- سيمسون نايوفتس: مصر أصل الشجرة، السياقات، الجزء الأول، سلسلة

المشروع القومي للترجمة، العدد 993، القاهرة، 2006م.

- شفيق مقار: السحر في التوراة والعهد القديم، الطبعة الأولى، دار رياض الريس، بيروت/ لندن، 1990م.

- شكري محمد عياد: البطل في الأدب والأساطير، الطبعة الثانية، دار المعرفة، القاهرة، 1960م.

- صلاح الراوي: الفلكلور في كتاب حياة الحيوان للدميري، الجزء الأول، سلسلة الدراسات الشعبية، العدد 73، القاهرة، 2003.

- صمويل نوح كريمر: أساطير العالم القديم، ترجمة: أحمد عبد الحميد يوسف، مراجعة: عبد المنعم أبو بكر،، القاهرة، 1974م.

- عبد الباسط سيدا: من الوعي الأسطوري إلى بدايات التفكير الفلسفي النظري بلاد ما بين النهرين تحديدًا، ط.1، دار الحصاد، دمشق، 1995م.

- عبد الحميد يونس: الحكاية الشعبية، س المكتبة الثقافية، العدد 200، دار القلم، القاهرة، 1968م.

- عبد الحميد يونس: **التراث الشعبي**، سلسلة كتابك، العدد 91، دار المعارف، القاهرة 1979م.

ـــ: **الفولكلور والميثولوچيا، "عالم الفكر"**، المجلد3، العدد 1، الكويت 1972م.

ـــ: **الهلالية في التاريخ والأدب الشعبي**، الدراسات الشعبية، العدد81، 2003م.

ـــ: **مجتمعنا**، سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة، 2004م.

- عبد العزيز صالح: **حضارة مصر القديمة وآثارها**، ج1، الهيئة العامَّة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، 1962م.
- عبد العزيز غنيم: **على هامش الفتح الإسلامي لمصر**، ضمن كتاب مصر والإسلام، إعداد لجنة السيرة والتاريخ الإسلامي، القسم الأول، سلسلة دراسات إسلامية، العدد 96، القاهرة 2003م.
- عبد الفتاح رواس قلعة جي: **رموز وأساطير في الموروثات الشعبية**، مجلة التراث العربي، العدد 68، دمشق، 1997م.
- عبد الوهاب حمودة: **صفحات من تاريخ مصر في عصر السيوطي**، الطبعة الأولى، مطبعة دار التأليف، القاهرة، د.ت.
- عبده الراجحي: **اللهجات العربية في القراءات القرآنية**، الطبعة الأولى، مكتبة المعارف، الرياض 1999م.
- علي عبد الحليم محمود: **القصة العربية في العصر الجاهلي**، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة، 1979م.
- عمرو عبد العزيز منير: **العمران في مصر في القرنين السادس والسابع الهجريين دراسة مقارنة في كتابات الرحالة**، رسالة ماجستير –غير منشورة– آداب الزقازيق، 2004م.

ـــــ: **الشرقية بين التاريخ والفولكلور**، دار الإسلام للنشر، القاهرة، 2004م.

ـــــ: **الحضارة المصرية القديمة بين المعتقدات السحرية والأساطير العربية** (الطبعة الأولى، مكتبة النافذة، القاهرة، 2008م).

- فاروق أحمد مصطفى: **الموالد دراسة للعادات والتقاليد الشعبية في مصر**، سلسلة الدراسات الشعبية، العدد 96، القاهرة، 2004م.
- فاروق خورشيد: **الأسطورة عند العرب**، مجلة "الدوحة" القطرية، قطر، 1976.
ـــ: **جولة في التراث، معادن الجوهر**، مكتبة الأسرة، القاهرة 1999 م.
- فتحي الصنفاوي: **مدخل إلى دراسة المأثورات الشعبية الغنائية الفلكلور الغنائي**، الطبعة الأولى، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2001م.
- فراس السواح: **مغامرة العقل الأولى.. دراسة في الأسطورة السورية وبلاد الرافدين**، الطبعة العاشرة، دار علاء الدين، دمشق، 1993م.
ـــ: **الأسطورة والمعنى.. دراسات في الميثولوجيا والديانات المشرقية**، الطبعة الأولى، دار علاء الدين، دمشق، 1997م.
- فوزي العنتيل: **عالم الحكايات الشعبية**، س الدراسات الشعبية، ع 36، القاهرة، 1999م
- قاسم عبده قاسم: **النيل والمجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك**، الطبعة الأولى، دار المعارف، القاهرة، 1978م.
ـــ: **الرواية التاريخية في الأدب العربي الحديث**، الطبعة الأولى، دار المعارف، القاهرة، 1979م.
ـــ: **دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي عصر سلاطين المماليك**، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة، 1983م.

ـــ: **الرؤية الحضارية للتاريخ قراءةفي التراث التاريخي العربي**، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة 1985م.

ـــ: **ماهية الحروب الصليبية**، دار عين للدراسات والبحوث، القاهرة، 1993م.

ـــ: **عصر سلاطين المماليك التاريخ السياسي والاجتماعي**، الطبعة الأولى، دار عين للدراسات، القاهرة، 1993م.

ـــ: **بين التاريخ والفولكلور**، الطبعة الثانية، دار عين للدراسات، القاهرة، 1998م.

- كارم محمود عزيز: **دراسة لأهم العناصر الأسطورية في كتاب العهد القديم في ضوء أساطير الشرق الأدنى القديم**، رسالة ماجستير -غير منشورة- المعهد العالي لحضارات الشرق الأدنى القديم، جامعة الزقازيق، 1993م.

ـــ: **النموذج الفولكلوري للبطل في العهد القديم دراسة مقارنة**، رسالة دكتوراه -غير منشورة- المعهد العالي لحضارات الشرق الأدنى القديم، جامعة الزقازيق 1997م.

ـــ: **الأسطورة فجر الإبداع الإنساني**، سلسلة الدراسات الشعبية، العدد 66، القاهرة، 2002م.

- ك. ج. يونج: **علم النفس التحليلي**، ترجمة: نهاد خياطة، سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة، 2003م.

- لطفي حسين سليم: **الأسطورة والإسرائيليات**، س الدراسات الشعبية، ع 52، القاهرة 2000م.

ـــ: **الأسطورة في الأدب العربي أولاً في الأدب الجاهلي**، مجلة "الفنون الشعبية"، العدد 60- 61، الهيئة المصرية العامَّة للكتاب، القاهرة، 2001م.

ـــ: **الأسطورة في التراث الديني**، مجلة "الفنون الشعبية"، عدد 64-65، الهيئة المصرية العامَّة للكتاب، القاهرة، 2003م.

- مجدي محمد شمس الدين: **القص بين الحقيقة والخيال**، مكتبة الأسرة، القاهرة، 2006م.

- مجموعة من الباحثين: **الأسطورة توثيق حضاري**، جمعية التجديد الثقافية، الطبعة الأولى، البحرين، 2005م.

ـــ: **اللسان العربي بُعد فطري وارتباط كوني**، جمعية التجديد الثقافية، الطبعة الأولى، البحرين، 2005م.

- مجموعة من الباحثين: **طوفان نوح بين الحقيقة والأوهام**، جمعية التجديد الثقافية، الطبعة الأولى، البحرين، 2005م.

ـــ: **مسخ الصورة سرقة وتحريف تراث الأمة**، جمعية التجديد الثقافية، الطبعة الأولى، البحرين، 2005م.

- محاسن محمد الوقاد: **الطبقات الشعبية في القاهرة المملوكية**، سلسلة تاريخ المصريين، العدد 152، القاهرة، 1999م.

- مختار علي أبو غالي: **الأسطورة المحورية في الشعر العربي المعاصر**، مشروع نظري، سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة، 2006م.
- محمد الحامدي: **الطوفان بين الحقيقة والأسطورة**، مجلة التراث العربي، العدد 58، دمشق 1995م.
- محمد حرب: **قاهرة القرن السابع عشر في رحلة أوليا چلبي**، دراسة بمجلة "الهلال"، عدد يناير، القاهرة، 1986م.
- محمد حسن محمد: **الأسرة المصرية في عصر سلاطين المماليك**، رسالة ماجستير -غير منشورة- آداب الزقازيق، 1989م.
ـــ: **الأبعاد الاجتماعية لظاهرة التصوف عصر سلاطين المماليك**، رسالة دكتوراه -غير منشورة- آداب الزقازيق، 1996م.
- محمد خليفة حسن: **آثار الفكر الاستشراقي في المجتمعات الإسلامية**، الطبعة الأولى، دار عين للدراسات، القاهرة، 1997م.
ـــ: **الأسطورة والتاريخ في التراث الشرقي القديم دراسة في ملحمة جلجامش**، دار عين للدراسات، القاهرة، 1997م.
ـــ: **رؤية عربية في تاريخ الشرق الأدنى القديم وحضارته**، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة، 1998م.
- محمد رجب النجار: **الشعر الشعبي الساخر في عصور المماليك**، مجلة "عالم الفكر"، المجلد الثالث عشر، العدد الثالث، الكويت، 1982م.
ـــ: **الأدب الملحمي في التراث الشعبي العربي**، سلسلة الدراسات الشعبية العدد 110، القاهرة، 2007م.

- محمد عبد السلام إبراهيم: **مصر في التراث الإسلامي**، طبعة جامعة الزقازيق، 1998م.
- محمد عبد الله عنان: **مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية**، مكتبة الأسرة، القاهرة، 1998م.
ـــ: **مؤرخو مصر الإسلامية ومصادر التاريخ المصري**، سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة، 1999م.
- محمد عبد المعين خان: **الأساطير والخرافات عند العرب**، الطبعة الثالثة، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1981م.
- محمد عمارة: **عندما دخلت مصر في دين الله** دراسة ضمن كتاب (أثر الإسلام في مصر) إشراف: قاسم عبده قاسم، الطبعة الأولى، هيئة قصور الثقافة، القاهرة، 1999م.
ـــ: **أثر الإسلام في مصر وأثر مصر في الحضارة العربية الإسلامية**، دراسة ضمن كتاب (أثر الإسلام في مصر) إشراف: قاسم عبده قاسم، الطبعة الأولى، هيئة قصور الثقافة، القاهرة، 1999م.
- محمد فؤاد عبد الباقي: **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**، الطبعة الأولى، دار الحديث، القاهرة، 1996م.
- محمد كمال الدين عز الدين محمد: **الحركة العلمية في مصر في دولة المماليك الجراكسة دراسة عن التاريخ والمؤرخون**، المجلد الثالث، رسالة دكتوراه -غير منشورة- كلية البنات، جامعة عين شمس، 1989م.

- محمود رزق سليم: **النيل في عصر المماليك**، سلسلة المكتبة الثقافية، العدد 132، دار القلم، القاهرة، 1965م.
- مصطفى عبد الحليم متولي: **قصة موسى في أعمال المفسرين دراسة مقارنة**، رسالة ماچستير -غير منشورة-، كلية الآداب، جامعة الزقازيق، 1984م.
- ميكل ونتر: **المجتمع المصري تحت الحكم العثماني**، ترجمة إبراهيم محمد إبراهيم، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 2007م.
- ناصر عبد الرازق الموافي: **الرحلة في الأدب العربي (حتى نهاية القرن الرابع الهجري)**، الطبعة الأولى، دار النشر للجماعات، القاهرة، 1995م.
- نقولا زيادة: **الجغرافيا والرحلات عند العرب**، دار الكتاب اللبناني المصري، القاهرة، 1962م.
- هاري إلمر بارنر: **تاريخ الكتابة التاريخية**، الجزء الأول، ترجمة: محمد عبد الرحمن، الهيئة المصرية العامَّة للكتاب، القاهرة، 1984م.
- وديع بشور: **الميثولوچيا السورية أساطير آرام**، ط1، دار الحوار للنشر، دمشق، 2001م.
- ويليام رو، وفيفيان شلنج: **الذاكرة والحداثة الثقافية الشعبية**، ترجمة: منى برنس، مراجعة: أحمد علي مرسي، سلسلة المشروع القومي للترجمة، العدد 701، القاهرة 2005م.
- ي.ب.ليبنر: **كل أساطير إسرائيل** (معدة وفقًا للمصادر الأولى ومكتوبة

بلغة المقرا وفق ترتيب زمني)، القسم الأول، نشر، دار "أحيا ساف"، "وعيفر"، أورشليم، 1950م.

ثالثا: المراجع الأجنبية:

- Cassirer, Ernest, Lang uoge and My th, translated from German by Susanne K. Langer. Bover publications, Inc., U.S.A 1946.
- David, Adam Leeming, My theology the voyage of Hero. New York, 1973.
- Malinowsk. Magic. Science, and Religion: Garden city. New York. 1954.
- Malinowski, Bronislaw, Magic. Science and Religion, and other Essays, Doubleday, Company, Inc, New York, 1954،
- Montague, Ashley, Man: his first million yers. The New American Library, New York, 1957 Money - Kyrle, Roger. Superstition and society Hogarth Press. London, 1939
- Robertson smith, the Religion of thesemites. The meribian library published by Merid and Books.New York 1956. P.18.
- Tiliyard, E.M.W, My the and the English Mind, Col-lier Books, New York, 1961.